

2269
.305
.364

2269.305.364

Du'ūn

Min wahy al-sab'in

DATE

ISSUED TO

DATE ISSUED

DATE DUE

DATE ISSUED

DATE DUE

RETURNED

00 26 304

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY



32101 007765801

Du'ūr, Tawfīq Faḍl Allāh

توفير فضل الله منصور

١٠٠

١٥٠
٢٠٠
٢٥٠
٣٠٠
٣٥٠
٤٠٠
٤٥٠
٥٠٠
٥٥٠
٦٠٠
٦٥٠
٧٠٠
٧٥٠
٨٠٠
٨٥٠
٩٠٠
٩٥٠
١٠٠٠

Min wahy

مِنْ وَحْيِ السَّبْعِينَ

١٩٥٢ - ١٨٨٢

في

الصَّلَاةِ بَيْنَ الْمَغْرِبَيْنِ وَالْمَقِيمِينَ



المؤلف يستوحى السبعين

ستان باولو «البرازيل» وبيروت «لبنان»

طبعة في بيروت

٧٥

١٥٠
٢٠٠
٢٥٠
٣٠٠
٣٥٠
٤٠٠
٤٥٠
٥٠٠
٥٥٠
٦٠٠
٦٥٠
٧٠٠
٧٥٠
٨٠٠
٨٥٠
٩٠٠
٩٥٠
١٠٠٠

٥٠

١٥٠
٢٠٠
٢٥٠
٣٠٠
٣٥٠
٤٠٠
٤٥٠
٥٠٠
٥٥٠
٦٠٠
٦٥٠
٧٠٠
٧٥٠
٨٠٠
٨٥٠
٩٠٠
٩٥٠
١٠٠٠

٢٥

١٥٠
٢٠٠
٢٥٠
٣٠٠
٣٥٠
٤٠٠
٤٥٠
٥٠٠
٥٥٠
٦٠٠
٦٥٠
٧٠٠
٧٥٠
٨٠٠
٨٥٠
٩٠٠
٩٥٠
١٠٠٠

مَيْت

الآن وقد حم القضاء وأزف موعد تسليم المواد للتنفيذ تعاودني الحشية من أن لا أكون قد أبلغت كتابي هذا المنزلة التي رسمها لي خيالي عندما ازمنت القدوم الى لبنان بقصد إصداره .

إنها خشية الرعديد الذي جرّأ نفسه على خوض المعركة قبل أن يبلغ الساحة ، فلما بلغها خارت عزيمته فتردد ورضي « من الغنيمة بعد الجد بالقفل » .

نعم ، لقد شعرت قبل اليوم ببعيزي وعدم أهليتي برغم انقضاء سبعة اشهر على وصولي الى لبنان وتنقلي في انحاءة دارساً منقباً مستطلعاً ، فان التطور الذي حدث فيه اثناء الاعوام الثلاثة والاربعين التي تغيبت فيها عنه صيره في نظري بلاداً غريبة اجمل كل شيء فيها حتى عاداتها واساليب عيش سكانها وطبائعهم وتفكيرهم واهدافهم في الحياة .

أين ادب « حجة » نجيب نسيم طراد و « برق » بشارة عبد الله الحوري و « حرية » داود مجاعص ؟ لقد اصبح كالحشمة والبساطة والرضا أثراً بعد عين وحل مكانه الا في ما ندر أدب التسليّة والرقاعة والمجون تتلهى به المعد قائلةً على التغذية بمعناها السلام ، ولا بدع فدعوة الحانة مستجابة اضعاف دعوة المعبد .

وليت الغلاة يكتفون باعتبار أدب الفكاهة والرقاعة والمجون
لونهاً من ألوان الادب يقرؤه ويرتاح اليه كل أديب ، ولكن
هدفهم على ما لاح لي هو الاجهاز على كل لون سواه . وقد لا
يصدق القارئ اذا قلت له إن علمين من اعلام الفكر والادب
في المهجر قد جاهارا آخرأ بأنهما من مؤيدي هؤلاء الغلاة وأنها
قد شبا من أدب النصيح والارشاد والتوجيه ، فكأنها أشارا بعدم
الاغتسال ما دام لا بدَّ بعده من الاتساخ

فروما لم تنصرف الى الترف والهوى والعبث إلا بعد أن أصبحت
امبراطورية عزيزة الجانب وبلغت أوج المنعة والسؤدد ، فما الذي
بلغناه نحن لكي نبدأ بما انتهت به تلك الامبراطورية العظيمة وكان
مدعاة لتداعياها ثم انهيارها وزوالها الى الأبد ؟ .

ولكن ما شكواي هذه وأمامي شكوى طه حسين ووديع
فلسطين من زهد الناس في مطالعة الادب الدسم المغذي .
وأين ؟ في مصر زعيمة الادب العربي . اما في لبنان فقد راعني
عبارة سعيد تقي الدين التي ذيل بها الصفحة الاولى من نسخ
أحد كتبه وهي : « هذا كتاب أهديه لانني لم أجد من
يشتره » !

وأخيراً لم أجد لي مخرجاً من حيرتي وترددي الا بالالتجاء
الى المحك فوقع اختياري على أديب مقيم قارع القدم زاول
الادب وجلى فيه طيلة عقود من السنين ، لذلك كانت حجة في
الحكم على عقلية الجمهور وذوقه الادبي . وعندما دفعت اليه
مخطوطي سألتني ان يعاملني بمثل صراحتي فيطرح جانباً المجاملة التي
فطر عليها الشريقيون ويستعين على إبلاغي رأيه الصريح بكلمة
« ميت » المركبة من الحروف الاولى المقطوعة من الالفاظ
الثلاثة التالية : « ممل » « يحذف » « تافه » . فكان جوابه :

« ولو يا أستاذ ، أنصل الى هذا الحد » ؟ قلت بل قد نتعده ،
وأعني انك اذا وجدت كتابي بمجموعه لا يستحق النشر ان
تعتبر غلافه كفنّاً تضع عليه تلك الكلمة المركبة بكاملها .

وبعد اسبوع اعاد الى مستشاري الكريم مخطوطي فرحت اتصفحه
مفتشاً عن الحروف المصطلح عليها فلم اجد لها اثرأ . وكان جوابه على
شكواي من التزامه قواعد المجاملة الشرقية انه لم يجد موجباً لتدوين
اي من هاتيك الحروف وهكذا جرئت على النشر محملاً اياه المسؤولية
دون ان افقد شيئاً من خشيتي السابقة ، وهي ان اكون فريسة
غروري وتضليل صديقي الاديب المجهول .

ولكنّ افتراضي التضليل اعاد اليّ الشك في اخلاص صديقي
فعدت اليه قصد امتحانه وقلت له : « لقد استهلكت كتابي بما كان
بيننا ولكنني ابقيت اسمك طي الحفاء فهل يضيرك التصريح به » ؟
وغنيّ عن البيان أنه استشف بدكائه ما رميت اليه فاجاب : « لا
ارى موجباً للتصريح الا اذا انت شئت لامر خاص بك لان
الاسلوب الذي اخترته هو الاسلوب عينه الذي كنت لأختاره انا
لو كنت مكانك . ولو لم تضيق عليّ الدائرة في التوزيع لكان كتابك
الآن في جملة منشوراتي » .

وإزاء هذا التخير آثرت اذاعة اسم ناقيدي نقادياً من ان
اظل موضع تهمة ولو باطلة ، فهو الاديب المحقق والناشر المعروف
فؤاد حيش صاحب « دار المكشوف »

قَدَرٌ

لولا القدر لقتضيت غرقاً وأنا بعد في الخامسة من عمري ،
وإذن لما ظهر هذا الكتاب الى عالم الوجود .

في اشهر القيظ لا يبقى من نهر البوردوني في زحلة سوى اوشال
مبعثرة تمُدُّها بحار متغلغلة بين الحصى فيعمد الصغار الى اقامة
سدود من الحجارة تحصر ما ينساب من مياهها فتكوّن مسابح
يطلقون على واحدتها اسم « غبّيط » وفصيحه غبيط . وحدث اني في
احد الاصال رأيت رفاقاً يعدونني سنّاً عاكفين على إقامة واحد
من هاتيك السدود فخطر لي أن اعاونهم . وما علا الماء القدر الكافي
حتى راحوا يتلهون بالعموم وللمرة الاولى في حياتي القصيرة جاريتهم
ولكن بدلاً من ان اعوم رسبت .

ولكنّ القدر شاء ان تعثر بي قدم احد الرفاق فكان هذا
الاداة التي سخرها لانتشالي من العمق واعادتي الى الحياة .

ولحسن حظ منقذي ندّ عن ذهني اسمه وأبت عليه نبالة طبعه
ان يفاخر بصنيعه ويحسبه في عداد ما اتاه من البوارد الدالة على
البطولة والايتار ، والا لما اكتفيت بتجريده من الفضل بل لملتة
تبعه كل ما قاسيته فيما بعد وما سببته لجميع من عرفتهم من آلام .

الحياة تبدل في السبعين

كل صورة يوحي خطوطها وألوانها الخيال ، ولو كانت راسمها عبقرياً ، تتضاءل امام صورة الواقع المحسوس ، ولو كانت راسمها كاتباً مثلي عادياً . لذلك اعزو كل الفضل في تنبهي الى هذا الموضوع وما قد يقع لي فيه من إصابة الى مدانتي السبعين فعلاً :
أما وأثمن شيء في هذا الوجود هو الحياة فلست اعلم كيف أوفق بين نحب الناس لها وحرصهم عليها واستسهال كل صعب لاطالتها ، وما يبدو في سلوك سوادهم من أدلة احتقارها والمجازفة بها اجتناء للذات عابرة لا تشبع ولا تغذي ولا تُعقب سوى الندم .
أما الحرص فلا ادل عليه من قولنا العامي المأثور : « ألف عيشة بالكدر ولا نومة تحت الحجر » ، كما ان لا ادل على إثارة اللذة والتمتع من القول المأثور في الغرب : « الحياة قصيرة عريضة خير منها طويلة ضيقة » . وفي هذا منتهى التناقض بين عقليتين :
الواحدة ترى في المجازفة بالحياة جنوناً والثانية في الحرص عليها بلاهة .
والغريب ان مصدر الحرص والمجازفة كليهما واحد ، هو خوف الموت لاعتباره فناً ، وضعف الايمان بالحياة الابدية التي تعد بها الكتب المقدسة الابرار . وكل الفرق بين الحرصاء والمجازفين هو

ان اولئك يؤثرون الاقتصاد وهؤلاء التبذير ، على ان كليهما في ضلال إذ ليس من عاقل يُعمل الفكر ويقارن بين الجحود والايمان ليقدّر ايها اجدى على الانسان ، حتى في حياته الدنيا هذه ، الا وترجع في نظره كفة الاخير .

ولسنا الآن في هذا بل في ما يحقق مطلب الاول دون ان تكون الحياة عبئاً لان استئصالها مدعاة لسرعة زوالها بفعل التداعي المعنوي الذي يقود الى التداعي المادي . فالقلق واليأس والمثيرات والمثبطات على اختلافها توهن العزائم وتؤثر في الاجهزة والأوعية والانسجة فتبطل عمل بعضها او تخل نظامه ، ومتى اختل عضو أثر في سواه حتى يعم الخلل الجسم باجمعه .

ولما كانت المرض موتاً مؤقتاً ، ومتى أزم من زهد المرء في الحياة ، فإنني مع الفريق الثاني في استنفاد العيش دون تمتع ، ولكنني لست من القائلين بالافراط الى حد يفقد الحياة لان اللذة الحقيقية ليست في براعمها بل في ثمارها .

والجسم الانساني ككل آلة غير عاقلة عرضة للاختلال او التوقف من جراء عدم الاعتناء او سوء الاستعمال او حادث طارىء . فاذا كان مستوفى الشروط من حيث جودة البنية الأصلية والسلامة من العلل الوراثية وتوفر كل ما يحتاج اليه من تغذية ونظافة ورياضة وراحة وزهو ومرح وهو ، في جو يضمن له الأمن والطمأنينة والاستقرار ، بحيث ينمو نمواً طبيعياً منتظماً ويجدد بكل ما تقدم ذكره من الوسائل ما يندثر بفعل الجهد المبذول من خلاياه الحيوية ونشاطه العضوي ، كان مفروضاً له البقاء مدة معينة من الزمن ، فكم هي هذه المدة ؟

يجيبنا على هذا السؤال الملك داود صاحب المزامير بقوله :
« سنون او سبعون وأشدها ثمانون ، وأكثرها تعب ووجع » ،

مع انه كان أقرب منا عهداً الى متوشالغ . وواقفه على الحد
الادنى العامة في بلادنا بقولهم : « ابن الستين للسكين » . ولما كان
المرء في الغالب يستمد احكامه من حسه وواقفه واختباره الشخصي
فالمدلي بالرأي المتقدم لم يكن داود الشاب القوي البنية العائش
مع اغنامه في المراعي الجبلية العديدة الهواء الذي اردى فيما بعد
جوليات الجبار بجحر واحد اطلقه عليه من مقلاعه ، بل داود
الملك المتقدم في الايام بعد ان استسلم حياة البذخ والترف وانغمس
في الملذات على انواعها وابتلي بسبب افراطه في كل ذلك بداء
عقام هد قواه ونخر عظامه وأوهن عزيمته الى حد ان ادخل على
قلبه القنوط ، لذلك لا يجوز اتخاذ الحد الاقصى الذي وضعه قاعدة ،
وقد كذبه بالدليل المحسوس كل من سبقه وعاصره وتلاه من بلغوا
المئة وفوقها .

وقد بذه في الاصابة يشوع ابن سيراخ بقوله في العدد الثامن
من الاصحاح الثامن عشر من سفره : « عدة ايام الانسان على
الاكثر مئة سنة »

وقام في الزمن الاخير احد المتفائلين في الغرب فاصدر كتاباً
جعل عنوانه : « الحياة تبدأ في الاربعين » فأنعش بتفاؤله آمال
الملايين ممن بلغوا تلك السن او جاوزوها .

وعلى ما قدمت ، كان الذي نهني الى هذا الموضوع الحيوي
دخولي في نطاق السبعين وانا لا ازال اتمتع بحيوية ونشاط وزهو
ابن خمسين ، حتى إن احد أصدقائي الادباء ، عندما اببلغته عزمي على
إصدار كتابي هذا بمناسبة بلوغي السبعين ، لم يتالك ان أبدي
استغرابه وأعرب لصديق لنا شاعر عن شكه في صدق قولي ،
عازياً إياه الى شغفي بمخالفة الناس في ما تواضعوا عليه ، لاعتقاده
أنني على الاكثر بين الخمسين والستين .

واستناداً الى شعوري هذا رأيت ان اتخطى الحد الذي وضعه ذلك الكاتب الغربي بثلاثين عاماً كاملة العدة ، مع اني لم اكن من المعتدلين بل من المفرطين حتى دانيت التحسين ، ولم اعتدل وأنظّم معيشتي وأتبع القواعد الصحية إلا بعدها .

اما الذي خطر لي فهو ان الانسان لما كان ابن الطبيعة كان مترتباً عليه ان يجارها ويساوقها ويرضخ لاحكامها . وعلى ذلك كان طبيعياً ان تستتم حياته الفصول الاربعة المعهودة ، وليس مستبعداً ان تكون عدة سني هاتيك الفصول خمسة وعشرين على اقل تقدير : فالأول الشباب الذي يشمل الطفولة والحداثة ، ويقابله الربيع . والثاني الكهولة ، ويقابله الصيف . والثالث الشيخوخة ، ويقابله الخريف . والرابع الهرم ، ويقابله الشتاء الذي قد يطول اكثر من خمسة وعشرين عاماً .

فالشباب سن الطيش والنزق والميوعة وإهدار القوى دون حساب او تفكير ، كأنها معين لا ينضب ، وكم من الذين اذا ما بلغوا الاربعين ادركتهم الشيخوخة او هم ادركوها لتعجلهم في اجتناء الذات وصح فيهم القول المأثور : « من جار على شبابه جارت عليه شيخوخته » ، او حق لهم ان يقولوا مع القائل :

وماذا يبتغي الشعراء مني وقد جاوزت حد الاربعين
إن الشاب يشبه الراكب في قطار سريع يمر بالمشاهد كالبرق
الحاظف فلا يتملاّها ولا يتذوّق ما فيها من جمال وقوته متعة
الراحة والاستقرار . وخير ما يستفاد في الشباب الدرس والتحصيل
والاكتساب .

وتتلو الشباب الكهولة وهي مرحلة الاستفادة من المشاهدات
والاختبارات والدروس العملية .

اما في الشيخوخة فيبدأ المرء في تفهم الامور على حقيقتها

بإطالة مضغها واستخلاص الغذاء الحيوي منها . وفيها يتسع امامه المجال للتعديل من آرائه والرجوع عن أخطائه .

فاذا ما بلغ فصل الهرم اكتمل مبنى ومعنى واستوفى نضجه وازداد انتفاعه ونفعه واصبح على اتم ما يكون من الاستعداد للملاقاة وجه ربه مطهراً من اوزار الحياة وآثامها ، إذ في هذا الفصل تهمد العواطف الثائرة وتحمد جذوة الالهواء ويصبح الامر والنهي للعقل الراجح وحده دون منازع .

في هذه السن ينظر الانسان من شاهق الى ماضيه فيتمنى لو هو استطاع العودة اليه بما كسبه من معرفة وحكمة واختبار ليتدرج من جديد في فصوله الاولى كلها ويكون الشاب والকেل والشيخ المثاليين ، مما يثبت ان الشخص نفسه يصبح خير حكم على نفسه فيما مضى ويضحك من سخافاته ونزقه وجهله واندفاعه وتهوؤره فيدين الشاب الحدث ، والকেل الشاب ، والشيخ الكهل ، والهرم الشيخ الذي كانه . وقولي هذا يثبت خطأ الشاعر الذي قال :

ألا ليت الشباب يعود يوماً لأخبره بما فعل المشيب
إذ لولا جهل الشباب لما كان ذلك المشيب والوهن اللذان
استوجبا الشكوى ، والبداءى اظلم .

اما الشاعر الأعرق تفكيراً والأصوب رأياً فهو القائل :
آلة العمر صحة وشباب فاذا ولياً عن المرء ولى
لانه وضع الصحة في المقام الاول جاعلاً ايها دعامة الحياة الرئيسية وأن المرء يستطيع معها الاستغناء عن الشباب .

واذا استثنينا الحوادث التي لا يد للانسان في دفعها فسيبله لبوغ الهرم هو إبعاد هدفه لكي يزداد تشوّفه وإلا اخمد اليأس في نفسه جذوة العزيمة واستسلم لسلطان الموت قبل الاوان ، إذ للفكر والاعتقاد أثرهما الفعال في الابقاء على الحيوية ، وهما ما نعبر عنه بالقوة المعنوية ،

وقد رمز المسيح اليها إذ عزا الى مقدار حبة خردل من الايمان القدرة على نقل جبل من مكانه .

ولكي ننظر بهذه الغاية يجب ان ننزع من الازهان فكرة المدف القديم ونرسخ فيها الاعتقاد بإمكان بلوغ المدف الجديد ، واضعين لبوغي المئة وفوقها شروطاً تلقنها للنشء الحديث ، واولها المحافظة على رأس المال الحيوي فلا ينفق منه الا بالمقدار الذي يمكن تعويضه يومياً بالتغذية والرباظة وتنزيه الفكر واطراح الهموم والنوم الصحي العميق ، وثانيها وضع تشريع يصوت الناس من انفسهم بتجديدهم التجارب والحيولة دون دخولهم فيها . وفي بضعة اجيال يرسخ الاعتقاد الجديد في الازهان فينسي الناس الحد القديم ، وهكذا يطول العمر ويتمتع كل من « تخطئهم المنية » بمجازرة المئة ، على الاخص وقد اصبحنا في زمن المختوعات العجيبة التي تعيى الانسان عما قد يفقده من حواسه كالسمع والبصر وتجهزه باسنان أسلم من اسنانه الطبيعية وأقطع .

وقبل كل شيء يجب على المرء منذ حادثته ان يعوّل على نفسه فيتجنب الاسباب التي ترضه ، يقيناً منه بأنه قد وُجد ليعيش سليماً معافى الى ان يدركه الهرم ، وهو ما يحل بالآلة الصماء بفعل الدثور الطبيعى . ولهذا الغاية يجدر به ان ينفي من ذهنه وجود الطبيب والدواء والمستشفى ، ويعمل القائمون على تربيته وتوجيهه على تمكينه من العيش الصحي المنتظم ، كما يترب على الحكومات ان تبذل كل ما في وسعها لتنقية الماء والهواء والتربة من الجراثيم المرضية على اختلافها وتوفير العيش لجميع المواطنين دون استثناء في مساكن صحية تطهرها أشعة الشمس ويتجدد فيها الهواء وتيسر لهم الطعام المغذي والنظافة والارتياض ، وتقلل من وسائل المعالجة بقدر ما تريد من وسائل الوقاية ، اي ان تعتمد على اطباء يقون الناس شر الامراض بدلاً من ان يعالجوهم بعد ان يصابوا بها . ذلك لان كثرة المستشفيات ووسائل

المعالجة تغري الناس بالتعرض والافراط ، وما الادوية التي يعولون عليها سوى ادواء جديدة يكتنون لها في جسامهم ، على حد قول المتنبي :

اذا استشفيت من داء بداء فاقتل ما اهلك ما شفاكا

فالحوكمة بمثابة اب والاب لا يميز بين اولاده فيتختم بعضهم ويجمع البعض الآخر بل يساوي بينهم ويُعطف كبيرهم على صغيرهم وقويهم على ضعيفهم وغنيهم على فقيرهم .

وانجع الادوية التي لا تكلف شيئاً هي الزهو والمرح والضحك لانها تضارع العيش في الخلاء واستنشاق الهواء الطلق النقي والتمتع باشعة الشمس المحيية ، في حين ان الكتابة والعبوسة والانقباض تضارع العيش في الاقضية الرطبة المظلمة العفنة التي لا تختلف عن القبور الا بكون سكانها احياء ، ولكنهم اسوأ حظاً من الاموات .

واخيراً ليوطن الانسان نفسه على ان الحياة ككل شيء خاضعة لناموس الأخذ والعطاء فيقبل النعمة بمثل ما يتقبل النعمة من رحابة الصدر والتسليم ، متمثلاً بالتاجر الذي يدفع ديونه دون ان يتأفف او يطلق كلمة شكوى لأنه انما يدفع ثمن ما سبق له ان باعه بربح . اما الخطل كله ففي توطئتنا النفس على الاخذ دون عطاء ، ولا يجني على الناس كتذكركم السيئات ونسيانهم الحسنات ، ولا يسعدهم شيء كالعكس

والآن لننظر الى الفائدة التي تنتج عن اطالة العمر ، لا الفرد ، إذ لا قيمة له اياً كان في ميزان الأقدار ، بل للمجموع الذي ينعكس هناؤه على جميع الافراد :

متى كثر عدد الشيوخ الأقوياء الابدان الأصحاء العقول يصبحون في كل أمة ثروتها الحقيقية وعمادها ومعوقها في الشدائد والملمات ، يهديهم يسار واليهم يناب فهم البركة وهم ملح الارض وهم الخمرة المعتقة السائغة . فما اسعد الأمة التي يكونون حكامها وشيوخها لان الانسانية

دينهم والحب شرعتهم والسلام والأمن والطمأنينة هدفهم.
ولا عبرة بالشواذ ففي لبنان وأضرابه من البلدان العربية من
يطالب بإناطة الامور بالشبان المثقفين باعتبار انهم سالمون من الثورات
العنصرية والطائفية والاقليمية والروح الاقطاعية. ولكن فساد الشيوخ
في هذه البلدان عائد الى عهود الحكم الاجنبي الذي افسد ليستغل وفرق
ليسود وقد زال الآن هذا الحكم كما ستزول الاجيال التي افسدها
وتحل مكانها اجيال صالحة تسير عاماً فعاماً من حسن الى احسن حتى
يأتي يوم تتحقق فيه الأماني .

وكان الأقدار شاءت ان تهيم لي في لبنان نفسه مثلاً عملياً يؤيد
رأيي فقد سمعت بعد اسابيع من وصولي بشيخ يقيم في معلقة زحلة
يدعى ملحم قازان جاوز المئة ولا يزال متمتعاً بصحة الجسم والعقل
فسعيت اليه وإذا به يجيبني على تحيتي باللغة البرتغالية برغم انقضاء خمسين
عاماً على عودته من البرازيل التي قضى فيها احد عشر عاماً وتعلم بعض
مفردات لغتها بالسمع مع أن الزمن ينسي المتعلمين ما حصلوه بالدراسة
القانونية في الجامعات عدة سنوات . وعلى قلة رأس مال هذا الشيخ الجليل
من العلم ابدى لي من ادلة الذكاء والوعي وسلامة المنطق ما ادهشني
وجعلني اعتقد أنه لو كان من المتعلمين لكان من الافذاذ الذين يصلحون
للزعامة وقيادة الشعوب .

وبما ادهشني برهانه العملي الساذج الذي افسد به حجة احد
البرازيليين بأن اللغة العربية تكتب عكساً ، وهو ان الآكل اذا
اعدّ لقمة لا يدخلها الى فمه بظاهر اصابعه بل بباطنها . وقد اعترف
له ذلك البرازيلي بالغلبة علناً وفاز منه بالرهان المتفق عليه .

هذا ما سمعته من ذلك الشيخ الجليل فدهشت لتوارد الافكار بينه
وبين صديقي المحقق الاستاذ توفيق داود قربان الذي سبق له منذ
بضع سنوات ان حجّ آتسة برازيلية ثقيفة اعترضت الاعتراض عينه

بقوله إن باطن الكف يشبه في الجسم الانسانيّ الصدر وظهرها الظهر . ومعلوم ان من يسير باتجاه صدره يكون بحكم من يسير الى الأمام فاذا هو سار باتجاه ظهره كان بحكم من يسير الى الوراء. ولهذا ترين يا آنسة اننا ونحن نكتب من اليمين الى اليسار تنتقل ايدينا في اتجاه باطن الكف الذي يمثل الصدر اما انتم الذين تكتبون من اليسار الى اليمين فتنتقل ايديكم في اتجاه ظاهر الكف ولذلك كنتم انتم المخالفين للوضع الطبيعيّ ! وإزاء هذا البرهان القاطع لم يسع تلك الآنسة المهذبة الا أن تعترف له بأن الذين يسرون في كتابتهم الى الأمام هم العرب لا الافرنج !

وشيخنا القازانيّ لا يزال حاد الذهن مرهف الحسّ لا تنقصه العزيمة ولا يعوزه النشاط ، يقضي وقته مطالعاً حيناً ومفكراً آخر ، فاذا ما ملّ الجلوس استلقى على سريره المحاذي لنافذة مفتوحة تطلّ على السهل متكئاً على مرفقه الأيسر وفي يمينه منظر يوجهه بين الفينة والفينة نحو الحقل الذي يعمل فيه حفدته على مسافة الفمي متر فيعلم ماذا يفعله كلّ منهم ، ويراهم عند الظهيرة ملتقين حول الطعام في ظل الأشجار ، ثم قائلين الى ان يحين موعد العودة الى العمل فيوالي مراقبتهم حتى المساء إذ يرافقهم عائدين .

وهو كنسيبه نعمة قازان في عاصمة البرازيل شاعرٌ بالفطرة يتذوّق الجمال ويحمّد وصفه فقد دعاني مرةً للجلوس في القاعة المشرفة على السهل وراح يصف لي محاسنه ومفاته مشبّهاً إياه ببساط ابدعت يد الطبيعة ويد الانسان في نسجه وتخطيطه وتلوينه وتوشيته وتنميته .

هذا هو الشيخ المثاليّ الذي هيأت لي الاقدار التعرف اليه فكان البرهان الحيّ الناطق على صحة النظرية التي بسطتها وشرحتها في هذا المقال

حِكَايَةُ هَذَا الْكِتَابِ

رويت في كتابي « ذكرى الهجرة » كيف عرضت ظروف قاهرة
افسدت عليّ متعة احتراف الادب كهواية اذهي قطعت موردي التجاري
الضئيل الذي لم اكن اطمع بأكثر منه فجلّ بي ما حل بجنود طارق
بن زياد يوم أغرق المراكب التي حملتهم الى الشاطئ الاسباني وخاطبهم
بقوله : « البحر وراءكم والعدو امامكم » . والتفت فاذا بيدي فارغة
الا من القلم الذي عبثاً حاولت التملص من مأزق شقه . وكانت
مفزعتي الكبرى الصحيفة التي لا حياة لها إلا من مورد الاعلانات
المستكداة غالباً ببذل ماء الجبين او من بابها الاجتماعي وقوامه المظاهر
التي ندر أن تمت الى الحقيقة بصلة ، ولكن الاجر عليها يزداد بقدر
بعدها عن الواقع . وطفى علينا فور انتهاء الحرب سيل من الصحف
والمجلات المصرية واللبنانية والسورية ، ومعظمها ، بفضل التعاون ، بما
يعجز الجهد الفردي عن مدانته ، فضلاً عن محاكاته .

وراحت الامور تتأزّم وتحول دون التفكير فضلاً عن المباشرة
فقد بدأ يطغى علينا سيل آخر أشدّ عتوّاً وطموحاً من سيل الصحف
والمجلات وأعني سيل الصحفيين الذين استهواهم ما بلغهم عن وطنية
وأرجحية أثريائنا باقتنائهم دارين لمفوضيتنا وقنصيتنا في ربودي جانبيرو

وداراً أخرى لقنصليتنا في سان باولو ، ومظاهر البذخ الشرقي التي استقبلوا بها سفارتنا الاولى الى بلاد البرازيل الكريمة وما اقاموه لممثلينا السياسيين ووفد الكتائب الذي تلاهم من المآدب والحفلات التي برزت بكل جلالها وأبهتها في رسوم أنيقة على صفحات الجرائد والمجلات ، وكلها مما يُغري ويسيل له اللعاب ، فقد أناف ما أنفق في هذه السبل كلها على مليون ليرة لبنانية ، او ما كان كافياً لإنشاء محطة عالمية للإذاعة اللبنانية المطوّبة الذكر .

اما وهذا ما بدا لهم فلا لوم عليهم اذا هم استمتعوا ان زملاءهم العاملين في هذا الحقل المرع يعومون في بحر من الذهب ، وهم بالنظر الى جذب حقلهم يعتبرون فوزهم ولو ببعض الفضلات نعمة سائغة . وقد أبيت وسواي من الزملاء إلا ان نقرهم على زعمهم ونشدّ على ارساطنا لكي لا تفسد عليهم لذة حلمهم الذهبي هذا بالشكوى او المنّ ، متمثلين بقول القائل :

أبى دهرنا إسعافنا في نفوسنا . وأسعفنا في من نحبُّ ونكرمُ
فقلنا له نِعْمَاكَ فيهم أتمّها ودع أمرنا إن المهمّ المقدّمُ
على ان ما سكتنا عنه نحن شعر به وقاله عنا بعض القادرين
الحساسين الذين لم يلبثوا ان رأوا من الخرق الجود بالألوف على
أدباء مجهولين منهم ، لم يسبق لهم ان قاموا نحوهم بأية خدمة ، والبخل
بالمئات على أدبائهم الذين رافقوهم السنين الطوال وأظهروا فضائلهم
وشاركوهم في السراء والضراء ، بينما هم يعلمون حق العلم أنهم ليسوا
أقل حاجة من أولئك الزائرين .

لقد جاءنا أولئك الاخوان لاجئين فوجدوا الملجأ الامين فعبوا
حتى الارتواء وذهبوا بسلام ولكنهم لم يدلّوْنا على مكان نلجأ
بدرّنا اليه .

ولكن اخيراً انقطع سيل القادمين فاتسع امامي مجال التفكير

وتبدت لي يد العناية في ما حدث فانقلبت شكواي الى شكر اذ لولا التريث لما اهتديت الى المناسبة المثلى لاصدار هذا الكتاب الذي اردت له السمن فابت الاقدار الا ان يأتي اعجف هزيلا .

غير ان هناك أحجية تحتاج الى تفسير هي أنه بسبب عودتي الى لبنان جاء كتابي هذا ثلاثئة وعشرين مرة أضخم منه لو انا اصدرته في البرازيل بثاني مئة صفحة ، اذ ان مراعاة النسبة بين مساحة القطرين تقضي بأن يأتي في لبنان صفحة واحدة لا غير لان البرازيل تتسع لأكثر من ثمان مئة لبناني .

ولم اکتف بهذه البجوحة أمتع بها القارئ بل انا زدتها بالحرص على المجال ان يشغله الا المفيد والمفكه مؤدياً المعاني بأقل ما يمكن من الالفاظ ومقتصراً على ما يقتضيه سياق الكلام من الشروح والرسوم وللقدر ان يتيح لي مستقبلاً إصدار « المهد الجديد » منه باللغات البرتوغالية والاسبانية والانكليزية لفائدة المتحدرين من أصل سوريّ او لبنانيّ وحملهم بالاقناع والتشويق على زيارة وطني آبائهم وأجدادهم الفتيان والتمتع والاستجمام في ربوعها كلما سنحت لهم الفرص .

اما التضحية الكبرى التي سافني ايها ضيق المجال ، ولم أر لي مندوحة عن تحمل ألمها ومضضها ، فهي اضطراري الى إغفال ذكر جلّ من جدت عودتي ما كان بينهم وبينني من مختلف الوشائج والصلات الحميمة التي نشأت واستحكمت في سوريا ولبنان ومصر والسودان ، وسوى البلدين الاخيرين من المهاجر . ومثلهم اصحاب الوجوه والاسماء الجديدة الذين لقيت فيهم اخواناً لا يقلّون عن اولئك في كل ما يدلّ على نبالة الطبع وصدق الودّ حتى التبس عليّ الامر ولم يبق امامي سوى ذاكرتي الضعيفة أتهمها بالعجز عن التمييز بين القديم والجديد . ذلك ان عدد هذين الفريقين الكريمين يحصى بالمئات وذكر ما كان لهم من ايدٍ ملاء عشرات الصفحات وانا لا

املك منها الا بقدر ما يملك المؤمن المحاسب بما أوثمن عليه . وهكذا
قضى عليّ ضيق المجال البغيض بالبخل حتى بالجزء البخس وهو العلالة
التي برر بها المتنبّي عجزه عن الوفاء بقوله :

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسد النطق ان لم تُسعد الحال
وجلّ ما أسوّغه لنفسه ، دون ان يُكتب لي فيه أيّ فضل ،
هو استثناء الافذاذ الذين لا انداد لهم وأصحاب الصلة الوثيقة بمواضيع
هذا الكتاب ويقتضي سياق الكلام ذكرهم والتنويه بفضلهم .

ولما كان هؤلاء بطبيعة الحال نزرّاً فسأطل بازاء الاكثوية الساحقة
بحكم المفلس الذي لا يعرف الى الوفاء واستعادة الاعتبار سبيلا .

اما الأنسباء الذين يقدّسون صلات القربى ويرعون حقوقها فقد
أبقت الأيام منهم على نزر لا يجاوز اصابع اليد عدّاً . وكان اول من
لقبته ابن الحال باترويني بابادوبولس فسعيد اسعد جحا الضعونيّ
الوالدة فضنوه بهيج مراد البارودي فأديب ميخائيل ضعون ثم اخوه
الأكبر الياس .

ولما كانت اسرتنا مهدّدة بالانقراض من لبنان بعامل الهجرة من
جهة ومن الجهة الثانية لقلة منجّي الذكور بينها فلهذا الأخير فضل
إحياء ذكرها إذ هو والد لثلاثة شبان هم ميشال الموظف في وزارة
التربية فجان وحبيب العاملان في حقل التجارة . اما في حاصبيا منبت
الأسرة فقد اثبت الاستقراء أنه لم يبقَ منها مخبر .

اما أجرى من ذكرت في مضمار الثقافة وسعة الاطلاع والتضلع من
اللغتين الانكليزية والفرنسية بحيث يصلح للمناصب العالية فبهيج
البارودي ، ولا بدع فهو شبل ذلك الاسد .

حَقِيقَةُ الْإِخْيَالِ

لا يعرف العدلَ من لا يسوم نفسه ما يسومه الآخرون ، ولا يدرك للغيرية معنىً من يؤثر نفسه بما ينكره على سواه . ومن أجل ما قيل بالمعنى الأول : « من ساواك بنفسه ما ظلمك » ، إذ قصارى المرء أن يستسيغ لسواه ما يستسيغه لنفسه .

وعلى هذه القاعدة رأيت أن أقيم للقارىء عبوة من نفسي وأقرب الناس إليّ ، فضلاً عن جمعتي بهم الأقدار من إخواني في الإنسانية طيلة نصف قرن كامل ، دون أن اكتب في ذلك لنفسي فضلاً إذ أن ازهد التضحيات هي أن ينصب الإنسان نفسه مثلاً يتعظ به سواه . ومهما بذل في هذا السبيل يظل مقصراً بازاء رسل الإنسانية الذين ضحوا بأغلى ما في الحياة ، وهو الحياة نفسها ، ليسعدوا الآخرين ، والأُساة الذين تعرضوا للموت بتلوينهم ذواتهم ليحربوا في انفسهم فعلاً ما اخترعوه من علاجات توسموا فيها القابلية لتخفيف آلام المصابين بأمراضٍ عضالة أو إنالتهم الشفاء التام .

وكان في إمكاني أن أبلغ غرضي هذا عن طريق الرواية فاستعرض حياتي باسم مستعار فأكون بحكم من يتخذ سواه دريئةً تقيه ما قد ترشقه به الألسنة والأبصار والأقلام من سهام اللوم والازدراء ، أو أفعّل باسمي الصريح على أن يُنشرَ ما اكتبه بعد موتي فأشبهه من يعقّم

بجرمة الموت اتقاء ما يتعرض له الحيّ ، مع احتفاظه بطموحه للانبعاث والظفر بخلود الذكر . ولكنّ الذي اراه هو ان اللجوء الى ايّ من هذين المخرجين جبانة ادبية لم تركّب في طبعي .

ولما كانت العبرة بالنية فإني لأشفق حتى على الشخص الوهمي الذي يخلقه خيال الروائي ليلصق به معاييه ونزواته ويسيره بمشيئته وينطقه بما يعتلج في نفسه ويلبسه حلة من آرائه وأمانيه ويحمّله تبعه ما يقترفه من آثام . والذي يروعي بالأكثر ليس الصاق الفرية بالسوى ، ايّاً كان ، واتخاذ كبتاً للمحرقة ، بل التنصل من التبعة وخدع العدالة وتحويل سيف النعمة عن عنق المجرم الحقيقي الى عنق البريء ، ولو كان هذا اسماً بلا مسمى .

وأين الواقع الذي يبدو فيه وجه الحقيقة سافراً باذي العالم واضح القسّمات مما يخلقه الخيال وتموّهه الميول والأهواء والاغراض . وشتان بين المصطنع والطبيعي ، والصورة والأصل ، والتمثال الجامد الصامت الذي نحرّكه كما نشاء وننطقه بما نريد ، والشخص الناطق النابض بالحياة المسيطر على إرادته وشعوره والمغبوط على ما يحمّنه والمسؤول عما يحمّنه وكما قرأتُ وقرأتُ سواي من نقدٍ لما تتمخّض به القرائح وتلدّه الأقلام من الأخيلة والصور الكلامية التي لا تنطبق على الواقع والتي لا تمتّ الى الحقيقة والمعقول بصلة فتخطيء القصد رتضّل السبيل ، وبالتالي تفقد مزية الإقناع بأصالتها والصلاحية لأن تتخذ عبوةً وعظةً وكيف يصحّ ان يترك الانسان اقرب شيء في متناوله ، او بالاحرى في يده ، ليفتش في رحاب الخيال عن الخلق المزعوم ، وهو إذا صدق وأخلص وتنزّه عن الأهواء والاغراض وجد في نفسه خير مادّة مطواع يصوغ منها ما شاء من قوالب واشكال وخطوط وألوان وقد سبق ابن سينا فدلّ الانسان على عظمة حقيقته بقوله :
وتزعمُ انك جرمٌ صغيرٌ وفيك انطوى العالم الأكبرُ

فكما ان في النقطة معنى البحر فإنّ المرء ليجد في نفسه عالماً يغنيه
عن الارتياح والاستقرار ، إذ ما من شيء في هذا الوجود تقع عليه عينه
وتسمعه او تسمع به أذنه ويدركه بحسه إلاّ وهو موجود في تلك
القطرة التي هي شخصيته .

وعلى هذا ادعو إخواني الروائيين والقصاصين لأن يكونوا شجعاناً
صرحاء فيكشفوا عما في نفوسهم لكي لا يظنوا اسفاراً مقلّة لا يتبين
منها الرائي سوى ضخامة احجامها وما يزين غلافاتها من زخارف ونقوش .
فاذا ما استجيبت دعوتي وتحققت أمنيّتي أصبح لنا كسوانا من الشعوب
أدبٌ واقعي لا يُقاس به الأدب المصطنع .

وأخيراً فلمن شاء ان يشبّهني في كتابي هذا بشجرة توقّف نموّها
فأصبحت لا تزهر بزهر ولا تؤدّان بثمر ، ولكنها وهي بعد قائمة
ينتفع بظلها ومتى هوت فبحطبها .

وما كتابي هذا بشقّه الاول او عهده القديم سوى صورة من
العصر الذي عشت فيه وهو يختلف عن شقه الثاني او عهده الجديد
اختلافاً كبيراً يفسح امام القارئ مجال المقارنة بين ماضي آبائنا
وأجداده وما آل اليه حاله فيتهياً له سبيل الاستنتاج والاستفادة اقتداءً
او ارعواً في شتى الميادين .

العهد القديم

أشْرَحِي

ما الماضي سوى مقياس الحاضر وبالمقارنة بينهما نستنتج ما اذا كنا قد تقدّمنا أم تأخرنا ، لذلك تبذل الشعوب كل ما تستطيعه من جهد ومال في تقصي تاريخ أسلافها والتنقيب عما خلفوه من مآثر وآثار تنطق بما كانوا عليه من نبوغ وارتقاء وما اتوه من بواذر البطولة والتضحية الدالة على المروءة وصلابة العزيمة وبُعد الهمة ونبالة الطباع ومكارم الاخلاق . فاذا تبدى لها بالمقارنة أنها لا تزال متخلفة جدت في الحاق ، ار مجليّة اعترت بآتيها واطمأنت الى انها احسنت الاتجار بالوزنة العجفاء التي تسلمتها .

وقد رأيت أن أعتم إشفائي على السبعين لأقيم من نفسي مقياساً حياً للماضي القريب الذي عشته في الشرق والغرب لأن التدرّج في

سَلَّمَ التطوُّر والارتقاء ببلغ في العقود الاخيرة من السنين حدًّا جعل
 زما في الاول مضارعاً لأقدم عصور التاريخ المعروفة حتى ليعدل العامُ
 الواحد منها قرناً بأكمله . وليس في قولي شيء من المغالاة إذ كم
 مرّت بالانسانية من عصور جمود لم تنتقل فيها خطوةً واحدةً الى
 الامام بحيث كان الحفيد لا يختلف في شيء عن جدِّ جدِّه في خلقه
 وإدراكه وتفكيره وأسلوب معيشته ، واليوم أصبح المرء اذا تخلف
 عن ركب الحضارة الجادِّ في المسير بسرعة الطائرة وقاس بيئته منذ
 عام واحد ببيئته الحاضرة شكًّا في أنه الشخص عينه وحلَّ عنده أنه
 أصبح أثراً من آثار العهود البائدة .

لقد عشت سني حداثتي في بلدٍ كانت وسيلة الانتقال الوحيدة فيها
 السير على الاقدام ونذر أن تُستخدم الدوابُّ الا لجل الاثقال
 والاسفار البعيدة المخوفة بالأخطار ، حتى ان لدات الزوجة وجاراتها
 في ذلك العهد كنٌّ اذا اتفق لزوجها أن قام برحلة الى دمشق وعاد
 منها سالماً يُقبلن عليها مهنئات ومنشدات : « وجوزك يالمليحة راح
 عالشام وحدو » . فأصبحنا اليوم على وشك أن ننقل حتى ضمن نطاق
 المدينة التي نسكنها بالطائرات العمودية ، وفي المنازل في الصاعد وعلى
 الأدراج المتحرِّكة .

في ذلك الزمان لم يكن في البيوت ماء جارٍ وكانت وسائل
 الاستضاءة قاصرةً على السُرُج والشموع ومصابيح زيت الكاز .
 واليوم اذا انقطع الماء ساعات او النور الكهربائي لحظات شكونا
 وبكيننا وسئمنا العيش كما سئمه زهير بن ابي سلمى .

أما الاستقاء فمن المجرى المكشوف القذر تُلقى فيه النفايات على
 انواعها لذلك كان الفوز بالماء النقي نصيب المبكرات بجرارهن والناس
 بعدُ نيام .

والوسائل الصحية العصرية معدومة عن آخرها والكُناسة تُطرح

في مزابل تتوسط الأحياء الآهلة التي تعجُّ بالسكان .
وكان الشيء النادر الخدم في البيوت ، فضلاً عن الطهارة والماسطات
وتبريد الماء يقوم بتغطية الجرار لكي لا تنفذ إليها حرارة الجو ،
وبالتلج الطبيعي أحياناً ، اذا وُجد .

اما سينما ذلك العهد فكان « صندوق الفرجة » المتنقل يحمله صاحبه
على ظهره ومعه منصب يقيمه فوقه ومقعد يجلس عليه المتفرجون لقاء
بضع نحاسات ويطلّون من خلال زجاجات مكبرة ويبدأ صاحب
الصندوق يدير مقبضاً متصلاً بدرج فتروح تنبسط امامهم على جدار
الصندوق الحلفي رسوم فوارس العصور الغابرة واحداً واحداً وهم
شاكو السلاح وممتطون خيولهم المطهمة ، ويعلن هو عن كل فارس يبدو
للمشاهدين قائلاً : « تفرّج يا حبيبي على عنتر ابن شداد او الزير ابو
ليلى المهلهل او ابو زيد الهلالي او دياب ابن غانم راعي الخضر » . ويتلو
كلاً من أولئك الابطال من كلف بها من الحسان ولعينها يهون عليه
أن يلقي الموت باسماء . فأصبحت سينما اليوم بهواً فخماً فسيحاً يجلس
فيه مئات النظارة على مقاعد وثيرة وتبدو امامهم المشاهد احياناً
بالألوان الطبيعية وأشخاصها يتحرّكون وينطقون . ولم ارتح البتة
لرؤيتي صندوقاً من ذلك العهد البائد في حيّ فرن الشباك لانه افسد
حكمي عليه بالانقراض

ومرنا اليوم (وهو اللفظ الذي اصاب في اطلاقه على « التلفزيون »
عبد الرحمان باشا المهدي السوداني) وقد اشتقه من فعل « رنا » الذي
يفيد الرؤية والسماع في وقت معاً) لا يختلف في جوهره عن « خيال
الظل » وهو كناية عن تمثيل يقوم به شخص واحد من وراء ستار
ابيض شفاف يُنصب في دار عمومية او قاعة منزلية رحبة ويتخذ
اشخاصه من أشباح مقتطعة من الكرتون يحركها تبعاً لمقتضيات الدور
باسياخ حديدية مثبتة في رؤوسها وينطق بلسانها بمختلف النبرات

واللهجات . وهي عملية تقتضي من المهارة والدقة اضعاف ما يحتاج اليه اليوم عارض الرسوم المتحركة .

ولا نجد في ذلك العهد أثراً للثلاجة والهاتف والمذياع ، وسواها الشيء الكثير مما يزعم جلُّ معاصريّ أن لا سبيل الى العيش بدونه ، ناسين او متناسين ان آباءهم وأجدادهم الذين لم يتمتعوا بأيّ من هذه « النعم » عاشوا اسعد منهم حالاً وأهنأ بالاً وأنجبوهم لكي يطاولوهم ويزدروهم وينسبوا اليهم بعد عشرات السنين ومئاتها الجهلّ والعجزّ وقلة الحيلة . وأنا أوكد لجميع اولئك المفاخرين بتفوقهم المعتدّين بذكائهم ، مع أنّ ليس بينهم مخترعٌ واحد ، انهم لا يتمتعون بمستحدثات عهدهم على اختلافها جزءاً من تمتع اسلافهم بهاتيك الملاهي البدائية الساذجة . وعلى ذلك فانا اعيش مستغنياً عن جُلِّ ما يزعمون أنهم يتمتعون به تضامناً مني مع أولئك الآباء والأجداد دون ان أشعر بشيء من النقص او الغبن .

إنّ الشاعر الذي قال :

من تردّي برداء ما رآه لأبيه
سوف يأتيه زمانٌ يتمنى الموت فيه

لم يقصد انكار التطوُّر والارتقاء وإنما يؤخذ من قوله أنه من اعداء الطفرة والمغالاة في الجنوح عما الله الآباء والأجداد الى حد السخرية منهم ، ورحم الله ابا العلاء القائل :

وقبيحٌ بنا وإن قدّم العهدُ هو انّ الآباء والأجدادِ
ومعنى التدرُّج أن يأخذ بالجديد الاحداثُ اللبَنُو العود القابلون
بطبيعتهم للتكيف فيألفونه ويصبح عندهم ملكةٌ ، وهذا ما لا
يستطيعه الذين قسا عودهم ورسخت فيهم الملكات الى حد ان أصبحت
جزءاً من كيانهن ، فاذا هم خالفوها بدوا كالقيح المتحالي .
والقاعدة الطبيعية هي ان يقتفي الأبناء خطى الآباء ويعملوا بوحيمهم

فيسيروا بتمهل يقيهم العثار . اما سير الآباء خلف الابناء فمخالف
للقاعدة الطبيعية ولذلك لا يعين عليه الطبع . وكـم هو قبيح بالأب ان
يقلد ابنه وبالأُم ان تقلد ابنتها ، ذاك في تعلم الرقص وهو حطبة
يستحيل عليها ان تمس كالفن الرطب ، وهذه في التصابي بعد ان
أصبحت زهرةً متفتحةً لا قبل لها بأن تعود برعمة .

اما مضمار الانطلاق والاسترجال الذي جلّت فيه المرأة العصرية
الى حد يكاد لا يصدّق فأقابله بما كان يقصه علينا في صغرنا كبارنا وهو
أن عصر جدّاتهم كان عصر خفر ووصون الى حد انه لم يكن يسمح
للخطيب بأن يرى حتى خفّ خطيبته التي كان يعشقها بالسمع اذ هو
كان يستعير للتثبت من محاسنها عيني امه او احدى نسيباته . وكثيراً
ما اتفق ان كذّبت العين ما سبق الى الأذن من رائع الوصف فأنهم
الشابُّ أمه او نسيبته بالتواطوء عليه . وبما روي لنا عن أحدهم أنه
عندما رفع القناع عن وجه خطيبته بعد ان أصبحت زوجه شرعاً وعرفاً
وجده ابعـد شيء عما وُصف به ، ولكن بعد التحرّي تبّين له انه كان
فريسة خداع اهل العروس الذين دسّوا أختها مكانها .

فأين هذا الذي يحسبه ابناء عصرنا حديث خرافة بما صرنا اليه ، لا
اليوم بل من زهاء ثلاثين عاماً ، وسجله الشاعر القرويّ في مطلع
إحدى روائعه النقدية الصائبة بقوله :

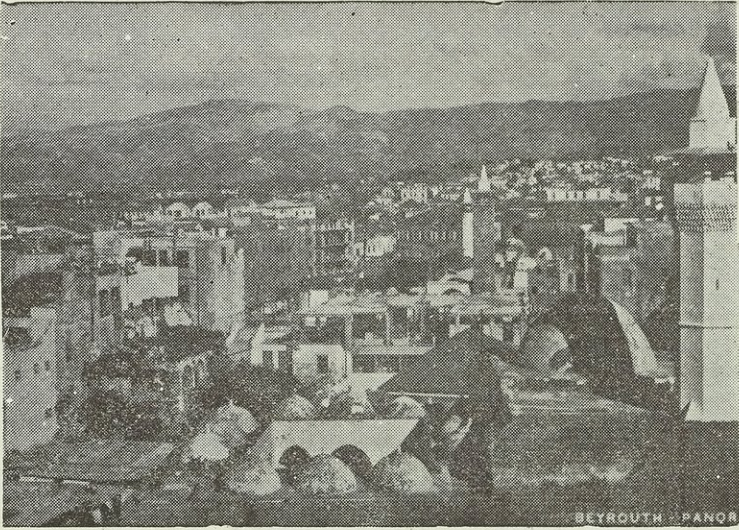
لحدّ الركبـتين تشمّرـينا برّبك أيّ نهرٍ تعبـرينا

اما اليوم فلم يعد يقول شيئاً لأنه صُعق مثلي والقي سلاحه ، ولنا
أسوةٌ بمن خاب قبلنا من دعاة الإصلاح

هذا يا قارئ العزيز قليلٌ من كثير مما اراه انا رجل الماضي الذي
يعيش في الزمن الحاضر دون ان اتعدى في السرعة ركوب القطار
الذي استحدث في بلادنا على عهدي وركبه والدي من قبلي . ولو لم
يتوفّه الله قبل مجيء السيارة لأبـت ركوبها قبل ان يسبقني هو اليه .

اما الطائفة فما شأني بها وأنا من عهد الحمير ؟
اما من الوجهتين الأخلاقية والاجتماعية فأؤكد ان ما من موبقة
ترتكب اليوم إلا كان ابتداء زمانني يرتكبون مثلها ولكن على قلة
واستحياء بينما يكاد ارتكاب المعاصي يعم ويصبح من دواعي الاعتزاز
والافتخار كما أصبح التمسك بالفضائل من مستوجبات الحجل والاستتار
والموالم حقاً اننا قد استسلمنا بكليتنا للمال واتخذناه من دون الله
معبوداً فأصبح تفلستنا من جاذبيته اصعب من تفلستنا من جاذبية الارض
دون استثناء من نذروا العفة والفقر .

« درة نايح آل عثمان »



(مشهد من مدينة بيروت مسقط رأسي)

نشأتُ ويبروت في خيالي مدينة السحر والجمال وحيي لها عاطفي
يكذب السمع والبصر في ما قد يكبح من جماعه او يدلل من حدته
وشدته . فصح بي في حبها القول المأثور : « والأذن تعشق قبل العين
حيانا »

وكانت محدثتي عنها شقيقي التي سبقتني الى معرفتها فلا تني كلما
عادت منها تشف سمعي بأوصافها ، مطريةً ما شاء لها الاطراء بجورها
وجبلها وجمال ابنتها ومتنزهاتها ولطف اهلها وظرفهم وسحر حفلاتهم
ومجالسهم الأدبية والفنية وطرافة مداعباتهم ولهوهم .
وبديهي ان تلك الصور لم تكن تسلم من شائبة الغلو ولكنه غلو

مفتقرٌ لفتاة لم يكن في مقدورها ان تتعدى الدائرة الضيقة التي حدّدها لها حرصُ الأقرباء او ترتاد أفقاً ارحب من ذلك الذي أحاطها به احترامهم للتقاليد ورعيهم للعادات .

ولكن اخيراً جاء دوري فأمتها في احد ايام خريف ١٨٩٥ ورحلت منذ اليوم التالي لوصولي أطوف في ارجائها مستطلعاً مستقرباً وظلت أوّماً عاماً بعد عام وأقضي فيها الأيام والأسابيع والاشهر حتى آخر عهدي بها وهو احد ايام خريف ١٩٠٩ دون ان الحظ فيها ، في تلك الفترة غير القصيرة من الزمن ، تطوّراً يُذكر فكأنها تمثّل لا حياة فيه تعينه على الحركة والنمو ، فباستثناء بعض القصور والدور المحاطة بجدران بدیعة التنسيق كانت ابنتها عادية لا تستلفت النظر ، وفي جلّ احيائها ما يُنجّل من المباني الرثة المتداعية القائمة الى جانبي ازقة ضيقة متعرجة ، وليس فيها من الساحات ما يستأهل شرف هذه التسمية سوى ساحة البرج ، وكانت تضيق بحديقة « المنشية » التي تتوسطها . اما معظم وسطها التجاري فقد كان يمتاز بالضيق والرتانة والقذارة ، ووسائل الانتقال فيها لا تعدو الأقدام للمكرهين على التعرّض للغبار الثائر صيفاً والوحل المتطاير شتاءً ، او المركبات التي تجرّها الخيول يركبها القادرون فيسلمون ويكون فريستهم المشاة الذين يتعرضون لما تقدّم ذكره من المخرجات ، وكثيراً ما كنت احد هاتيك الفرائس في تنقلاتي بين الكلية الاميركية في رأس بيروت ومحط رحالي في وسط المدينة ، ومع كل ذلك استأهلت لقب « درّة تاج آل عثمان » . فاذا كانت وهذه اوصافها درّة فلست ادري ماهي الصدفه .

ولكن شيئاً مما ذكرت لم يكن ليرخص قيمتها في نظري لأنني ما كنت قد عرفت قبلها سوى معلقة زحلة ، وهذه كبلة ريفية متواضعة لم تكن لتصلح صدفةً لها .

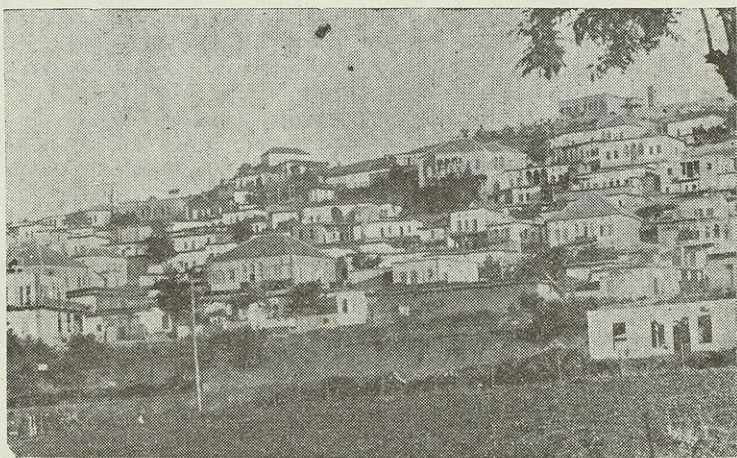
على انّ ما كان حريّاً بان يغض من محاسنها ويفقدها خلابتها هو

ما تكشفت لي عنه من فقدان العدل والنظام والأمن مما كان يُضُّ السَّكان في سرِّهم ولا يكتفون بنفيه في جهرهم بل يعكسونه بتسييحهم بحمد ألي الأمر وإطرائهم لسهرهم وتيقظهم حرصاً منهم على راحة الرعية ورفاهها ، كاتبين الفضلَ في هاتيك النعم كلها لطاغية ذلك العهد الموبوء عبد الحميد الثاني الذي لقب بحق « بالسلطان الأحمر » ، وإلى القارئ قطعة من البيان « العالي » كتبت في تمجيده عام ١٩٠٤ بمناسبة إناعام الله ، على رعيته لا عليه ، بمولود جديد ، إذ لم يكن جائزاً ان ينعم أحدٌ على جلالتة بشيء ولو كان المنعم الله عز جلاله :

« انعم الله تعالى أمس على الامة العثمانية جمعاء بأكرم مولود من أشرف سلالة تحدّر منها القابض بيمينه على صولجان السلطنة العثمانية والمتقلد زمام شؤونها السنية ، ملك البرّين وخاقان البحرين المحفوف بملائكة السلام والنصر والمطاطئة امام عرشه الانور هامة الدهر . ألا وهو سيدنا ومولانا بلا امتنان السلطان ابن السلطان السلطان عبد الحميد خان الذي أنام الأنام في مهد من الأمن فترعت الرعية في أيامه بالعزّ والإناعام فلا بدعَ إنْ هي أعدت ما أعدته جلالتة من اسباب التكريم والتمجيد ودعت لملكه السعيد بدوام العزّ والتأييد »

وبقيت بيروت عروس احلامي أوثر الإقامة فيها وأستسيغ كلّ ما تعافه نفسي من مساوئها لكي لا يفوتني التمتع بهاتيك المجالس الأدبية التي كانت تُعقد فيها وتضم خيرة رجال الفكر والأدب والظرف ، ولأن ما رسخ في ذهني من مفاتها كان الأسبق وقد عجز عن محوه واقعُ السمع والبصر كما قدّمت .

عروس السهل



(مشهد من معلقة زحلة حيث نشأت وريت)

والحق يقال ان المعلقة فردوس ارضي ، أفليست هي عروس السهل المتصلة بزحلة عروس الجبل ؟ أليست آية الجمال والجلال بأبنيتها المدرجة وطرقها المصعدة المتعرجة ، ينساب الى يمينها فرع من البودوني قامت تحته الرياض الظليلة التي يخترقها نهر البودوني نفسه فيشطرها شطرين ويجعل من اشجارها الباسقة سربين من العرائس الدائمة الترائي في صفحته الصافية ، ارضين من الجبايرة يذودان عن حياضه ويحضان به إكباراً واجلالاً وهو لا ينفك عن السير باندفاعه وتهداره الخفيف شتاءً وبطئه وخريبه العذب صيفاً ، جارياً على حصباء كالدُرّ تداعب مياهه الصافية النسمات البليلة التي تتهادى ابدأً بين معاطف ذلك الوادي الفتان ؟ والى يسارها البيارد التي هي ملاعب أنسٍ وهو وصفو في معظم ايام العام وتصبح اوفرَ جمالاً وقتئذٍ إذا ما جمعت فيها اكداس المحاصيل وقام

الفتيان والفتيات والأولاد يمهدونها بنوارجهن ويوسعونها دوساً وضغطاً حتى تتحوّل بالتدريّة الى اكوام محبوب ذهبيّة . وما كان احلى هاتيك الاكداس والأكوام يستظلّ بها المتعبون والقائلون والعاشقون .

وراء البيادر التلال المزركشة بالكروم البديعة التنسيق التائيّة بما تحمله من العناقيد الدرية التي ذهبت الطبيعة في صوغها كلّ مذهب وخلعت عليها من زاهي الألوان وفاتنها حللاً لم يتشع بمثلاً محبّب وما الطف هاتيك الحيام المعلقة المبتوثة في أنحائها ينقطع اليها المصطافون يعيشون منها على سداجتها في قصور فهي مقيلهم ومبيتهم لا يغادرونها إلا لاقتطاف الاثمار الشهيّة والتمتع بالصيد لاهين عن كلّ ما يمرّ العيش ويقضّ المضاجع من التراحم والتكالب الدائرة رحاها في الأوساط التي نسيها اصطلاحاً تمدّنة . فإذا ما شعروا بالعطش وردوا خيراً ما يشفي الغليل من العيون والسواقي الجارية في أنحائها والمتبارية بعذوبتها وصفائها تباريا في سرعتها وإبطائها .

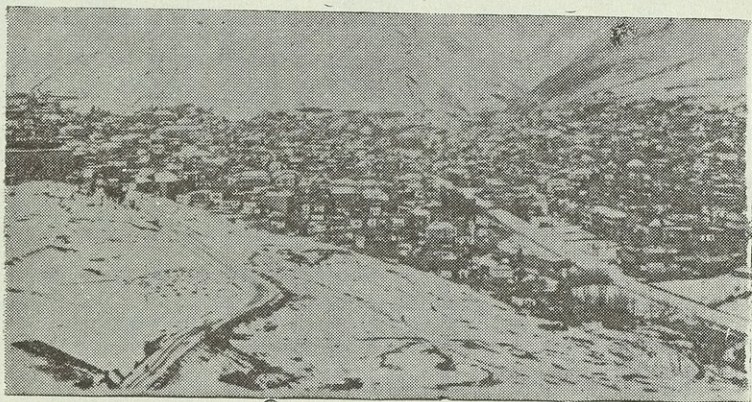
وأمامها صفحة هي أجمل من كلّ ما ابتدعه الفكر وأبلغ ما خطته يد الإنسان على وجه ذلك السهل الخصيب من البساتين التي تنمو فيها أنواع الأشجار المثمرة والخضر الشهيّة ، تتلوها الزروع المتماوجة المتحوّلة وويداً من نضرة الرجاء وخضرته الى صفرة البلوغ او سمرته .

والقيّمون ينامون على السطوح صيفاً تحت سماء صافية مرصعة بالبدر والنجوم وينهضون عند الفجر فيؤمّون الساحة ليلتهموا الفواكه الشهيّة الآتية لساعتها من السهل ، فإذا ما جاء الشتاء أتى دور التمتع بالسهر والسمر حول الموقد في جوّ يشع فيه الصفو ويزينه ارتفاع الكلفة وراجت سوق الالعب والنكات والاحاديث العائليّة التي تنتهي بالترويع حول مائدة مثقلة بكلّ شهيّ من الحلوى والفاكهة .

والعيش سهل والكسب الذي يفي بالحاجة ميسور لتوفر الصحّة ووفرة النشاط ، وأسباب الرغد تحصى بالعشرات والحيل على إحلاء الحياة

لا اعداد لها ولا نفاد ، فمن سيارين على ضفاف النهر والجداول والسواقي
والعيون في الكروم والبساتين وعلى الضفة في زحلة ، الى رحلات دورية
الى البلدان والقرى المجاورة وكلها تتبارى حسناً وتتيه جمالاً ، على الاخص
في ايام المواسم والاعیاد اذ تؤمها الجموع من مختلف الانحاء وفي جميعها
يجد الزائر المأوى والقرى وحسن الوفادة كأنه تعوض عن اهل باهل
واخوان باخوان في حين انه كثيراً ما لا يعرف مضيفه
أفليس هذا هو التضامن الانساني الذي ينشده الغيرون والاشتراكية
الحقة التي يتبجح بتعشقها الأنانيون ؟
هذا هو الفردوس الذي فقدته وما عشت في مكان الا حننت اليه .

عروس الجبل



(مشهد شتوي رائع من زحلة عروس الجبل ومقل الحرية)

إذا اعتبرنا المعلقة بمثابة اللباس اليومي كانت زحلة لباس العيد ، او
كانت تلك غرفة الطعام كانت هذه غرفة الاستقبال . لا بل ان سكان
المعلقة كانوا يشعرون شعور بني اسرائيل في مصر ايام كانت هذه لهم ارض
العبودية فاذا ما انتقلوا الى زحلة خالوا انفسهم كبني اسرائيل عندما

انتقلوا الى ارض الموعد التي تفيض لبناً وعسلاً .

وما ذلك لان زحلة كانت الافضل من حيث توفر حاجيات المعيشة وسهولة الحصول عليها بل بالعكس لان المعلقة كانت لزحلة كالأهراء لكل ما تحتاج اليه هذه من حبوب وبقول وخضر ووقود ، او بمثابة الميناء لكل ما يرد من الخارج من الحاجيات الأخرى ، فكل شيء كان يجب ان يبلغها قبل زحلة ، كما انها كانت الممر الوحيد الذي لم يكن للزحليين بدٌّ من اجتيازه الى بساينهم وحقوقهم في السهل حيث يزرعون ويحتمون ويحصدون ، والى دار حكومتها كقصة البقاع حيث يجرون المعاملات المختلفة ويؤدون الضرائب والرسوم مما يكون ويحتمون ، والى سوريا والعراق وبر الأناضول لاستجلاب الأغنام .

ولكنَّ السبب الحقيقي الذي كان يزين زحلة في عين اهل المعلقة هو ان هذه كانت موطن الظلم والاستعباد حيث تطأطأ الرؤوس وتحنى الركب ويُصفع الحُدَّ الامين فيحوّل الأيسر ، بينما كانت زحلة معقل الاباء وموطن العزّة والكرامة ، فيها يتنشق المرء نسيم الحرية ملء رئتيه ويؤمن بالآية القائلة إن الله خلق الانسان على صورته ومثاله . لذلك كان الحد الذي يفصل بينهما حداً بين النعيم والجحيم

هذه هي زحلة التي كان يؤمها سكان المعلقة ايام الآحاد والأعياد صيفاً فية ذاعف تمتعهم ، لا لأن بلدتهم يعوزها الجمال بل لانها كانت تنقصها الحرية ففي زحلة كانت تُشجذ العزائم وتتغذى الارواح وتنتعش النفوس ، حتى إن موظفي الدولة من ادانهم الى اعلامهم كانوا ينالون فيها البرء التام من غطرستهم وقسوتهم وقحتهم ويتحولون من ذئاب خاطفة الى حملان وديعة .

هذا هو فضل زحلة على المعلقة ، وهو فضل لا يعدله كلُّ ما في الارض مما يكسو الجسوم ويملأ البطون ، لان النفوس اذا ذلّت فعلى الراحة والتمتع والهناء السلام ولو كان المقام في النعيم .

فَرْجٌ مِنْ شَجَرَةِ سُلَالَتِهِ

(في ان الارث سم يتركه المورث للوارث)

كانت جدتي لابي امرأةً حكيمة مدبرة صارمة في تربية بنيتها
صبورة على المكروه لانها بعد ان ذهب جدي يوسف ضحية حوادث
سنة ١٨٦٠ في حاصبيا تاركاً لها اربعة ايتام اكبرهم في الثامنة ، وهم
اعمامي اسكندر ومهنا واندراوس ووالدي فضل الله ، وهو ثالثهم ،
قدمت بهم مع من قدموا الى بيروت من منكوبي وادي التيم
واستطاعت بما خبأته لليوم الأسود وما اصابها من التعويضات أن
تربيتهم تربيةً صالحة وتزودهم بقسط لا بأس به من العلم الذي فتح
امامهم طريق العمل والارتزاق

اما جدي لأمي فكان يونانياً من جزيرة قبرص يُدعى يني
بابادوبولس ، قدم منها الى دمشق ككاتب اسرار للبطريرك الانطاكي
لروم الارثوذكس ايام كان جميع اساقفة الكرسي من اليونان . وبعد
ان اقتون بفتاة من أسرة عبود انتقل الى بيروت كوكيل للبطريركية
وحلّ داراً تتسع لسكنه وعمله واستضافة المطارنة ، يتصل بها عند
مدخلها صفٌّ من الغرف لمبيت من يصحبهم من الاتباع والخدم ،
امامه فناء رحب وخلفه حديقة للخضر والازهار والاشجار المثمرة .
وأنشأ في سوق الحميدية مكتبةً اطلق عليها اسمه وأنجب ثلاثة

ذكور وثلاث إناث ثالثتهم ماريغو والدقي . وكان شديد التعلق بموطنه ولغته بحيث اكسب اولاده جميعهم الرعوية اليونانية وعلمهم لغة هوميروس . وظلَّ على اتصال وثيق بأنسابه في قبرص يرأسهم ويأمرهم ، واستمرت هذه الصلة وانتقلت من بعده الى بنيه وحفدته وكان يباري في صلاحه وتقاه خيرة ناذري العفة والفقر من علية رجال الكهنوت كما اشتهر واصبح مضرب المثل في الصبر وطول الاناة وصون اللسان الى حد انه اذا اتفق ان اخرجه حادث ما عن وقاره فقال بلكنته اليونانية « يخزي كوثته شيطان » تناقلت الالسنه النبأ وأجمع عارفوه على ان يني في ذلك اليوم سب الدين !

وخلفه في ادارة المكتبة بكره عبده وجرى على خطته في يوننة اولاده جنسية ولغة ، وكان على حق اذ ان الناس كانوا في ذلك العهد يهربون من الرعوية العثمانية هرب السليم من الاجرب . ولم يشذ منهم سوى قسطنطين ولكنه بدلاً من ان يتروك استعرب فانصرف الى الادب والصحافة ثم انعكس في السياسة وتعرض لمثل مصير صديقه الحميم باتروباولي ورفاقه البررة فقرَّ الى الحجاز ولجأ الى المغفور له الملك الحسين فلقني عنده حظوة . وهناك اطلق لحيمته وأصبح يعرف بالشيخ قسطنطين ورافق صديقه الحميم امين الريحاني في بعض رحلاته في بلاد العرب واليمن .

ويعينني من هذه الشجرة ثمرتان هما خلاي تقولا وإفجنيا لما كان لهما من اثر في حياتي وما في سيرتهما من عبرة لسواي :
لقد جنى عليهما وهما بعد في سن الزهو والطيش إرث لا بأس به في ذلك العهد انتهى اليهما بأكمله من خال لهما اسمه اسكندر عبود بفضل تنزُّل بقية أشقائهما عن أنصبتهم فيه فتمتعا به عن المرحوم وعاشا عيشة بذخ وترف حتى اتيا عليه في سنوات معدودة . ذلك أن خالي اصبح بعد تلك البجوحة العارضة يستقل كل كسب ويستعين بكل

عمل ويرى من الغضاضة أن يعلوّه من كان بالامس دونه برغم اهليته
ككاتب حسن الخط والانشاء ملّم بالحسابات التجارية . وخالتي التي
كانت على جانب من الجمال باتت لا تجد لها كفوءاً بين الطلاب العديدين
الذين كانوا يطرحون قلوبهم على قدميها فلا تقابلها الا بالاعراض
والازدراء . وبحكم إملاقهما معاً راحا يعيشان شبه عيّلين على أخيهما
الاكبر حتى جاء خالتي خاطباً شخص اسمه حبيب النجار من أسرة
طرابلسية يحترف المحاماة في الاسكندرية فرأت فيه وقد لان منها
الجانب وقسا العود الزوج المنشود ولكنها تاملت بعد ايام معدودة ،
لا فقداً بل هجراً ، إذ أن ذلك الزوج المرتجل كان من دناءة الطبع
بحيث هجرها عائداً الى مقرّ عمله في القطر المصري وعجزت عن رده
كل حيلة ووسيلة ، وفي جملتها توسط الاهل والأنساء الذين زارهم
الزوجة المهجورة في مقرّهم في طرابلس وعادت وكلّ عزائها أنهم تنصلوا
من سلوك الزوج الشائن وشاطروها ألمها واستياءها منه .

ولم تتحمل اعصابها صدمة الهجر تتلو صدمة الفقر فأصبحت نارية
الطبع حادة المزاج الى درجة لا تطاق فتغضب لسبب ولغير سبب
وتصاب بصداع شديد يلزمها اياماً ولا ينجع في ازالته علاج . على
انها كانت اذا ما زایلها تصفو ويعود اليها زهوها فتعقد مع مهجورتين
مثلها مجالس تروج فيها بينهنّ سوق الدعابة والتعابير والتفاخر وبناء
القصور في الهواء بأساليب رقاعية تشوق وتروق اذ كانت كلّ منهنّ
تنافس نديتها مؤكدةً لهما ان زوجها الهاجر لا شكّ عائداً اليها تاباً
. مسترضياً فيسكنها بيتاً فخماً مستكملاً اسباب الرفاهية ويغدق عليها
آنق الملابس وأثمن الحلى .

وكان خالي نقولا آتياً في النظافة والاناقة واللباقة والترتيب شديد
العناية بمظهره وهندامه يداوي إملاقه بمراعاة قواعد الاقتصاد الى ابعد
حد ممكن فلا يعتمد على احد في ما يستطيعه كتنظيف ملابسه ورتقها

وكيها وحلاقة ذقنه ومسح خذائه وطهي بعض ما تشتهيه نفسه من
المآكل بأقل نفقة ممكنة ، كما كان يُعدُّ لفائفه من أرخص انواع التبغ
التركيّ المهروم ويجعلها من النخافة بحيث تشبه منقب الاسنان

وكان مركبه نعلاه حتى في رحلاته الى الجبل صيفاً حارماً حقيبة
يدوية يودعها كلَّ ما يحتاج اليه حتى الابرة والحيطان والكسبان
والمقص ومفتاح علب المحفوظات ويقصد كلَّ أسبوع الى ناحية فيتمتع
تمتعاً حقيقياً بنفقة زهيدة يبذل اضعافها القادرون دون ان يظفروا بجزء
زهيد من تمتعه .

ومن افضاله عليّ اني اخذت عنه الشيء الكثير من صفاته واساليب
عيشه وأصبحت بذلك مخولاً .

مَرَاخِلُ حَيَاتِي

مولدي - بموجب تاريخ مدوّن في صفحة مهمة من توراة قديمة كانت عندنا وُلدت في الحادي والعشرين من الشهر العاشر من سنة ١٨٨٣ ولكن بعد زمن أكدت لي نسبة حضرت ولادتي أن هذا التاريخ مغلوّط فيه وأنني وُلدت فعلاً في الشهر الثالث لا العاشر من ذلك العام فلم اتردّد في إقرار قولها وإلغاء التاريخ المدوّن في توراتنا ، أولاً لأنني لا ارى شيئاً من الحكمة في التصابي واختزال أية مدة من العمر لعلمي أن كلّ ما يمكن أن أجتنيه من ارتكاب مثل هذه السخافة الشائعة لا يعدو أن اعيش ما عشتُ مخدوعاً وخادعاً وأموت قبل أجلي المحتوم وأبكي شاباً وأنا كهل او كهلاً وأنا شيخ ، وثانياً لأن الفرق بين التاريخين زهيد ولا يمكن ان يهيم أحداً من الناس ان اكون قد ولدت في النصف الاول او الاخير من عام ١٨٨٣ .

المهم انه في احد هذين التاريخين المتقاربين من ذلك العام اتيت الى هذا الوجود وكانت ولادتي في مدينة بيروت وُسّيت توفيقاً فكنت في عداد الكثيرين الذين تخالف اسمائهم مسمايتهم .

هجرتي الاولى - ولكن قبل انقضاء العام الثاني على ولادتي قضت الاقدار بأن تكون نشأتي في بلدة خاملة بدلاً من ان تكون في مدينة زاهرة لان والدي كان قد اعتزل ضمّار التجارة وآثر مكرهاً العيش في تلك البلدة من شق القصة .

دراسي الابتدائية - دخلت وانا بعد في الرابعة مدرسة ابتدائية فلم يكن الحفظ صعباً عليّ برغم عقم وسائل التعليم في ذلك العهد . وبعد عامٍ وبعض عام اقتادني رفاقي الى بيتنا مكتوفاً ايذاناً بتخرّجي من المدرسة الارثوذكسية . وعندما رأني والدتي اعتنقتني ودموع الفرح تطفّر من عينيها ثم حلّت وثاقي ووزعت علي رفاقي حفنات من الزبيب والقضامة

وغبّ وفاة والدتي دخلت المدرسة الانجيلية حيث مجال التحصيل ارحب وفيها لبثت خمس سنوات أتهلت نفسي في ختامها لدخول الكلية السورية الانجيلية في ذلك العهد والجامعة الاميركية اليوم .
دراسي الثانوية - دخلت الكلية قبل ان ابلغ الثانية عشرة ، وكان ذلك في خريف سنة ١٨٩٥ . ولأسباب سيأتي ذكرها غادرتها في نهاية السنة المدرسية ولم أعد اليها الا سنة ١٩٠٢ ، وفي صيف سنة ١٩٠٣ نلت شهادتها الاستعدادية . وفي غضون مدة الانقطاع عن الدرس قمت برحلة قصيرة الى الاسكندرية سيأتي ذكرها .

هجرتي الثانية الى القطر المصري - في خريف سنة ١٩٠٣ أمت القاهرة حيث لبثت حتى العشرين من شهر تموز سنة ١٩٠٤ ، وهو اليوم الذي ركبت فيه القطار قاصداً الخرطوم كموظف في حكومة السودان .

هجرتي الثالثة الى السودان - قضيت في هذا القطر عشر سنوات أتمت جلّ السبع الاولى منها في الخرطوم والثلاث الاخيرة في بورت سودان . تُستثنى من المدة الاولى اربعة عشر شهراً وهي الزمن الذي استغرقته مأموريتان وقتيتان قمت بهما : الاولى في واو حاضرة مديرية بحر الغزال والثانية في مركز رفاعة من اعمال مديرية النيل الازرق ويستثنى ايضاً عامٌ كامل هو مجموع العطلات الثلاث التي قضيتها في ربوع لبنان في غضون السنوات ١٩٠٥ و ١٩٠٧ و ١٩٠٩ . وتُستثنى

من المدة الاخيرة عطلة شهر قضيته في الخرطوم وأربعة اشهر قضيتها في بروكسل عاصمة بلجيكا سنة ١٩١٢ .

هجرتي الرابعة الى البرازيل - في شهر شباط سنة ١٩١٤ اعتزلت الخدمة نهائياً وغادرت السودان قاصداً بروكسل ثانية حيث قضيت خمسة اشهر ومنها بطريق امستردام في هولندا الى البرازيل التي وصلتها في الثالث عشر من الشهر العاشر من ذلك العام عنه .

هجرتي الخامسة الى تشيلي - بعد أن قضيت في سان باولو حوالي عشرين عاماً اقترنت في غضونهما وأنجبت، وأمت مراراً العاصمة الاتحادية وبعض الحواضر والبلدان الشمالية والجنوبية تسنت لي هجرة خامسة الى جمهورية تشيلي بطريق بوينوس سايرس عاصمة الارجننتين حيث قضيت ثلاثة اسابيع ، وكان ذلك في شهر شباط سنة ١٩٣٤ ، وعدت منها بطريق مضيق مغاليانس في شهر نيسان سنة ١٩٣٧ ، بعد أن اقامت طويلاً في عاصمتها سنتياغو وذرعتها شمالاً وجنوباً وأمت عدداً كبيراً من مدنها وقراها .

وفي سان باولو حطت ثانية عصا الترحال حتى كانت رحلتي الاخيرة الى لبنان ، ولست ادري ما يجنبه لي القدر ، خلا الرحلة النهائية المحتومة .

من الاعمال الى التقاعد

(مساوية الانتساب وما يولده من مساوية)

كيف نشأت - كان والدي في عهده وفي محيطه من خيرة الكتاب والمنشئين ، حسن الخط عارفاً بالحساب خليعاً من علم الحقوق مما أهله للوظيفة الحكومية التي شغلها في المعلقة وأضاف اليها بدرايته ودربته

بضع «هن فرعية تدرُّ عليه بعض الكسب علاوة على مرتبه الذي لم يكن ينبي مجاحته ، وكان فوق ذلك محدثاً لسناً وراويةً ذا حافظة نادرة ، كما كان يجيد الانشاء ويحسن الضرب على العود . ولكنتي اذكر ان كسبه كان يتراوح تراوحاً هائلاً فيلعب احياناً بالذهب وتقوته في سواها الفضة ، وكنت انا وسواي من افراد العيلة ناعم ونشقى تبعاً لذلك التراوح .

وكانت مزايي والدي الآتفة الذكر ينعكس تأثيرها عليّ وينالني بفضلها ما لم أكن استحققه من عطف ورعاية الجيران والأصدقاء والمعارف ، فقد كنت ابن الافندي وكفى .

ولم اكن مقصراً في استغلال منزلة والدي في قلوب القوم فكنت منذ حدثتي احضر كل اجتماع ولا تقوتي وليمة او جلسة طرب ، ولا يثني شيء عن التباري في مضمار البحث او الجدل على قلة بضاعتي وضعف رأيي وركاكة أسلوبي فينالني من والدي ما لا أرضاه ولكن على غير طائل . وكنت في كل ذلك مستثنى عن جميع اترابي من ابناء الموظفين الآخرين وسواهم من مختلف الطبقات . وهكذا نشأت مستقلاً الرأي بشيء كثير من الغطرسة والعناد والدعوى الضاربة الممقوتة وهي داء خبيث فتأك قمت على معالجته منذ بلغت سن الادراك حتى اليوم ، وانا اعلم وإن جهل او تجاهل الناس أنه لا تزال في منه بقية اما الداء الآخر الذي تأصل في نفسي منذ حدثتي فهو ازدراء بيئي والطموح الى العيش في البيئة البيروتية التي رسمت منها في ذهني اجمل صورة تستهوي الحدث الذي كنته ، متخذاً الوانها الخلابة مما كان يقع في سمعي من اوصافها على ما قدّمت ، بحيث كنت في معلقة زحلة العائرة جسماً وظلاً وفي بيروت الزاهرة روحاً وعقلاً ، فما كان اشبهني بنبتة لم تكد تبرز الى الوجود وتستقبل اوراقها النور والهواء حتى اقتلعت وغُرسَت في تربة جديدة . إنها بالطبع لا يمكن أن تنمو النمو

المطلوب ، وهذا ما حدث لي في مستهلّ عهدي بالنموّ والتطوّر فلا عجب أنني عندما بلغت العاشرة كنتُ أوْرُخ رسائلِي الى انسابِي البعيدين هكذا : عن « جهنم » !

آرائِي ومبادئِي — اما آرائِي ومبادئِي فقد استمددتها من سماء الخيال التي كنت دائماً وأبداً محلّقاً فيها ، وعلى هذا الشكل عشت في محيطي غريباً أحدثّ الناس بلغة لا يفهمونها وأسمع منهم ما لا اجد له في قاموسي مرادفاً او تفسيراً : كنت اكره الكذب وهو في عرفهم « ملح الرجال » ، والاخلاف وقاعدتهم الماثورة فيه : « الف قلبه ولا غلبه » ، والعبودية وآيتهم في احتمالها : « الايد اللي ما بتقدر تعضها بوسها وإدعي عليها بالكسر » و « الارض الواطيه بتشرب ميتها ومية غيرها » . فلا عجب إذن أنني كنت بينهم عنوان البلاهة يشفقون بسببي على والدي وهو بدوره يشفق عليّ ويتنبأ لي بسوء المصير اذا انا لم أقلع عن عنادي وأجارِ الناس في ما لا يرون سبيلاً الى العيش بدونه من المرونة الخلقية والرياء المألوف . وقد صحت نبوءته عليّ لا في ذلك المحيط الساذج فقط بل في كل مكان نزلته وصقع حللته ، ولا استثني بيروت عروس احلامي !

يكفي لاثبات ما تقدّم كمثال على الشذوذ الذي كنت ارتكبه ويُكتب لي كأكبر الجرائم أن والدي كان احياناً يوصيني بتضليل من قد يجيء في طلبه فكنت بدلاً من ذلك أصارح القادم قائلاً إن والدي في البيت وقد اوصاني بأن أنكر وجوده

و كنت ابعد الناس عن المسايرة التي يُعبّر عنها بحسن السلوك فأكشف للناس كذبهم وأصارحهم بما تبدّى لي فيهم من عيوب فأوقع والدي في مأزق وأجرّ عليه عداوات وبنائلي منه التقرّيع وأحياناً الضرب وأنا راضٍ كل الرضى عن كل ما يصيني في سبيل الحقيقة التي قلّ نصراؤها في ذلك العهد ولا يزالون على ما رأيت وأرى حتى اليوم قليلين

والانصاف يقضي بالقول إنني في ما تقدم غيت السواد ولا بد لي من استثناء بعض أرباب العيال الذين كانوا في طليعة الآخذين بأسباب الارتقاء وقائمين على تهذيب اولادهم ذكوراً واناثاً في المدارس وفي كليات بيروت وسواها ، وكان الكثيرون منهم قد بدأوا يرتدون الملابس الافرنجية غير عابئين بما يصبو اليهم من سهام النقد ويتعرضون له من الرقاعة المخرجة بسبب تغييرهم زيهم الوطني ولبسهم « المزملك » . وفي طليعة ما اذكره كمقياس لاستهجان الرأي العام ذلك التطور الذي كان جارياً بسرعة مذهشة بين طبقتي الوجهاء والموظفين ان لاعب النرد كانت اذا سنحت له فرصة للتفوق على خصمه بلعبة اعانه عليها « الزهر » يخاطب نفسه بلهجة تهكمية قائلاً : « لبسه يا صبي فرنجي » !

وقد عرفت الكثيرين من الشبان الذين اصابوا قسطاً وافراً من العلم وتحلّوا بالأدب العالي والتهذيب الصحيح ونشأت بينهم وبينني صلات ودية مكيمة لم يقو البعد على فصمها ، وفي طليعتهم موسى حنا غور الذي أصبح فيما بعد وزيراً .

وكانت زحلة طبعاً الاسبق الى الأخذ بأسباب الارتقاء لما سبق لي ان ذكرته من العوامل والوسائل التي كانت المعلقة محرومة منها . على انه تبدى لي فيما بعد أنني كنت متسرّعاً في الحكم على محيطي البدائي الذي نشأت فيه إذ اثبت لي الاختبار وأرتني عين العقل في كل مكان أتمته او استوطنته ان الناس على اختلاف مراتبهم ومظاهرتهم كالناس الذين عرفتهم في ايام حدثي ومختلفون كل الاختلاف عن الصورة التي رسمتها منهم في ذهني . ولسوء طالعي وجدت في المدنيين كل عيوب القرويين بينما انا عهدت في هؤلاء خلافاً لاجدها في أولئك ، وفي طليعة هذه الحلال السذاجة والمروءة وصدق الود . وبعد ان أصبحت بعيداً عن موطن حدثتي ، لا أومه الا زائراً ، تحول في

نظري الى نعيم وغدوت اشعر شعور - جَدْنَا الاول بعد ان طرد
من الفردوس .

ولكن ما الحيلة وقد شاء لي القدر أن أعرضَ عن نصح والدي
لاأحرزَ قسطاً من العلم وأدأبَ وأعیشَ في وسط متمدّن . ومع اني
أمت مختلف الاقطار في قارّات اربع من هذا المعمور وعاشرت
وعاملت شتى الطبقات التي احرزت نصيباً وافراً من العلم والغنى والجاه
أراني وقد بلغت الحدّ الاعلى الذي وضعه داود لفسحة العمر - على
خلوّ عصر ذلك النبيّ والملك من جلّ شوائب المدنية الحديثة - لا
ازال متطلعاً متمسكاً لعليّ أظفر ولو بجبال المدنية الصحيحة التي قضيت
ربيع الحياة أتخيلها وصيفها وشتاءها انشدها

وبعد سعبي متواصل وجهديّ قاتل ظفرت برأس مال زهيد من
العلم زدته اضعافاً بالمطالعة والتنقيب والاقتباس والدرس على نفسي
لكي احيا في النهاية حياةً مكتبية مضمّنة مضنكة ، عائشاً لغيري
خادماً مصالح ومأرب سواي لقاء موردٍ ضئيل يكاد لا يفي بالكفاف
او كسب اعجف لا يعدو أن يمسك الرمق ويستتر العري ، وإذا سخا
منه المرء يوماً بما يسدّ مطلباً كمالياً عاد عليه إسرافه بالحرمان من
الضروريّ اياماً .

هذا هو اختباري ، لذلك اراني نادماً لانني لم اتّبع نصح والدي الذي
اشار عليّ كمختبر مخلص بان انصرف الى صناعة تدرّ عليّ كسباً أعيش
منه بهناءً بعيداً عن ضوضاء المدنية والعظمة الفارغة والاطماع العائرة ،
مما يتعرّض له كل طالب مجد في ايّ فرعٍ من فروع الاعمال الخارجة
عن نطاقيّ الزراعة والصناعة حيث الحرية الحقيقية والكسب المشروع ،
وإلا كان العمل عبودية والكسب بماء الوجه لا بعرق الجبين .

والغريب أنّي تعلمت صناعاتٍ عدّة وحذقت بعضها ولكنني ابيت
الاشتغال بها عملياً إلا بخسارة لوالدي أرغمته اخيراً على ان يلقي

لي الحبلَ على الغارب ويبدل من جهده وكسبه لينيلني بغيتي وهي أن
 اكون كاتباً حاسباً . اذكر من هذه الصناعات الصياغة والنجارة
 والحدادة والخياطة والسكافة ، وهذه الاخيرة تعلمتها في بيروت على
 طريقة نظرية ارستوقراطية ولم أزاوها وأحذقها إلا على حساب والدي
 ومنها استفدت في القاهرة ولكن بكل تكتم لئلا يراني أو يدري بي
 احد اصدقائي أو أنسبائي القادرين فأذوب امامه ، لسخاوتي ، خجلاً !
 وقد كان ذلك الى امد قصير لم يجاوز بضعة اسابيع ونتيجة عاصفة
 استياء او ثورة قنوط هبت في نفسي بعد اخفاقي المتكرر في السعي
 وراء وظيفة في حكومة السودان ، لا لعجزني بل أنفةً مني أن أباري
 أو أزاحم المئات من الطلاب المتهاقين على وظيفة واحدة بعد مضي
 أشهر لم يذر فيه لو وظيفة قرن او يُفتح لها باب ، وليس بين أولئك
 المتهاقين إلا كلُّ معدم تستتير حاله شفتي وتحرم عليّ ولو بالفكر أن
 انتزع تلك البلغة الحظيرة من فمه

وأبرز ما اذكره من حوادث اشتغالي بتلك المهنة أنه كان لي
 صديق أديب مثقف ولبق مذهب من اهل اليسار يُدعى حبيب حنا فريجه
 لقيني يوماً وكنت مُضرباً عن العمل موصداً الدكان فراح يرجو مني
 أن أصنع له حذاءً أفرغ فيه جهدي على أن اتقاضاه ما شئت . وما
 زال بي حتى لنت وأصخت الى ملتسمه ، ومع اني سمته ضعفي السعر
 العاديّ أبي الاّ أن يزيد عليه فارضاً على نفسه ليرةً فرنسوية بدلاً من
 اربعة ريالات . وعملاً بالمثل القائل : « لا تطعم العبد الكراع فيطعم
 في الذراع » زدت على شرطي الاول شرطاً آخر هو أن يجالسني
 فنتجاذب اطراف الاحاديث وتتناشد الاشعار طيلة المدة التي يستغرقها
 العمل فلم يكتفِ بالقبول بهذا الشرط الاضافي بل هو راح يستجلب
 من مقهى مجاور القهوة والاراكيل ومن مطعم يحاذيه الغداء ولازمي
 على هذا الشكل ثلاثة ايام متوالية كانت كافية لانجاز الحذاء الانيق

فاحتذاه وراح يتبخر به عارضاً اياه على الابصار ومحجياً سائليه المعجبين بأنه من صنع الياس ساروفيم في بيروت ، وكان هذا اشهر حداثيها .

إشتراكيتي - كانت المعلقة بلدة فقيرة ومع ذلك كان الأغني منا

فيها كثيراً عديدهم بحيث يصح القول نسبياً انني ربيت فقيراً . وهل

ما هو ادلُّ على فقر السكان من اكتفاء بعضهم بأكل الحُبز « بطلم » وكل

الفرق بينها ان الاول رقيق والثاني سميك ؟ ولكنني أذكر أنني كنت

اشتراكياً منذ حادثتي فكنت اعتبر فقرنا غنى بإزاء فقر بعض الناس ، ولم

يكن يفصلني عن البرهان المحسوس سوى زقاق ضيق : بين الثالثة

والخامسة كنت اقايض ابن جيراننا سليم الاسطمبولي على رغيفي

« الكماج » برغيفه « المرقوق » وكانت لذته وهمية لانخداعه بأن خبز

بيت الافندي « يجب » ان يكون اطيب ، وكنت آتية بنصيب من

طعامي الذي كان يعتبره طعام الآلهة لكي يسمح لي بان اغمس

بضع لقمات في مقلاته كلما افلح في إلاة قلب والدته بدموعه لكي تعطيه

بيضةً يقلبها بقليل من الزيت على لهيب اغصان الكرمة اليابسة .

عنادي - ولرفيق اللعب هذا يدُّ عليَّ لا أنساها هي أنه آساني

يوماً وأطعمني في سُجني . وحكاية هذا السجن هي انه في صيف احد

الاعوام ، وكنت بعد في الخامسة ، قدمت لتمضية بضعة اسابيع في

مصيفنا خالتي إفجنيا التي سبق لي وصفها فوجدت كلَّ شيء عندنا على

عكس ما تريد ، وبنوع خاص ابن أختها الشرس الأبله العنيد وهو

أنا ، فأخذت على عاتقها تكييفي واسعافني بالتهذيب والتأديب والتلين

والتشذيب وراحت تصطدم بي في معارك حامية الوطيس لم تخرج من

ايِّ منها ظافرة حتى ضاقت بي ذرعاً ولجأت يوماً الى معاقبتي بالسجن

ولم تجد لتنفيذ رغبتها سوى المطبخ القائم الى يسار المنزل وامامه سطح

يطلُّ على الغياض فرضيت بالحكم وعودت على اتخاذ ذلك السجن المرتجل

لي مسكناً لأنني ما كنت مستعداً للاعتذار واعلان التوبة اللذين

فرضتها عليّ لقاء إطلاق سراجي ، وهكذا رششت ارضه الترابية بالماء وكنسته وجلست امام النافذة . وكان الوقت اصيلاً وذلك اليوم يومَ اقتبال والديّ زيارة صديقاتها نساء الموظفين وكنّ جميعهنّ ، مسلمات ومسيحيات ، يقدمنّ متحجّبات مؤتورات ، ولم تمرّ بي واحدة منهنّ إلا رأيتني واستفسرت بعد دخولها سبب سجنّي فتشفع لي فلا تلاقي من والديّ سوى التلبية العاجلة، اما خالتي فكانت ترفض كلّ شفاعاة وتصر على بقائي حتى « ينكسر رأسي » . وإني اعترف بأن الجوع هو القصاص الوحيد الذي كان ليجد منفذاً الى حصن عنادي ولكنّ الذي وقاني شرّه وعاقبته المذلة هو رفيقي الصغير سليم الاسطمبولي الذي حالفني على خالتي وأتاني بما سدّ جوعي وبذلك اعاني على الصمود حتى الى اليوم التالي ، مما اكراهه أخيراً خالتي على قبول شفاعاة الزائرات وهنّ منصرفات ، وهكذا نجوت من السجن ومذلة الندامة .

طيشي ونزقي - في جملة الادلة على أنّي كنت مبتلياً بالطيش والنزق حتى بعد إدراكي سنّ الرشد وصورتي بموجب الشرع والعرف رجلاً مسؤولاً هو أنّني لم اصبر طويلاً على موظف يدعى حنا افندي كان يختلف الى قاعة لعبة البليار في الخرطوم ويؤثر على اللعب إبداء الملحوظات لي ولنازلي . ونظراً الى ولعي بهذه اللعبة ككل حديث عهد بها ، مقتوناً الى ادّعائي ، لم يكن حنا افندي في رأيي ممن يحق لهم الوقوف مني موقف المعلم بل هو ربما كان دوني تمرّساً بتلك اللعبة ومعرفةً بقواعدها وإلماماً بأسرارها فنهبته مراراً فلم يرتدع الى أن تهدّده يوماً بالضرب فثارت فيه روح الفضول وأراد ان يعلم كيف يكون الضرب فما كان مني الا ان القيت الصولجان جانباً وسرت نحوه وهو واقف في مكانه وامسكت بكلماتي يديه بيسراي وكلت له باليمين صفتين حاميتين فأطلق صيحة استفظاع واستنكار وتوعديني برفع الأمر الى الحاكم العام فلم اعبأ بوعيده بل ضاعفت الذنب لكي يستأهل العرض

امام ذلك المقام العالي . ولكنني لم البث ان صحوت من نشوة الغضب
فشعرت بألم عميق وراح ضميري يبكطني بشدة تفوق أي قصاص يمكن
ان ينالني لو ان حنا افندي نفذ وعيده ، غير انه لم يفعل واتهى ذلك
الحادث بصلح « شريف » شفي حنا افندي بعده من داء الفضول .

واتفق أن هاجمت ذات ليلة منزل الجيران قافزاً من فوق الجدار
الفاصل بين الفناءين بواسطة سلم وتبعني مساكن لي ومقصداً إسكات
معربد كان يصيح ويغلظ القول لمساكنيه فيمنعنا الرقاد . وكان بينه
وبيني عراك لم يكن فيه الفائز ولكن جولاتنا العديدة كانت قد
اوصلتنا الى الباب الخارجي فنادى الحفير فلبى هذا النداء وجاء ليمثل
العدالة ويقادنا الى دائرة الامن ونحن بملابسنا الليلية الممزقة ، على ما في
ذلك من الاستهانة « بمقامنا السامي » ، فلجأت الى الحيلة واستعنت برفيقي
ومتكنت اخيراً من الافلات ودخول المنزل . وفي اليوم التالي تدخل
بعض ذوي النفوذ فأصلحوا ذات البين وكنت راضياً كل الرضا اولاً
لانهم اقنعوا المعتدى عليه بأن يزورني في منزلي لانه كان بصياحه وإقلاقه
راحتي المسبب ، وثانياً لانني علمت ما كنت أجعله وهو أن عملي كان
جريمة لا تغتفر ويزيدها خطورة أنها ارتكبت ضد احد أنجال الزبير
باشا الذي كانت له عند الانكليز رعاية خاصة انتقلت بعده الى أعقابه .
ولي قبل ذلك العهد وبعده ما لا يقع تحت حصر من الحوادث
التي اوقعتني في مآزق حرجة لم انج منها الا لأن معظم الناس كانوا
اكرم مني خُلُقاً وأرحب صدراً وأوفر إغضاءً وصفحاً .

بذخي وتبذيري - لقد بذخت فقيراً بذخ الأغنياء ، وبما لا يزال
عالقاً بذهني من جرائم صباي أنني كنت احلم بأن ارتدي يوماً زياً
كان دارجاً عند المتحذلقين وهو بذلة كحلية بصدره حمراء وأزرار
مبرقشة ، ويستهويني زي آخر هو بذلة بسترة ذات ذيل تعرف
« ببونجور » . فعندما ترعرعت كان الفضل لوالدي في الحيلولة دون

لبسي هذه وكان قد بطل زيُّ تلك . ولم يقتني دور حديثي النعمة فقد ابتعت يوماً محفظه تقود جلدية تتضمن اثني عشر بيتاً بشكل أهلة يتسع واحداً لجنيه ذهبيّ وكنت اتباهى بها ملائمةً وأعرضها على الابصار كما يعرض « زملائي » اليوم خواتمهم الماسية ، متوسلين الى ذلك بالاكتثار من الاشارات ولو في غير محلها . وتدرّجت في تخير انواع اللقائف التركية حتى انتهيت بالاكتسوا إكستوا أعلى الأجناس وكان ثمن اللعبة المتضمنة عشرين لفافة نصف ريال ، حتى إن كبار الاغنياء من أصدقائي كانوا يؤنبونني على ذلك الاسراف الذي لم اكن استطيعه الا في العطلات القصيرة التي كنت اصرفها في لبنان .

وفي الحارطوم كانت احياناً تمضي حاجة فيضيق صدري واشكو الفقر بائناً شكواي صديقاً حميماً لي يدعى عزيز جهشان فكان يرفّه عني بلهجته البيروتية قائلاً : « يا طوفيق ، لو قسمنا الناس الى اربعة وعشرين طبقة لما جدّت انت في الاثنتي عشرة الثانية بل الاولى !

قسوتي في المصارحة - كنت ذات يوم اتغدى وصديقي نسيب فيليبس على مائدة اصدقاء لنا عزّاب يعيشون في منزل مشترك على ما كان مألوفاً في ذلك العهد وكان في جملةهم شابٌ يُدعى سعيد سعادته وهو نسيب سعيد باشا شقيق الشهير إلا انه حذف كنيته من اسمه دفعاً للالتباس . وكان سعيد هذا متولياً رئاسة احد الأقاليم في وزارة المالية ولم تكن وظيفته لتستكثر على ذكائه واستعداده ولكن ربما كان بين من هم دونه في الرتبة والمرتب من لا يقولون عنه استيهالاً لتلك الوظيفة إلا انهم كان ينقصهم نسبه .

وبينما نحن نتجاذب اطراف الاحاديث قال سعيد إنه ابتاع دراجةً بسعر نجس للغاية وإنها وقعت له بذلك السعر لان مستجلبها هو احد المستخدمين في مكتبه بحيث يهيمه رضاه . وكان المستخدم الذي ذكره ضئيل المرتب ومضطرباً ان يعول بمساعدة اخيه الاكبر أمه الشيخة

وشقيقتين لهما لذلك كان يتوسل الى زيادة كسبه باستجلاب بضعة
درجات في الشهر يبيعها بربح معتدل فباع من صاحبنا دراجة برأس
مالها او ربما بخسارة .

حالما انتهى سعيد سعادة شقيق كلامه وقفت وأنبته على إساءته
استعمال نفوذه وقبوله ما يعتبر بحكم الرشوة من فتن محتاج وكلفته باسم
الحق والواجب ان يدفع لذلك الفتى الفرق والا فقد صدقتنا وعطفنا .
فامتعض سعيد وتلعثم ولكنه ما لبث ان استعاد روعه واعترف
بخطاه وقطع لنا عهداً بالتعويض .

اذ ذاك وقف فيليبس وقد اخذته نشوة الطرب وامن على ما
قلته بمخاديفه معترفاً بما عده على نفسه جبانة منعه من التصريح بحقيقة
رأيه وكان يود ان يكون السابق الى تلك المبادرة التي من اجلها
ومن اجل أمثالها يفاخر بأن يكون صديقي .

سذاجتي - ومن الأدلة القاطعة على أنني ظلمت حتى زمن الرجولة
ساذجاً ، او بالاحرى ابله ، الحادثة التالية :

في جملة ما كنا نحتال به في السودان على إذهاب السامة والضجر ملء
اوقات الفراغ بالتواصل مع مجهولين ومجهولات في جميع انحاء العالم ،
مستعنين بدليل عام على اكتشاف عنواناتهم فتصل بهم ونخيرهم او
نخبروننا في تبادل الرسائل او البطاقات البريدية المصورة .

واتفق أن تلقيت يوماً من مراسل يزعم أنه سيدة تقيم في إحدى
مدن إيطاليا بطاقة تعرض عليّ فيها تبادل البطاقات البريدية المصورة
نضمنها عبارات مقتضبة باللغة الانكليزية . وعلى اقتضاب العبارات التي
كنت أبعث بها اليها ابلغتني يوماً ارتياحها الى أسلوبى واقترحت عليّ
أن نخرج الى الاسهاب فلم أتردد في إجابتها الى ملتصقها ورحلت ادبج
لها رسائل تدغدغ عواطفها وتثير فضولها ، او بالأحرى تجنّبها الى
الشخص المجهول الذي كنته . وأعترف أن الدافع لي على كتابة هاتيك

الرسائل كان شعوري بحاجة الى قلب يحقق لي فينتشلي الحب من
وهدة اليأس التي كنت متودياً فيها .

ولم البث ان تلقيت من مراسلتي كتاباً تقول لي فيه إنها انكليزية
الأصل اقترنت بنبييل ايطاليّ توفي بعد عامين تاركاً إياها فريسة وحيدة
قاتلة في الصرح الباذخ الذي خلفه لها ، لولا ابتسامات طفلها المبددة
ما يكتنفها من ظلمات ، وليس ما يعزينا كالعناية به وإرضاءه ، وفي
هذا إشارة واضحة الى انها لا تزال في ميعه الصبا . وغني عن البيان
ان رسائي التي تلت هذا النبأ السارّ المشجع اصبحت مليئة بأرق العواطف
وأبلغ عبارات التعزية والتوفيه ولم يبق سوى مكاشفتها بحبي واستعدادي
للحلول مكان المرحوم الراحل ، ولكنني رأيت من الحكمة ان انتظر
تشجيعاً من جهتها ، وهذا ما لم انتظره طويلاً اذ ما عمت ان كتبت
إليّ تطلب رسمي ، وبالطبع كان هذا اسرع من جوابي في الوصول
الى يدها المتبغاة ، مع رجاء حارّ بان لا تبخل عليّ بالمبادلة . فكان
جوابها اعتذاراً عن التأجيل ووعداً بالتلبية العاجلة ما امكن ، وفي
الوقت نفسه تدعوني لزيارتها في صرحها الأنيق على ان اكون ضيفها
اطول وقت ممكن من مدة إقامتي في اوربوا . فأجبتها بالشكر الحار
والوعد المقطوع مع التذكير مجدداً بالرسم المنتظر وأنا اشعر شعور
من اصبغ على وشك مغادرة المطهر الى النعيم .

ووصل الرسم المشؤوم الذي اثبت لي بقبحه أنني كنت فريسة
سخرية قارعة تآزجها أمرٌ خيبة يمكن ان يُمنى بها من عام مثلي طويلاً
على جراب الآمال العذاب على شاطئٍ ذهبيّ

ولا يسألني الا مجنون عن الرسائل التي تلقيتها من تلك السيدة
الساخرة فان لهيب نار غضبي أحرقها بومتها غير مبقٍ الا على رسمها
لكي اذكر ما عشت سذاجتي وسخاقتي اللتين أوقعتا فريسة بين
برائتها وجعلتا في أضحوكةٍ امام نفسي وأمام كل من يقرأ حكايتي هذه .

عَلَى مَقْعَدِ الدَّرْسِ

دراستي الابتدائية - كانت المدرسة الاولى التي دخلتها الارثوذكسية وكانت مجاورة للكنيسة ، وبعد سنوات انتقلت الى المدرسة الانجيلية ، وكانت مجاورة للكنيسة ايضاً . ولكنني في كليهما كنت أستنكف من جور اكثر المعلمين واضطرابي في فصل الشتاء ان أحمل قطعة من الفحم للايقاد والاستدفاء الذي كان المعلم يتمتع منه بالنصيب الاوفر . والذي كان يُطعم المعلمين بنا بنوع خاص هو جهل الوالدين الذين كانوا يأتون المعلم بالتلميذ الجديد او المكروه على التوبة بعد فرار كأنهم يقتادون شاةً للذبيح ويخاطبونه قائلين : « لك اللحم والشحم ولنا الجلد والعظم » !

على ان زمن عبوديتي لم يطل لانني قبل ان أبلغ العاشرة صرت « فرخ معلم » فكان اذا تغيب احد المعلمين أنابني عنه ومثلت دوره مع رفاقي المظلومين الذين كنت حتى الامس القريب في عدادهم ، إثباتاً للقول المأثور : « ويلٌ من عبد اذا ملك » !

ذكريات دراسي الابتدائية

المعلم اسكندر الحداد - كان اول من اوصى الآباء بتأديب ابنائهم بالعصا سليمان الحكيم وكانت وصيته هذه في عهدي « السعيد » متبعة في البيت وفي المدرسة . ولم اكن في المدرسة الارثوذكسية

مستثنى من هذا الحكم ولكن على قلة . غير اني عندما انتقلت الى المدرسة الانجيلية اصبحت القلة في جانب الاستثناء وكان منفذ وصية الملك الحكيم المعلم اسكندر الحداد وهو شاب فوق الربعة متملىء الجسم في اعتدال ، وكان الى ذلك مزهواً بقوة البدنية وجمال طلعتة ووسامة محياه ، فقد كان على سمرة بشرته فاحم الشعر مستكمل الشرط الرئيسي في الجمال وهو تناسب الاعضاء . اما معاونه المعلم نجيب فكان طويل القامة رقيق العود ابيض البشرة ازرق العينين اعقف الأنف ، وكان يزيده دمامة « حب الصبا » المنتشر في وجهه بكثرة وبأحجام تتراوح بين العدسة والمخصة .

كان بهو الدرس الوحيد مستطيلاً يشطره كالكرة الارضية خطٌ وهميٌ يحتلُ التلامذة الكبار نصفه المجاور لساحة اللعب والصغار نصفه الثاني المجاور للطريق العمومية

ولما كنت لسوء حظي من المتقدمين كنت من نصيب المعلم اسكندر ، ولم تكن المدرسة الانجيلية تشدُّ عن القاعدة المألوفة في فرض الوقود على التلاميذ، على ان المعلم اسكندر كان يستأثر بالدفء ويسخر احدنا ليأتيه من السوق برغيف وقطعة من الجبن يدسها فيه ثم يغمّره على النار ويتلذذ بالتهام تلك العلفة الشهية . فاذا ما انتهى بدا كأنه استمد من ذلك الغذاء نشاطاً ينفقه في ضربنا وتعذيبنا محصياً علينا انفسنا وناظراً بالمجهر الى اقل هفوة نرتكبها في الدروس او السلوك فكانه كان يتطلب منا العصمة في تلك والكمال في هذا . ومع ان الذي لم يكن من المتساهلين في معاملتي كان يستقطع وحشيته حتى انه اخيراً حمله على الاتئاد قسراً بشكايته الى « الخواجه » وتهديده هذا باخراجي من المدرسة اذا هو لم يكره ذلك المعلم الشرس على الاعتدال في ما كان يعتقد تأديباً وتهذيباً .

وكان تدريس البنات يجري في الكنيسة نفسها ، وبينها وبين

المدرسة جدار مشترك يتوسطه باب ، فلم يكن يخلو الأمر من اختلاط بين الجنسين يشترك فيه المعلمون والتلاميذ ، كما لم يكن يفوتنا نحن الصغار ان عين المعلم اسكندر كانت على صغرى المعلمتين الجميلة اللعوب الطروب بينما المعلم نجيب لم يكن يطمع باكثر من عطف الكبرى ، على دماستها ، إما احتشاماً واما اعترافاً منه بانحطاط منزلته عن رئيسه المعلم اسكندر .

وتم في احد ايام الصيف الاتفاق على سيران مشترك في « عين الحجر » فتروّدنا وبكرنا الى ذلك المكان الجميل ، فهناك ساحة مستطيلة تتسع للمئات والى جانبها رواق للاستظلال وفي صدرها جرن حجريّ مستطيل تتدفق فيه العين ماءً عذباً صافياً اين منه اللجين ، والدوالي المحيطة بتلك الساحة مثقلة بالعناقيد الشبيهة على اختلاف ألوانها وانواعها ، فقضينا ساعات في اللعب والهوى والاكل والشرب حتى شبعنا وروينا واخذ منا التعب مأخذه فرحنا ثقيل ونستريح على نية اعادة الكرة في الأصيل .

وفي فترة الاستراحة تلك وقع نظر المعلم اسكندر على صخرة ملساء قائمة في وسط الساقية الجارية من جرن العين وفي أعلاها تنوء مثقوب كأنما بيد صانع ثقباً واسعاً كأنه شفق يدعو المعتدين بقوتهم البدنية الى محاولة زحزحة ذلك الجرم الثقيل او رفعه ولم ير المعلم اسكندر لائقاً به الا ان يكون من المستجيبين فأدخل كفيه في ذلك الثقب حتى المعصمين وشبكهما وراح يحاول رفع تلك الصخرة فلم يفلح حتى في زحزحتها ولم تجده اعادة الكرة فتية لا برغم ان جميع الابصار كانت متجهة اليه ، وبينها في الدرجة الاولى اعزّها عليه !

ولكنه ما كاد يتنحى معترفاً ضمناً بإخفاقه حتى برز الى المضمار المعلم نجيب الذي كنا نخسبه دونه في القوة كما هو دونه في الرتبة الا أنه ما لبث ان كذب ظننا اذ هو لم يكتف بزحزحة تلك الصخرة بل

رفعها عدة اصابع عن الارض فانطلق الهتاف من كل صوب إعجاباً وإيذاناً بتفوقه . وكنت انا وسواي من الموتورين متهللين بفوزه على معلمنا الظالم . على ان الاستحسان العام لم يكن الا ليزيد المعلم اسكندر احتداماً اذ هو اعتبر صنيع معاونه تحدياً له وخطاً من قدره ومساساً بكرامته فانها لعل عليه بالوم والتعنيف فأجابه هذا مستهجنأً غضبه لغير مبرر ودعاه لاعادة الكرة لعله يستطيع رفع تلك الصخرة بعد أن رُحِزحت من مكانها ولكن المحاولة الثانية كانت فاشلة كسابقتها ، واذ ذاك بدأ التراسق بسهام الطعن ثم اشتبك المتباريان في عراق حامي الوطيس ، مما اوجب تدخل المعلمتين وبعض كبار التلامذة لحسم الخلاف والفصل بين المتنازلين ، وكان السبب الاكبر في استياء المعلم اسكندر ان معاونه أخجله امام المعلمة الصغرى فاقته لبه .

المعلم سعيد ابو جرة - وتلا اسكندر الحداد سعيد ابو جرة الذي اصبح فيما بعد طبيباً ، وبعد ان مارس مهنته زمناً قصيراً في سان باولو صدف عنها الى الصحافة فأنشأ جريدة الافكار التي انتهى امرها بالتوقف عن الصدور بحكم مرسوم قضى بوقف الصحف الأجنبية بأسرها .

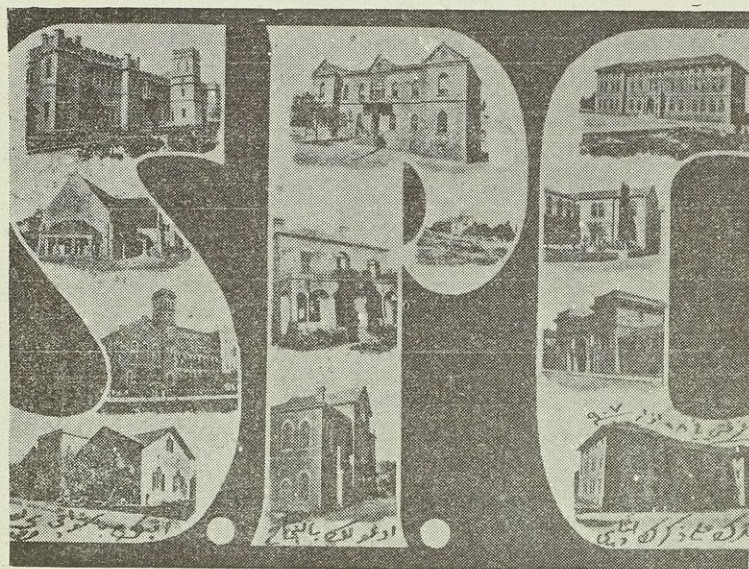
تولى مهنة التدريس في المعلقة حوالي سنة ١٨٩١ وكان شاباً ناضجاً ذا شاربين ضخمين يتعهدهما بالتمليس والعقف ويتلقى في المدرسة عينها زيارة بعض معارفه وعملائه فيأمر لهم بالجلوس ، وبعد ان يتجاذبوا ياهم اطراف الأحاديث يتناول قرطاساً يخط في اعلاه ارقاماً تتلوها بضعة اسطر تبتدىء بكلمتي « غب مرور » ويذيلها الحاضرون بتواقيعهم ثم يدعوني دون سواي من التلاميذ فيعطيني قصاصة تتضمن ملتمساً الى خالته (زوجة ابيه) لكي تسلمني عدداً من الليرات الذهبية فأسير توتاً قاصداً منزله الكائن في بعض الطريق بين المعلقة وزحلة فتفتح لي خالته الباب وتتلقى الملتبس وتستوعب مضمونه ثم تعمد الى جورب

أخذته كيساً فتفك عقده وتعد منه المبلغ المطلوب وتدفعه اليّ محذرة
اياي من اضاعته فأطبق عليه كفي وأضع يدي في جيبه وأعود ادراجي
فيتلقاه معلمي مني ويسلمه لزوّاره فيودّعون وينصرفون شاكرين وأعود
انا الى مكاني وقد قت بتلك العملية الصيرفية دون اي اجر سوى
كلمة « عافاك » المألوفة ، ولم يكن معلمي المهذب يبخل بها عليّ .

المعلم فارس الخوري - كان المعلم فارس الخوري (فارس بك
الخوري الشهير اليوم) يلقي عليّ في المعلقة دروساً خصوصية ، وبهذا
السبب توثقت بينه وبين والدي عرى صداقة وودّ اكيدين . واتفق
ان قدم بيروت لقضاء بعض المهام الخاصة به على اثر انتهاء الدروس
في الكلية السورية الانجيلية سنة ١٨٩٦ فعهد اليه والذي بأن يصطحبني
معه عند عودته وأبلغني ذلك فشكرت له عنايته وعطفه ولكنني وجهت
نظري الى أي رهينة ولا استطيع مغادرة الكلية دون فكاك ، ذلك
انني كنت مديناً لعدد من الباعة والمحال المجاورة ، وفي طليعتها
مطعم « الحال » الذي كنت أستورد منه المأكّل الى غرفة البوّاب ،
فراح يسدد لائحة الديون التي قدّمتها له حتى كاد لا يبقى في جيبه ما
يفي بنفقة عودتنا .

في الكلية السورية الانجيلية

(الجامعة الاميريكية اليوم)



(رسوم ابنية الكلية ضمن الحروف الاولى المقنطرة من اسمها)

وهي التي وصفها صديقي الطيب والشاعر نقولا فياض في مستهل
خطابه « المرأة والشعر » الذي القاه فيها منذ نصف قرن وبلغ
في وصفها من الاجادة حدًا لم يبلغه سواه :

يا منتدى العلم الشريف أراك اشرفَ منتدى
جددتَ للشرق القديم شبابه فتجددًا
وأعدتَ للعلم المجيد جماله فتمجدًا

وجعلت دارك بيتَ موسى والمسيح وأحمدا
فنظمت الحان الاخاء وراح دهرُك منشدا
ذبح التعصبُ في حماك وعند غيرك يُقتدى
يا «إسبسي» الوطن الذي بحمى الهلالِ تأيدا
ما زرت ربعك مرةً الا رجعتُ مرددا
هذي منارةُ رأس بيروتِ وذا علمُ الهدى

كنت في حوالي الثانية عشرة عندما احرزت في المدرسة الانجيلية
قسماً من العلم يؤهلني لدخول هذه الكلية ، وبفضل صلي الوثيقة
بالمبشرين الاميركيين الذين كانوا شبه وكلاءها في البلدان الثانوية
والقرى قُبلت بنصف المرتب (وكان ثنائي عشرة ليرة انكليزية) ،
وكان ذلك في خريف سنة ١٨٩٥ ، حين لم يكن يزيد مجموع تلامذة
دوائرها كلها عن ٢٩٠ .

لم تكن لي اجنحة لأطير لذلك اكتفيت اضطراراً بركوب القطار
فأُمت اولاً بلدة عاليه حيث كان بعض انسابي ومنها الى بيروت
فوصلتها وانا اكاد لا اصدق اني فيها .

بيروت كانت لي ما كانته ارض الموعد لبني اسرائيل على أن
عمشتي فيها على جماها ورخائها وما لقيته فيها وفي عاليه قبلها من عطف
الأنساب الأعزاء لم تكن تخلو من تنغيص سببه اني كنت النسيب
القروي والقتى الطائش الذي لم يكن يرضي احداً لا بسلوكه ولا
بجديته ولا بكيفية تناوله الطعام . ولم يكن يشفع بي سوى العاطفة
التي تدفع انسابي الى الرفق بي والعمل بمختلف الاساليب على إصلاح
اخطائي وتقويم عوجي حتى إني بت في حيرة كيف اسلك لكي
اتخلص من النقد والتنديد اللذين كانت تأباهما نفسي الحرة وتنكرهما
نزعتي الاستقلالية فكنت أداوي جراح نفسي المتألمة بالاعتزال تخلصاً
من الحلقة وإيقار الآذان واطلاق اللسنة . كل هذا وانا لا ارى في

ما آتبه امرأً إداً ، لذلك شعرت بحيف لا يُطاق بعد أن لقيت في بيروت عكسَ الجزاء الذي كنت أُمَني به نفسي نظراً الى المنزلة الرفيعة التي احللتها البيروتيتين المتمدنين من قلبي الصغير .

وما كان يؤلمي شيء كراي نسيم طراد زوج خالتي أم نجيب فيَّ فقد كان يجاهر على مسمع مني بأنه يعتبرني شيطاناً في صورة إنسان ويلذ له أن يضيف أختي أسماً طيلة ما بقي له من العمر على أن يتحمل وجودي يوماً واحداً . ولكنَّ الذي كان يرقه عني بعض الشيء هو اعترافي امام نفسي بأنه على حق .

اخيراً ازف اليوم السعيد الذي صحبني فيه عمي مهنا الى الكلية وسلمني لادارتها وعاد ادراجه بعد ان ودّعني واوصاني بالاجتهاد وإحسان السلوك .

بعد الفحص أدخلت في ادنى الصفوف الاعدادية ولم اتعلم فيه شيئاً يستحق الذكر بالنسبة الى النققات الطائله التي حملتها والدي ، خلا المرتب الخفض الذي ادّاه عمي اسكندر ، لانني كنت مثال الولد الطائش المبذر كان طعام المدرسة لا يعجبني فأعتاض عنه غالباً بما أستجلبه خلسةً من ما كل المطاعم المجاورة الى غرفة البوّاب الذي كان شيخاً قروياً ساذجاً يالئني وسواي من اضراي على الاساءة لأنفسنا لقاء دريهات نرشوه بها . وفي غير اوقات الدرس لم أكن أرى الا قرب الباب الخارجي ممتلئاً الجيوب بالحلويات الشهية التي كنت ابتاعها من رجل اعمى مبتور الساعد الايسر يُدعى خليلاً يقعد في الباب وبضاعته مصرورة في اوراق ومرصوفة في قفة كبيرة .

فوق ذلك كنت أدفع ايام الاسبوع استعجالاً ليوم السبت الذي كنت أومُّ فيه المدينة وأقضي عشيتي ويوم الاحد وليله عند انسبائي واعدود صباح الاثنين كأنني عائدة الى قفص فلا ينسيني حزني بسبب العودة سوى تعليلي النفس بالرجوع الى المدينة يوم السبت التالي .

وكانت نكبتى الكبرى يوم أعاقب مجرماني تلك الرحلة الاسبوعية بسبب تقصيري وإرغاماً لي على الاجتهاد والتحصيل .

اما رسائلي الى والدي فكانت سطر سلام وطمأننة من جهة صحي ودروسي وسلوكي ، وسطور تذكير بمطلب قديم لم يؤدّ بعد او بسط حاجة جديدة . ولم يكن يؤم احد اصدقائنا ببيروت قادماً من المعلقة الا وهو يحمل اليّ من والدي قيمة مالية مع رسالة ضافية علاوة على ما كان يأتيني به البريد من رسائله المتواليّة المتضمنة النصائح والارشادات واستشارة همتي للدرس والتحصيل ، ولكن لم يكن يستقرّ في ذهني منها سوى عبارات التلبية لمطالبي او التعهد بانجازها .

وكانت سنة نجوت فيها من التقصير بأعجوبة ، فلما عدت الى المعلقة أفهمني والدي ان سلوكي لم يكن متفقاً في شيء واللهفة التي كنت أبدىها لدخول الكلية وتحصيل العلم الذي كنت أدّعي تعشقه ، لذلك كانت لهفة زائفة وان العلامات الشهرية التي كان يتلقاها لم تكن تبرّر إعادتي الى ذلك الصرح العلمي ، فرضخت لارادته مكرهاً وأخذت أتلقى دروساً خصوصية على معلم نابه لعلني أصلح ما أفسدت وأؤهل نفسي لدخول الكلية ثانية .

ودام جهادي هذا الى سنة ١٩٠٢ ، وهي السنة التي دخلت فيها الكلية للمرة الثانية والأخيرة ، وكان جهاداً مقنوناً بمحاولة والدي اقناعي بالعدول عن طلب العلم والانصراف الى صناعة أرغب فيها فتعلمت بضع صناعات على ما تقدم بيانه .

عودني الى الكلية



(واحدة من اشجار الارز الذهبية الذي اتخذته الكلية شعاراً لها)

إني مدينٌ بتحقيق حلمي بالعودة ثانيةً الى الكلية الى عواملٍ لم تكن في حسابي ، منها تطوُّع صهري الجديد عزيزٌ قندلفت لدفع الرسم السنويِّ فأضعف بذلك مقاومة والذي . وكانت الصلات قد ازدادت توثقاً عن ذي قبل بين المبشرين وبينني لما كنت قد تحليت به من روح التقى بمطالعة الكتاب المقدس والمواظبة على الصلاة وحضور الاجتماعات الدينية ، حتى إني انتخبت على حداثة سني رئيساً لجمعية الاجتهاد الروحي في زحلة ، على ما سيأتي بيانه ، فحصلت على شروط افضل اذ قبل مني ثلث الرسم المفروض .

اما مطلبي فقد كان دخول الصف الخامس في الدائرة الاستعدادية

والفوز بشهادتها ، وكانت في اثناء تغيب الطويل قد ازداد عدد صفوفها من اربعة الى خمسة ، فمثلت امام رئيسها اذ ذاك الاستاذ هول وأعربت له عن رغبتى فراجع سجل ١٨٩٥ - ١٨٩٦ وبالطبع لم يتالك أن أنكر عليّ مطلبى لأننى كنت في ادنى الصفوف ، وكنت بفضل كسلى وطيشى في المرتبة الثالثة والستين بين تلامذة ذلك الصف الذين لم يكن عددهم على ما اذكر يبلغ السبعين . ولكننى حاولت إقناعه تعلقاً بأننى درست على نفسى الشيء الكثير فرأى ان يجازينى فيستند الى محك الامتحان ليتحقق من صدق مدّعاى ، وراح يعرضنى على معلمي الفروع المختلفة فلا يتلقى عني سوى أسوأ الشهادات ولذلك نصح لي بالرضوخ لسنة التدرّج فأدخل الصف التالي لذاك الذي كنت قد انتهيت منه فصارحته اذ ذاك بأن ليس في استطاعتي ان البث في الكلية اكثر من سنة واحدة أوّم بعدها القطر المصريّ التأساً لوظيفة في احدى دوائر الحكومة السودانية ولذلك كان لا بدّ لي من أن اكون على الأقل حاملاً شهادة الدائرة الاستعدادية ، وأن في صدري من صدق العزيمة ما يعينني على احرازها مهما يقيم في سبيلي من عقبات .

فلما رأى منى الاستاذ هول ذلك الاصرار المعزّز بصدق المهجة خاطبني بأسلوب جدّيّ ملؤه الثقة والتشجيع قائلاً : « ما دام هذا سلاحك وهذه عزميتك فلا تخشَ عدوّاً . دونك الصف الخامس فادخله واني واثق من احرازك الشهادة في نهاية العام الدراسي ، ولا تبال ولو قصرت في الفروع كلها في الأشهر الأولى ! »

وهكذا دخلت الصف الخامس وكنت أضحوكة رفاقي لضعفي وتقصيري اذ برغم اجتهادي الحارق ومواظبتي على الدرس حتى في اوقات النزهة واللعب لم يكن يتسع لي الوقت لمطالعة الدروس التي كان اكثرها في الأشهر الأربعة الأولى مراجعات والتي ظلت فيها كلها مقصراً في اربعة فروع حتى جاء امتحان نصف السنة الذي قصرت فيه

في فرع واحد هو الحساب ولكن بفرق عشر واحد ، و ابى المعلم وهو
لبيب جريديني ان يجيزني رغبةً منه في تقويتي في هذه المادة وهكذا
اضطرتني الى البقاء في بيروت دارساً حتى استطعت تقديم امتحان آخر
كانت نتيجته اكثر من مرضية .

بعد انتهاء العطلة نصف السنوية عرضت لي عقبة جديدة هي تأخري
زهاء أسبوعين بسبب حجر صحي كان قد ضرب على ولاية الشام
واقضاني ان اهرب مع شخص من اهل الحيلة والدهاء معه بغلة كان
احياناً يُركبني عليها ومتى بصر باحد الرقباء يخاطبني كابن صديق له
يسير برفقته ليتفقد املاك والده في الجبل . وأذكر اننا بتنا الليلة
الأولى في قرية على الحدود وفي الصباح اجتزنا التخم اللبناني ولكن
الحارس اكتشف امرنا فرشاه ببضع علب من لفائف التبغ . وبتنا
الليلة الثانية في حمانا وفي الصباح سرنا قاصدين بجمدون فعاليه وبلغنا
هذه عند العصر فبت ليلتي فيها وفي اليوم التالي ركبت القطار الى
بيروت . وكان الخوف آخذاً مني مأخذه طيلة مدة الهرب وبعدها
حتى كنت أشعر كأن كل من اراه إصبعٌ يدلُّ عليّ رجال الأمن وفي
كل جندي متعقباً يوشك ان يقبض عليّ ويعيدني من حيث اتيت .
وكان شرٌّ من لقيت اتفاقاً في القطار عدد من المعلمات اللواتي عرفتهن
في المدرسة الروسية التي كان قد سبق لي ان علمت فيها شهراً واحداً
فوثقت بهن ورويت لهن تفاصيل رحلتي فرحن يعيثن بي ويتهددنني
بإفشاء سرِّي وانا حيناً استعطفهن وحيناً استشيط وأغنفهن حتى وصلت
بيروت مجهداً فاقد الجلد

وصدمني حال وصولي عقبة جديدة هي ان صفي كان قد انتقل
من علم الحساب الرقمي الى علم الجبر الرمزي فوجدت في بادئ الامر
صعوبة كاية في الحاق برفاقي ولكنني بفضل الاجتهاد والدرس
المتواصل سبقتهم وغدوت أعين بعضهم على تفهم ذلك العلم الصعب.

واجتزت الامتحان النهائيّ بعلامات لا بأس بها وغادرت الكلية
ولبثت في المدينة منتظراً بفارغ الصبر حلول اليوم الذي يجري فيه
الاحتفال بتوزيع الشهادات ولكن شاءت الأقدار ان لا أتناول
شهادتي على مرأى من الحشد الكبير المجتمع في الكنيسة لأنني تأخرت
عن الموعد وكان سبب تأخري إبطاء تحويل كنت انتظره من والدي
لان الحصول على الشهادة كان يقتضي ريثاً مجيداً والصعود على المنبر
والتعرض لأنظار الجمهور النقادة يستوجب بذلةً لائقة . ولم يكشف
انسبائي إلا في الساعة الأخيرة حاجتي التي كتمتها مختلفاً لسترها مختلف
الأعدار فأثقتوني ريثاً وألبسوني برغوي بذلةً مستعارة لنسيب دوني
طولاً فأفانيت حملي لايام كل من يقع علي نظره باني أقصر قامه أو
اطول ثوباً .

عندما بلغت الكنيسة كان الاحتفال قد انتهى والحشد آخذاً في
الانصراف . وبينما انا اهم بالعودة مخفي حنين بدلاً من الشهادة بصر بي
الاستاذ هول فاقتادني الى قاعة العمدة وهناك سلمني شهادتي مهناً إياي
ومبدياً ارتياحه للصدقة التي قضت علي بالتأخر بحيث تهيأ له ان يعطيني
شهادتي على انفراد كما كان حديثنا بشأنها في مستهل تلك السنة المدرسية
وبالطبع كان شكري له حاراً ووعدني ثابتاً بأن ابذل جهدي لكي
استحق ثقته وأبرهن على انني كنت اهلاً لها .

ذكريات العامين الدراسيين في الكلية

مما لا يزال عالقاً بذهني من حوادث سنة الدراسة الأولى (١٨٩٥ -
١٨٩٦) وعلاقتها ببعض الأساتذة والطلبة ما يلي :
من أبرز ما اذكره محاضرة القاها في هو الدرس مبشر اميركي
قادم من الصين ، جمع بين بدهاة المحاضر القدير ورشاقة تعبيره وجزالة

أسلوبه ، وبراعة الممثل الذي يشرك البصر في ما يتلقفه السمع اذ هو كان يصف تلك البلاد الشرقية النائية ويُرفق وصفه بمشاهد يعرضها على الأبصار بواسطة الفانوس السحريّ ، حتى إذا ما بلغ الى الأزياء واساليب العيش عمد الى حقيقته فأخرج حلةً صينية ارتداها واعتمر قبعة تتدلى منها جديلة غليظة تنحدر حتى القدمين . ولأنه كان مُسبل الشاربين متهدّلهما بدا لأعيننا صينياً لا غشّ فيه . ثم أتى بقصعة فيها أرزٌ مطهيّ فوضعها على المائدة وجلس يتناول علفته مستعيناً على تلقف حبات الأرزّ بعودين نحيفين يعالجهما بمهارة فائقة . وكان كل ما رواه وعرضه أمامنا من المشاهد طريفاً مفقهاً مفكهاً الى حد اطلق السنتنا بهتاف الاستحسان وأهلب أكفنا تصفيقاً .

ومن الأساتذة الوطنيين الذين لا يزال عالماً بذهني ذكرهم وأثرهم: سليم الخوري من إبل السقي المقيم حتى الآن في البرازيل ، وسعيد ابو جمره من الكفير ، وكان قد سبق ان علمني سنة في المعلقة على ما تقدّم بيانه ثم اصبح طبيباً وأمّ سان باولو حيث امتهن الصحافة وهو اليوم رئيس جمعية المتخرجين الشرفي . اما ما أثرته عنهما في ذلك العهد فهو ان الأول كان يتمهل في كلامه حتى ليُخَيِّل لسامعه كأنه يقتلع الكلام من حنجرته اقتلاعاً ويؤثر اللغة الانكليزية لتأنيب المقصرين بأسلوب يحمل على الضحك اكثر منه على الاستياء . وكان الثاني يعالج بثوراً تنبت في خديه بحكّها ببنصره . وكنت أُجيد تقليدهما معاً ويطالبني به الرفاق بإلحاح ، وما لبيتهم مرة إلا كانوا مُعجبين طربين . واذا كنت قد نجوت من الأول إما لجهله خبري وإما ترفعاً واغضاء فلم اسلم من الثاني الذي ادر كته وهو يدرّس سنة في الدائرة الاستعدادية قبل ان يدخل الدائرة الطبية . فبينما انا ذات يوم أُقلّده في حلقة من الرفاق وكاهم عيون وآذان ولضحكهم رنة اغتباط وتهليل اقترب مني وسعني دون ان اراه وبالطبع لم يرقّه قيامي عنه بالدور الذي خصته

به الطبيعة فرأى الوقت قد حان ليأجرني على خدماتي السابقة فربّبت على كتفي داعياً إياي الى غرفته بحجة انه تلقى كتاباً من والدي يتضمن فقرةً تتعلق بي فكان طبعياً ان اتبعه بلهفة . على اننا ما دخلنا الغرفة وأقبل هو الباب حتى تناول عصاً لينة الملمس خشنة اللمس وراح يكيل لي بها على كتفيّ وذراعيّ ضربات مؤلمة ثقةً منه بانها الدواء الوحيد لشفائي من داء المحاكاة ويقول : « حاج بقا جرّصتنا ، بهدلتنا » ! وفي الواقع قام بتلك المهمة الانسانية خير قيام ، عنه وعن زميله السابق الذكر ، لأنني منذ ذلك اليوم برئت من تلك الوظيفة السعدانية وصرت اذا طلبت مني تأديتها أحيل السائل على سواي لعله يشاظرني ذلك النصيب الكئيب .

وفي ذلك المساء عينه ، عندما تعرّيت للعموم ، لحظ رفاقي البقع الزرقاء التي احدثها الضرب في كتفيّ وذراعيّ واستطلعوني خبرها فزعمت أنها رضوضٌ سببتها سقطه وظلت حقيقتها مكتومة حتى اليوم . وربما كان من قبيل سخرية الاقدار أنني بعد نيف ونصف قرن من هذا الحادث حضرت مأدبةً إكراميةً أقيمت لمعلم الأمس وطبيب اليوم بمناسبة انقضاء خمسين عاماً على هجرته الى البرازيل فجزيته عن تلك العلة الحامية (بلغة إخواننا المصريين) باليتين التالين :

بلادٌ للجهـدِ وامنـايا رمد من يجهاد او تبيد
فمن يقضي بها خمسين عاماً ويبقى « جمرة » فهو « السعيد »

واليوم أعتقد أن جنايته عليّ لم تكن شيئاً يُذكر بالنسبة الى جنايته على الفن لانني كنت أميل فعلاً الى المحاكاة وقد مارستها وحذقتها منذ بدأت أقلد في صغري في المعلقة مبدئياً كليس مدير المحطة ووالدته الى حد أنه لو اتفق لأحدهم أن يسمعي أقلدهما بالمأثور من لهجتهم وتعابيرهما دون أن يراني لما صدّق أن المتكلم سواهما .

اما الاساتذة الاميركيون فأذكر منهم وبسترو استاذ طب العيون،
وحكايتي معه تختلف كل الاختلاف ، ذلك أنه فاجأني ذات ليلة حال
مغادرتي بيت الحلاء متلبساً بجريمة التدخين وكان عقابها الطرد ولا مرد ،
على الأخص للتلامذة المساعدين ، فأوقفني أمامه موقف الذلة والاسترحام
وسامني من العنت والارهاق ما لا يُطاق ، ولم ابتز منه عهداً قاطعاً
بعدم رفع أُمري الى العمدة حتى أقسمت له بأَن لا اعود الى مثلها .
ولكن لسوء حظي وخيبة فآلي كنت من الحائشين المنافقين إذ بررت
بقسمي فامتنعت عن مجارة رفاقي في التدخين في بيت الحلاء ولكنني لم
أبطل التدخين في سواه .

وكان رئيس الكلية في ذلك العهد الشيخ الجليل الوقور دانيال
"بلس" الذي ابتدعها خياله الحُصب وأوجدها بسعيه وتضحياته وظلَّ
يرعاها بعين عنايته حتى أدركته الوفاة مذكوراً بصلاحه وتقاه وتفانيه
بعد أن قرَّ عيناً بروية ابنه هوَرد يتولى منصبه الرفيع ، معتبراً قرار
مجلس الأمناء بهذا الشأن اصدق دليل على الاقرار بالفضل وعرفان الجليل
وخير مكافأة له على جهاده الطويل .

اما التلميذان اللذان كان يلفت مآهما النظر ويحمل على الاستهجان
فهما نسيب جنبلاط وأمين تقي الدين ، ولم يكن هذا سوى التلميذ الذي
سطع بعد سنواتٍ نجمه فأصبح الشيخ امين تقي الدين واشتهر بنظمه
الشائق ونثره الرائق ، على الاخص في مجلة « الزهور » التي أنشأها في
القاهرة بشراكة انطون الجميل .

كان هذان التلميذان رفيقينا في الصف الاول الاعدادي وندر
بيننا من جاوزت سنه الخامسة عشرة في حين أن أولهما كان في نحو
الخامسة والثلاثين والثاني يناهز الخامسة والعشرين ، ولكلٍ منهما
شاربان لا بأس بهما ، وهكذا كانا كجبارين يجاوران اقزاماً . وبعد
الاستفسار علمنا أن الشيخ أميناً رأى بعد أن أتم دروسه وحذق اللغة

العربية على يد أستاذها الاكبر الشيخ عبدالله البستاني أن يتعلم الانكليزية فاضطر الى النزول من عالي سمائه ومجاورة المبتدئين . ومما يؤسف له أن تفوقه في اللغة العربية لم يُفدّه شيئاً في درس الانكليزية فكأنه كان مُكرهاً على تعلمها حتى إني على تقصيري كان يبدو لي من المقصرين . وقد أعاده الى ذاكرتي منذ سنوات ما طالعتُه اتفاقاً لنسيبه الشيخ خليل وسعيد ، كما عرفت في سان باولو شاعراً ناشئاً ذا وسامة وأدب وذكاء يُدعى شكيب تقيّ الدين إذ علمت منه أن الشيخ اميناً ، زميلي في الدراسة منذ ستين عاماً تقريباً ، خاله ، ولذلك ينطبق عليه مثلنا العامي المشهور . اما الثاني فقد لقيته في سواكن سنة ١٩١٢ وقد أصبح طبيباً في الجيش المصري .

اما هم ما لا يزال عالقاً بذهني من ذكريات عام الدراسة الثاني والاخير (١٩٠٢ - ١٩٠٣) فهو في ما يلي :

عبد الرحمان شاه بندر - رأيته مرةً يعتلي المنبر خطيباً عن صف المنتهين ، وفي جملة ما اورده من الأمثلة على شرود الذهن أن احد محبي العسل الى حد الشغف والهيام دخل يوماً على قوم وبدلاً من أن يلقي عليهم التحية المألوفة وهي « السلام عليكم » قال « عسلِك ! »

خطاب في دفتر - وفي الاحتفال الحتامي للعام الدراسي كان العريف الرئيس هو رد بلس فدعا للكلام أستاذاً من أسرة خيرالله فمشى هذا الى المنبر يحمل دفترأ كبيراً ضخماً فأوجس المدعوون والتلامذة خيفةً وراحوا يتساءلون كم من صفحات ذلك الدفتر يشغل خطاب ذلك الجهبذ وراح هو يتلو ويقلب الصفحة تلوا الصفحة والسامعون صابرون صبر الكرام حتى انتهى الوقت المحدد له فنبهه الرئيس همساً ثم رفع بعد ثوانٍ صوته منذراً ولكن الخطيب ظلّ عاكفاً على التلاوة كأنّ المعنيّ سواء وكأنه فارس ذلك المضمار الوحيد . ولم يمتثل ويعود الى مكانه إلا بعد أن تقدّم الرئيس نحوه وأبلغه بلهجة جدّة

حاسمة أنه قد تجاوز الوقت بدقائق ومد يده الى الدفتر فأطبقه وأخذ
الخطيب بذراعه واقتاده الى مقعده .

اما تقيض هذا الخطيب في دقة الاحساس وخفة الظلّ فقد كان
الاميركي بورتير أستاذ التاريخ وكان محبوباً من تلامذة الكلية قاطبة إذ
كنا بعد أن ننهي دروسنا اليومية نجتمع في الكنيسة لسماع صلاة
الشكر المسائية . فاذا ما كان دوره في تأديتها في موسم السباحة لم
يكن يتجاهل كسواه لهفتنا فيراعي شعورنا ويتلو فصلاً قصيراً من
الكتاب المقدس ويقتضب طلبته لكي يطيل لنا امد التمتع بالعموم
والابتعاد . وقد جليّ يوماً وحلّق واستحق امتناننا العميق لأنه اختار
للتلاوة المزمور المئة والسابع عشر ، وهو اقصر المزامير إطلاقاً ، مثبتاً
بذلك ثقته بأن الله اعلم بمحاجاتنا وأنه اجلّ من أن يحتاج الى التكرار
عملية جراحية في العراء - كان الطبيب جورج بوست معدوداً
بحق أشهر جراحى زمانه في الشرق كله وقد رأته مرةً يجري عمليةً
جراحية في ساحة الكلية نفسها على الشكل التالي :

كنت ذات يوم أسير ورفيقاً لي من التلامذة الكبار يُدعى حنا
رحمه ، وأصله على ما أرجح من مدينة بشريّ ، ارسله والده المهاجر
في اوستاليا لتلقي العلم في الكلية فبصرنا بالجراح بوست مقبلاً نحونا
فاستوقفه رفيقي وحياءً ثم أراه بثرة حمراء في أعلى خدّه الايمن فما
كان منه الا أن طلب من رفيقي منديله ثم أخرج من جيب سترته
الداخليّ محفظةً تناول منها مبضعاً نكأ برأسه تلك البثرة بعنف وفقاً
دون أن يعبا بما بدا على عليه من اعراض الالم . ثم مسح مبضعه
بالمنديل وأعادته الى صاحبه ليغطي به الجرح وسار في طريقه .

وكان بوست معروفاً قبل تلك الحادثة بعدم مراعاته قواعد النظافة
الأولية في ما يجريه من العمليات حتى ليغلب على الظن انه لو اتفق له
حادث آخر من نوع ما ذكرت لما تورّع عن استخدام ذلك المبضع

عينه دون أن يطهره ، مما يثبت أنه كان شديد الايمان بهواء لبنان حتى
ليعتبره اسدً فتكاً بالجرائم من كل المطهرات المعروفة .

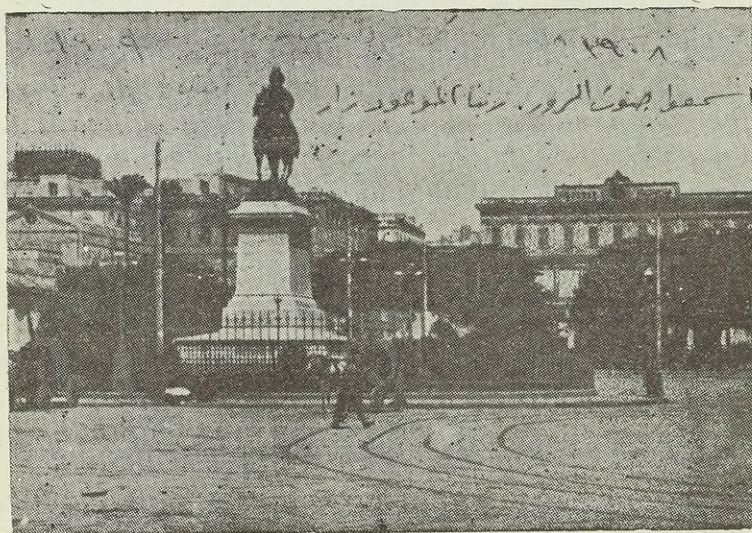
وتأييداً للقول المأثور : « التاريخ يعيد نفسه » فالحدث المتقدم
يذكرني بعملية أُجريت في سان باولو بسكين عاديّ يُستعمل لهرم
التبغ الوطنيّ المجدول . ذلك أن واحداً من مهاجرينا الذي اشتهر
بالاعتداد بالنفس وادعاء العلم بكل فنّ ومطلب عاد يوماً صديقاً له
يشكو من دمل في إبطه يسمونه « عروس الباط » فزينت له دعواه أن
دواء ذلك الدمل البضع ، ولم يكن بعدُ قد نضج ، فأخرج سكينه
خفيةً بينما كان معوده يريه إياه وباغته بطعنة نجلاء برأس ذلك السكين
الحاد فأطلق صيحة ألم دوت لها جوانب المنزل فهرع ذوهه لنجدته .
واذ رأوه وقد نفذ فيه المقدور أسرعوا فاستدعوا طبيباً طهر الجرح
وضمده . ولحسن حظ ذلك الدعيّ الدجال وقفت الكارثة عند ذلك
الحد فشفت به سلامة العليل وتقدير حسن النية من جهته والا لأجهز
على صديقه وذهب هو ضحية رعونته وهوسه .

الثورة على الطعام - لم يكن ماك سويني محافظ كورك ولا
غاندي مسيح الهند اول من توسلا بالاضراب عن الطعام تأييداً لمطلب
عادل وارهاباً للمستبدين بل كنت انا ونفرت من رفاقي في الكلية في
عهد رئيسها هورّد بلس . على أن الفرق بيننا وبين هذين المجاهدين
هو ان اضربنا لم يتعدّ بضع ساعات ولم نستغن الا عن علفة واحدة .
كان طعام الكلية في معظم ايام الاسبوع تافهاً ويزيده تافهاً حرص
المتعهد وكان رجلاً ربعةً بديناً يُدعى اميناً فلا يحضر سوى نفاية
الأسواق من كل انواع المأكولات فننصرف الى اكل الزيتون دون
سواه فيأتي منه بأسوأ الاجناس فتملاً الصحون بالنوى فيأمر الخدم
بإعادة الباقي الى الخوابي على علاته .

وكان المعلمون يشددون علينا الرقابة لكي لا نختلس الخبز فنأكله

في قاعات النوم بما نختزنه من الأدام فثرنا مرةً وابينا الدخول الى قاعة المائدة . ونمي خبر الاضراب الى الرئيس الحكيم فرأى ان يعالج تلك النزوة بالهوادة واللين فأعلن انه قادمٌ لتناول الطعام ذلك اليوم على مائدتنا فأخذ البعض بذلك التنازل ولكنني وبعض الرفاق اصررنا على الاضراب علماً منا ان الغداء كان في ذلك اليوم « مجدرة » وهي اكلة لا بأس بها كيفما طهيت . وعلى فرض انها كانت رديئةً فاستساغة الرئيس اياها مرةً واحدة اهون من ان تهوّن علينا التضحية بذوقنا معظم العام . ولكن ثورتنا لم تكن فاشلة اذ هي قضت على امين بمراعة جانب الأمانة واحسان معاملتنا فتم بذلك انتصارنا عليه .

رحله الى الاسكندرية



(ميدان محمد علي في عروس القطر المصري)

كان أعمامي الثلاثة مذكورين عندي بالخير لحبهم لي وعطفهم عليّ وكان اكبرهم اسكندر ذا علم وذكاء ودراية جمع ثروة لا يستهان بها

ثم اضاع بعضها في معرض شيكاغو والبعض الآخر بالمضاربة في مصفق
الاسكندرية وأقام أخيراً في هذا الثغر يستثمر الباقي من ثروته في
الاتجار بالجوخ الانكليزي والتبناك العجمي ويضارب بحكمة واعتدال
بعد مغادرتي السكينة للمرة الاولى، وكنت في نحو السادسة عشرة،
نزلت بيروت وعنّي لي ان أغامر فأؤم الاسكندرية لعلي بفضل نفوذ
عمي فيها احصل على عمل يستأهله استعدادي الكبير على زعمي، وما
لبثت ان نفذت فكري هذه دون علم من والدي. ولست انسى كم
اخفقت في محاولتي الهرب اذ لم اكن احمل جواز سفر وكم كانت سفرتي
مزرية ومضنكة لقلة ما في يدي من المال.

وما بلغنا يافا حتى صعد الى الباخرة عددٌ من باعة بورتقالها الممتاز
فلم أكتفِ منه باقل من دزينة كاملة العدة على ان اللذة التي اجتنيتها
من التهام هذا المقدار من البرتقال اليافاوي لم تف بالغبن الذي لحقني
إذ ان الأقدار قيضت لي صيرفيّاً اعور أقنعني بأن لا قيمة في
الاسكندرية لقليل المال الذي احمله من العملة العثمانية فبادلني منها عدداً
من الفرنكات. ولم اكتشف الغبن الذي أصابني إلا عند بلوعي ميناء
الاسكندرية حيث اضطررت ان ادفع خمسة فرنكات جزاءً تقديماً
لكوني مسافراً دون جواز فأديت ذلك الجزاء دون احتجاج ولكن
المأمور احتجّ على نوع الفرنكات لانها كانت ايطالية ولا سوق لها في
القطر المصري فأسقط في يدي اذ لم اكن املك سواها ولكنّ الحمال
الذي كان ينقل حقيقتي انتشلي من مأزقي ذاك بسؤاله إياي من أقصد
في ذلك الثغر. واذا علم ان «تاجر الجوخ العظيم» في عرفه عمي لم يتردد
في دفع المطلوب ثقةً منه بأنه مستودع وفوقه، وهكذا حلت معضتي
ولكن كل هذا لم يكن بالشيء المذكور بازاء دهشة عمي عندما
رآني فإنه لم يتمالك ان استحمقني وأنكر عليّ إقدامي على ما لم أوهل
نفسي بأية وسيلة، غير اني لما كنت قد وصلت ولا مردّ شاء ان

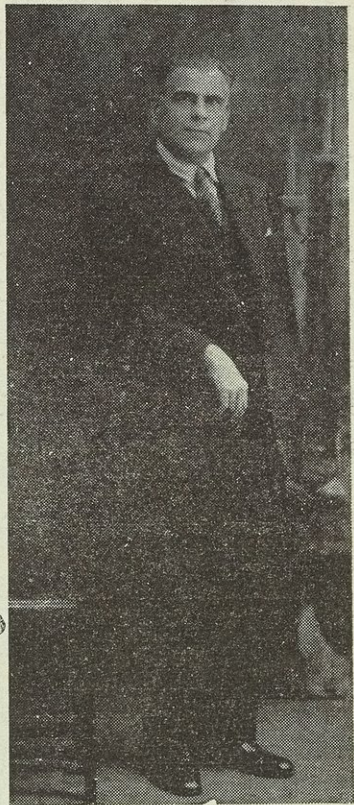
يعينني من القيود المنزلية فأحلني نزلاً ارقد فيه وعين لي مطعماً اتناول فيه طعامي وابرق الى عمي اندراوس في المنيا حيث كان يعمل في ادارة السكة الحديدية (وكان على وشك مبارحتها في عطلة) يستقدمه الى الاسكندرية لكي يراني ويقضي عطلة بقربي . ولم ينقض يومان حتى وافاني اليها وقضيت بصحبته اسبوعين حافلين بأسباب التمتع ، وكان خير ما علق بذاكرتي من حوادث تلك الرحلة تمثيل « كامل » المجوني ، ومن الأطايب حلوى « عيش سرايا » . وفي الاسكندرية عرفت ان نبات شوك الأرض اسمه خرشوف وكنت في بادئ الأمر لا اطلبه لجهلي ما هو في حين ان اسمه كان يقع دائماً في سمعي لكثرة إقبال الآكلين عليه . فعندما عرفت ان « الخرشوف » هو « الأرضي شوكي » الذي كنت أحبه لم يعد يفوتي كلما وجدته مدوّنًا في لائحة الطعام وكنت أكولاً الى حد « يخرب البيوت » فلنكي أخفف عن كاهل عمي لجأت الى « الركة » وذلك انني كنت أمهد لكل علفة بطلب صحن من المرق أفث فيه رغيفاً من الخبز الافرنجي سدًا لجانب لا يستهان به من الفراغ بكلف زهيد . وعندما جاء دور الحساب لم يتمالك عمي ان ابدى دهشته لالتهامي من الطعام في أسبوعين ما قيمته اربعة جنيهات ونصف مع ان البالغ لا يصرف مثل هذه القيمة البالغة في شهر فأجابه صاحب المطعم عليّ فكان جوابي ان الحساب في منتهى الضبط ، ولولا « الركة » لما وقف عند ذلك الحد . وعندما سردت لعمي حكاية « الركة » خلى وقاره واطلق ضحكة عالية وأدّى الحساب بشبهة وعدت من الاسكندرية اوفر ثقةً بجهلي وعدم اهليتي للعمل ولكنني تعوّضت عن خيبيتي مشاهدات واختبارات اطلقت في وصفها لساني اسابيع عديدة على مسمع من رفاقي « المساكين » الذين لا اعام لهم في الاسكندرية لكي يتمتعوا بنعمة حلولها والعيش فيها بهناء طيلة أسبوعين كاملين ويعودوا منها محملين هدايا ذات قيمة !

المُلَقَّةُ الأَدَبِيَّةُ

المعت في ما سبق الى هذه الحلقة وكان قوامها نجيب حبيقة استاذ البيان في كلية القديس يوسف للآباء اليسوعيين وتلامذته المختارون نقولا فياض ونجيب نسيم طراد ونجيب فرج الله طراد وبترو طراد ووليم غرزوزي ، وسواهم كثيرون ممن لا تحضرني أسماؤهم .

إنهم كانوا رسل الانسانية والاجتماع الراقى والادب الصحيح : كان كيس كلٍّ منهم كيس الجميع وعيلة كلٍّ من يتغيب منهم عيلة الجميع ، وهم إخوة لا صبر لأحدٍ منهم على فراق الآخر ، وسرعان ما يتملصون من ربطة اعمالهم حتى يجتمعوا في نادٍ او مقهى إذهاباً للسّامة وتجديداً للقوى ، ويأتي بعد العشاء دور التمتع والتروفيه فيقضون ليالهم مناوبةً في منازلهم سامرين متطارحين ماجنين . وكان لهوهم على انواعه راقياً بريئاً كاحياء حفلات تلقى فيها المناظرات والخطب الادبية والاجتماعية وتمثل الروايات التهذيبية ، وكان الناس يقبلون عليها ، مجانيةً ومأجورةً ، إقبالهم اليوم على المقامرة والعبث والمشاهد الخلاعية المخجلة . وكان هذا دأبهم في بيروت خريفاً وشتاءً وربيعاً وفي عاليه وسوق الغرب وسواها صيفاً ، ولا تفوتهم في هذا الفصل رحلات لطيفة يقومون بها متنقلين بين قرى لبنان الفتانة تارةً مشاةً وتارةً ممتطين الحمير ، ولكنهم كانوا يؤثرون التنقل على الاقدام ارتياضاً واغتناماً للذات لا تتوفر للممتطين اما الجدُّ والبثُّ والاستيقاظ للحقيقة المرّة ومصارحة النفس بسوء الحال والمآل في عهد لا يسيغ العيش فيه سوى التمويه على النفس

واصطناع الرضا والاستحسان
المفروضين تحت طائلة الاضطهاد
فكانت لازمات يرددها كل
امريء كلما خلا الى نفسه او جمعته
الصدقة بصديق يتق من إخلاصه ،
على حد القول العامي : « السن
يضحك لهم والدمع بعيوني » .
فقد كان نجيب طراد وأضرابه
ينشرون المدائح للسلطان والدولة
ويكونون في سرهم مما يظهره
من رياء هم مُكرهون عليه . فما
كان اشبههم ضمن البلاد بأعضاء
جمعية الاتحاد والترقي الذين كانوا
يعملون خارجها .



أما التفرنج بمعناه فيخطيء من
يحسب انه وليد حقبة الانتداب
التي جاوزت ربع قرن فقد كان
المتحدثون من المتعلمين يتباهون

نجيب نسيم طراد في كهولته

بجهلهم اللغة العربية وتعمقهم في معرفة اللغة الفرنسية ويؤثرون التعبير
بها ويدخلون في احاديثهم الالفاظ العربية بنسبة تنذر باحساء أم اللغات
من قاموسهم في وقت قصير . وكان العدد الاكبر من هؤلاء في
بيروت يفوتون احاديثهم الفرنسية بنزر من الألفاظ العربية من باب
التشكيل . وما كان يؤلني شيء كسماعي اياهم يتخاطبون ويخاطبونني
بذلك الأسلوب الخزي

فطوبى لنا اذن ونحن اقلية ضئيلة في مهجر يطغى علينا سيله ويجرفنا

تياره اذ كنا ولا نزال نغيب على اي مواطن المزعج بين لغتنا ولغة المحيط لعجزه عن التعبير عن بعض الاوضاع او المصطلحات فيلجأ الى الكلمات الاجنبية ، فكيف وقد رأيت كثرة هائلة من اهل لبنان يتكلمون بالفرنسية . اننا نعتبر من دواعي اعتزازنا واقتخارنا ان نخاطب الاجانب بلغاتهم ونثبت لهم أننا نخذقها مثلهم . ولكن ان نتكلمها او نخرج لغتنا بها فهذا ما ينفر منه الطبع ويمجه الذوق ويأباه الخلق العربي النبيل

وكان خير ما أمتنع به عندما اكون في بيروت هاتيك الجلسات الصباحية اذ يتوارد الأصدقاء الخالصاء الظرفاء معرّجين على رجاء ان يصطحبوا نجيباً الى المدينة فيخيب ظنهم الواحد تلو الآخر لانه كان يحبر مقالاته لجريدة المحبة ليلاً ولا يبدأ عمله الا بعد عودته من سهرة طويلة . وعبثاً كانت خالتي تحاول إيقافه استجابةً لالحاح زوّاره الصباحيين ، باستثناء المعلم الياس جرجس الحوري فقد كان نجيب يحبه ويحترمه ويعزّز عليه ان يخيب رجاءه . لذلك كان اذا سمع صوت المعلم الياس يستيقظ من تلقاء نفسه ويستمهله ريثما يغتسل ويرتدي ملابسه فيجلس هذا متوشّفاً القهوة ومدخناً واحدةً من لفائفه الاقتصادية ، وفي الوقت نفسه يتحدث الى خالتي ام نجيب في الموضوع الوحيد الذي كان يستوعي كل اهتمامها وهو تسوّق الحاجيات المنزلية بأرخص الاسعار . وكان المعلم الياس ممن لا يُشق لهم غبار في مضمار الاقتصاد والتوفير ، لا بخلاً بل اضطراراً لانه كان ربّ عيلة كبيرة يقصر مورده الضئيل عن سد حاجاتها لولا براعته في الاستقصاء والاستقراء والمساومة وخبرته الواسعة في ما يكلفه كل صنف وتعيين الربح القانوني الذي لا يجوز للبائع أن يطمع باكثر منه . وكانت خالتي كثيراً ما تعتمد عليه في تسوّق ما تحتاج اليه ويسعفه تضاعف الكمية على ابتياعه بأرخص سعر ممكن .

رَوَاقُ الْأَبْطَالِ

إنَّ الأبطال في العرف العامِّ هم أولئك الذين يعظمهم الناس
ويعبدونهم ويقيمون لهم الانصاب في الساحات العمومية ويحيطونهم
بهالة من الاجلال والتقدیس تجسم حسناتهم وتمحو سيئاتهم ، وينسجون
لهم من الاعياد التذكارية بروداً فضفاضة تبهر بروائها وزخرفها الابصار
فتوهم الرائي أن لابسها من طينة الآلة لسلامتهم من العيوب . فهذا
قائدٌ حال انتصاره دون مثوله امام محكمة « نورنبورغية » ، وذلك
قدیس جرف هتاف مطوَّبه همس العارفين بخفایاه ، وهذاك محسان
اطلقت عطاياه السخية اللسنة المسبحة بحمده وأبطلت بهم ضحایاه
العفاة بأنه إنما جاد بنزرٍ مما ابتزَّه من كسبهم الحلال

اما ابطالي فابطال التضحية الصامته التي لا تلفت الانظار إذ ليس
فيها ما يُجتنى فيستوجب الحمد . وكل ما فيها أنها هي العظمة الحقيقية
التي تستتر استحياء واحتشاماً ، وتعصمها كفايتها عن تطلب التعظيم
والتبجيل والتبويق والتطويل ، ولذلك يعمر عنها سواد الناس ولا
يعنى بها سوى المنقبين عنها في اغوارها العميقة التي تمتنع فيها امتناع
المعادن الثمينة تحت طبقات كثيفة من الأتربة والجلامد . فاسمح لي
يا قارئ العزيز بأن اقتادك الى رواق المتواضع حيث أستعرض امامك
نخبة من ابطالي ، تاركاً لك حرية الرأي والحكم :

في مبرية الضمير والتكبر

عبد الفصين - كان (ابو امين) يملك بناءً حديثاً قائماً على الضفة اللبنانية من فرع البردوني الفاصل بين المعلقة وزحلة . وفي ذلك البناء أنشأ حانةً ومتبغةً ، وكانت تربطني به وبأولاده صلاتٌ متينة أهمها اني في متبغته انخرطت في سلك المدخنين وأنا غير مجاوز الثالثة عشرة من عمري . وفي طليعة ما لا يزال عالقاً بذهني من شؤونه أنه كان في زمن مضى يتجر بالجلود وسواها من لوازم الأسكفة فساءت حاله وافلس واتفق مع دائنيه على معدّل مؤويّ زهيد دفعه فأبرأوا ذمته ، وعلى الأثر بعث بابنه أمين واثنين آخرين من اولاده الى المكسيك . وشاءت الأقدار ان يصابوا في تلك البلاد نجاحاً فأسعفوه بمقدار من المال لا لبناء منزل وحانوت فما كان منه الا ان حمل ذلك المال الى دائنيه في بيروت مصرّاً على إيفائهم ما كان قد بقي لهم في ذمته مع فائدته القانونية بعد ان كان قد انقضى على تصفية طابقه زهاء عقد من السنين ، وحال عودته حمّل البريد البراآت الجديدة مرفقاً إياها بكتاب يسأل فيه اولاده ان يطلعوا على تصميم البناء حتى اذا ما اعجبهم شرع في العمل ! ولما كان قد نشأ اولاده على غراره وأشرهم مبادئه القويمة رأوا في هاتيك البراآت التي اعادت الى والدهم اعتباره التجاريّ خير تصميم لصرح باذخ من الشرف والكرامة فكان جوابهم تحويلاً جديداً مبلغ اكبر لكي يشرع في البناء الأرضي الزائل .

وقد عرفت فيما بعد بكره اميناً الذي عاد من مهبجره لزيارة موطنه وذويه فأوسعت له في قلبي لانه ابلغ والده أمنيته القصوى ومكنه من إتيان تلك البادرة التي سجلت له الفخر ونصبته مثلاً للمقتدين .

في انقوى والرضا والامثال

• أندراوس التويني - كان يقيم في الجناح الملحق بدار البطير كية الارثوذكسية التي تقدّم وصفها مع زوجه واولاده الاربعة وهم ثلاثة ذكور وأنثى واحدة . وكان وعيلته جيران سكان الدار ولم يُضرهم يوماً او يحط من قدرهم في نظر كبارنا وصغارنا كونهم فقراء وان الموسرين من اسرة التويني العريقة يتبرأون منهم ويعتبرونهم دخلاء انتحلوا تلك الكنية المشرفة تقرُّبا .

نعم ، إن أندراوس التويني كان فقيراً الى المال فقط ولكنه كان من كبار المثمين في الفضائل دون استثناء ، وفي رأسها الرضا الذي لا غنى حقيقياً بدونه .

كان يبكر الى الصلاة والشكر الذي يدعم النعم ويكثر القليل ، ولا يأوي الى فراشه الا بعد ان يسلم روحه الى خالقها طاهرة نقية من كل شائبة ويعمل نهاره كادحاً فيكسب كسباً حلالاً يضمن الكفاف ويربي اولاده تربيةً صالحةً ويحاول بكل ما في إمكانه ان يكون نافعاً للآخرين ، خدمةً او عطاءً او مؤاسةً ، ولا يبخل بفلس الارملة عندما يفيض عن حاجته الماسة ويجد من هو احوج منه اليه . اما عمله فكان صنع المعلل وبيع الجرائد ، وكان يجيد صغته فيفرض حلواه على اصحاب الذوق السليم فرضاً ، وفي هذا ما فيه من صون الاباء والترفع عن الزلفى .

وعلى صلاحه ورضاه لم يسلم من جور الزمان ، من باب ان « الله يجرب خائفه » ، فكانت زوجه مصابة بزمانة تقتضي المعالجة الدائمة ، وبكره نخله مصاباً بما هو ادهى وأمرّ ، وأعني داء الكسل الوبيل ، وابنه

الثاني جرجي الذي العامل المجتهد الكاسب يعاني أعراض داء عضال لا شفاء له ، ولم يسلم سوى الاصغر جبران الذي تعلم فعلم وعلم واصبح كاتباً نحريراً وصحفيّاً قديراً ووزيراً خطيراً ، ولم يبلغ شأوه اي من افراد الأسرة الذين ولدوا وعاشوا وماتوا اغنياء . ولعل أسرة تويني الاصلية اصبحت تدعي اندراوس بعد ان انجب جبرائلاً وهذا بدوره انجب غساناً .

و كنت في عداد الذين يحبون اندراوس ويحبلونه ولا يرون في بيروت كلها من يدانيه في استيهال الاحترام والاكبار والاجلال الى حد ان يُقام له نصب يرمز الى الفضيلة والكمال الانساني .

في الامانة وصحة الخدمة والولاء

اخدمتان مريم ونسطا - كانت الخدمة المنزلية تكاد تكون خالصة فقد كان الاستخدام ضرباً من التبني لان الخادمة لم تكن ترضى عن « معلمها » او « معلمتها » بديلاً مهما تألبت عليها المغريات فتستمر في خدمتها وتربية اولادها كواحدة من افراد العائلة . هكذا عرفت خادمتنا مريم ناصيف من حمانا التي اصبحت بعد وفاة والدتي ترعاني وشقيقتي كأم ولم تتوكلنا حتى جاء وقت تركناها نحن فيه ودخلت في خدمة طبيب فاضل من أسرة قدّورة ومع ذلك ظلت تحفظ عهدنا فتشاققنا كما كنا نشاققها وتستأذن رب البيت وربته في استقبالنا فيكرمانها كلما زرتها بسبقها اياها الى استقبالنا وإكرامنا . ومثلها نسطا خادمة بيت خالتي التي ظلت ملازمة « معلمتها » ورافقتها الى باريس وبروكسل ولم تفارقها الا عندما ازمنت موافاة بكرها الى سان باولو .

فأين ما كنا عليه في ذلك العصر السعيد منا اليوم وقد سمعت الشكاوى المريرة من كل ربة بيت لقيتها في بيروت وما أثرته في البرازيل حيث بلغ من إحدى الخادومات ان قالت ذات يوم لرفيقتها، قاصدةً الآثار لنفسها من صلف بعض السيدات وتعاظمن في رأيها : «إنهن يتحدثن عنا في بهو الاستقبال ونحن نتحدث عنهن في المطبخ» ! وبمناسبة ما ذكرته عن مريم ناصيف كان من محاسن الصدق انني بعد اشهر من عودتي الى لبنان اكتشفت ان هذه المربية التي زالت منذ سنوات عديدة لم يزل أثرها فقد اكتسبتي أختاً بالتربية ، وأي أخت ! إنها الآنسة ابتهاج قدورة المعدودة بحق السيدة الاولى في لبنان في مضامير الثقافة والوطنية والاجتماع فقد لقيتها وابنة اخيها العالية الثقافة والتهديب الآنسة زاهية مصطفى قدورة اتفاقاً على اثر محاضرة القاها في الندوة اللبنانية الاستاذ سامي الكيالي صاحب مجلة « الحديث » الحلبية وعلمت منها انها ابنة ذلك الطبيب الانساني الفاضل اديب قدورة الذي دخلت مريمنا في خدمته فكانت له كما كانت لنا مثال الاخلاص والوفاء وربت اولاده حتى وافاها الأجل بعد خمسة وثلاثين عاماً فحفظ البنون ذكرها وراعوا ، وهم المسلمون ، عقيدتها حتى إنهم في عيد الأموات من كل عام يقيمون في الكنيسة صلاةً تذكارية لراحة نفسها . وذكرت لي الأخت ابتهاج ان اخاها الطبيب نادر لم يكن يعود من سفر الا ويقبل اولاً يد مريم معلاً تقديمها بعدم خشيتة العتب من جهة والدته في حين ان تأخيرها قد يجرح شعورها ! فهل بعد هذا من حس ادق وعاطفة انبل ؟ !

في صل الأهمال لفا ، « خميرة الطم »

كنت في أصل العقد الثاني من عمري يوم مررت في احد اسواق بيروت الضيقة القذرة في ذلك العهد، حيث كانت تكثر المطابخ الحظيرة

التي تُقدِّم الطعام للحَمَّالين بسعر نجس للغاية هو متليك واحد لكل صحن مشبع ، فاسترعى انتباهي عدوُّه وصياح وضحك وصخب فملت الى موقف حائد أرقب منه ذلك المشهد فإذا بي ارى احد الحَمَّالين هارباً من وجه زميل له يطارده فلم أستهجن تلك المطاردة لانها شيء مألوف بين افراد تلك الطبقة العاملة العارية عن كل علم وتهذيب فإنهم اذا ما أموا تلك السوق بقصد تناول الطعام في مطابخها جلس المتعبون منهم يستريحون ريثما تستكمل المطبوعات نضجها وعكف الأقلُ إعياءً على المعركة والمعاينة إذهاباً لسامة الانتظار . وكان المشهد الذي تبدَّى لي عادياً يتكرَّر كلَّ ظهيرة دون استثناء .

اما هاتيك المطابخ فلا تصح تسميتها مطاعم إذ هي كناية عن حوانيت ضيقة قذرة لا تتسع لأكثر من المعدَّات التي يحتاج اليها الطاهي وغير مجهزة بشيء من معدَّات الموائد المألوفة ، حتى إن الطبخ نفسه كان يجري في مكان الرصيف من الاسواق المعروفة ، أي أمام الباب حيث تُشبُّ النار في موقد تُنصب عليه حلَّة كبيرة تُسلق فيها العظام ونفاية اللحوم التي لا يصح عليها بيع ولا شراء ونُهل في المرق انواع الخضر المعطوبة والمتهرَّثة كالكوسى والبادنجان والبندورة والبطاطا وسواها وإلا لما استطاع أولئك الطهاة أن يقدموا الصحن المعرَّم بمتليك دون أن يكون لهم مورد ربح آخر ، لان كل آكل يأتي مجهَّزاً بصحن وبالمقدار الوافي من الخبز .

قلت إني رأيت احد الحَمَّالين يطارد زميلاً له وقد أخذت عيني في الوقت نفسه حلَّة ملانة قائمة على موقد وقد لجَّ بها الغليان وقارب ما فيها النضج . وكان المطارد يئس من إدراك زميله الهارب من وجهه لكي يكبل له مثل اللكمة التي تلقاها منه فرأى أن يشفي غليله بالرمية فأطلق عليه « الفردة اليسرى من سرمايته » ، ولكن بدلاً من أن تصيب هذه الهدف سقطت في الحلة وغاصت فيها . ونظراً الى

اشتغال الجميع بمراقبة المتنازِلين لم يتنبه الى سقوط السرماية إلاي والطاهي
وأخذ المطارد يفتش عبثاً عن سرمائته ويتهم زميله الهارب « بأكلها »
وزملاؤه المتفرّجون يضحكون ويساعدونه في التفتيش عنها على غير
جدوى الى أن أعلن الطاهي استواء الطبخة وأهاب بالزبائن أن يتقدّموا
بصحونهم فأقبل هؤلاء عليه بها وطفق هو يملأها لهم بعدد معين من
المغارف وهم يؤدّون له المتاليك ثمن ما يتلقونه من ذلك الطعام التافه
الذي لا يسيغه سوى الجوع المبرّح

ولما كان صاحبنا عالماً بما في قعر الحلة كان يعرف بكل حذر
ويتحاشى التعمق ، ولكنه في زحمة العمل وقد احتدم وطيس الأخذ
والعطاء نسي مسألة السرماية وأخذ يصول بمغرفته ويجول حسب ما تعود
حتى ابلغها مرةً القاع فعندما اصعدّها الى السطح كانت السرماية في
طليعة ما صادته من قعر الحلة فهاله الامر وأسرع فأعادها الى مستقرها
ولكنّ الجمال المسكين الذي كان يتلقى المغارف في صحنه حسبها
وقد لينتها الحرارة البالغة درجة الغليان قطعة لحم كبيرة ناضجة فأحتجّ
بكل شدّة على حرمانه تلك « الشدّة » زاعماً انها نصيبٌ ساقه اليه
القدر ، ولكنّ شجاعة الطاهي ورباطة جأشه وحضور ذهنه أنقذته من
تلك الورطة التي اوقعه فيها سوء طالعها ، ووقته مغبة افتضح سرّه
الذي كان قد أتمني عليه بغمزة معنوية ، فاجاب ذلك المحتجّ
المسكين لفوره صائحاً :

« ولاء، العمى في قلبك ملاّ مجنون ، هاي خميرة الحلة ! ببشلك
ما يبيعك ياها ! »

ونزل الستار !

ولكن ما ساء في شيء كرويتي ان تلك الطبقة الكادحة النافعة
تعيش في عهد الحرية والاستقلال والنور كما كانت تعيش منذ نصف
قرن في عهد الاستعباد والاستبداد والمظالم على اختلافها

صَلَامَاتُ قَائِسِينَ الْكِبْرِيَاءِ



(مشهد من مدينة بعلبك التاريخية وقلاعها)

لقد ادَّيْتُ ووالدي ثَمًّا باهظاً لما ادخله في روعي صغيراً من عوامل الكبرياء بتربيته على مسمع مني أننا متحدرون من أمراء غسان ، ولم يفتن الى الاثر السيء الذي أحدثته تأكيدات تلك في نفسي الا بعد فوات الاوان . وشاء ان يصلح ما افسد فراح بعد إخفاقي في الكلية يحاول كبح جماح غروري بسومه إياي المزريات على انواعها ، وفي جملتها إكراهي على الاشتغال بصناعة الاحذية

وتسليم ما ينجز منها الى اصحابه في منازلهم .

وأصبّت بأكثر من ذلك في مدينة بعلبك في نزل بلмира (تدمر)
الذي كان يملكه رجل يوناني يُدعى بيوركليس وكانت لنا صلة ودّ به
وبقريته بفضل أسرة الجنس التي كانت تربطها بوالدي . وبعد وفاتها
ازداد عطفهما عليّ وكانا كلما زارانا في المعلقة يستعجلان الوقت الذي
ازورهما فيه وأنزل عليهما ، لا ضيفاً بل ابناً . ولكنّ الذي كان
يضمّره السيد بيوركليس فعلاً ، بعد ان شئت واصبحت قادراً على
التعبير باللغة الانكليزية ، هو استخدامي كترجمان لدى السياح الذين
كان يتوقع ان استهويهم بمقدري الى نزله ، وعلى هذا اتفق سرّاً مع
والدي . وازف اخيرا الموعد المنتظر فعهد والدي الى حوذي اسمهُ
ميخائيل بإيصالي الى بعلبك حيث استقبلني الزوجان بيوركليس بالترحاب
وغاليا ما استطاعا في اكرام وفادتي .

وكان السيد بيوركليس فخوراً بنزله وكانت المنافسة على اشدها بينه ،
باعتبار كونه صاحب « أقدم نزل في مدينة الشمس » ، وبين زميل
له يُدعى انطون عريبد ، صاحب « احدث نزل فيها » . وكان هذا قد
عهد بإدارة نزله الحديث الانيق الى ابنه ابراهيم ، وهو شابٌ ذكيّ حلّو
الشمال سبق لي أن زاملته في الكلية . إزاء هذا التفوّق المزدوج كان
اعتماد السيد بيوركليس عليّ ، لانتشاله من مأزقه ، غباوةً مزدوجة ،
ولكنني التمس له عذراً من انخداعه باهليتي .

ولما كان قد بدأ موسم السياحة راح السيد بيوركليس يوفدني يومياً
الى المحطة في موعد وصول القطار متوسماً فيّ القدرة على اقتياد اكبر
عدد ممكن من السياح الى نزل بلмира الشهير .

على أنّي ما كدت أدرك حقيقة ما رمى اليه السيد بيوركليس من
استخدامي الى نزله حتى تبدّت لي انانيته البشعة ورحت اتبرّم وألقي
شكائي المريرة في سمع الحوذي ميخائيل لأنني لم أنس لتلك المهنة التي

ارادها لي ذلك الفندق المراتي تقديراً مني أنه لا بدّ مُبلغها والذي
وأن سليل أمراء غسان لا يمكن ان يرضى لابنه بتلك المهانة فيعجل
في استقامي .

وبينا انا في انتظار الفرج كنت اذهب الى المحطة ، لا لاستقبال
السياح ودعوتهم لمرافقتي الى نزل بلهوا بل لاقف كمتفرّج بقصد التسلية
متوقفاً ان تقود الى الصدقة سائحاً ضالاً يستشفّ قصدي الخفيّ فيلتبس
مني بانكسار ان ادلّه على نزل يأري اليه . وكانت النتيجة دون
استثناء فوز زملائي الاجرياء الملحقين وعودتي مخفي حنين لألقى من
السيد بيركليس اللوم والتقريع دون ان يجديني فتيلاً احتجاجي كذباً
بقلة عدد السياح وأن القليلين الذين وصلوا جاؤوا قاصدين انزالاً معينة
سبق لهم ان حجزوا اماكن فيها .

واخيراً بلغ من هياج الفندق المتصلب انه اقصاني عن المائدة
العائلية وقضى بأن اتناول علفات هزيلة تافهة في المطبخ . وإزاء هذه
الحالة المزرية استجرت بصديقي وزميلي إبراهيم عريبد فما كان منه
ومن والده الا أن استقبلاني باذرع مفتوحة . وبلغ من امتناني لهما أني
تطوعت للخدمة على المائدة واستجابة مطالب النزلاء في مخادعهم فأحمل
اليهم زجاجات الماء الغالي لتدفئة فرشهم . وكان الجميع يكافئونني
باكراميات زهيدة كنت لدهشتي لا اتورع عن قبولها . فيا سليل
الغساسنة يمثل دور امراء بني حرفوش عندما حط بهم الدهر فكانت
واحدهم يأتي الى المعلقة ممتطياً فرساً يقتاده خادم يطرق ابواب المنازل
طالباً صدقة لذلك الأمير العظيم الذي يسمو به شرف اصله عن مد
يده للسؤال !

وهكذا تحوّلت من جبار يتصدر المآدب الى قزّم يخدم الجلوس
اليها ويلبي اوامرهم في مخادعهم ، بما حرك قلب ميخائيل بالشفقة على
وحمله على إعادتي دون ان ينتظر موافقة والذي .

وكان يشغل صدر المركبة سائحٌ اميركيّ وزوجته ، لذلك جاورت ميخائيل في مقعده المكشوف متحملاً بردَ الربيع القارس . وبإغرائه مثلت دور الترجمان ورحت أجيب السائحين عن بعض الأسئلة وأدلي اليهما بمعلوماتي عن بعض المشاهد والاماكن الأثرية الواقعة على جانبي الطريق . ولم اكن في داخلي اتوقع على تلك الخدمة ايّ جزاء ولكن ميخائيل اقنعني بوجوب التقاضي ولذلك ما بلغنا النزل الذي حله السائحان قرب محطة المعلقة حتى وقفت منها موقفاً مدلاً استنتجاً منه قصدي ووثقا من إصراري على الظفر بمكافأة على « الخدمة » التي اسديتها اليهما فنفتحاني بقطعة فضية قيمتها خمسة شلنات كانت في ذلك العهد ثروة فاقتبلتها بسرور ظاهر شاكراً عليها ولكنني ما كدت أبتعد خطوات عن ذلك المكان الذي خيّل اليّ أنني بذلت فيه كرامتي لقاء خمسة شلنات حتى شعرت بسهام الخجل تمزّق أحشائي .

* * *

والآن ارى ان المهانة بمعناها لم يكن لها اثر الا في خيلة الفتى الغرّ الذي كنته . وإني ادين اليوم ذلك اليافع المتعاضم سخفاً وبلاهةً بحيث لم يعرف للعمل الشريف قيمةً وساقه غروره الى احتقار الامثولات التي كان يجب ان يتعلمها من حياة البسطاء الشريفة ، اذ لا عيب ولا عار البتة في اي عمل يقوم به المرء بأمانة ويحسنه ، بل إنّ الجديرين بالاحتقار والادانة هم السرقة والمزورون والمهرّبون ومستغلو جهد وعرق جبين الآخرين ، والحكام ورؤساء الأديان الذين يخونون عهد الأمانة وإحسان الخدمة الذي قطعوه على انفسهم .

بَطُولِي الْمَرْعُومَةِ

إذا استثنينا الدعوى التي لا تستند الى دليل ويكذبها الواقع فقد
نشأت مسالماً من الطراز الاول ، حتى ليصح في القول أنني كنت من
القوم الذين قال فيهم الشاعر :

كأنما الله لم يخلق حُشيتَه سواهمو من جميع الخلق إنسانا
ومع ذلك عرض لي وأنا في الخامسة عشرة من عمري أن أُؤخذ
بمعامل النخوة فأحاول التشبه بالفوارس الأسطوريين ، كدُن كيخوتي
سرفانتس مثلاً ، لا بل أفوقهم لأنني شئت أن أُغيث دون أن أُستغاث
وكانوا هم في الغالب لا يُنجدون الا من يستنجدهم . على أني اشبهتهم
في الاقدام والاقترحام وخالفتهم بالعودة « راضياً من الغنيمة بعد الجِدِّ
بالقفل » ، وحامداً الله على سلامتي مما عرَّضت له نفسي من مكروه اذ
وجدت من يلطِّف من حدي ويثني عن عزمي ، شأن الجبان الذي
يطلب النزال ما دام هناك من يصدُّه عنه . اما حكاية تلك المغامرة
البهلوانية فهي في ما يلي :

كان مأمور الاحراش ذا دولة وسلطان وكان يعتمد على والدي
في تعقب مهربي الفحم الباقي تلمصاً من دفع العوائد المفروضة عليه .
وكان والدي بدوره ييث على المهربين الارصاد ويعتمد على إخلاص
وتفاني مخبر من الطائفة الشيعية يقيم مع عيلته في ضاحية الكرك
ويرافقه في مطارداته المهربين فيقطع عليهم الطريق ويقتادهم وجماهم

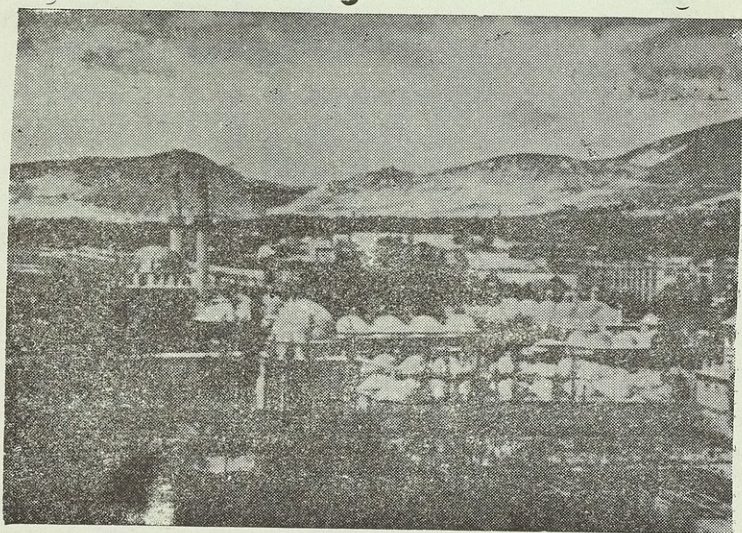
المحملة الى ساحة المعلقة حيث يباع الفحم بأثمان بخسة تستوفي منها
العوائد مع الغرامة الفادحة فلا يبقى لأصحابه المساكين « من الجمل الا
اذنه ». وكثيراً ما كان المهربون يلجأون الى المقاومة بقوة السلاح
وتجري بينهم وبين والدي واعوانه معارك حامية الوطيس . مع ذلك
كنت انا أشفق على اولئك المساكين وأرى في مطاردتهم وسلبهم
مورد عيشهم الضئيل غبناً لا يرتاح اليه وجداني واكره لهذا السبب
المأمور الذي كان شيخاً دميماً ثعلبي السحنة متصلب العاطفة متحجر
القلب ، ولا يغريني نصيي من ذلك الجهد الذي يقوم به والدي باستثنائه
وكان الخبر الشيعي يحترم والدي ويحمله كما يهابه لشجاعته واقدامه
ويتلطف به والدي فيدعوه « شريكنا » بحجارة لابناء ملته الذين
اتخذوا من « الشركة » لقباً يدل على الاعزاز يعمونه اعتباراً
ولكنهم يكسبونه معنى خاصاً عندما يوجهونه الى شخص يحبونه فعلاً
باخلاص . وبفضل هذه الصلة كانت لي على هذا الخبر دالة تقرب في
تأثيرها من نفوذ والدي

واتفق ان علمت ذات يوم ان المأمور البغيض الى قلبي انتزع
حسناً شيعية من حضن ذويها واقتادها الى بيت الخبر عاهداً اليه
بالمحافظة عليها ريثما يعود هو من رحلة قصيرة فكبر علي الأمر وحل
عندي ان انقاذ تلك الفريسة الضعيفة من براثن ذلك الشيخ البالي ضرب
من البطولة وبادرة من بوارد النخوة العربية فاتخذت لي سلاحاً عصا
والدي وخنجره واستثوت همة بعض اترابي لمرافقتي في تلك الحملة
الاتقاذية فبلغنا المنزل بعد ان خيم الظلام .

وما بصر بي الخبر قادماً مع رفاقي حتى خف لاستقبالي بالترحاب
ودعاني للجلوس ولكنني ابيت وأعربت له عن قصدي من تلك الزيارة
اليلية فكبر عليه الأمر وراح يتوسل إلي لكي يحولني عن عزمي
مؤكداً لي ان تلك الفتاة تبعت المأمور بملء رضاها واختيارها ثقة منها

بوعده اياها بالزواج وانها وديعة عنده يهون عليه ان يفرط بحياته قبل
 ان يسلمها وأنا أستشيط وأحترم وأصرّ على ان اسمع من فمها هي ما
 ثبت مدّعا، مؤكداً له أن خنجري يهفو للانغراز في قلب المأمور الطاغية
 وانتهى امري بالانصراف بعد أن أجدت تمثيل دوري الى حد إيهام
 شريكنا الساذج بأنه قد نجا من قبضتي بلطف من الاقدار .

في دمشق



(النكاي في عاصمة الأمويين)

عرفت دمشق سنة ١٩٠١ إذ امتتها بصحبة والدي لحضور زفاف
 شقيقتي فيها . وكانت دمشق في خيالي مدينة السحر والجمال ولنا فيها
 عدد من خيرة الاصدقاء . وخلاصة الفراق كانت الأيام الخمسة التي
 قضيناها سلسلة مآدب ونزهات وحفلات تحلي العيش فلا بدع اني استطبت
 إقامتي القصيرة لتمتعي في أثنائها بلطف اهل دمشق النادر وسحر حورهم
 وخفة روحهم وأناقة دورهم وليالي انسهم ولطافة معاشاتهم .

اُخْرِجُونِي فَأُخْرِجُونِي

كل شيء في هذا الوجود خاضع لسنة الأخذ والعطاء ، حتى إن
الروحيات نفسها لا تستثنى من هذا الحكم . وهكذا تصبح النفوس
عينها سلعاً يجري عليها ناموس العرض والطلب . فلا يُستغرب والحالة
هذه ما كان يجري في بلادنا من هذا القبيل اذ كان يأتينا المرسلون
تارةً من انكلترا وتارةً من اميركا الشمالية كمبشرين لهداية النفوس الى
ملكوت الله . وكانوا يأتون مزودين بالعون الروحي والمادي معاً .
ومن ينكر ان الغاية تبرر الوسطة وايُّ حرج في ذلك متى كانت
الغاية حسنة ومفيدة للسوى ؟ كذلك لا ينكر ان الاكثرين كانوا
يبتدون انتفاعاً والاقليين اقتناعاً . لذلك عندما كان يتعذر على المرسلين
ربح النفوس مجاناً كانوا يبتاعونها باساليب مختلفة فيهيئون للبعض
الارتفاق بالعمل ويعينون البعض الآخر على انشاء محالٍ للبيع والشراء
وسواهم بتعليم اولادهم مجاناً . ومن اطرف اشكال المساعدة
ما حدث مرة لخطاب بصر به احد القسوس يحطّط صباح الأحد فحياه
ووجه نظره الى جسامه الذنب الذي يرتكبه باشتغاله في اليوم المعد
للراحة والعبادة فاعتذر اليه الخطاب بجأته لا طعام صغاره . واذ ذاك
سأله القسيس كم يربح في يومه ، وتبعاً لجوابه ابتاع منه عمل سبعة آحاد
بريال مشروطاً عليه ان يكرّسها برومتها للعبادة . فقبل الرجل الهبة
شاكراً ووفي بعهده ولكن القسيس وجده يوم الأحد الثامن عاملاً

وكان عذره ان الاتفاق المعقود انتهى ولم يُجدّد . ولما كانت اللغة الانكليزية مشتركة بين الانكليز والأميركان والليرة الانكليزية اشهر من سواها في مضمار التعامل كان جواب الخطاب الحرفي : « أنكلزي بأنكلزك » !

وكانت الجمعيات التبشيرية ، وعلى الأخص في اميركا ، تتبرع بالمال اللازم لسد حاجات المعوزين واقتيادهم الى حظيرة الايمان البروتستنتي ، وكان المهتدون بشرط الاكثرية الساحقة . وكانت الكلية السورية الانجيلية تتلقى سنوياً مئات الالوف من الريالات سدّاً للعجز الناجم عن الحسم الجزئي ، وفي بعض الحالات الكلي ، الذي كان يتمتع به مئات التلاميذ .

ولما كنت منذ صغري أوم المدرسة البروتستنتية وأحضر الخدمات والاجتماعات الدينية فقد وقعت غيمة باردة دون أن اعتنق البروتستنتية عن طريق « الاشتراك » . وفي الخامسة عشرة أصبحت من المصلين الدائمين ، وكان هذا مني كافياً لكسب عطف المؤمنين المهتدين وفي طليعتهم ناصر طراد وقرينته اللذان كانا يدعوانني الى منزلها حيث كانت تُعقد الاجتماعات .

وفي ذلك المنزل أنشئ فرع لجمعية الاجتهاد الروحيّ وكنت اصغر اعضائه ثم انتُخبت بإلهام الروح القدس رئيساً له فاحتججت بصغر سني وعدم أهليتي بالنسبة الى الكثيرين الذين يفضلونني معرفةً وقرساً ويفوقون والدي سنّاً فلم يُقبل تنصلي وحجني رجل ساذج من صفد مهنته حياة العبي بقوله إن المسيح كان في السابعة عند ما كان يعظ في الهيكل ، وبالأية : « من افواه الاطفال والرضعات هيأت تسبيحاً » فرضيت مُرغماً لان الرئاسة كانت تقيدني بواجب حضور الاجتماعات الاحدية التي كانت تُعقد مساءً ، أي في اجل ساعات النزهة في الغياض وعلى خفاف البردوني وسواقيه حيث تنتعش النفس ويرقص القلب

وتنتشي الحواس . فأين التزده في هاتيك الجنان ومشاركة الوف الناس في هوههم ومرحهم وغنائهم وضحكهم وأكلهم وشربهم من الانجاس في غرفة مع نفر اكثرهم من الكهول والطاعنين في السن الذين ودّعوا زهو الحياة وهوها وأصبحوا لا يأنسون إلا الى عيش الدعة والسكون والاستعداد لدخول الاجباد السماوية بمطالعة الكتاب المقدس وسماع الوعظ والترتيل ؟

ولم يكن هذا مني عن ضعف في العقيدة بل عن استنكاف من الاكتهال في الصبا وتعجل زمن التوبة الصادقة وتوديع ما يتطلبه الشباب من زهو وهوه . ثبتت قولي هذا أني كنت ونيلاً ثاني انجال العم ناصر نجول في الاسواق ونبشّر المارّة وأصحاب الحوانيت وننذر الحائدين منهم عن جادة الصلاح ، بالفكر او بالقول او بالفعل ، وكنا نُشتم ونُلعن ونُطرّد معاً فنعذر ونشكر ونبارك ، شاعرين كأننا أجرنا اجراً عظيماً على اصغر خدمة وكنا من الراجحين .

ومن الامثلة على تمسكي بعري الدين في ذلك العهد أني كنت قد تعاهدت وقسيسين الواحد اميركيّ والآخر وطنيّ على الاحتفال بعيد الميلاد في بيت ناصر وأن يكون الاجتماع قبل شق الفجر فنزل الثلج وتلاه المطر فأصبح الانتقال متعذراً حتى على الراكب ومع ذلك نهضت في الوقت المعين وسرت برغم نصح والدي وبلغت المكان فلم اجد سوى القسيسين المذكورين وتحلف جميع الذين كنا قد استوعدناهم عن الحضور . ولا تسل عن سرور القس الاميركيّ بي عندما رأيّ على حداثه سني أثبت أني أفوق الشيوخ تعلقاً بالايمان وأقاوم العناصر وأغامر مغامرة طامع بإكليل المجد .

على أني كنت أحب « الصفة » عشية الاحد ولا أرتضي النعيم العتيد عنها بديلاً . لذلك كنت أنيب عني حيناً وأستغني عن الانابة احياناً ، وإني اشعر اليوم أن ذلك الضغط على غصني اللدن هو الذي

عمل على تقليص ظلّ التقى من نفسي ، وأن تحميلي عبء الرئاسة في تلك السن هو الذي جرّدي من الصلاحية حتى للعضوية . وهذا يثبت أن مطالبة الانسان بأكثر مما عنده خرق لا يجوز أن يرتكبه من يريد استدامة الدرّ .

رحلتي الثانية الى القطر المصري - على خلوّ وطايب وما لقيته من عناءٍ ومضض في رحلتي الاولى الى الاسكندرية بدت لي نعيماً بالنسبة الى رحلتي الثانية هذه التي قاسيت فيها ما لا أنساه من الآلام النفسية لانني سلمت قيادي لصديق سامني من المحرجات ما لا يعينني على احتماله طبعي ولا خلقي ، في حين أنه لم يكن يقصد سوى خدمتي والتوفيه عني . وعذره أنه ساواني بنفسه جهلاً منه لما بينه وبينني من الاختلاف في النظريات والآراء فقد لقيني في الميناء وأنا على وشك ابتياع تذكرة في الدرجة الثالثة فثناني عن عزمي مؤكداً لي إمكانية الحصول في الباخرة على تذكرة بشروط افضل ثم ظهر أنه خدعني لأننا بعد أن صعدنا الى الباخرة صارحني بخطته وهي أنه قد اتخذ للأمر عدته فيها لنفسه مبيتاً في مخدع اصدقاء له من المسافرين كما أفسح لي ايضاً في مخدع يضم اربعة أسرة يشغل اثنين منها صديق وزميل لي في الدراسة ووالدته الشيخة . وعبثاً اعترضت على هذا التدبير وأبدت رغبتي في إبطاله مؤثراً إحراز تذكرة سفر بالطريقة القانونية إذ أكد لي أن انكشاف امرنا يعود علينا كلينا بأسوأ النتائج وأنه من المتمرّسين بفن السفر مجاناً وقد سبق له أن ركب البحر الى قبرص ، وفي الدرجة الاولى لا الثانية ، دون أن يدفع بارة واحدة . ولكنني اصررت على استنطاق عمله وورحت أذكره بقواعد الفلسفة الادبية التي تعلمناها معاً في الكلية فاكتمنى بالضحك من سذاجتي وإذ ذاك تبدى لي أن العلم كالبذار لا يكفي فيه أن يكون صالحاً بذاته لان مدى نموه يتوقف على نوع التربة التي يقع فيها ، لذلك كنت وإياه على طرفي نقيض مع اننا اغترفنا من

معين واحد لا يميز بين المنتهلين بل يعقد على الجميع بالسواء .
وبينما كان هو يجلس الى المائدة ويتمتع بالطايب ثم يصعد بعد كل
علقة الى سطح الباخرة مشرعاً سيكاره ومقصياً بجرائه كل شبهة في أن
يكون من ركاب « عشت » كنت انا اتحاشى الظهور ويخجل إليّ كأن
الابصار كلها مصوبة نحوي وكل الاصابع تدلّ عليّ متهمةً إياي
بالاختلاس .

وقد قضيت الايام الثلاثة التي استغرقها السفر متحاشياً أن يراني احد
من عمال الباخرة وحاسباً أن مهمة كل مقبل نحوي منهم القبض عليّ
حتى إني لم اذق في هاتيك الايام كلها إلا ما كان يأتيني به صديقي إشفاقاً
منه عليّ أن اموت جوعاً .

وإن أنسَ فلا انسى تلك الرعدة التي اخذني في إحدى الليالي وقد
دخلت الخدع ، ولاضطرابي اقفلت الباب على طرف معطفي ورحت
أحاول التملص حاسباً أن احد موظفي الباخرة قد امسك بطرف
ردائي ليقنّادني للمحاسبة !

محاولاتي الادبية - بدأت محاولاتي الأدبية ، إنشاءً وتعريباً ، منذ
حدثتي ولكنها كانت كلها عقيمة . على أنه اذا حققت لي المفخرة فبشيء
واحد هو أنني كنت ولا ازال من أبجل الناس في العلامات التي أعطيتها
لنفسي وقد أتلفت حتى اليوم عشرة اضعاف ما كتبت ، على اقل تقدير ،
وإلى ذلك فكثيراً ما ألجأ الى المحك وذلك أنني عندما اكون متودّداً
أعرض ما اكتبه على اشخاص مختلفي المدارك والقابليات وأغلب رأيهم
على رأيي .

ولم أدرك طور النضج إلا في صيف ١٩٠٥ إبان العطلة الاولى التي
منحتني إياها حكومة السودان فأنشأت في بيروت مقالا بعنوان « ابن
السعادة » نال حظ النشر في جريدة المحبة لصاحب امتيازها فضل الله
إبي حلقة والتي كان قائماً على تحريرها بأسلوبه العصريّ الشائق ابن خالتي

نجيب نسيم طراد، وصادفت ارتياحاً شجعني على إعادة الكرة فأنشأت مقالاً جعلت عنوانه : « قلب تحت حجر » نقحته وبدلت فيه ثلاثاً بإشارة من ابن خالتي نفسه حتى بلغ الحد الذي أهله للظهور في صدر تلك الجريدة فركّبت لي فرحي جناحين .

وقيّضت الاقدار بأن يكون هذا المقال شأن لم اكن اتوقعه ، ذلك أني في صيف ١٩٠٧ نشأت تعارف في احد مصايف لبنان بيني وبين أسرة بيروتية بسبب طموحي الى يد إحدى كريماتها وأدّى الى إحكام صلات ود بيني وبين إحدى شقيقاتها ، وكنت قد عرفت أنها تميل الى ابن عم لها يمنعها شقيقها الاكبر من الاقتران به تمسكاً منه بالتقاليد المذهبية لانه ارثوذكسيّ وابن عمه بروتستنتيّ . فلما آنست مني تلك الصديقة نزعة حرّة وثورة لا هوادة فيها على التقاليد الموروثة من أي نوع كانت سألتني أن أروي حكاية حالها في مقال أنشره في إحدى الصحف فتستعين به على إلانة قلب شقيقها او تهديده بانقطاعها الى دير . وشدّ ما كانت دهشتها عندما أحببتها بقولي إن سؤلها جاء متأخراً لان المقال الذي تريده مكتوب ومنشور منذ عامين . والحق يقال أن ذلك كان من غرائب الصدف لان مقال « قلب تحت حجر » كان بالمعنى الذي ارادته تماماً فلم يبق سوى الحصول على عدد « المحبة » الذي صدر فيه فبعثت أطلبه من صديقي فضل الله ابي حلقه فأجابني أسفاً لعدم وجود نسخة الا ضمن المجموعة غير أنه وعدني بالسعي للحصول على واحدة من بعض القراء ولم البث طويلاً حتى تلقيتها وأودعتها صديقي كتاباً كان شقيقها يتصفحه قبل الرقاد ، ولاستغرابها الشديد وسرورها الأشدّ رآته بعد ايام يتحوّل من المنع البات تحت التهديد والوعيد الى التخيير والتنصل من المسؤولية .

وقد سرّني كثيراً أنني بعد عامين زرت الزوجين النسيبين في إحدى مدن السودان وهنّأتها تهنئة قلبية بقرانها وبمولودها الجديد وحياتها

الزوجية السعيدة برغم عيشها في بلاد تقرب من الجحيم .
وأذكر أنني في صيف ١٩٠٧ زرت يوماً إدارة « المحبة » فلقيني صديقي فضل الله أبو حلقة بالترحاب ودار بيننا حديث انتهى بأن ابغني نبأ وفاة الرجل الكبير سليم شحاده وكلفني أن أروي لقراء المحبة ذلك الحادث الجلل فاعتذرت وتنصت ولكن على غير جدوى . وعندما احتججت بالجوع بعث فجلب لي غداءً فاخراً وأجلسني الى المنضدة وقدم لي المعدات الكتابية اللازمة جهلاً منه بكيفية كتابتي المقالات التي كان اقصرها يقتضيني جهداً متواصلاً طيلة أسبوع كامل . ولست أنسى كم جاهدت وكم تصبب من جبیني العرق البارد وكم ابتهدت الى الله أن يرسل لي من أستعين به على سبك تلك القطعة في قالب يليق « بسمعتي » وبالفقيد الكبير . وكان أن قدم صديقي الشاعر والاديب الياس حنيكاتي فتنقست الصعداء ولكنني كنت كالمستجير من الرمضاء بالنار لأنه أخذ يؤكد لي بأسلوبه الشرقيّ المألوف أنه ليس أهلاً للإشارة عليّ وأنا العن في سرّي الساعة التي اوقعني فيها سوء طالعي في ذلك المأزق .
اخيراً انتهت تلك القطعة المشؤومة التي اذكر أنها لم تجاوز العمود وأرسلت الصفحة الى قلم المراقبة فعادت تنبئني بأن غذائي لما ينته بعد لأن حضرة المراقب لم ترقه البتة إشارتي الى الهلال في معرض وصفني للفقيد فكان جهاد جديد انتهى والحمد لله بانتهاء مهمتي وفك إيساري .
ومما لم يرض عنه المراقب ايضاً عبارة « استهلكت بها مرةً مقالاً نشرته جريدة المحبة هي « خلق الانسان ضعيفاً » فأبدلت من هذه العبارة ما يضارعها ولكن ابن خالتي نجيب طراد أبى إلا ان يهتدي الى سبب معقول لحذفها . وبعد أن طال بحثه وتفتيشه وتسألته اكتشف السرّ بواسطة صديقه وزميله الاستاذ جبران فوته وهو أن تلك العبارة آية قرآنية .

وظلت منذ صيف ١٩٠٥ حتى سنوات بعدها أوصل « المحبة »

بمقالات مختلفة المواضيع ، وفي سنة ١٩٠٩ نشرت عدة مقالات في جريدة البرق التي كان يصدرها صديقي الشاعر الكبير بشاره عبدالله الحوري بتوقيع « إرميا » ، وفي جريدة « الحرية » التي كان يصدرها صديقي الاديب والخطيب المعروف داود مجاعص .

وفي إدارة « البرق » تعرّفت الى الكثيرين من أدباء بيروت في ذلك العهد ، في طليعتهم الشيخ اسكندر العازار ، وحليم دموس الذي أصدر فيما بعد جريدة « الاقلام » ثم « الاحلام » .

اول ما كسبته من قلمي - كان اول ما كسبته من قلمي اربعين قرشاً مصرياً ، لم اقبضها ولكنني وقّيت شرّاً دفعها . ذلك أنه عندما أعلن الدستور في تركيا شاء المتحمسون من موظفي مالية السودان أن يبرقوا الى جمعية الاتحاد والترقي في الاساتنة مهنيين وفرضوا على كل مشترك في توقيع برقية التهنة عشرين قرشاً هي أجرة كلمة واحدة من نصها . وجاءني المولّج بجمع المال وفي يده البرقية فتمنعت فيها وقلت له إني أدفع اربعين لا عشرين فاستغرب سخائي ولكنني أزلت استغرابه بحذفي من النص اربع كلمات اعتضت عنها بكلمتين فاستقام المعنى المقصود وازداد وضوحاً .

غزوناها بدلاً من سرقناها - كان الطيب سليم عطيه من بينو عكار يقطن مع عيلته أم درمان وكان يضيفنا احياناً على أننا كنا نتمتع بأدبه فوق تمتعنا بمائدته لانه كان من اهل الذكاء ومن خيرة الشعراء والمنشئين والمحدثين فلا بدع إذن أنه كان يحب الشراب ولكنه كان ممتنعاً عليه بسبب مرض الكلى الذي اورده حقه في سن مبكرة لانه برغم علمه كطبيب كان يؤثر قنطار علاج على درهم وقاية ، والذي عادةً يفضل الحياة قصيرة عريضة عليها طويلاً ضيقة .

وكان قد ألف إطلاعي على ما تجود به قريحته ، والى القاريء مثلاً من امثلة تدقيقه واهتمامه بالحلة اللفظية التي يلبسها بنات افكاره :

زرتة مرةً على أثر إرساله موشحاً للنشر في مجلة الكلية ضمنه ذكريات عذاب له فيها فأبدى لي أسفه لأنه لم يستطع إطلاعي عليه قبل إرساله على أن هذا القوت لم يمنعه من تلاوته فمرّ بأبيات تشير الى الاعتداء على حديقة الرئيس واقتطاف الورود منها فخطأته في استعمال عبارة « كم سرقناها » مؤثراً عليها « كم غزوناها » فضرب كفاً بكف وقام لساعته فأبرق الى إدارة مجلة الكلية لكي تبدل هذه من تلك .

ومن روائعه في مطارحاته الدعائية مع زميله يوسف مبارك الطبيب والضابط في الجيش المصري ، من ريفوت ، و كان يعتز بلقب « بطرك » ، إستهلاله إحدى رسائله اليه بالبيتين العاميين التاليين ، وقد ضمنهما إشارة لبقة الى أرثوذكسيته ومارونية صديقه :

من مار متري الف سلام والف تحيه لمار مارون
بعين الواحده إلو كرام وكيف لو كان بجوز عيون

كلمة الختام لهذا العهد

لقد ظلّت الصراحة دأبي في جميع أدوار حياتي . ومن الصورة التي رسمتها مني في جميع ما رويته عني وعن سواي يتبين القارىء انني كنت ولا ازال في الوجود الذي فرض عليّ المحارب الاعزل الذي تعرب عن حقيقته الابيات التالية التي نظمها كملخص لتاريخ جهادي في سبيل ما اردته للبشرية من خير وصلاح ، وكنت في كل حال فريسته الراضية المطمئنة :

الى السبعين اوصلني زماني وبلغني الكثير من الأماني
ومن خاض المعارك طاحنات وحيداً عدّ فذّاً في الطعان
معارك في سبيل الحق كانت وإرضاء الضمير وغوث عان
وما استهدفت فيها غير نفسي ولم يخضب بغير دمي سناني

ولكن الذي قد حرت فيه بقائي رُغم زهدي في أمان
 بعصر بات فيه الزهدُ جرماً يجرُّ الصلبَ من بعد الهوان
 وقول الحق أصبح فيه كفراً يدود المرء عن سكنى الجنان
 وأعجب من بقائي عطفُ صحب كرام اكبروا قدري وشاني
 وواحدهم ، وهم نزر ، بألف فلو لم يبق إلاه كفاني
 ولكن مهلاً إذ يبدو لي أنني وقعت من حيث لم أشأ في تناقض
 معيب ، فقولني إنني « محارب اعزل » مناف للمنطق ، بل هو تهمة
 باطلة ضد الطبيعة الحكيمة التي سلّحت كل كائن في هذا الوجود ،
 دون استثناء احقر الحشرات في عرفنا نحن البشر الجاهل . اما سلاحي
 فقد كان من نوع غير مألوف ، وأنا مدين له بفوزي في جميع المعارك
 التي خضتها . إنه سلاح سرّي أحرارنا نفسي في تسميته ووصفه
 لأنه غير منظور وغير مُدرّك . انه كناية عن الخداع الاصدقاء الذين
 سخروهم الطبيعة لنصرتي بعد ان ستوت عنهم سيئاتي الكثيرة وجسمت
 في نظرهم حسناتي القليلة ، وإلا فكيف أفسر ما شملوني به من حب
 وعطف وتأيد ؟ :

تبدأ السلسلة بالخوجه علي افندي الذي كان يدرّس التركية في
 سراي المعلقة ويحيد في الوقت نفسه العربية . فعلى حادثة سني وضالة
 شأني استخلصني وقربني منه الى حد انه كان يُسرُّ اليّ دون اقل تحفظ
 شكواه من الحكم السائد ، غير متورّع عن ذم السلطان واعوانه
 دون استثناء .

يتلوه في ذلك كله غير واحد من كبار الضباط الاتراك في ذلك
 العهد ، على علمهم بسوء المصير اذا اتفق أن اتصلت بأولياء الأمر ولو
 همسة واحدة من هاتيك الهمسات التي من شأن اهلونها ان تقود الى الهلاك
 ويزدهيني أنني لم أخيب ظنهم بكوني ممن يؤمنون على الأسرار
 إذ هذه هي المرة الأولى التي أفشي فيها هذا السر الذي كان منذ

نصف قرن رهيباً وأصبح اليوم هنةً لا يُعتدُّ بها .
وتدرّجت في نيل الخطوة حتى ظفرت بمكانة لا بأس بها عند نفر
من خيرة الشبان المثقفين وجاء زمن أصبحت فيه من ذوي الرأي حتى
عند نخبة من رجال الفكر والقلم الذين كانوا في نظري أنصاف آلهة ،
فكيف وقد كانت بعضهم يودّ لو هو استطاع احتدائي .
ومما يكاد لا يصدّق أن سعيد شقير الذي كان مرعبة موظفي مالية
السودان ، صغيرهم وكبيرهم ، كان يؤثرني ويعاملني بالحسنى برغم ثورتي
الدائمة على الأساليب الجائرة المتبعة في تلك الدائرة ومحاولتي إنصاف
صغار الموظفين المرهقين إذ أنه كان في قرارة نفسه يرى فيّ كفاءةً
تشفع بتمرّدي وسخطي على كل اجحاف يحلّ بي أو بسواي ، غير
أنه كان يأبى أن يرفّعني استثنائياً لكي لا أكون قدوة سيئة لسواي
ولا يقلّ عما تقدّم غرابةً مسلك ضابط سودانيّ يُدعى عطا افندي
جمعتني به الأقدار في مركب شراعيّ وجهته بحر الغزال في زمن كان
فيه الحكم العرفيُّ سائداً فما كاد يجري بيننا تعارف سطحيّ حتى عهد
إليّ بقيادة المركب والتصرف المطلق في شؤون البحارة والركاب
فأصبحت باسمه أمانةً لا يُعصى لي أمر ، ولكنني كنت عند حسن
ظنه وصدق فراسته فلم استعمل سلطتي المطلقة الا للخير والصالح العام
وأختمت هذه النماذج القليلة بأغرب حلقات هذه السلسلة وهي العلاقة
التي نشأت بيني وبين نسيب فيليبس الذي كان معتبراً الحجة الناطقة
المموسة على قابلية الشرقيّ للارتقاء ، ليس في علمه وفي مظاهره فقط
بل في ادب نفسه وسمو اخلاقه ، لذلك كان يحله الانكليز ويحتومونه
ويفاخر ويعتز به السوريون واللبنانيون والمصريون والسودانيون على
السواء ، حتى إني كنت بالنسبة اليه قرماً بإزاء جبار ، ومع ذلك فقد
بلغ من اخذاعه بي أن أصبحت صديقه الأعزّ يودّ لو هو استطاع أن
يضيفني في منزله يومياً ويفرض صداقتي على جميع اصدقائه ومريديه .

وبلغ مرةً الأوج في التدليل على تساميه فقد بت ذات ليلة عنده في العراء وكان أول ما فتحت عليه عيني في الصباح مشهداً كدت أ كذب فيه نظري : فيليبيدس بكل مهابته وأناقته وجلاله جالس القرفصاء ومنهمك في مسح حذائي ! فأخذتني رعدة لتلك المفاجأة وأسرت فأغمضت عيني لئلا يلحظ اني رأيته فأذوب خجلاً ولكنه كان ابعد شيء عن التستر إذ بعد ان انهى مهمته جاءني وفي يده الحذاء فأيقظني وراح يستشهدني على براعته في المسح والتلميع ويقول دون ادنى تكلف : « كم مرة قلت لهذا الرذيل عطا ان يمسح حذاءك قبل ان يخرج الى السوق ومع ذلك أهمل اليوم هذا الواجب فقامت به عنه فعسى ان يرضيك هذا من صديقك » ؟ وغني عن البيان انني لم اجب بكلمة لان الدهشة والحجل عقلا لساني !

فما كان اشبهه في وضعه ذاك بالمسيح عندما غسل ارجل تلاميذه . والغريب اني بعد انقضاء خمسة واربعين عاماً على هذا الحادث عثرت له على شبيهه في كتاب « جعبة الصياد » الذي أصدره آخر الأستاذ سعيد فريجه وتلطف باهدائه إليّ وهو « ان طلاب كلية إيتون ، التي يسجل فيها النبلاء وكبار الاغنياء في انككترا اسماء اولادهم منذ اللحظة التي يولدون فيها ، يخضعون لتقاليد عجيبة ، منها ان صغيرهم ينظف حذاء من كان اكبر منه سناً ، والقصد من ذلك قتل روح الكبرياء في نفوس انجال العظماء والنبلاء » . ولكن شتان في الجوهر بين الوضعين ففي الاول تسام وتواضع مستحبان وفي الثاني صغار وضعة بمقوتان ، لذلك كان الاولى بطلاب تلك الكلية الاقتداء بالمسيح فينظف كبارهم احذية صغارهم .

ومنذ سنوات جرى لي في سان باولو حادث مماثل اثار إعجابي بتسامي ورفق إحدى كرائم سيداتنا الثقافات العاليات التهذيب ، فبينما كنت اتحدث الى زائرة ونسبية لها اقترحت عليّ هذه امراً لا يعينني

عليه طبعي ولا إمكاني فأجبتها بقولي : « كنت احسبك ياسيدي
اعرف الناس بحقيقتي ، فأنا من جسم هذه البشرية في منزلة القدم » .
وعندما استرعت انتباه ربة الدار الى ما قلته كانت كالمستجير من
الرمضاء بالنار إذ اجابتها هذه بكل بساطة : « ليتك يسمح لي بأن
اكون القدم الثانية » !

هذا غيظ من فيض مما عرض لي في سوريا ولبنان ومصر والسودان
وهي امثلة لا أعدم لها اشباهاً في مختلف ادوار حياتي في جميع هذه
البلدان وسواها كأوروبا واميركا ، حتى لقيت بعد عودتي الأخيرة
شخصاً كنت قد عرفته في سان باولو معرفة سطحية فأصبح من خيرة
اصدقائي وأجلهم قدراً في نظري ، لا لما احاطني به من رعاية وحسن
وفادة وكرم ضيافة بل لهذه العبارة التي عرفني بها اداقاً واصدق
تعريف وهي : « أحببتك لانني وجدتك حقيراً في عيني نفسك » !
هذا الصديق هو إبراهيم الحلوة العضو في مجلسي الادارة والبلدية والحبير
لدى المحاكم في مدينة طرابلس .

وأخيراً اقول إن الذي استنتجته بعد إعمال الروية وطول التفكير
هو ان الفضيلة الوحيدة التي امتزت بها فأكسبتني عطف الاصدقاء المخلصين
وكانت سلاحني الذي بفضلته احزرت جميع انتصاراتي الباهرة هي الصراحة
التي شكاً منها كل من عرفتهم وعابوها عليّ وأعاذوني منها ، بينما هم
اجلوؤها في قرارة نفوسهم وكانت العامل الاكبر على ما شملوني به من
حب وعطف وتأيد .

وهذا ما أقابله بالشكر والحمد لانني على قلة استيهالي وتجردني من
المستهويات ، وفي طليعتها المال ، من اغنى الناس بالأصدقاء الأوفياء
المخلصين .

العهد الجديد

ولادتي الثانية

يبدأ العهد الجديد في العالم الجديد حيث وُلدتُ وأنا في مستهل العقد الرابع من عمري ولادةً ثانيةً في بلاد كان عليّ أن أُلَمَّسَ فيها طريقي كما يُلَمَّسُ الطفل طريقه الى الوجود مسيراً في مختلف شؤونه الحيوية بإرادة ذويه وتوجيههم فقد كان كل شيء فيها جديداً عليّ : من طبيعة أرضها وجوّها ، الى لغة أهلها وطبائعهم ، الى عاداتهم وتقاليدهم ، الى مرامهم ومطالبهم وأساليب عيشتهم . ولم يقتصر استهجاني على الوطنيين بل تعدّاني الى مواطني الذين سبقوني الى البرازيل بحكم تأثير البيئة الجديدة فيهم وما اقتبسوه من خصائصها بفضل المعاشرة والمعايشة والتعامل ، على كثرة او قلة ، تبعاً لمُدّد إقامتهم فيها . كما كنت مادياً طفلاً إذ برغم اشتغالي في السودان زهاء عشر سنوات وصلت الى البرازيل خالي الوفاض كجبلٍ موطنيّ الذين هجروا اليها وكان متكلهم على بعض من سبقوهم اليها من ذوي ترباهم او اصدقائهم او معارفهم ، الى ان تهبّأ لهم سبيل العمل والارتزاق مستقلين . ولكن الفرق بيني وبين سواي من المهاجرين هو انني بينما كنت

مادياً أمثلَ الطفل لياناً وطواعيةً وقابليةً للتكيف كنت روحياً
وخلقياً كامل الرجولة صلب العود صعب القياد ، لا يغريني وعد ولا
يثنيني وعيد .

والعقبة الثانية التي اصطدمت بها على اثر وصولي هي اكتشافني اني
لم انتقل من بحيرة هادئة الى حوضٍ راكد بل من بحر هائج الى
اوقيانوس مزبد بحيث وجدت نفسي مضطراً الى مجابهة العواصف
ومصارعة الأمواج على فلكي الضعيف ، شأني فيما مضى ، فإنما انا لجأت
الى البرازيل بعد ان ازعجني عن السودان صلف الانكليز وتحكمهم
وأفضني خنوع مواطني لهم من جهة ومن جهة ثانية استبداد هؤلاء
كبيرهم بصغيرهم ، وملت نفسي العراقي الدائم لأظفر بالحياة الكريمة
لي ولسواي ضمن نطاق الحق والواجب ، غير مبالٍ بالعواقب وغير
حاسبٍ للغرق حساباً .

وبعد ان كنت أكافح في محيط جلته من المستنيرين الواضعين على
اعينهم غشاوةً من اغراضهم وأهوائهم اصبحت امام كثرة ساحقة
معدورة على أميتتها ومن واجبي كراغب في الاصلاح ان أعاملها بالرفق
وأسعفها بالمقومات . وفي هذا السبيل يجب ان أحارب نفراً من
المستنيرين كانت تقضي مصالحهم الخاصة بالحؤول دون يقظة تلك واستنارتها
وسيرها في سبيل الارتقاء الخلقي بعد ان سارت شوطاً غير قصير
في مضمار الارتقاء المادي . ذلك أنهم كانوا بتكالبهم على الكسب من
اي السبل أتى يزيدون اعتقادها رسوخاً بتفوق المادة وسيطرتها وان
الأمر والنهي وقف على من يملك منها قسطاً اوفر ، الى حد ان
انقلبت الأوضاع فتحوّل الصحفيون المقروض انهم اساتذة الى تلاميذ
يأتون برأي قرأهم المقروض انهم تلاميذ . وأنى لمن يتلقى الأوامر
في مضمار المادة بينما ان يصدرها في مضمار الروح بيسراه .
هذه هي الحال التي رأيت عليها محيطنا في ذلك العهد . ولم يكن

المهاجرون يوماً في حاجة الى من يقنعهم بقدسية المادة الى حد ان يؤهلها في اعينهم ، فقد سبقوا المتعلمين الى عرفان قيمتها بدليل مغامرهم للحصول عليها غير مبالين بما يقتحمونه من احوال ، الى حد المجازفة بالأرواح . لذلك اصبحوا بعد ان استوفوا قسطهم منها احوج الى من يخفف من غلوائهم ويقنعهم بأن يجعلوا لمدار كههم نصيباً من الترقية والتغذية . وهكذا اشبه الصحافيون طبيباً يشكو عليه السمعة فيصف له بدلاً من التشف الذي يزيلها ، او على الاقل يخففها ، كل ما تعري به طبيعتها نفسها من الاغذية الشهية الدسمة التي تزيدها تفاهماً ، غير ناظرين الا الى حل مشكلتهم دون مشكلة المجموع .

وعلى هذا الشكل تحالف الفريقان على التقهقر بدلاً من التقدم ، وتبرير كل مسلك يؤدي الى الكسب بدلاً من اتخاذ الاستقامة أناساً لضروب الاعمال حتى تصبح في الجميع ملكة تجعل مستواهم الخلقي في مثل مستواهم المادي فينعمون في وقت معاً بالاعجاب والاحترام . ولم اكن اعدم المحبذين والمؤيدين والانصار ، ولكن عند الشدة كان هؤلاء ينسحبون تاركين لي وحدي شرف التعرض وخوض المعارك ومكتفين بما تكون قد اطلقتهم ألسنتهم من القذائف التي لا يجاوز فعلها الدوي الأجوف .

على أن العامل الذي كان يحدوني الى المشاركة على الجهاد هو أن تأليه مواطني المادة لم يكن سوى نتيجة منطقية لحاجتهم الماسة اليها ، لذلك كان المعقول أنه إذا ما انقضت هذه الحاجة وأمنوا شر الفقر ، اولوا نفوسهم نصيبها من العناية والاهتمام . ولكن نصيب أملي هذا التحقق لولا المتعلقون من محترفي الادب الذين أغروا المواطنين بحب الظهور وبرؤهم في عين انفسهم بالمديح المأجور . والأدهى أن جل رجال الدين اعتبروا قول السيد المسيح : « لا تعبدوا ربين ، الله والمال ، تخييراً فاختاروا الرب الأخير وبذلك وضعوا أسوأ مثل

كرعاة لقطيع المؤمنين فجوَّوه الى ذئاب خاطفة .

والذي يزيدني تشبُّهاً برأيي هذا هو أن مجموعنا في البرازيل لم يقصر يوماً في مضمار البذل بل هو كان نسيباً على مختلف حالاته سخياً الى أقصى حدود السخاء على المشاريع الادبية والاجتماعية والانسانية ، ولكنه بسبب سوء التوجيه بذل في حالات عديدة لقاء السم الضارّ اضعاف ما بذله في سبيل الدرياق النافع .

هذه خلاصة جهادي الادبي الذي لم يثمر لفساد النيات والتواء المقاصد ، ولا ازال حتى اليوم أشاهد التدهور والانحطاط والتردي في كل هوة في سبيل الكسب غير المشروع ، وأي شيء أخط وأجدر بالادانة من وضع المجرمين الذين يجب أن تعمر بهم السجون في مستوى سراة الناس وأفاضلهم ، لا لسبب سوى أنهم عرفوا كيف يتقلّبون من يد العدالة ويتعاونون بالاموال المختلسة الضامير المعروضة للبيع .

كيف نبتت فكرة هذا الكتاب - ما دانيت السبعين حتى استيقظت حقيقة الواقع فرأيت المجال امامي قد ضاق والتفتُ الى ورأيي فاذا بي « في زمن الحصيد قد غنيت قصيد » . ومن لم يُثر قبل السبعين لا يمكن ان يثري بعدها . ذلك اني بدلاً من ان اكسح كسواي من الكادحين وأطلب مثلهم الثراء من ابوابه انصرفت كزملائي الى خدمتهم في مضمار الأدب منبهاً وموجهاً وحاضاً ومشيداً حتى كانت مآثرهم ومشاريعهم النافعة التي رفعت شأنهم وأكسبتهم الحمد والثناء واذاعت صيتهم فاشتهروا بعد ان كانوا في انعزاليتهم واقتصارهم على خدمة ذواتهم نكرات ، في مهاجرهم وفي اوطانهم الاصلية على السواء ، واحتلوا منزلة اجتماعية لم تظفر بمثلا اية طارئة اجنبية اخرى في البرازيل .

هذه هي الخدمة التي قمت بها نحوهم مضجياً بمصلحتي الخاصة في سبيلهم وراضياً منهم بالكفاف الذي لا أستسيع سواه على ما قدمت .

ورحت أستعرض ما اتاه إخواني المهاجرون فوجدت معظمهم قد بذل، كلٌّ على مقداره ، بما كسب إعانةً لذوي قربه أو مساهمةً في ما تحتاج إليه بلده من مختلف المشاريع الثقافية والانسانية والعمرانية ، بما اتخذ ، ولا مشاحة ، دليلاً على الحب والبر بوطن الآباء والاجداد ، وإن يكن البذلُ في بعض الحالات قد أضرَّ بدلاً من ان ينفع ، فكم من عطاء أدَّى الى القعود وشل السواعد عن العمل المجدي وإغراء صغار الاحلام خائري العزائم بالكسل فقلت في نفسي : ها قد جاء دوري لاتيان ضرب من الاحسان لم يألّفه جلُّ المهاجرين ، ولغزَّ عليهم ولو هم شأؤوه ، وأعني الاعتماد على فكري وتجاري واختباراتي وقلمي لايقاظ النيام وتشديد العزائم وإثارة الهمم للعمل والانتاج ، وإقناع المعارين المتوثبين بأن الهجرة التي يصبون اليها ليست في واقعها الا من باب الاستشفاء من داء بدءا .

وهكذا عوّلت على التنفيذ دون أن يفوتني أن نسبة منطق الروح الى منطق المادة كنسبة الوعد الى الانجاز . وهل يُلام البشر وقد وضع لهم خالقهم ، حسب رواية التوراة ، المثل ، إذ هو استدسم تقدمة هابيل فاستساغها واستعجف تقدمة قايين فعافها ، وبذلك أوغر صدره على اخيه فقتله ولزمته اللعنة الابدية ؟ ولكن لا مندوحة لي عن الاقتداء بهذا المجرم البريء فهذا حقلي وهذه ثماره وكلُّ يقدم من نتاج عمله ، وفي ذمة الايام الكشف عن أيّ التقدّمات كانت ادعى وأجدى

مقدّمات الفكرة - كنت في سنة ١٩٤٣ قد اصدرت في سان باولو باللغة البرتوغالية كتابين أردت الاول منهما أن يُطلع المتحدّرين من اصل سوريّ او لبنانيّ على حقيقة البلدين اللذين نشأ فيهما آباؤهم فيدركوا أن كليهما نعيم إذا ما رسخت صورةٌ منهما في اذهانهم انتقلت الى قلوبهم فولدت فيها الشوق والحنين وأصبحوا يؤثرون التمتع والاستجمام فيهما على سواهما من البلدان التي لا تربطهم بها صلة عاطفية .

ورسمت لهم في الثاني صورةً من الشقاء الذي كان يحيق بآبائهم في ذينك
النعيمين إذ هم كانوا فريسة الظلم والفقر في عهد حكومة اجنبية عاتية ،
بما حملهم على الهجرة ومقاساة الالهوال في ارض غريبة أموها ولا
رأس مال لهم سوى سواعدهم المقتولة وعزائمهم الفولاذية وهمهم الشقاء
فجاهدوا جهادَ الابطال وانتهى امرهم بالفوز المبين وبفتح سلميٍّ لم يحلم
بمثله الفاتحون بقوة الحديد والنار وخلصوا لهم ملكاً قائماً على اثبت
الدعائم ، مما قدّرتُ أنه سيحمل الابناء على إكبار شأن الآباء وتخليد
ذكرى بطولتهم وتفانيهم حتى ليقيمون لهم في قلوبهم هياكل للعبادة
تُزري بالتماثيل والأنصاب التي تُقام للمجلىين في الميادين والساحات
العمومية . ولكنَّ جُلَّ الآباء حالوا دون اطلاع أبنائهم على ذينك
الكتابين إذ هم لسوء الحظ لم يفقهوا حقيقة ما رميت اليه ، وكلُّ ما حلَّ
عندهم هو أني عرّيتهم ومهدت لاحتقارهم في نفوس ابنائهم بالصورة
الزرية التي رسمتها منهم في بدء هجرتهم ، وكانوا يؤثرون عليها صورةً
مصطنعةً تؤدي الى اذهان الأبناء أن آباءهم كانوا في وطنهم في مجبوحة
من الامن وخفض العيش ، وأنهم إنما هاجروا مدفوعين بروح المغامرة
التي ورثوها عن اجدادهم المتحدرين من أصول عريقة ذات مدنيات
متناهية في القدم . فكانت حجتي عليهم أن هذه الصورة التي يؤثرونها هي
القيمة بأن تجلب عليهم احتقار أبنائهم الذين وُلدوا في بلادٍ حرّة
أشربتهم حبها الى حد باتوا معه يفضلون الشقاء فيها على التمتع في سواها ،
فلا يجدون والحالة هذه لآبائهم عذراً ولا يقبلون لهم حجةً في تركهم
النعيم الذي وُلدوا فيه ليدأبوا في ارض غريبة مجهلون لغتها وعاداتها
فينجبوهم فيها ويحرموهم من التمتع مثلهم بتلك الارض المباركة التي لا
يفترون عن التغني بأنها ، الى جنب خصبها وكونها تقيض لبناً وعسلاً ،
مهبط الوحي والالهام ومنبت الرسل والأنبياء .

على أني التمسيت لهم عذراً من معرفتهم المحدودة للغة البرتوغالية

وعدت فأصدرت سنة ١٩٤٥ باللغة العربية كتابي « ذكرى الهجرة » الذي يعينهم كما يعني المقيمين الاطلاع عليه ، وحملت نخبة كريمة منهم على الاكتاب بنسخ منه تُهدى الى قرّاء في لبنان وسوريا وسواهما من الاقطار العربية ، وقد اهديت منه فعلاً بأسماء المكتبتين زهاء خمسمئة نسخة . ولما كنت لا أصلح حكماً عليه اعتمدت في وصف تأثيره على فقر اجتزأتها بما ورد عليّ من الرسائل والقليل مما نُشر في الصحف التي تكرّم اصحابها بإنفاذها إليّ ، مقتصراً على ذكر من لم تسبق لي بهم معرفة او تنشأ لي بهم اية صلة ، نفيّاً لأيّ عامل من عوامل المجاملة او التأثير الشخصي . ومن شاء الاطلاع على هذه الفقر فليطلبها في آخر هذا الكتاب .

وأؤكد للقارئ بما اشتهر عني من الصراحة وعُرفتُ به من الاخلاص أن ما ورد في هاتيك الرسائل والصحف لم يعنني منه سوى ما تضمنه من شهادات نزوية تقسد حجة الذين ثاروا عليّ ، وبنوع خاصّ الادباء منهم . اما ما نالني من المديح فلم يزدهني بل كان لمغدقيه الكرام عليّ فضل تشجيعي للمضي في التأليف واعتماده دون الصحافة التي كرهت الاساليب المتبعة في تغذيتها وترويجها ، كما كان حافزاً لي لاصدار هذا الكتاب .

الفكرة تتحقق - ولما صح عزمي رحت أكشف به الاخوان ، وجلهم من الأصدقاء الخالصاء الذين عهدت فيهم حبّ لبنان والغيرة عليه والرغبة في خيره وإسعاده بنيه ، فلقيت منهم كلّ تحييد وتنشيط وراحوا يكتبون بنسخ يهدونها ويُسجّل لهم الفضل في لائحة تنشر في آخر الكتاب كما في المرة السابقة . ولكن قام في الساعة الاخيرة واحد منهم يقول بضرورة قدومي الى لبنان لأدرس أحواله عن كسب واستطيع الاستناد في ما قد أدلي به من آراء الى مشاهدي العيانية واختباراتي الشخصية ، إذ لا سبيل الى الترجيح بين الآراء المتضاربة

وجلّ الدوافع اليها مآرب واغراض ونزعات ذاتية وحزبية . ولم
يكتفِ بإبداء الرأي بل هو دعه بعرضه عليّ الا ككتاب بنفقات السفر
من البرازيل واليه في الدرجة الاولى . فشكرته واستمهلته ريثما أفكر
ملياً في الامر على ضوء اكتبابه السخيّ المفاجيء وأثبتت من امكان
الحصول على اكتتابات تغطي النفقات الأخرى الباهظة . وبعد إعمال
الفكر ودرس المسألة من جميع وجوها رسمت خطة جديدة قدّرت
اكتلافها بخمسة وعشرين الف ليرة قسمتها على خمسةة سهم كل منها
بخمسين واستأنفت مساعيّ على هذا الاساس فبلغ عدد المساهمين زهاء
خمسین ولكنّ المجموع لم يتعدّ اربعمئة سهم ، اولاً بسبب ازمة مفاجئة
عرضت وكأنها كانت على ميعاد مع مشروعی ، وثانياً لأن بعضهم
احسن اليّ من حيث لم يقصد فراح يزيّف الغاية من رحلتي ويسمها بمسح
الاستغلال بقصد التمتع في لبنان على حساب الاجاويد ، مما نفّرني من
مواصلة السعي وحلني على القدوم وفي موازني المقدّرة عجز ليس من
السهل تغطيته ، وكأني بأولئك المرجفين ساءهم ان يروا اديباً ينال
مثل ذلك الجزاء الدالّ على قدر صدق الحُدة والتضحية بالمصلحة الخاصة
في سبيل المصلحة العامة . ولكنني بعد قدومي الى لبنان بأيام تبدّى
لي أن تلك الحملة التي كانت في ظاهرها نقمة تستوجب الشكوى انقلبت
الى نعمة تستأهل الشكر لانها نبهتني الى حقيقة كنت لاهياً عنها بما انا
فيه من ضيق وهي أني جئت لبنان لأتعرّف على وجهه الصحيح ، وهذا
ما لا يتأتى للمهاجر الممتليء الوطاب الذي لا يتصل إلا بدوي المناصب
العالية وبأمثاله من اهل الثراء ولا ينتقل الا في السيارات الفخمة ولا
ينزل إلا في افضل الفنادق ويحضر الحفلات الانيقة ويتلقى الدعوات
للمآدب الفاخرة وتقرّع على سرّه الكؤوس وتشرّب الانتخاب .
وهكذا يكون قد وطىء من البلاد سهلاً ولقي فيها أهلاً من انداده
اصحاب الملايين الذين يعيشون عيشة بذخ وترف وينغمسون في انواع

الملاهي والمذات دون أن يمرَّ بخاطرهم ولو لحظةً كيف يعيش إخوانهم اللبنانيون المحرومون الذين يؤلفون تسعين بالمئة من السكان المرهقين بالاعمال الشاقة والغلاء الفرعوني والضرائب الفادحة . وقد يعود مزدان الصدر بوسام فيسبِّح بحمد الحكومة ويُشيد بما اتته وتنويه ويُطمئن زملاءه في المهجر أن لبنان وأهله في نعيم ، ولا بدع فإن خبر الجحيم لم يتصل بسمعه فضلاً عن أن تراه عيناه وتطأ قدماه .

ولم اكن انوي البذخ في ايِّ حال ولكنَّ ذلك العجز الذي ازداد بعد قدومي زيادةً فاحشة لأسباب وعوامل عديدة لم تكن في حسابي زاذني تشبثاً بخطي التقشفية وضاعف مناعي ضد المغريات على اختلافها ويسر لي مشاطرة إخواني اللبنانيين المحرومين مضض الحرمان فرحت اضغط نفقائي في حليٍّ وترحالي وأساليب عيشي ، وعلى هذا الشكل امتزجت بالطبقات العاملة والفقيرة ، وهذا ما أحمد حسن حظي عليه . وبما زاد في ارتباكِي ، الى حد أن افقدني ثقتي بنفسي واضطرتني أن التجئ الى المحك الذي صدرت بحكايته هذا الكتاب ، تأثيرُ الازمة في النفوس بحيث ضاق صدر معظم أصدقائي الخلاء في البرازيل وحال نظرهم الى الامور فباتوا يغرقون بما لم تكن تبطلُ به أقدامهم ، ورحت افقد الواحد منهم تلو الآخر حتى بتُّ أخشى أن أفقدهم جميعاً لغير مبرر معقول . فما أشبهني بما تلقيته تباعاً من الأنباء المخرجة بأيوب ، او بالمتنبى القائل :

أظمتني الدنيا فلما جئتها مستسقياً هطلت عليَّ مصائباً
ولكنني كنت متسلحاً مثلها بقدرتي واحتمالي وترفعي عن الشكوى
تمثلاً مني بقول الاخير ايضاً :

أحاربُ خيلاً من فوارسها الدهرُ وحيداً وما قولي كذا ومعني الصبرُ
ولما كان الاخوان الكرام الذين سبق ذكرهم قد أولوني بمساهمتهم
المادية لتحقيق مشروعي ثقهم الغالية ، وبحقها رتبوا عليَّ واجب الجهاد

وصدق الخدمة دون أن احسب لأية تضحية وإن جلّت حساباً ، فإني اعتبر نفسي موفدّهم وأرى من واجبي ان أسأطرحهم شرف الخدمة سواءً بسواءً وأسجل لهم الفضل في ختام هذا الكتاب .

أما وهذا مبلغ إدراكي لمسؤوليتي فقد قام في ذهني انّ معوّلي الوحيد يجب ان يكون على نفسي ، وهكذا رسمت الخطوة التالية التي لا يحيد لي عنها وهي : إني اعود الى لبنان خادماً للحقيقة وعبداً لوجداني فلا أتأثر برأي احد ، لا في البرازيل ولا في لبنان ، وبنوع خاص اصحاب المصالح والمآرب ، حكوميين كانوا ام حزبيين ام صحافيين ، وعلى هذا الاساس سننت لنفسي الدستور التالي :

- ١ - هيأت لي الاقدار رحلةً الى لبنان في سبيل كتابي : « من وحي السبعين » ، مؤيداً غير مقيد من نفر كريم من اخواني المهاجرين
- ٢ - يسرّني أن أشاهد وأصافح وأحدث ايّ لبنانيّ مجرداً من منصبه او وظيفته او نزعته ، سياسية كانت أم حزبية ام مذهبية
- ٣ - أسير حرّاً وأقيم طليقاً وأعود كما ذهبت .

وغنيّ عن البيان ان المتطوّعين للاقتراح والاشارة والتوجيه كثيرٌ عديدهم في البرازيل كما في لبنان . ومعلومٌ ان في كلا القطرين تضارباً في الأهداف والآراء والاغراض والنزعات ، مما يؤدي الى البلبلة وفقدان القياد بحيث أحتار في ما أختار فتفسد طبيختي وتقوتني الاستفادة من الفرصة الوحيدة التي هيأها لي القدر لأقوم بخدمة نزيهة مخلصة لـ اخواني المغتربين والمقيمين .

وخير مثل اضربه اقتراح صديق لي حميم كريم مخلص يجب لبنان ويتلهب غيرةً عليه وله من مركزه ونفوذه ما يضمن تنفيذ اقتراحه وهو ان أوّم لبنان بدعوة من حكومته وبنفقتها ، ولا يبعد أن اعود كالكثيرين سواي مزدان الصدر بوسام . وكان هذا من اسهل الامور في زمن الوساطات والمحسوبيات والتطبيقات كما لا يخفى على احد .

وكانت حجته أن هذا ليس بمستكثر بل هو مبرر في حالة اديب لبناني جاهد في سبيل لبنان في اكبر مهجر حوالي اربعين عاماً . ولم يفتني ان اخلاص ذلك الصديق وحبه لي ورغبته في خيري كانت دوافعه لبسط ذلك الاقتراح ولكنها في الوقت نفسه أحات في نظره الامور وصرفته عن الخدمة العامة التي هي القصد الى خدمتي الخاصة وهي الشيء الثانوي . وعلى امتناني له وتقدي بواجب عرفان جميله وقدري لعاطفته النبيلة لم يسعني الا الرفض وحججه بالسابقة التالية ، وكانت لا تزال حديثة عهد وأعلق شيء بالاذهان :

كان قد سبق للحكومة السورية أن عملت باقتراح وزيرها المفوض في عاصمة البرازيل فوجئت دعوة رسمية الى زميل لي صاحب مجلة شهيرة تصدر في سانت باولو ليزور بنفقتها سوريا وقيم بضيفتها شهراً كاملاً يستطيع في غضون أن يتثبت من أن « الامن مستتب فيها والعدالة مؤمنة لجميع الناس والعدل الاجتماعي موزع بين طبقات الامة على السواء والحالة الاقتصادية في تحسن متواصل والدولة ساهرة على تأمين العمل للجميع بما يوفر اسباب تحصيل الرزق ويرفع مستوى معيشة الناس - وهذه الوسائل مجتمعة يتم للرعية على الوجه الاكمل ما تتطلبه من الدولة » . فذهب ووجد مساقاً موضوعاً لم يسعه إلا التقيد به وعاد مزدان الصدر بوسام رفيع الشان وحاملاً ملفاً يتضمن عشرات التقارير والبيانات والجداول الاحصائية ، وكلها مشبعة بالأدلة القاطعة على تحقق كل ما تقدم ، وأصدر بعد حين جزءاً خاصاً ممتازاً جاء في اكثر من مئتي صفحة ومع ذلك لم يتسع لجميع ما حمله من المواد الرسمية فراح ينشر ما بقي تباعاً في اجزاء تالية . ولكن ما كاد ذلك الجزء المنتظر بفارغ الصبر يُوزع وتلتهم محتوياته التهاماً حتى حدث الانقلاب الاخير وأصدرت الحكومة الجديدة التي لا تزال قائمة حتى اليوم بياناً تقول فيه : « إنها نظفت البلاد من جلاذيتها ومستغليها

والمتصرفين في مقدراتها تبعاً لأهوائهم الفاسدة ... » !

وإزاء هذه الحجة الدامغة لم يسع صديقي الكريم الـ "العدول عن رأيه وسحب اقتراحه . والغريب ، وقد حدث في لبنان ما حدث في سوريا بعد اسابيع قليلة من وصولي اليه ، أنني لو قبلت باقتراح صديقي لحدث لي ما حدث لزيمي المتقدم الذكر ، فما كان اخيب فأله بقبوله وأسعدني برفضه ، فكيف اذا انا اضفت الى ما تقدم رأيي الخاص في الاديب وهو ان يعتبر نفسه في جوٍّ لا يتسامى اليه احد نظراً الى استغنائاه الذي يجعله اغنى الناس إطلاقاً ، وترفعه عن قبول اي وسام من يد اي الناس اكتفاء منه بجملة الأدب التي لا تبلغ مقدارها اية حلية أخرى في هذا الوجود ؟

والاغرب أنني كنت كلما سمعت الناس على اختلاف طبقاتهم يشكون ويتذمرون ويرسمون من الحكومة الماضية اقبح الصور اقول لهم إنها قريبة الزوال فيستبشرون ويتمنون لو تحقق قولي ولكنهم لا يلبثون ان يعاودهم اليأس لعدم رؤيتهم سبيلاً الى الخلاص من ذلك الكلبوس الجاثم على صدورهم ولا يعرفون للفرج باباً ، لا من جهة المدنيين ولا من جهة العسكريين ، فأجيب ان الاجماع دليل على ان الكيل قد طفح وفرغ الصبر ، وهذا كفيلاً بانقلاب اراه لا محالة واقعاً دون ان أناقش في السبيل اليه .

قابلياتي ومؤهلاتي - لقد عوّلت على القدوم وأنا لا أجهل خطورة ما انا مقدم عليه وتضمنه من جهتي دعوة عريضة لا تتقق وما اشتهرت به من انطواء واحتشام ، إذ من اكون لأملني على اقطاب العلم والسياسة والاجتماع والاقتصاد في لبنان او في سوريا ، فضلاً عن سائر الأقطار العربية ، على الأخص في الزمن الأخير الذي لمع فيه عددٌ كبير منهم في كل هذه المضامير مجتمعة وتقوّقوا فيها في مؤتمرات عالمية وفي منظمة الأمم المتحدة على اندادٍ لهم من موفدي اعرق الدول

في الاستقلال والحكم الذاتي ؟ . وقد ازدادت ثقةً بكفاءة اللبنانيين وكثرة المتفوقين منهم مما سمعته من المحاضرات في الندوة اللبنانية في شتى المواضيع . واذاً فالذي ينقصنا ليس العلم بل العمل بما نعلم ونقول وهذا ما لا سبيل اليه الا بالاخلاق الفاضلة التي ثبت لي لسوء الحظ أنها تنقصنا الى حد بعيد .

وإذن فمستندي ليس التفوق في الذكاء والعلم بل في اتساع الأفق الذي رِدته واحتكاكي بشتى الشعوب التي عايشتها وامترجت بمختلف طبقاتها وما عرض لي وما اثرته واقتبسته في ما شغلته من الوظائف وغشيته من صنوف الاعمال في الأقطار التي حلتها ، فأعملت فيه رائد الفكر وميزت بالمران والتمرس والاختبار الشخصي بين غثه وسمينه فأصبح في مقدوري بفضل هذه العوامل كلها ان أقوم بمهمة العامل المتواضع وهي ان أعدّ وأقدّم لمهرة البنائين الاحجار والمواد اللازمة ليقوموا بمهارتهم وحسنتهم ودرايتهم بعملية البناء .

والذي يؤهلني بنوع خاص لهذه المهمة هو بُعدي عن المحيط وما رِضت نفسي عليه من تنزّه عن المآرب الذاتية اياً كان نوعها والنعرات مهما يكن لونها وانفلاقي من كل تأثير وعدم تقيدي بأي مذهب او عرف او تقليد ، فبرغم اعتباري لبنان وطناً مثالياً لأنه يصهر اتباع الاديان والطوائف المختلفة في بوتقة واحدة - وكلها متساوية في جوهرها من حيث إجماعها على الامر بالخير والنهي عن المنكر - فأنا معها كلها دون ان أمارس طقوس أيٍّ منها .

حقيقة الهجرة - لقد اقتصرت الهجرة ، إلا في ما ندر ، على كل من أمضه الفقر والظلم ، عندما كانت مقدّرات الاوطان الاصلية بيد حكومة اجنبية عاتية تعتمد الضغط والارهاق والارهاب وتسلب العامل والزراع جلّ ما يحصلانه بعرق الجبين غير مبقية لهما ما يفي بحاجاتهما الضرورية من قوت وكساء وسكن ، دون ان تعمل بآية

وسيلة على ترقية مدارك الشعب وتمهيد سبل الارتقاء امامه . وما
تقلص ظلُّ الأتراك حتى خيبت الدولتان المنتدبتان الظنَّ بعدلها
ومدنيتهما الى حد ان ترحم الكثيرون سرّاً على عهد بني عثمان وجرؤ
امين الريحاني على الجهر فاستحق النفي ، وهكذا استمرت الهجرة بدلاً
من ان يعود جلُّ المهاجرين ، ايام كانت عودتهم في الامكان .

الهجرة نعمة لا نعمة - ما غادر احدُ وطنه الا ابقى فيه قلبه وظل
يحنُّ اليه حتى النفس الأخير ، وهيات ان يؤثر عليه بلاداً ولو كانت
جنة الله في ارضه . وما اصدق القول المأثور : « لو لم يكن حبُّ
الوطن قتلاً لكانت بلاد السوء خراباً » . فكيف بنا نحن ابناء سوريا
ولبنان وفلسطين وقد غادرنا بلداناً كانت ولا تزال مهبط الوحي
والالهام ، الى انها أعجوبة الخالق بحسن موقعها وجمال طبيعتها وخصب
تربتها وعدوبة ماؤها واعتدال هوائها ، وكل الذنب في شقاء ساكنيها
واقع على رؤوسهم . لذلك كان الذين استحال عليهم العودة اجدرَ
بالرثاء إذ ان التمتع في البلدان الغريبة حكاية لا يؤيدها دليل مقنع ،
او هو لا يخرج عن كونه علالةً او تمويهاً على النفس إحالةً لمرارة الحيرة
ولا أستثني من هذا الحكم حتى الذين فازوا بتأسيس المتاجر والمصانع
واقتناء المزارع وابتناء الدور والقصور في مقرر أعمالهم وفي المصايف
والمشاتي التي يؤمنونها اتجاعاً للصحة او استجماماً وترويحاً للنفس .
وهذا ما لا يحسدون عليه إذ خيرُ للانسان ان يكون عاجزاً عن
التداوي ولا يمرض من ان يمرض وتكون متيسرة له جميع وسائل
الاستشفاء .

ولا يخرج عن هذا الحكم ايضاً أولئك الذين استشفوا من داء الغربة
باعتناق جنسيات البلدان التي حلُّوها فبعضهم انكر وطنه الاصيل
لنزوة عارضة والبعض الآخر فعل مسوقاً بعامل المصلحة او الضرورة
وسواهم بسهولة قنادهم وحجهم للاقتداء او التقليد . ولكن ما خلا

أحدٌ منهم الى نفسه وأخلص لوجدانه إلا تبين له وجه الغبن واستشف وراء ثوبه المستعار ثوبه الأصلي الصق به من جلده .

وبعد قدومي ومقارنتي بين حياة اعظم اغنيائنا في المهجر ومتوسطي الحال في لبنان توصلت الى هذه النتيجة وهي ان المغتربين يقيمون ولكن اللبنانيين يعيشون . ولأضرب مثلاً يعني عن كل ما عداه لانه مستفاد من حياة نجيب يافت عميد الأسرة اليافعية التي لا تحتاج الى تعريف ، وعلى الأخص في لبنان حيث هي تحيا بآثرها في كل ذهن وتحتل كل قلب .

زرت مرة السيدة الجليلة النبيلة عفيفة ارملة نعمة يافت لتهنئتها بحفيد جديد فقالت لي بعد ان حبيتها وجلست : بالطبع تتعشى معنا الليلة . قلت الساعة الآن قد قاربت التاسعة فلا يُعقل ان تكونوا بعد بلا عشاء ! قالت : ونجيب والشباب ؟ إنهم يتأخرون الى ما بعد التاسعة احياناً ! قلت : إذن ما الفائدة من المال ما دام هو يمتطينا بدلاً من ان نمتطيه ؟ فراحت تتلف على ايام الكفاف !

وعلى ذكر نعمة يافت الذي كان نابغة زمانه في حسن الادارة وبُعد النظر والتوجيه بحيث أعلى البناء الذي وضعه اشقاؤه : بنيامين وباسيل وحنا ثم شاد ابناؤه ابراجه الشاهقة التي تناطح اليوم السحاب يغريني جمال النكتة الطريفة التالية بروايتها عن لسان اديب في عاصمة البرازيل سمعها من خال له بلغ الخامسة والتسعين ومات بجاذب لا علاقة له بالهرم :

كان نفرٌ من المواطنين في منزل سليم الطوفي المعلوم الزحلي ينتظرون قدوم « المعلم » للجلوس الى المائدة ولكنه للمرة الأولى تأخر ، وهو المشهور بالمحافظة على المواعيد ، واذا بوالدة صاحب البيت تدخل مبديةً اسفها لتحميلهم بنسيانها مرارة الانتظار على غير جدوى لان المعلم ارسل يعتذر ، وقائلةً بالحرف ما يلي : « شوفوا يا بعدي هالمعلم

الى يقولوا انو ذكي ومتعلم بالكلية ، قال راح يشتري بايرونغا متر
الارض بقرشين ! إه هادا بيكون عندو عقل ؟ ! »

فليتها عاشت بأعجوبة حتى اليوم لتري بعينها ان المتر أصبح يساوي
ثمنه في ذلك العهد خمسة آلاف مرة !

حقيقة المغتربين - لو لم يغادر المغتربون اوطانهم على نية العودة
اليها بما كسبوه ، وعندما غزّت عليهم العودة برؤوا بها ما وسعهم البرّ
لكناوا بحكم جنود ملّوا العراك فتخاّوا عن رفاقهم وفرّوا من الصفوف
ولزمهم عقاب الفراريين دون ان تجدّهم اية كفارة . لا بل إن جرّمهم
كان افظع إذ هم كانوا بحكم جنديّ قام بغزوة ليعود الى رفاقه بما
يغنمه من سلاح وذخيرة ولكنه بدلاً من ان يعود انضم الى صفوف
الأعداء . على ان عذرهم في البقاء واضح وهو لسوء الحظ قائم حتى اليوم
يثبت قولي هذا سبقي فيما مضى الى إنكار حق المغتربين في تقرير
مصير بلدانهم او التدخل في إدارتها او شؤونها في مقال نشرته منذ
نيفٍ وثلاثين عاماً في جريدتي « الجديد » بعنوان « من العرب
وللعرب » جاء فيه إن الحق في كل ما تقدّم قاصر على المقيمين الذين
ثبتوا في المضمار وقاسوا مضض الجوع والعري والتشريد والتقتيل
محافظةً منهم على حقهم الموروث . ومما جاء فيه قولي في عرب الحجاز
إنهم هم الأبطال الذين يستحقون الاجلال والتعظيم لانهم تحملوا ما لا
يُحتمل وعاشوا اجيالاً حاسبين انفسهم من صحاريهم القاحلة في جنات
ومن خيامهم البالية في قصور ، باذلين كلّ مرتخص وغال للاحتفاظ
بجريتهم وعاداتهم وتقاليدهم واساليب عيشهم البدائيّ . وفوق ذلك
انتقضوا على الأتراك وراحوا يجاهدون لتحرير الاقطار العربية جملةً
بمساعدة الدول الحليفة . وما اطلّع جلالة المغفور له الملك حسين على
ذلك المقال حتى تنازل الى استحسانه وأصدر امره الكريم بنقله برمته
الى جريدة « القبلة » فاحتلّ من احداعدادها مقام الصدارة بعد مقدمة

مشبعة بروح التحيز والثناء وقدر العاطفة التي اوحى ذلك المقال .
والواقع هو أن المغتربين لم يرموا في أثناء الحرب العالمية الاولى
إلا الى إلقاء ذوبهم من التجويع والتشريد والتقتيل ، ولم يكن لهم
بدء من الاعتماد على الحلفاء فرضيت منهم فرنسا بالتطوع الرمزي .
وتحت ستار العطف والرغبة في تحرير الشعوب الضعيفة المرهقة اغرتهم
بالاعتراف لها بحقوقها التقليدية في سوريا ولبنان فوقع في هذه الاحبولة
فريق كبير منهم كسبت اصواته في مؤتمر الصلح فظفرت بالانتداب
الذي كان شرًا على البلدين من الحكم التركي ، على ما تقدّم
بيانه . ونكشت فرنسا وإنكثرتا اليهود التي كانتا قد قطعتهما للملك
الحسين وأتتا ما كانتا قد عابتهما على المانيا ، وهو اعتبارها المعاهدات
قصاصات ورق .

ولقد أصبحت الهجرة الاولى التي كانت بمثابة فتح سامي باهر على
وشك الانتهاء ، كما انتهى فتح العرب الحربي في الاندلس ، بالحبية
المرّة فنفقد بانتهاه كل ما جنيناه وغنمناه بانتقاله الى ايدي اجنبية لا
يعزينا في شيء أنها ايدي اولادنا لانهم ملك لسوانا وقد انبتت كل
صلة لنا بهم وأصبحنا على مفروق طرق ففي أيها نسير ؟

إن الهجرة الاولى لا تعدم المبررات لأنها بدأت واستمرت في
زمن لم يكن فيه زمامنا في ايدينا لذلك كنا معذورين ، ولكن اذا
استمر سيل الهجرة في عهدنا الاستقلالي الذي تنغى وندل به تساوى
العهدان ، وإذن يكون قد ذهب جفاء كل ما اطلقناه من صيحات
وما بذلناه من جهد وتضحيات لكي نظل في النهاية كما كنا : عرضة
للتشريد والعيش المرير في العالم الجديد .

وما أبلغ العظة التي نستفيدها من عمر إمام المفكرين وسيد البلغاء
لكي يقلل ما استطاع من اختلاط العرب بسواهم من الشعوب لأنه
في رأيه الناضج مؤدٍ الى الانضمام فالانفصال عن الوطن الاصلي

فالاضحلال ، وهذا على قوله يتحقق في الجزر البحرية اكثر منه في
البلدان المتاخمة برّاً فكأنه كان ناظراً الى هجرتنا وراء البحار . وبما
يؤيد كرهه التوسع حفظاً للجامعة العربية من التبعض ما كتب به
الى الاحنف بن قيس عندما استأذنه في عبور نهر جيحون لافتح
بلاد الترك : وددت لو أن بيننا وبينهم جبلاً من نار فلا نصل اليهم
ولا يصلون إلينا !

فقد صح الآن في هجرتنا الأولى ما قاله عمر . فقد انضممنا وانفصلنا
ولم يعد بيننا وبين الاضحلال سوى سنوات معدودة بميرورة الملك
الواسع الذي شاده قدماء المغتربين بمجدّهم واجتهادهم وتفانيهم ، طيلة
ثمانية عقود من السنين ، الى المتحدّرين منهم ، وفي نهاية القرن لا يبقى
منهم احد . والمتحدّرون ، اينما كانوا ، وطنيون ، وأجانب عنا بلغاتهم
وروحهم وثقافتهم واخلاقهم وعاداتهم ، فلا تصحّ كما لا تجدي مطالبتنا
إياهم بمثل الواجب المفروض على آبائهم .

لقد استقلت سوريا واستقل لبنان وتلاههما الجزء الذي بقي من
فلسطين بعد نكبتها المروعة بانضمامه الى شرق الاردن ، دون ان
يجد المليون المشرّد من ابناءنا حتى اليوم مقرّاً . وسوريا ولبنان
أصبحا ممثليّن سياسياً في جميع المهاجر ، وفي هذه كلها لقي ممثلوهما من
المغتربين كلّ ترحاب وتكريم وعون ماديّ فاقتنوا لوفادتهم السياسية
دور سفارات وقنصليات ، كما استقبل المغتربون على الرحب والسعة
وفود البلدين الحزبية والأدبية والصحافية وأكرموها وأمدّوها ، منفقين
في هذه السبل كلها بُدَر الأموال ، وفي إمكان حكومتي البلدين
الاعتماد عليهم ، وسيأتي الكلام على الوسائل التي يجب عليها الأخذ بها
إذا هما شاءتا الفوز بمطلبهما .

بقي ان التاريخ اثبت قابلية البلدين لاستيعاب واعاشة ما فيهما
من السكان ، وفيهما من الموارد الطبيعية ما لو تهيأت له الخبرة ورأس

المال والأيدي العاملة لأنّ تج ما يفيض عن الحاجة المحلية ، لا من حيث الأصناف بل من حيث المقادير ، وهذا هو بيت القصيد إذ بإيجاد اسواق لما يفيض عن الحاجة المحلية من صنف ما تسهل المقايضة على الفضلة منه بما يسد حاجة البلدين الى ما لا قبل لهما بإنتاجه . وإذا كان ما يقال من هذه الجهة في سوريا لا يصح قوله في لبنان لصغر رقعته فحسن السياسة ورعي حقوق الجوار يضمنان له ما ينقصه من سوريا الشقيقة فلا يصح والحالة هذه ان يظلّ لبنان بنوع خاصّ معملاً للرجال برسم التصدير الى البلدان الأجنبية فيهملون ما في ايديهم وينتشرون في أنحاء المعمور ليكدحوا في ارض سواهم ويزيدوا غلتها وثروتها ويخدعوا انفسهم الى حين بانهم ملائكة وسادة ومساهم في الواقع سوى قِسمين وأجراء ، ما دام ما يملكونه ويستغلونه صائراً يوماً الى ايدي اجنبية تستأثر به لمصلحة بلدانها ولا يكون منه لوطنهم الأصليّ ، ما خلا العلالة الرقمية ، اي نصيب .

الغائب يعود

ولادتي الثانية



(الشقة الساحلية من عاصمة لبنان)

طلل المدينة ومينائها - لم اكد أشرف على بيروت من البحر
حتى دُهِشت لاكتظاظ الابنية فيها ، ابتداءً من الجامعة الاميركية ،
ومنها الى الشقة الساحلية التي تمتد حتى الى مدخل الميناء ، اذ عهدي
يها شبه جرداء .

وعندما دخلنا الميناء راقتني ما لم يكن لي به عهد وأعني التصاق
الباخرة بالرصيف ، ولكنني لم أتمالك ان شعرت بغصة لزوال عهد
البحارة بزوارقهم وتزاحمهم وصياحهم وصخبهم ومهاجرتهم الركاب
ومحاولة كلٍّ منهم الاستئثار بهذا الراكب او ذاك ، فاذا أبى استولى
عنوةً على حقائبه والقى بها من أعلى الباخرة الى رفاقه في الزورق
فلا تبقى للراكب المسكين خيرة ويضطر الى النزول معه مكرهاً .
ولكنني تعزيت نوعاً مجلول الجمالين مكانهم ، وإن لم يكن هؤلاء
مثلهم يفرضون ارادتهم على الركاب فرضاً

ولم ارَ بأساً بالمعاملة التي يلقاها القادمون على ايدي رجال الامن
وموظفي الجمرک ، وقد بلغت اوج التلطف في ما يختص بي ورفاقي
القادمين من البرازيل اذ جاءنا الزميل المقدم شكري البخاش بما
سرّني طبعاً وهو اعفاؤنا بصفة استثنائية من فتح حقائبنا ولكنه ساءني
في الوقت نفسه لمجاهرتة بذلك الاعفاء على مسمع من الركاب الآخرين
اذا هو صاح مبشراً ومفاخراً : « إنكم فوق القانون » ، لانني لا
أستصوب أن يكون احدٌ فوق القانون ، وإن كنت اكثر رفاقي
تعرضاً بسبب كثرة ما احمله من الرزم والحقائب من اصدقائي في
البرازيل المتضمنة هدايا الى ذويهم في لبنان وأنا اجهل جلّ ما تحويه .

ساحتها الرئيسية - وما بلغت ساحة البرج حتى شعرت بارتياح
كليّ لما اصبحت عليه من سعة ونظام فقد ازداد حجمها المعهود ضعفين
على الاقلّ وحركة المرور فيها منتظمة لا تستوجب شيئاً من الشكوى .
وما اطلت على المدينة من شرفة فندق اميركا الذي حللته حتى ازدادت
دهشتي لامتدادها وكثرة ما جدد فيها من الابنية الحديثة الطراز المجاوز
ارتفاع بعضها عشر طبقات ، ويزداد او يقلّ تبعاً لاتساع الشوارع
وضيقها . وعندما جلّت فيها سررت لرؤيتي جميع شوارعها وجلّ
أزقتها معبداً بالاسفلت .



(ساحة البرج)

المهرجانات المؤنذات

عتبي على المعول - ولكنني أسفت لأن المعول الهدّام لم يلعب دوره في ابنية عديدة لا تزال قائمة في الوسط التجاريّ عن جانبي أزقة باقية على عهدي بها من الضيق والتعرج والقذارة . وقد عجبت كيف أن المجلس البلديّ لم يفكرّ حتى اليوم بتشديد بناء خاصّ يتسع لجميع باعة الجملة من مختلف اللوازم البيتية والمأكولات كالخضر والفواكه والاسماك ، على غرار ما أصبح منذ احيال ضرورةً قاهرة في جميع المدن الكبيرة ، فضلاً عن العواصم ، ويسمونه السوق المركزية لكل ما تقدّم ذكره ، يقصده الباعة والمتسوقون على السواء .

موسوعة بلا فهرس - ولكنّ الاعجب والأغرب هو إهمال المجالس البلدية المتعاقبة وضع بطاقات على زوايا معظم الشوارع تنبئ المارة بأسمائها ، وفوق كلّ باب رقم يدلّ عليه ، في حين أن الترقيم لا تخلو منه قرية في ايّ قطر متمدّن ، ولو لم يكن فيها سوى شارع واحد . ولكنّ المجلس الجديد تنبه على ما يظهر الى هذا النقص الذي لا مبرّر له فنشط الى تلافيه مبتدئاً بشوارع عبد الوهاب الانكليزي . ولا يقتصر الحلّ على خلوّ العدد الكثير من الزوايا من البطاقات التي تحمل اسماء الشوارع بل إنّ جلّ هذه معروف بأسماء عديدة مراعاةً من السكان للتقليد واحتفاظاً منهم بالاسماء القديمة .

« من ثمارهم تعرفونهم » - والأدهى من كل ما تقدّم هو استدلال الزائر الاجنبيّ على عوّج خلقيّ في اكثرية الذين تولوا الشؤون البلدية ، مما يراه في معظم شوارع المدينة من ضيق وعوّج فما من شارع فيها تقريباً إلا وله عدة عروض ، ومهما يكون من تعجبه او استقامته فهو منته قطعاً بسدّ يقضي بالتعريض . ناهيك باحتلال العدد الكثير من الابنية مكان الرصيف بحيث يقتضي أن يكون للمارّة عيون خلفية وقوائم غزلانية ليأمنوا شرّ الدهس .

وسائل الانتقال - وما يزيد الحالة حرجاً ويهدّد بصورة دائمة الطمأنينة والأمن على الحياة كثرة السيارات والحوافل والناقلات على اختلافها ، الى جنب أن هذه الكثرة تهدّد البلاد بالافلاس إذ لا يُعقل أن يوجد في بيروت نسبياً اضعاف ما في سان باولو من وسائل النقل هذه وهي اعظم مدينة صناعية في اميركا الجنوبية وعدد سكانها ضعفاً سكان لبنان بأجمعه ، ناهيك بإمكانيات ولاية سان باولو وهي ، منفردةً ، أغنى بلدان العالم إطلاقاً ، دون استثناء الولايات المتحدة الاميركية ، فكيف بلبنان وهو يكاد يكون افقرها .

والمصاب ليس في الكثرة فقط بل في تعدّيها الى الفيض عن الحاجة

بدليل التواضع وكثرة العرض بالنسبة الى الطلب وعدم وجود مرائب
الا لعدد قليل من السيارات والباقي يبيت في الشوارع ويعرقل
حركة السير .

الاستهتار بالقواعد الصحية - وأين الرقابة المشددة والغرامات
التأديبية الرادعة تُفرض على الذين يعرضون صنوف المأكولات ،
وعلى الاخص الحلويات ، مكشوفة ، غير آهين لما يتساقط عليها من
الذباب وغبار الأزقة الملوثة . ومن هناك يُعرج المفتشون الصحيون
على الحلوانيين الذين يستنظفون اصابعهم فيستعملونها بدلاً من المقاحف
والملاقط المعدنية لتعبئة قطع الحلوى وتقديمها ؟ ولو كان جميع الآكلين
مثلي في الاستهتار من هذه المخالفة الصارخة لقواعد النظافة والذوق
لأنهم القصاص الاكبر من الشعب بإعراضه التامة عما يعرضونه عليه
من مصنوعاتهم بهذا الشكل البدائي المنفر في عصر الاناقة والتقيد
بالقواعد الصحية الى اقصى الحدود .

تغيُّب ادب السلوك - اما التهذيب الاجتماعي وفضائل الايثار
والاحترام والمحافظة على النظام واحترام حقوق السوى فالذي يبدو
جلياً للمراقب المدقق ، فضلاً عن المتعنت ، هو أن هذه كلها ضئيلة
النصيب من اكتراث جل السكان كأنها من الامور التي لم يُسمع بها
فضلاً عن أن تُمارس في الشوارع والأزقة والساحات والدوائر العمومية
على اختلافها ، حتى تُخيّل إليّ أن الناس لا يدوسون بعضهم لا عفةً
ولا تلطفاً بل عجزاً او خوف العقاب . وبالطبع لا يسع المراقب
الاجنبي الا أن يستنتج أن معظم الناس لا يعرفون شيئاً عن بلاد
الناس ولا يهمهم كثيراً أن يتبسوا من سواهم او يقتدوا به . وهذا
الذي أطلبه حرصاً على سمعة بلادي لا يُعتبر فضيلة او غيرية بل
مجرد خدمة للنفس ، إذ متى احترم المرء حقوق الآخرين احترموا حقه
او على الاقل ساع له أن يطالبهم به .

ولكنّ الذي لا ارى له ايّ مبرّر هو رفع الصوت بالشتائم وهجر القول والكلام البذيء على قوارع الطرق والأرصنة حيث يكثر مرور السيدات والاولانس ، وليس من ينجبل او من يردع التسوّل - إن لبنان أحوجُ البلدان الى منع التسوّل بتاتاً وجعل الاحسان للمستحقين فريضةً على الأمة تؤديها كسواها من الضرائب وإنزال العقاب بمن يتخذونه مهنةً لغير موجب ، وأفضله إكراههم على العمل في الحقول والمزارع ، او تنشئ لهم الحكومة مزارع نموذجية تأديبية يعملون فيها فينفعون وينتفعون .

فمن يفكر في هذه الامور وهل يوجد دوائر مسؤولة عن تلافيتها ؟ والوصمة في الحالين لاصقة بالحكومة إذ أن عدم وجود مثل هذه الدوائر نقص لا مبرّر له واذا كانت موجودة ولا تقوم بوظيفتها فالمصيبة فيها اعظم . والمسؤولية لا تقع على الحكومة فقط بل تتناول الندوة النيابية ايضاً إذ يترتب على هذه أن تطالب الحكومة بسنّ تشريع يضمن تنفيذه إزالة هذه السفعة ، وفي هذا السبيل يُفضّل على بعض الجلسات العادية التي يعقدها النواب في الندوة انتشارهم في جميع انحاء العاصمة للتبشير والردع والتوجيه . وعلى البلدية ان تقوم بما يختص بها

البهيمية - وداهية الدواهي المشاهد البهيمية التي تدعو الى التقرّز والاشمئزاز، وأعني تلك التي تجعل من الطرق والأزقة مزابل ومراحيض برغم وجود اوعية للزباله ومباول عمومية في انحاء مختلفة من المدينة ، وسعي البلدية آخرأ لسدّ النقص حيث تدعو الحاجة .

وقد يوجد مثل هذا كله في بلدان متقهرة فلا يليق بنا النزول الى مستواها ، او متقدّمة ومن واجبنا أن نكون افضل منها . وعلى ايّ الحالين فلبنان مطالب اكثر من سواه بحكم حاجته فهو بلد اصطياف وإشتاء وبهذه الصفة يترتب عليه أن يعمل كل ما في وسعه لاستهواء المصطافين والمشتين بإزالته جميع الاسباب التي تدعو الى اشمئزازهم ونفورهم

وشكواهم لكي لا يؤثروا عليه سواه من البلدان السالمة من جميع هذه المعاييب .

الأزبياء - اما تعدّد الأزبياء فعلى قباحتها لا اقول فيه شيئاً لعلمي أنه امرٌ طارئٌ لا ناشئ يُنتظر زواله تدريجياً مع الايام ، لأن التطوّر من هذه الجهة في لبنان ، وعلى الأخص في عاصمته ، ينتهي عهده الى زهاء قرن خلا ، ولولا المبرّر الذي تقدّم ذكره لكان اليوم تاماً شاملاً

الحذات والمرفقات

في طبيعة ما أثرته منها القضاء على البعوض في المدينة ، كما قضى الامير كيون على الذباب ، حتى في اشدّ الفصول حرارة ورطوبة ، مما يقضي بالحمد والثناء وتطويب الذين عملوا على إراحة السكان من هذه الآفة التي كانت تقضّ المضاجع وتسبب شتى العلل .

التساهل - وما يسرّ الحاطر ويشرح الصدر ويوحى الثقة ويقوّي الرجاء بمستقبل زاهر وعصر ذهبيّ للبنان عملية الانصهار والاندماج الجارية على أبناء المذاهب والطوائف المتعددة بحيث أني لم الحظ في أثناء المدة الطويلة التي قضيتها مقيماً ومتنقلاً أيّ اثر للماضي البغيض ، لا تصريحاً ولا تلميحاً ولا همساً ولا إشارة ، مما يدلّ دلالة واضحة على أن عهد التعصب الاعمى الممقوت قد مضى لغير رجعة ، فكلّ يحترم شعائره ويمارسها دون أن يستهين بشعائر سواه . وقد تمّ هذا بفضل الوعي القومي والعقيدة اللبنانية الشاملة وإعارة أذن صماء لدسّ المغرضين الذين يبشرون جهرةً بالوئام والاتحاد ويعملون سرّاً على تفويض دعائهما ولم ترزعزع اقتناعي هذا الردة التي درّ قرنها في الزمن الاخير إذ هي كانت اشبه شيء بالنسيس الذي يسبق الانطفاء ، بدليل ما لقيته من الشجب والتسفيه من قبل ذوي الرأي والعقلاء من الاخوات المسلمين قبل المسيحيين .

السفور - ولا يقلُّ عن هذا التطوُّر المحمود أهميةً وتأثيراً انتصارُ
 المرأة تدريجياً وبحكمةٍ وتعقُّلٍ في مضمار السفور بفضل تزايد عدد المرتقين
 الذين بدأوا يعترفون لنصفهم الأفضل بحق التمتع مثلهم بالنور والهواء
 والانطلاق من قيد الحجاب الثقيل ضمن دائرة الصون والأمانة الزوجية
 المركَّبين في الطبع العربيِّ النبيل ، فيندر أن ترى امرأةً مؤترةً ،
 وجلُّ من يستنكف من الطفرة ويؤثرن الاعتدال والتدرُّج يسترن
 الثوب بمعطفٍ ويغطين الوجه ببرقعٍ شفافٍ ، وهو زيٌّ لطيف يرتاح
 اليه النظر . وهكذا لم تعد المرأة اللبنانية ذلك النصف المشلول من
 جسم الأمة العائش في ظلمتين : ظلمة المنزل مقياً وظلمة الحجاب متنقلاً
الابنية الحديثة - إن رقعة المدينة آخذة في الاتساع في كلِّ اتجاه
 بحيث نشأت أحياءٌ جديدةٌ مرعيةٌ فيها شروط الهندسة الحديثة ، سعةٌ
 واستقامةٌ ونظاماً ، كما ان العدد الكبير من الأبنية المستوفية شروط
 الجمال والاناقة منبثٌّ في جميع الأنحاء ، ولكنه لسوء الحظ قائمٌ بين
 ركام من القديم القبيح الرثِّ المشبه الأطلال بحيث يبدو كالراحات
 الفينانة في صحراء جرداء . وحركة الهدم والبناء والتوسيع والتقويم
 لا بأسَ بها ولكنها بطيئةٌ بالنسبة الى المطلوب بحيث قد يستغرق تجديد
 المدينة برومَّتها اجيالاً ، ولكنَّ الغراء في أن : « كلَّ آتٍ قريب » .
 اما اجمل الشوارع من حيث السعة والاستقامة فهو شارع فخر
 الدين القائمة فيه اجمل الابنية وأحدثها طرازاً والمنتظر ان تقوم فيه
 قريباً سواها من نوعها حتى ليصبح شارع البنوك والشركات الكبرى
 كبنك مصر سوريا لبنان الذي قارب الانتهاء ، والمحاذي لبناء وزارة
 البريد والبرق ، التي يقابلها ويقوم على انقاض البناء القديم الذي كانت
 تشغله بناء البنك اللبناني التجاري وشركة الضمان اللبنانية الذين أنشأهما
 بالاشتراك مع مساهمين مقيمين الاخوان المهاجرون سعد ابو جوده ،
 ومركزه الحالي في ساحة النجمة ، ولا يبعد ان يصبح فيه مستقبلاً

بنك لبنان والمهجر المساهم فيه نفرٌ من كرام مهاجريننا في سان باولو
بزعامه جورج نعمان معلوف ، ومركزه الحالي في شارع فوش .

**وزارة البريد والهق - إن بناء هذه الوزارة الجديد هو من أجل
وأتم ما وقعت عليه عيناى فى العاصمة من حيث الرحابة والاناقة
والوفاء بالغرض المشيد من اجله ، ولذلك يحق للحكومة والعاصمة
ولبنان المفاخرة به .**

اما جل ما عداه فمن مخلفات عهدى الاتراك والفرنسوين من
المباني القديمة الذى ينقصها الشىء الكثير من الشروط العصرية . والاسوأ
منه المؤتجر كجل الدوائر ووزارتى المالية والخارجية ، وحتى القصر
الجمهورى المختص بالرئيس ، إذ ان لبنان احوج ما يكون الى الاقتصاد
وفى الاتجار اسراف وتبذير ، لان الاجور بطبيعة الحال فادحة ،
بحيث تستطيع الحكومة ان تبني بمجموعها دوراً خاصة فى مدى عقود
قليلة من السنين ، والحكومة فى كل بلاد آخر من يصح فيه القول
إذنه مقيم على سفر .



(ساحة النجمة القائم فيها بناء الندوة النيابية وتوسطها ساعة « العبد »)

الندوة النيابية — سبق لي ان اشرت الى استنكافي من التأثر برأي احد ، ولكنني لم اربأساً في استثناء الندوة النيابية المفروض أنها لسان حال الشعب المعبر عن إرادته وأمانيه ، فحضرت بإلحاح بعض الاصدقاء احدى جلساتها واكتفيت بها لأن ما ساءني من تصرف بعض النواب وتجاوزهم حدود التأدب واللياقات في اساليب تعبيرهم أربي على ما سرّني من اتزان البعض الآخر واعتماده المنطق السليم وتقيّده بأداب المجالس . وكما استصوبت خفض عدد النواب الى اربعة واربعين بدلاً من سبعة وسبعين ، املأ مني ان تصيب التنفية الأولين .

دار الكتب والصناعة اللبنانية — مؤسستان تشغلان جانباً من بناء الندوة النيابية وفيهما كل ما يحمل الزائر على الاعجاب والتقدير **المتحف الوطني** — هذا المتحف قائم في بناء فخم مستوف شروط الرحابة والأناقة كائن على مقربة من حيّ فرن الشباك الذي أصبح مكتظاً بالأبنية ، وأمامه ساحة رحة وفيه من الآثار والعاديات ما يحمل على الازدهاء والاعجاب بمخلفات اجدادنا القدماء .

مطار خلد — إن ما قلته عن وزارة البريد والبرق الحديثة يُقال مثله في المطار الدولي وبناؤه الفخم الانيق الذي أصبح قريب الانجاز . وهو من المشاريع التي يمكن للحكومة السابقة المفاخرة بها برغم كل ما يُقال من أنه كان مورد استغلال وإثراء للكثيرين لانه يدرّ ريعاً لا يستهان به لبلد صغير كلبنان ، ذلك أنه في الثلاثين شهراً التي انقضت على تدشينه بلغ عدد المسافرين الذين مرّوا به نصف عدد سكان لبنان ، وعدد السيارات التي تؤمه أسبوعياً يساوي مجموع سيارات لبنان . اما إيراده السنوي فقد أصبح خمسة وعشرين مليوناً ، او ربع موازنة الدولة اللبنانية .

نادي بيروت — هو نادٍ اجتماعي يضم سرّة المدينة وخيرة أسرها ، ولا يقل رحابة وفخامة وأناقة عن خيرة نوادينا في البرازيل ، ومركزه

المؤتجر في الدور الأعلى من بناء يُطلّ على ساحة البرج . وكان الفضل في ارتيادي إياه كضيف زائر لمدة أسبوعين لزميلي ورفيقي في بورت سودان نسيب عبد الملك . وقد سرّني أن لقيت فيه عدداً ممن جمعتي بهم الهجرة في البرازيل ، منهم توفيق الحوري والفرد بريدي .

المسرح - وحضرت بدعوة من صديق لا يسعني أن أردّ له طلباً ليلة تمثيلية في احد المسارح فتروحت على عهدنا الماضي في البرازيل ايام كان يستنكف الوطنيون من تأجير مسارحهم للسوريين والبنانيين لعدم إحسان مواطنينا الاصغاء واتخاذ بعضهم من المسرح حانة للعريضة والتلذذ بالملحاحات ، وفي رأسها البزر وفستق العبيد ، تاركين حول مقاعدهم ركائماً من قشورها كما تترك البطاقات الدالة على الزيارة عندما يكون المzor غائباً .

اما اليوم وقد اصبح جمهورنا مثالياً في مراعاة آداب المسارح فقد دُهِشت لما رأيته في عاصمة « الاشعاع » من مثل ما كنا نشجبه منذ ثلاثين عاماً . ومع أن صديقي هذا كان قد ابتاع مُكرهاً تذكرتين آخرين لحضور رواية ثانية فقد كلفني إهداءهما لعدوله هو ايضاً عن الحضور .

والذي أمضي بنوع خاص هو أنه ، على إجادة بعض الممثلين ، رأيتهم جميعاً سواء في الاخلال بقواعد اللغة حتى إن ممثلينا في البرازيل يفوقونهم في ضبط الحركات الى حد بعيد ، وكم تمنيت لو هم عدلوا عن الفصحى الى اللغة العامية .

اما الرواية التي عوّضتنا عن هذه فهي رواية الحماة والكنة التي مثلتها جمعية إمارة الزجل من نظم شاعرها الفكه ومثلها التقدير اديب الحداد . وهذه الجمعية يرئسها الاستاذ وليم صعب المعروف في البرازيل وتضم عدداً من خيرة الزجالين المزدانين بروح البساطة والأخوة لذلك أنست اليهم ونعمت بطيب عشرتهم في مركز جمعيتهم القائم على مقربة من

صومعي طيلة المدة التي قضيتها في بيروت . وعلى بعد الشبه من جهتي ، رأيت فيهم امثال الصيادين الذين اختارهم المسيح اتباعاً ودعاةً ، وبلغ من تنزُّهه عن التعاطف عليهم انه فرض على من يريد أن يكون فيهم سيِّداً ان يكون لهم عبداً ، ووضع بنفسه المثل عندما غسل أرجلهم

الندوة اللبنانية - لايسع من يؤم هذه الندوة ويستمع للمحاضرات

القيمة التي تُلقى فيها باللغتين العربية والافرنسية إلا أن يقدر الجهد الذي قام به واحدٌ من اصدق اللبنانيين وطينةً وأرغبهم في الهداية والتوجيه وترقية المدارك وحقول العقول وتهذيب النفوس وهو الأستاذ ميشال الاسمر الذي يحسن اختيار المواضيع وينتدب لمعالجتها ارسخ اهل الاختصاص قدماً وأطولهم باعاً . وقد استمعت لبعض المحاضرات وطالعت بعضها في المجلة الدورية التي تصدرها الندوة ووثقت من فائدها ووفائها بالقصد النبيل الذي أنشئت من اجله .

وهذه الندوة ندوةٌ هي جمعية العروة الوثقى المنشأة في الجامعة الاميركية منذ عقود عديدة من السنين ، وكلاهما تتباريان في الفوائد الجمة التي يجتنيها منهما المستمعون . وفي كلية المقاصد الخيرية الاسلامية ندوة على غرارها .

وقد احسنت الندوتان الاخيرتان الى الكثيرين من اعضائهما وسواهم بدعوتهما الشاعر الدمشقيّ الزائر جورج صيدح لالقاء محاضرتين تثريتين شعريتين كان لهما اعمق أثر في النفوس وقوبلتا بجلء الرضا والاستحسان

الزملاء - وكم ساءني كصحافيّ يؤم بلاده بعد غيبة ثلاثة وأربعين عاماً أن لا استطيع زيارة زملائي اصحاب الصحف إذ في لبنان اليوم زهاء مئة وثمانين جريدة ومجلة ونشرة دورية ، فالتعميم مستحيل والتخصيص قبيح لذلك اكتفيت بزيارة الاستاذ كميل يوسف شمعون كنعيب والاستاذ غسان تويني كنعجل لجبران رفيق الحداثة وصديق الصبا فالكهولة يوم مروره بثمر سنطس في ٧ شباط سنة ١٩٤٧ في

طريقه الى جمهورية الارجننتين كوزير مفوض للبنان فيها وفي جمهوريتي
أوروغواي وتشيلي ، وكنت احد اعضاء الوفد السانباولي الذي خف
لاستقباله ودعوته مع عقيلته الفاضلة وحاشيته لمأدبة أقيمت له في نزل
بالنيادير الفخم . وتحليداً لذكراه أنشر الرسم التالي الذي التقط على
درج ذلك النزل :



من يسار القارئ : المؤلف . حبيب مسعود وأمامه فؤاد لطف الله التبشراي . توفيق
يوسف عواد وأمامه قريبته . محمود حافظ فنارس نمر وأمامهما الوزير وقريبته . اميل
بنيامين يافت . رفاثيل يافت . كميل تويني وقريبته .

كما زرت برفقة الاخ البير ريجاني الاستاذ رامن سركيس صاحب
جريدة « لسان الحال » ، شينخة جرائد بيروت ، ترحيباً به على أثر
عودته من زورة قصيرة الى المهجر المكسيكي .

الاصدقاء القدماء - وكلم سرّني أن القى على قيد الحياة من قدماء
الأصدقاء الأدباء والشعراء : الطيب نقولا فياض والياس حنيكاتي
وجورج نقولا باز وبشاره عبدالله الحوري الملقب بالأخطل الصغير
وشاعر الارز شبلي ملاط .

مَصَائِفُ لُبْنَانِ

لا يضير لبنان شيء كالتبجح والادعاء ، ولا ينفعه شيء كالاقرار
بالواقع وهو انه وطن صغير مسالم لا كيان له ولا حياة استقلالية
كريمة الا في ظل الضمان الدولي الذي يحميه من أي اعتداء يمكن
ان يقع عليه ليظل وطناً مثالياً لأهله ولاخوانه ابناء الاوطان العربية
الآخري ، يؤمهم وينعم في ربوعه المنتجعون والمستشفون
والمطاردون السياسيون .

فاذا ما ضمن كيانه واستقلاله على هذا الشكل الذي لا معرفة فيه ،
والذي تعيش بفضله اوطان أخرى عديدة اوسع منه رقعةً واكثر
سكاناً وأغنى بالموارد الطبيعية والصناعية ، اقتصرت حاجته على تأمين
عيشه باستغلال موارده الزراعية والصناعية والمعدنية الى اقصى حد ممكن
اما الشرط الثالث فهو ان تقوم على إدارة شؤونه حكومة وطنية
عادلة نزيهة تبذل كل ما في وسعها لاجراء العدل بين سكانه ونشر الأمن
في ربوعه والعمل على ازدهار العمران فيه

فاذا ما اختل أي من هذه الأسس الثلاثة تعرض كيانه للتداعي
فالانهيار فالاضمحلال .

وخير ما فيه ، وما يجب ان يُعتنى باستغلاله ، مصايفه التي لا حريبَ
لها في العالم بأسره : اولاً من حيث عددها فهي لا تُحصى بالعشرات
بل بالمئات ، وثانياً لقربها من العاصمة بفضل الطرق المعبدة وكثرة

وسائل الانتقال السريع اليها ، وثالثاً لاتساع مجال التخيير بينها تبعاً لاختلاف المطالب والضرورات والاذواق ، فهي ترتفع تدريجاً من عشرات الامتار الى مئاتها الى آلافها ، وبمثل هذا التدرُّج تتفاوت حجماً وهدوءاً وحيويةً وصخباً . وهذه المزايا والمؤهلات مجتمعة يُعتبر لبنان فردوساً ارضياً ولكنه لسوء الحظ لا يستهوي سوى النزر من غير سكانه ، على قربهِ وسهولة بلوغه من ايٍّ من الاقطار التي تتألف منها الجامعة العربية ، وعلى الاخص سوريا الشقيقة التي تجعها المتاخمة اقرب الى القلب . وتليها مصر ، وكلاهما تقيمان في طريق طالبي الاصطياف في لبنان من رعاياهما شتى الحوائل والعراquil ، بينما نرى من شقَّتْهم ابعد ، من الاردنيين والعراقيين والسعوديين والكويتيين ، اوفر إقبالاً وأبرّ بالاً واحمر التي تربطهم بلبنان وبسواه من الاقطار العربية كافة . ونحن لا نسألها التضحية بمصالحهما من اجلنا ولكننا نرى في سياسة التشديد الى حد يقرب من المنع البات قطيعةً لا هودة فيها ، مما لا يليق بإخوان ، ومن شأنه ان يحمل على اساءة الظن .

اما وهذا هو الحال فأَيُّ فرق إذن بين ان نكون متاخمين لأعداء او اصدقاء ؟ فهلا فكرّ الاخوان جميعاً فصفوا النيات ووضعوا حداً لهذه القطيعة الخزية ولو بصورة تدريجية تقرب رويداً بين المطالب والاهداف وتوفّق بين المصالح ، وسعوا بروح التضامن الأخوي لازالة الاسباب التي ادّت الى قطيعة يجب ان ينجل منها الجميع ؟ !

وَأين المصايف التي عرفتْها سنة ١٩٥٩ منها اليوم فقد بلغ العمران في بعضها حداً مدهشاً ونما حتى اصبح مدناً كما استجدّت مصايف لا عهد لي بها .

والذي زادها جمالاً وفتنة تألؤها ليلاً بالانوار الكهربائية الساطعة بحيث تبدو من بيروت كمجموعات من النجوم ملست التعلق بالفضاء السحيق فهبطت من اعاليها واستقرّت في لبنان تستريح .

رحلاتي وثقلاقي

كانت الدوافع لرحلاتي وتنقلاتي في لبنان عديدة : اولها الهرب من حر الساحل واغتناماً لأشهر الصيف القليلة في الجبال حيث يكون الانسان اقرب الى السماء وخير ما جادت به الارض من خضرة وماء . وثانيها القيام بالمهمات التي عهد بها إليّ بعض اصدقائي في البرازيل لدى ذويهم . وثالثها الاستقراء والاستطلاع ومشاركة المشاريع التي انشأها كرام المواطنين في البرازيل وسواها في بلدانهم وقراهم . ورابعها المقارنة بين ماضي الأماكن التي عرفتھا في حداثي وصباي وما صارت اليه بعد اكتهالي وشيخوختي .

وقد قصرتها على الضروري الذي لا غنى عنه او لا مفر منه من باب « ما لا يُدرك كله لا يُترك جله » ، وعملاً بالمثل القائل : « على قدر بساطك مد رجليك » .

وها انا عارضٌ أمام القارئ ما يشبه الشريط السينمائي من رسوم الأماكن وأوصافها وما عرض لي في بعضها من الحوادث وما اثاره البعض الآخر في نفسي من الذكريات .

معلقة زحلة - هي البلدة التي سبق رسمها ووصفها والتي نشأت فيها وترعرعت ، لذلك لا ألام اذا انا رايت في إثارها القول المشهور : كم منزل في الارض يألفه الفتى وحنينه أبداً لأول منزل . لقد رأيتها لا تحلو من بضعة ابنة حديثة ولكن الذي جنى على حيويّتها وحال دون نموّها الى الحد المنتظر هو انضمامها الى زحلة وفقدانها بذلك منزلة قصبة البقاع ومركز الحكم فيه فحل مكان دار الحكومة فيها مستشفى وخلت من كانوا يُشيعون فيها الحياة من

الحكام والموظفين المدنيين والعسكريين ، ومن جل المطاعم والمقاهي
التي كان يرتادها كل هؤلاء .

أما المستشفى الذي قام على انقاض دار الحكومة فيها فمستشفى
حكومي لمنطقة البقاع وهو مما يحق للبنان المفاخرة به نظراً الى جمال
موقعه واتساع رقعته وأناقة بنائه ورحابة ساحاته وحدائقه وما يزينه
من فاخر الاثاث وأحدث المعدات .

وقد سرّني أنني فيها جدّدت عهد الصداقة التي رُبطتني في حدائتي
برشيد رزق سيده وهنائه تهنئة قلبية بافتوانه بكرامة سليمان سكاف
صديق والدي وشقيقة صديقي العزيز يوسف سكاف . كما لقيت صديق
الحدادة العزيز يوسف اسعد تامر القادم من الاسكندرية مع كريماته
الثقيات لتمضية اشهر الصيف فيها .

رحلة - وقد سبق وصفها مع رسم شتوي منها ، وها إني ناشر
آخر صيفياً يمتاز بأنه اتم وأحدث .



(مشهد عام جميل من رحلة الملقبة بالعروس الزينة)

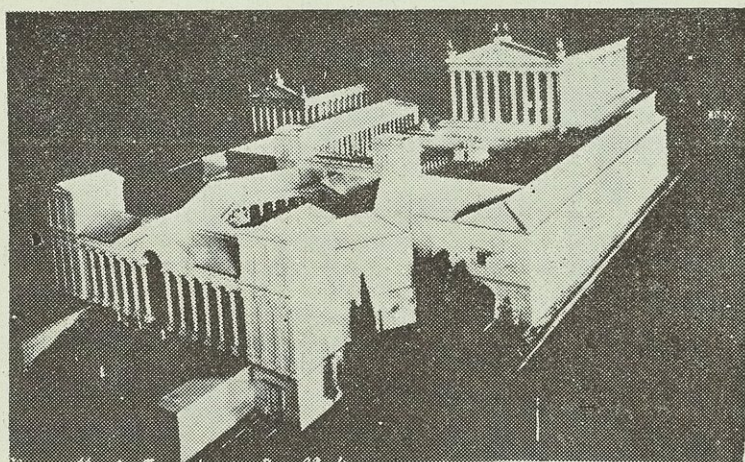
غيرَ أنَّ ما يؤسف له هو أنها تكاد لا تزال على حالها لولا تعبيد
طرقاتها وأزقتها وما استحدثت في واديتها الجميل من المقاهي والمطاعم
والانزال الانيقة والمتنزهات العصرية البديعة، وقد أصبحت تؤدي إليها
جادة رحبة معبدة أطلق عليها اسم البرازيل، وهي تحاذي البردوني الذي
يهدر ويزجر في الشتاء والربيع ويتحوّل الى سواقٍ متغلغلة بين الحصى
في الصيف والحريف . وخيرٌ ما يزينها الكلية الشرقية ومستشفى تل
شيخا ، وهو ندٌّ مصعّر لمستشفى البقاع من كل وجهه ، وقد قام بهمة
وأريحية إخواننا الزحليين في الولايات المتحدة الاميركية .

وقد سرّني أنْ عرفت فيها من سكان المعلقة الشابّ الثقيف
والصيرفيّ سيمون فريجه نجل صديقي حبيب حنا فريجه الوارد ذكره في
« العهد القديم » . كما عرفت فيها ايضاً خليل دوبا الاديب والشاعر
الذي قدّم لي نفسه وأحاطني بكل رعاية وعطف ، هو وشقيقه المزارع
حبيب وشقيقتاهما المهندبتان ، في ضاحية الكرك وفي بيروت .

وكان للخليل الفضل بأنْ عرّفني الى انداد له هم الاخوان ابراهيم
الحداد صاحب « مجلة الدهور » سابقاً ويوسف المعلوف ورفيق دبس
من مشغره . ولكلٍ منهم عندي قيمة خاصة ، فالأول اديب طليق
الفكر مجاهد ، والثاني شقيق السيدة الثقيفة متيل ارملة اخي ميشال
نعمان المعلوف رئيس العصبة السابق التي أصبحت عقيلة القاضي إميل
روحانا الذي جمعني به الصدفة في منزل الصديق شاهين نعمان المعلوف
وقربنته الثقيفة اديبة عونت معلوف ، ثم في منزله الزوجي . والثالث
شابٌ رقيق الشائل ذو غيرة وحمية أدبى لي خدمات مقدورة ، منها
أنه جمعني برفيق الحداثة والدراسة في الجامعة يوسف داود طرابلسي .
ومن طريف ما حدث لي فيها أني عدت اصيل ذات يوم الى النزل
فاذا بالرواق الخارجي مكتظٌ بعدد من السيدات والاونس والاولاد
توسطه شيوخة جليلة ما كادت تراني حتى نهضت هاتقة بلهفة : « تقبرني ! »

ودون أن تعبأ بتحذير بعضهنَّ إياها من الخطأ راحت تعنتني وتقبلني
قائلة : « ولو ما بعرف خي » ؟ ! فلم أخيب ظنها وبادلتها عناقاً بعناق
وقبلاً بقبل. ولكنَّ الذي نبهها الى إصابة رفيقاتها وخطاها هو تذكرها
أن ابن عمها القادم حديثاً من الولايات المتحدة الاميركية بعد غيبة
طويلة الامد اقصر مني وأضمن فأغضت استحياء وتراجعت متعثرةً نادمةً
على تسرعها ولكنني رحت أرفه عنها بقولي إنها لم تخطيء البتة فأنا
ايضاً اخ لها... في الانسانية !

وكان ذلك المشهد موردَ ارتياح واعتباط لجميع الحضور انتهى
بقدم الاصيل فلم يفته نصيبه من العناق والتقبيل !
طلياً - قرية زراعية تقع في منتصف الطريق بين زحلة وبعبك ،
وقد سرَّني أن زرتها زورةً عابرةً في أثناء رحلتي الثانية الى مدينة
الشمس ولمست فيها تقدماً محسوساً .



(رسم تقديري لما كان عليه هيكل الشمس في بعبك)

بعبك - سبق ذكرها ورسمها وقد زرتها مرتين وراقني سيرها
المطرّد في سبيل العمران والازدهار . وخير ما فيها هيكلها الاثريّ

الذي يستهوي اليها الوف الزوار والسياح كل عام ، ومتنزه رأس العين الفتات .

وكانت زيارتي لها بصحبة رفيق السفر نجيب قطيني معلوف وعيلته الكريمة واضطرت أن ابيت فيها ليلتي دونهم بإلحاح مزورنا الكريم الطبيب ملحم إبراهيم فريجي رفيق الحداثة والدراسة والتعليم .

جذبنا - هي قرية صغيرة على مقربة من معلقة زحلة تذكرت فيها زمن الحداثة عندما كان يصطحبني وشقيقتي اليها عشية عيد مار جرجس من كل عام صديق لوالدي فيضيفنا في منزله ، وبعد أن نتمتع في اليوم التالي بمباهج العيد يعود بنا الى المعلقة .

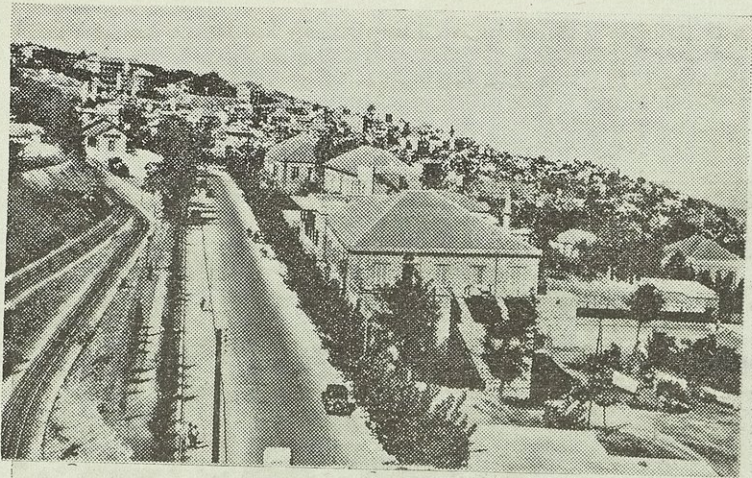
وجديتنا غزيرة المياه عذبة الهواء ولذلك تصلح للاصطياف ويمكن تنقصها وسائل الراحة والرفاهية التي من شأنها أن تستهوي عدداً اكبر بما لا يُقاس من المصطافين .

ويمتاز مأواها بالصفاء والعذوبة ، وخير ما استحدثت فيها متنزه وحب جميل تجري في أنحائه السواقي المترققة على حصاء كالدرّ وتظله اشجار وارفة .

وكانت زيارتي لها برفقة الصديقين الكريمين وديع نجيب ديب وقرينته سلوى قازان أخت الشاعر نعمة قازان ، ومضيفتنا فيها والدّة الانخت سلوى وقرينة والد الشاعر .

الشويقات - هي عروس صحراء الزيتون المشهورة وقد سرّني ما شاهدته فيها من عمران وازدهار ونشاط ثقافي وتربوي . وفيها تذكرت ذلك اليوم من ايام صباي الذي قصدت اليها فيه على الاقدام مرشحاً نفسي لوظيفة مدرّس في كليتها ، ولم اكن أصلح في ذلك العهد تلميذاً .

وكانت زيارتي لها برفقة الأخ وليم صعب ومضيفتنا فيها صديقتنا السيدة اسماء شقير وهي ، وهي التي سبقتنا اليها من سان باولو .



(عاليه التي تمت من قرية الى مدينة)

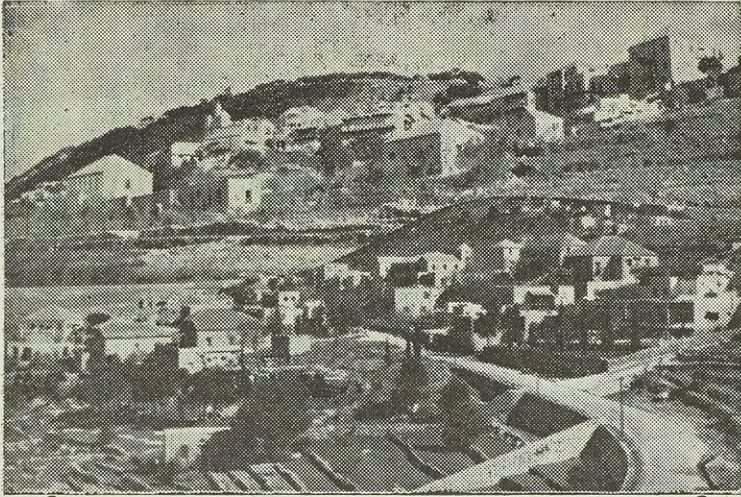
عاليه - هي المصيف الذي فاق كل مصيف عداه في النمو والازدهار ، والسبب في ذلك عراقتها وقربها من بيروت . على أن كثرة اسباب اللهو والترف فيها تفقدها مزيته كمصيف قروي تتنَجّع فيه الصحة ويُستفاد النشاط .

وخير ما هيأه لي القدر فيها اجتماعي بالسيدة الثقيمة الرفيعة التهذيب نلي ارملة صديقي الأعزّ في السودان نسيب فيلبيدس ، في منزل بكرها جورج الذي فارقه طفلاً وضفته في دارته الانيقة محامياً لامعاً مفلحاً وزوجاً وأباً .

سوق الغرب - وهذه ايضاً مصيف جميل أهل ، يلي عاليه وعلى مقربة منها . ولكن تقدّم هذه وقربها النسبيّ جنياً عليه فلا يبلغه ممن يصلون اليها الا قاصدوه بالذات ، من باب أن « الماء لا يمرّ على عطشان » !

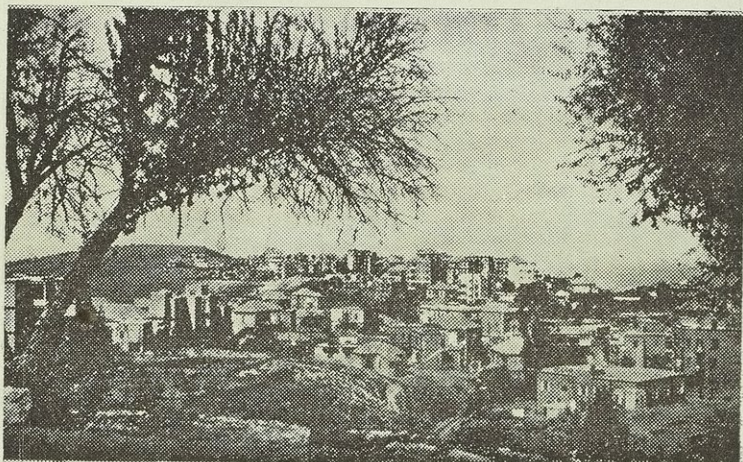
وكلا الصيغتين المتقدمي الذكر يشكو قلة الماء الى حد منفّر ، لكي

لا اقول مكفّر . ولكنّ الحكومة الجديدة معوّلة على سدّ هذا
النقص في مصايف عديدة وقد أرصدت لهذا الغرض مخصصات تناهز
عشرين مليوناً ، ولعلها مبتدئةٌ بهما مراعاةً لحاجتهما الملحة فتتداركهما
قبل الصيف المقبل .



(رستان مضمومان من سوق الغرب جارة عاليه)

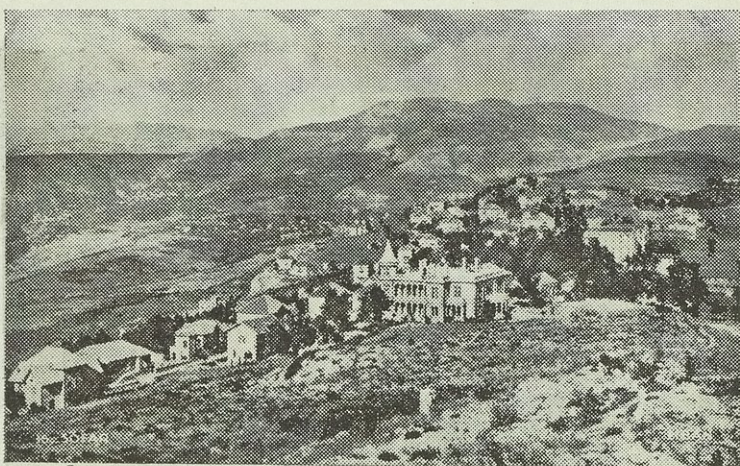
وفي سوق الغرب اجتمعت بابت ابنه العم بهيج مراد البارودي قرين
السيدة الكاملة ثقافةً وتهذيباً ماري عبد النور ، وكنت قد فارقته
حدثاً والتقيت به زوجاً وأباً وجداً ، ونعمت بضيافته اياماً ، كما
عرفت في منزله الكثيرين ، في طليعتهم صهره الشاعر الذائع الصيت
شارل قرم صاحب « الجبل الملهم » والأسنانيّ إبراهيم شحاده وقرينته
الثقيفة منيرة كريمة استاذ اللغة الشهير في الجامعة جبر خومط . وبهيج
شقيق جميل الذي يشغل مركز مساعد مندوب سعودي لدى منظمة
الامم المتحدة ويشرف بصفة دائمة على المكتب السعودي فيها .
كذلك اجتمعت فيها برفيق الصبا في الخرطوم الياس شاهين عطيه
ويوسف جورج عطيه الذي سبقني اليها من البرازيل .



(مشهد من مدينة بجمدون)

بجمدون - هي بلدة مزدوجة إذ هي مرّقة من بجمدون المحطة
لقربها من السكة الحديدية وبجمدون الضيقة ، والمسافة بينهما بعيدة
يصعب على المشاة قطعها فيركبون السيارات . وقد نمت نموًا محسوساً
وأصبح فيها عددٌ من الفنادق الفخمة . وبحكم صلتى بالاستاذ عيسى
اسكندر معلوف جاورت فيها فندق سميراميس الفخم لصاحبه ومديره
نجيب طرابلسي قرين السيدة المهذبة اوديت كريمة الاستاذ .

وكيف أذكر الاستاذ عيسى وأغفل ذكر رفيقة حياته الوفية
الأمينة عفيفة نعمان المعلوف ، مثال المرأة الحكيمة المدبرة ، التي
احاطته بعنايتها وهيأت له الجوَّ المواتي لانتاج محصوله التاريخي والعلمي
الضخم . الى جانب أنها الشاعرة الصامته التي انجبت فوزي وشفيق
ورياض ، ولا يدعَ فهي من بيت علم وفضل وشقيقة ثلاثة شعراء هم
قيصر وشاهين وميشال ، لذلك جاء ثلاثة من أنجالها خولن مجلّين .



(صوفر)

صوفر - مصيف جميل أنيق وعهدي به قرية صغيرة لا تمتاز إلا
بفندقها الشهير الذي بُني منذ نصف قرن ونيف . وهي اليوم
بلدة حديثة الطراز تكثر فيها الفنادق والمطاعم والمقاهي والمتنزهات .

المريجات - قرية ذات موقع ممتاز تطلّ على سهل البقاع ببساتينه
وغياضه وزروعه فيبدو منها مفروشاً بأنفس الطنافس المختلفة الالوان
والنقوش ، وقد نمت اليوم وأصبحت بلدة لا بأس بها . وامتيازها
الآخر هو أنها مقرّ شاعر الحياة صديقي قيصّر نعمان المعلوف وقريلته
الراقية السيدة جوزفين .

ومن ذكريات صباي فيها أنني أمتها ذات يوم مخفورة وقضيت فيها
ثلاثة ايام في بناء شبه خان إقاماً لمدة حجر صحيّ كان مضرراً على
بيروت بسبب حادث مشتبّه به . وكنت في جملة الذين فرّوا من
القطار عندما أوقف عند جسر المعلقة ولجأت الى زحلة وعدت منها
بعد يومين واثقاً من جهل ولاية الامر لحبري . ولكن ما بت فيها
ليلتي حتى جاءني في الصباح جنديّ اقتادني الى السراي حيث حجر

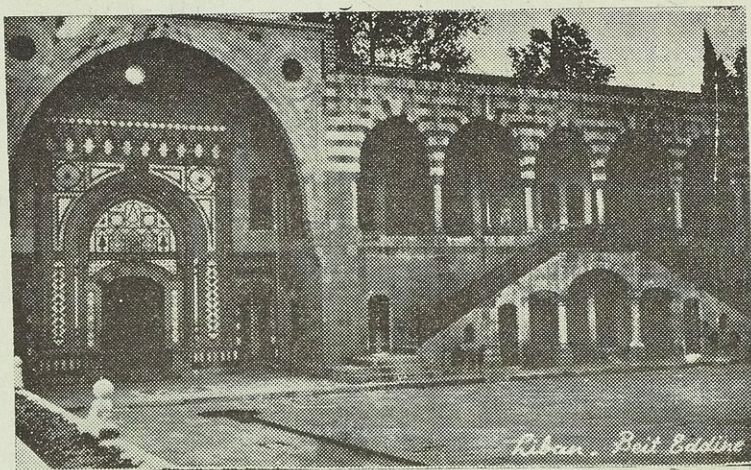
عليّ ساعات ثم أركبت حصاناً ورافقتي خيَّال الى المحجر فيها .
ومن غرائب الصدف أني عرفت في السيدة الممتازة ، التي اختارها
صديق الحداثة المحامي (محمد) الياس نمور زوجةً ، شقيقةً صديق
لوالدي ولي هو اسماعيل بك نابلسي الذي اضطررت بسبب تغيب
والدي في ذلك العهد أن أقترض منه ريالاً تسديداً لنفقات مدة الحجر
فلم يشأ كرمه إلا أن يبعث إليّ بريالين . وقد نعمت بضيافة الزوجين
ورويت لهما هذا الحادث . وقد سرّني أن الصديق الياس راضٍ عن
الحياة بدليل أنه بعد أن اراني الشيء الكثير من التحف الثمينة التي
يكتظُّ بها منزله تمّني لو يفقدها كلها لقاءً عودته القهقريّ عشرين سنةً .



(رسم بيت الدين)

بيت الدين — بلدة جميلة حسنة الموقع كانت فيما مضى مركز الحكم
في لبنان . وخير ما فيها القصر التاريخي الذي رُمم وأعيد تنظيمه على
أفضل شكل ، وقد روعيت فيه شروط الفن العالي والذوق السليم
وبراعة العرض بحيث أصبح من المفاخر التي لا تُنقوّم بمال والني يستطيع
لبنان أن يعتزّ بها ما شاء الاعتزاز ، فهو تاجٌ على مفرقه يزري بالتيجان

وصفحة رائعة من تاريخه المجيد لا يمحوها كروور الزمان .



(قصر الامير بشير الشهابي)

إنه صورةٌ حية مملوسة من عصر ذهبيّ طوته الايام فنشره الالهام وعرضه على الابصار وجلاله للافهام في قاعات تتبارى في حسن زخرفها وبديع نقوشها ، تُحدث بصمتها بما زخرت به يوماً من حياة فيّاضة بالخير وبكل ما يشرف الانسان ويعلي قدره ويخلد ذكره من بطولة وإقدام وعزّة وإباء ونزاهة في الحكم وعدل في الرعية وصون للحقوق وتوفيرٍ لاسباب العيش لمستحقه رضيّاً هنيئاً . وفي واجهات انيقة يُعرب ما يبدو من خلال زجاجها عن الأزياء والعادات والمصطلحات الاجتماعية وكيفية الذود عن الحياض وتثقيف النشء وأساليب الحكم والعلاقات السياسية والكياسية .

هذا هو المحصول الذي خرجت به من ذلك القصر السحريّ ، وهو غيضٌ من فيض .



(بيت مري)

بيت مري - هي مصيف انيق ولكن على كفايتها وقربها النسبي
من العاصمة لا تزال دون سواها عمرانياً ، برغم أنها اصلح منه كمصيف
تؤدجي . ومن أبنائها المجلين في عاصمة البرازيل العميد رزق الله الحداد
وشقيقه شكر الله الذي تربطني به أسرة نسب . ولي في حرج الصنوبر
الذي يتوجها ذكريات عذاب تمازجها مرارة الحنية التي أعربت عنها
منذ سنوات في الابيات التالية التي استقبلت بها مسببتها في سان باولو :

زُرتنا في الأصيل أهلاً وسهلاً فرصفنا القلوبَ درباً فمهلاً
ليسَ ما تشهدينَ منا احتفاءً بل حنيناً ترينَ منه الأقلاَّ
كأنَّ خمراً ما بيننا في صبانا فغدا الخمرُ في الكهولة خلاَّ
خبّرنا حرشُ الأميرِ سليمٍ كيف غادرتهِ خلاً وظلاَّ
ملعبُ للشباب طابَ مقيلاً حافظُ للعهودِ يجمعُ شملاً
ما ذكرنا إلاَّ لأنَّنا كرامٌ ليسَ ينسى من طاب فرعاً وأصلاً

وكان ذلك اللقاء بعد انقضاء زهاء جيل على تلك العلاقة التي رويت

حكايتهما في المقطعين التاليين :

قالت دلالاً يا صبي دَعْ عَنْكَ حُجِي
 قلتُ بريءُ وأبي قولي لقلبي
 قالت فسلهُ يَتَّقِي قلتُ مَريَه
 قد صار يعصيني الشقي مُنْذُ صِرْتُ فِيهِ
 وذيلتها بعده بما اعتبرتُه ختاماً معبراً لتلك المأساة :

وامتدَّ بي جبلُ الفراق ثمَّ التقينا
 والبدْرُ من خوفِ الحاق يمشي الهوينا
 قلتُ كلانا يا جميل كالظلِّ ولَّى
 جمرُ الضحى بعدَ الأصيل قد اضمحلا



(برمانا)

برمانا - يصبح فيها ما قلته في جارتها بيت مري إلا أنها اهدأ منها
 وفيها مركز ثقافي مشهور وقديم عهد ، لذلك يفضلها محبو السكينة
 والهدوء والانفراد كالانكليز وأضرابهم .

غابة بولونيا - مصيف حديث على مقربة من ظهور الشوير قائم

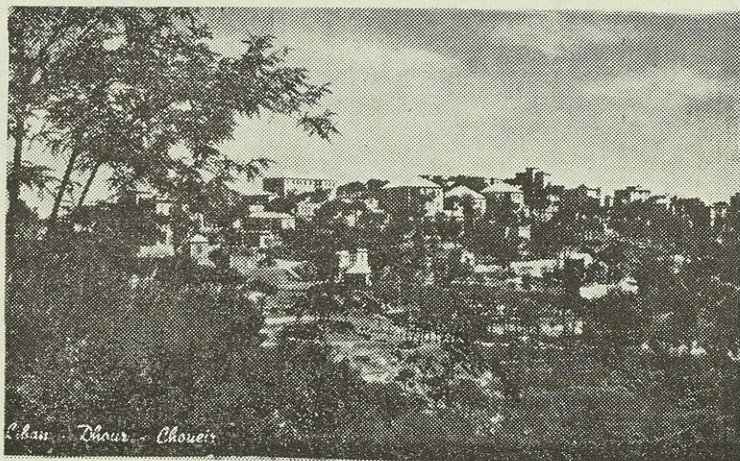
بين احراج من شجر الصنوبر . والمزبة التي تفرّد بها أنه لا يُسمح فيه بتلاصق الابنية فكلّ منها منفردٌ بذاته يتوسط بقعةً من الأرض لا يجوز ان تقلّ مساحتها عن الف وخمسمئة متر

بسكنتا — مدينة جميلة أمتها من صنين حيث قضيت اياماً ثلاثة في احد الفنادق عند سفحه ، بعد ان كنت مررت بها في طريقي اليه قادماً من غابة بولونيا ووقفت فيها السيارة التي كانت تقلني لينزل منها رفيقا سفرهما أمّ كهلة وابنها البالغ عاشرين من اميركا الشمالية او كندا لان اكثر حديثهما كان باللغة الانكليزية . ونظراً الى شدة بدانة تلك السيدة جاهدت طويلاً لكي تستطيع النزول فرأت ان تتأثر لنفسها من المدينة بقولها إنها لن تعود اليها ولو ملّكوها إياها . بقي ان نعلم ما إذا كانت تلك المدينة الناعمة في احضان صنين والتي اشتهر اهله بالذكاء وقوة الحجّة وخفة الروح تقبل بأن يعود اليها ذلك الحمل الثقيل ، فضلاً عن ان تصبح ملكاً لصاحبه !

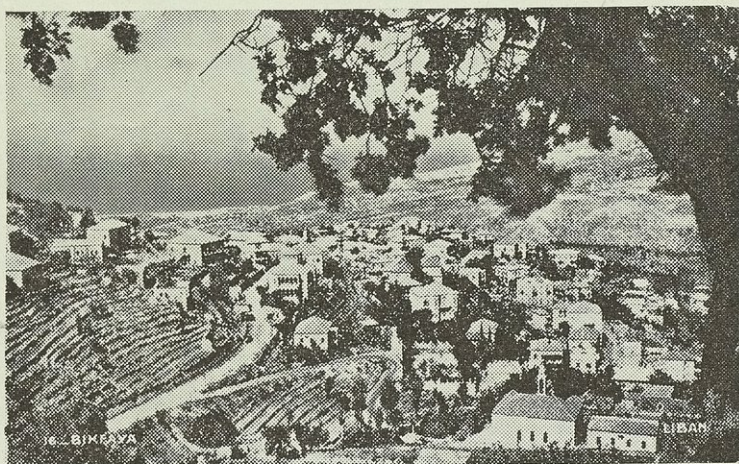
وقد اشتهرت بسكنتا في الزمن الاخير بما تنتجه من التفاح الممتاز بحجمه وشكله وطعمه كما اشتهرت بابنها البارّ ميخائيل نعيمه الذي آثر العيش فيها دون مدينة نيويورك الجبارة ، مبرهنّاً بذلك أنه من جبارة الفكر الذين لا يؤخذون بمظاهر الضخامة والعظمة الفارغة . ومن ابنائها الميامين في سان باولو الاخوان سليم وفيليب وفؤاد لطف الله التبشراني ، وجميعهم ذوو نزعة ادبية وحمية وطنية ممتازة .

ضهور الشوير — مصيف ذو موقع ممتاز بارتفاعه وإشرافه وقد نما نمواً مذهشاً وأصبح فيه عدد كبير من الفنادق والمطاعم والمقاهي والحانات الأنيقة . وخير ما فيه ساحة « نعمة يافث » المفتوحة حديثاً والجاري فيها بناء دار البلدية والمكتبة العمومية التي تعلوها ، وقد تبرّعت بتشيد البناء أسرة يافث الكريمة في سان باولو لذكرى فقيدها الخالد الذكر . وقد قابلت بلدية الشوير هذا الصنيع الجميل بالشكر

وإطلاق اسم العميد اليافثي على تلك الساحة . وفيه سرّني ان لقيت
 الصديق سليم داود قربان الذي بعد ان ادار « مجلة الجالية » بالاشتراك
 مع أخيه الاستاذ توفيق عاد الى الوطن وانصرف الى التجارة فأفلح
 وأصبح زوجاً ووالداً وذا منزلة أدبية واجتماعية مرموقة .



(ضهور الشوير)



(بكفيا)

بكفيا - هذا مصيف ذو شقين لانه مؤلف من بكفيا والمحيطة المتصلتين ، يمتاز بكونه بستاناً وحديقةً في وقت معاً لكثرة ما فيه من الأشجار المثمرة والأزهار الجميلة العطرة ، وقد امتد عمرانه وأصبح غنياً بالمشاتل التي تدرُّ على اصحابها رجاً وافراً .
وقد اشتهرت بكفيا بنوع آخر من الازهار هو ازهارها البشرية التي لا تقل عن ازهارها الطبيعية جمالاً وأريجاً .

الطريق السامية

وأعني بها تلك التي تقود الى مدائن ومصايف الشمال والجنوب وهي معبدة تضمن لركاب السيارات والحوافل الراحة والسرعة . فاذا كان اتجاههم شمالاً كان البحر الى يسارهم ، او جنوباً فالى يمينهم . وفي الحالين يتمتعون الطرف بما يزين الجانب الآخر من كروم العنب والتين وأشجار الزيتون وبساتين الفاكهة كالبرتقال والموز وزروع الحُضر والبقول ، وكلها تتخللها البلدان الساحلية ، ففي الشمال يمرُّ المسافر بجونية وجبيل والبتون وأنه وسواهما من الدساكر والقرى ، وفي جملتها شككا حيث تُستخرج الترابية للبناء ، وكلها تتبارى جمالاً وفتنة . وفي الجنوب معلقة الدامور الغنية بزراعة الموز وسواه من الفواكه والحُضر ، تليها صيدا التاريخية التي زادها أهمية أنها أصبحت ثغراً بترولياً ، فالنبطية التي بفضل زراعة التبغ أصبحت في مجبوحة تحسد عليها ، وقد كثرت فيها الأبنية الحديثة الطراز وكلها مشيدة بالحجر الأبيض المنحوت . يُضاف الى ما تقدم في الشمال الملاحات المنتشرة على طول الشاطئ بين أنفه وطرابلس حيث تملأ الأحواض من ماء البحر بواسطة المضخات الهوائية ، ويُرى بعضها آخذاً في التبخر

والبعض الآخر في منتصفه وسواهما في تمامه . وتوى هنا وهناك
أكوام الملح الناصعة البياض التي استخرجت من الاحواض التي تم تجفيفها .
وفي الجنوب تتألى مزارع التبغ وحقول القمح والشعير وسواهما من
الحبوب والبقول والأشجار المثمرة .



(مشهد عام من القدس يبدو في مؤخرته جامع عمر)

ولكن مما يحزُّ في النفس ويسيل المآقي ويدمي القلوب ، سراء في
الشمال ام في الجنوب ، خيام اللاجئين وما هم عليه من بؤسٍ وشقاء
تنطق بهما وجوههم الشاحبة وأعينهم الغائرة وأبدانهم الهزيلة ، وليس
من يعلم متى تحجل الدول ذات الشأن من نفسها فتحلّ معضلتهم
وتعيدهم الى وطنهم الحبيب الذي أنشر رسمين تذكاريين من اروع
مشاهد عاصمته ، تيمناً ، على نحو ما فعل موسى إذ رفع حيةً من النحاس
وأوصى من لسعتهم الحيات من بني إسرائيل برفع ابصارهم اليها فيشفون ،
وكان عمله هذا الرمز الاول للفداء :



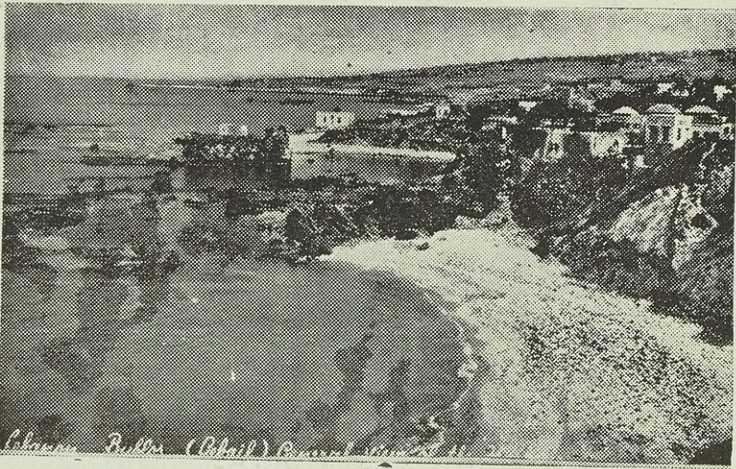
(مشهد آخر عامّ من القدس تبدو فيه قبة كنيسة القيامة)

وقد زرت في الشمال أنفه وطرابلس والقبليات وزغرتا وإهدن
وبشري ومغارة قاذيشا والارز . وفي الجنوب جديدة مرج عيون
وإبل السقي وحاصبيا وبيس والكفير ، وها انا ملئم بوصفها على قدر
ما يسمح المجال :



(جونه المدينة الجميلة الناعمة في احضان الجبل وأمامها البحر)

وتلي جونية مدينة جبيل التاريخية ذات الآثار الفينيقية الباقية على الدهر



(مشهد من مدينة جبيل)

أنفه - استهوتني إليها مهمة كلفني بها صديق لدى بعض ذويه ،
ورغبتي في مشاهدة مدرسة المساواة فيها . وقد وجدت لها بلدة جميلة
واعدة يحلو العيش فيها .

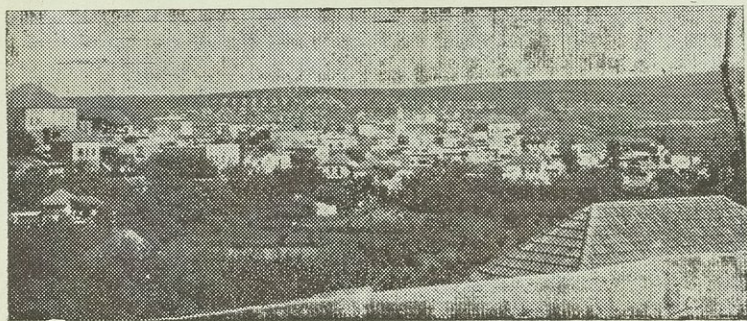


(طرابلس عروس الشمال وعاصمة لبنان الثانية)

وهي المدينة المثلثة الملقبة بمحق عروس الشمال وعاصمة لبنان الثانية .
ولكن ليت العاصمة الاولى كانت في مثل نظامها وتناسق ابنتها وسعة
واستقامة جل شوارعها وساحاتها ومقاهيها ومطاعمها الخلوية .

وفيها لقيت صدفةً فكتور النجل الثاني لصديقي نسيب فيلبيدس
الذي وُلد بعد مغادرتي السودان ، وقد اصبح قاضياً وزوجاً ووالداً
وإلى كونها ثغراً بحرياً ذا شأن فقد اشتهرت بما تنتجه بساتينها من
الحمضيات الفاخرة وما تعقده وتستقطره من ازهارها العطرية .

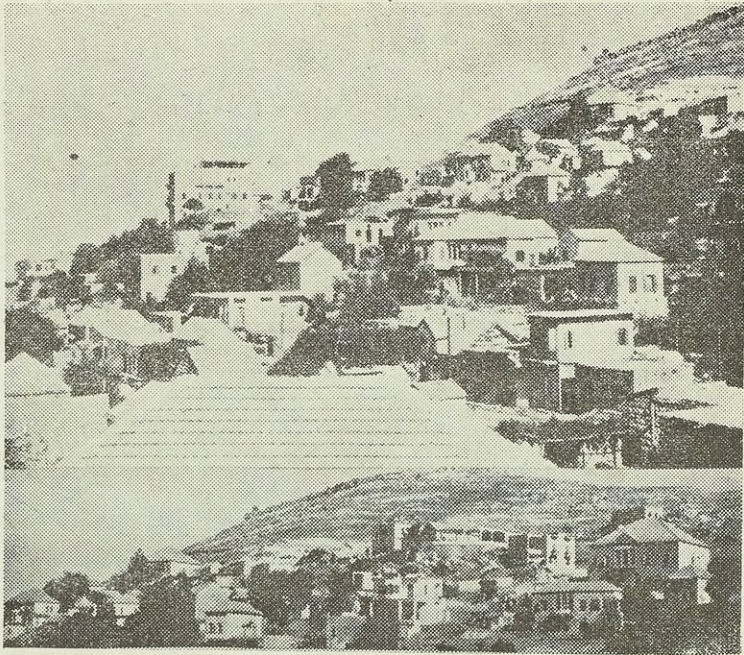
وقد أفلتني اليها على سيارته الخاصة المحامي القدير الملسان فوزي
ندر البردويل الذي كان لي حظ التعرف اليه في سان باولو وأبي إلا
أن يكون غداؤنا في متنزه المردشية القتان في زغرتا .



(مشهد من مدينة زغرتا)

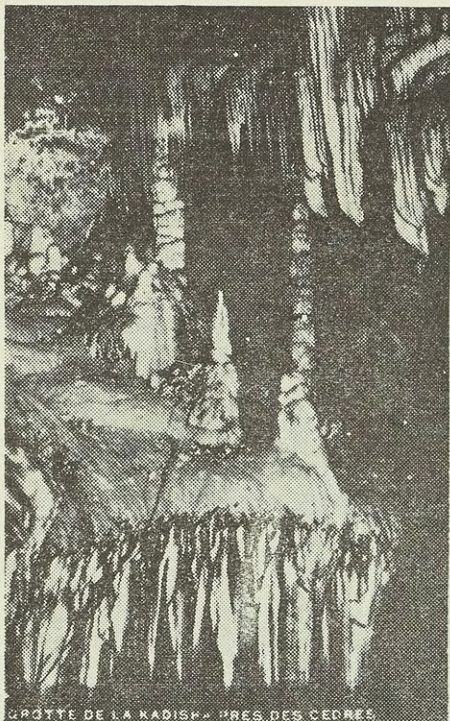
زغرتا — اجل ما فيها متنزه المردشية الذي تظله الاشجار الغضة
وينساب امامه نهر شديد التدفق والاندفاع .

القببات — هي المدينة التي يمكن القول فيها إنها مسدسة إذ هي
مؤلفة من احياء متباعدة قائمة على ست تلال ، ولذلك كانت من
غرائب البلدان ، وفيها كان مضيقي الكريم ميشال نجل صديقي الجميم
في البرازيل المرحوم رشيد الضاهر .



(رسمان مضمومان من اهدن)

هي التي أجاد في وصفها شبلي الملائط شاعر الأرز بقوله :
 أليست إهدن تحريف عدن معلقة بأوكار النسر ؟
 وهي أفضل مصايف الشمال من حيث علوها وتدرج ابنيتها بحيث
 يطل منها المشاهد على وادٍ جميل ذي زرع ترقد في احضانه القرى
 الوادعة ، وما يقابلها من الجبال المزدانة بالزروع وبمعقد نضيد من البلدان
 والقرى المتجاورة . وأجمل ما فيها متنزه نبع مار سر كيس الذي
 اصرّ كاتب العدل الاديب سميح زعتر على أن يدعوني اليه مع مضيقي
 الكريم إبراهيم الحلو ، عملاً منه بوصية كان قد تلقاها اتفاقاً في اليوم
 السابق لتعارفنا ، من صديقي اخيه يوسف في سان باولو . كما كان له
 الفضل بإتخافي بالرسمين اللذين ضمتهما وتوجت بهما هذه الصفحة .



Grotte de la Kadish - Pres des Cedres

(مغارة قاديشا)

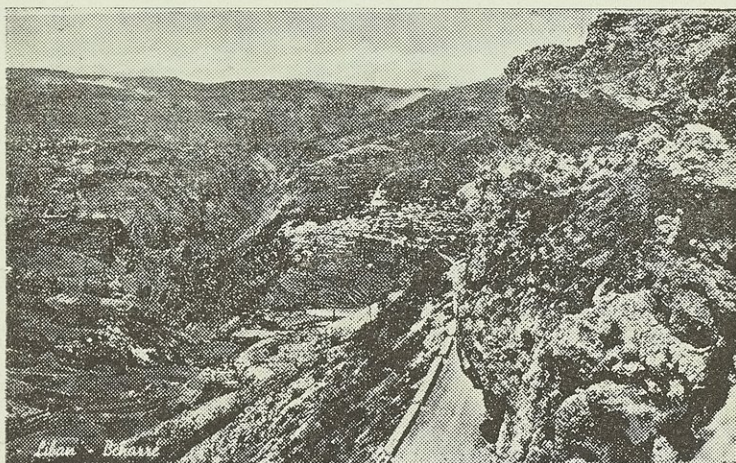
هي أعجوبة المغاور
ومتحف الطبيعة الذي لا
يُجارى . ولكنَّ الطريق
إليها على طوله لا يمكن
قطعه الا على الاقدام
نظراً الى ضيقه ووعورته
ولقيامه على شفا هوى عميقة
بحيث يولّد قطعه في نفوس
المارة خشيةً ولا يخلو من
خطر . ولما كانت البلدية
تتقاضى من الزائرين رسم
دخول فما اولاهما بتوسيع
ذلك الطريق وتمهيد له لكي
يسهل قطعه دون خشية او
خطر ، هذا اذا استحال
عليها توسيعه وتعميده لكي
يصبح صالحاً لمرور السيارات ذهاباً وإياباً .

متحف جبران - من حسن الطالع أن كان رفيقيّ من إهدن الى
هذا المتحف الاستاذ سليم عبدالله يازجي صاحب مدرسة ثانوية في دمشق
وكرميته الثقيفة ، وقد اجمعنا على الاعجاب بريشة جبران رسّاماً اكثر
منا بقلمه كاتباً ، لان الرسوم الزيتية والمائية التي شاهدناها لا تُحصى
بالعشرات بل بالمئات ، وكلها بالغة حد الدلالة والاتقان والتعبير ،
حتى إن المشاهد ليعجب كيف اتسع وقته لذلك الانتاج الضخم العجيب ،
الى جنب ما أنتجه من روائع المنثور والمنظوم بأسلوبه الفريد .



(مشهد شتوي رائع من الارز)

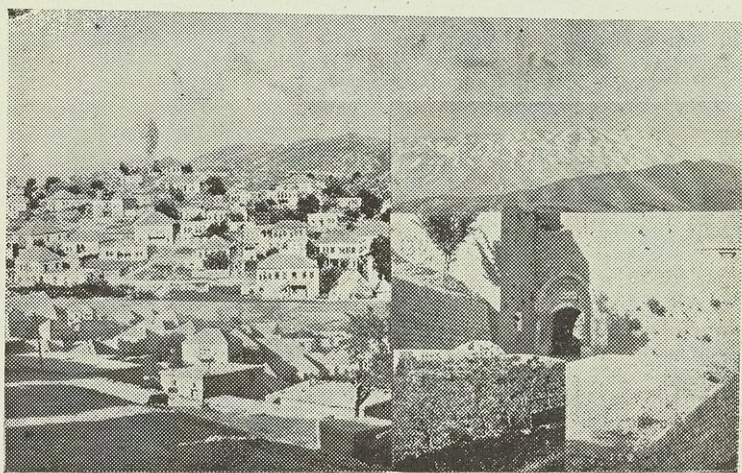
بشري - هي المدينة التي خلّدها جبران وأحسن إليها بعد مماته
 اضعاف إحسانه إليها في حياته . وهي دون إهدن ارتقاءً وتطلُّ على
 وادي قاديشا العميق الرهيب .



(مشهد من مدينة بشري)

جديدة مرج عيون - مدينة جميلة متدرّجة المباني تتوّج قمةً عالية
وذاتٍ مطلٍّ أخّاذٍ ، وفيها قمت بواجب زيارة الوالدة الفاضلة التي
انجبت رجل الغيرة والوطنية والاخلاق صديقي سامي جبار
إيل السقي - على مقربة من الجديدة ودونها ارتفاعاً ، وجلّ
ابنتها لا بأس به ولكن طرقها ضيقة وعرة

ومما اذكره من حوادث رحلتي الأولى اليها أن صاحب الحافلة التي
ركبتها شاء ان يخالف النظام فقبل سبعة ركاب علاوةً عن العدد
المسموح به وراح يوصي السائق بتحاشي الطريق العمومية لكي يغفل
شرطي السير ، وقد نجح الى حدٍّ ما بتجاوزه نقطة المراقبة . على ان
الشرطي رأى لأمر ان ينتقل الى نقطة ابعد على الطريق وهكذا ظفر به
وغرّمه جزاء مخالفته ثلاثين ليرة في حين ان ما استوفاه من الاشخاص
الاضافيين الذين قبلهم لا يجاوز العشرة الا قليلاً ، وهكذا بدلاً من
أن يربح عشر ليرات خسر عشرين . فعندما لمته على فعلته إزاء تلك
النتيجة المؤسفة استشاط وراح يلوم البلاد إذ لا نظام فيها !



(مجموعة رسوم من راشيا وقلعتها التاريخية وحرمون البادي كضهر فخر مخطط بالتلج)

راشيا الوادي - تربطني بهذه المدينة التاريخية صلّتا نسب وصداقة :
 الاولى اقتران نابغتها وابنها البارّ فارس غنطوس بـابنة نخالي
 ألكسندرا يني ، وكلاهما توفيا في سن مبكرة مخلّفين ثلاثة انجال هم
 ديانا وميشال والكسي ، والثانية كثرة أصدقائي من ابنائها المهاجرين
 المجلّين في البرازيل . وللتدليل على قدرتي لحيويتهم وحسن جهادهم
 أثبت فيما يلي الأبيات التي هُناهم بها في ٢ تشرين الثاني سنة ١٩٤٩ في
 حفلة تدشين البناء الفخم الذي اقتنوه ليكون نادياً اجتماعياً خاصاً بهم
 يضم شتاتهم وهي :

ابناء راشيا غدوتم إخوة مجلولكم بيتاً يضم ويجمع
 بيت الجميع غدا وما له والك يُغري ، ولكن ليس فيه مطمع
 ساواكم رغم اختلاف مراتب في حين فرقكم فضاءً أوسع
 فكأنكم منه براشيا وقد عُدتم اليها فاحملوا وتمعوا
 وتقمصوا عهد الشباب وكذبوا من قال إنه فائت لا يرجع
 إن الحياة متى تطول مراحل جمعت ببرد الشيخ منها أربع
 فيعيش بالتذكار طفلاً إن يشا سر الحياة خداع نفس تقنع
 وليهنيكم هذا التضامن إنه من كل ما يصف المداوي انجع
 ولأسباب لا موجب لذكرها تعذر عليّ بلوغها والحصول على
 رسم شامل منها فأعاني على الفوز بالبعيتين النسيب العزيز الطيب ولیم
 شحفي وكانت رفيقتينا سلمى غنطوس شقيقة المرحوم فارس وزوج
 ابن الخال باترو يني ، ومينرفا عطا الله شحفي كريمة ابنة الخال ماري
 يني عطا الله وقرينة النسيب ولیم ، وكانت رحلة جميلة موفقة عدت منها
 موقناً أن راشيا معمل أسود مغامرين .

وللحصول على معلومات وافية بشأنها هداني العزيز ميشال غنطوس
 الى عارف ذي حمية ومروءة هو الاستاذ شفيق ابو عسلي فكان مسرعاً
 الى تلبية سؤالي بما أورد ملخصه في ما يلي :

« إن العزيز ميشال الذي كان واسطة التعارف بيننا هو ابن ذلك اللبناني الذي رقد في تربة بيروت بعد ان اكمل شوطه العظيم في خدمة بلده راشيا ولبنان ، ومن حقه على القادرين من ابناء راشيا المغتربين أن يقيموا له نصباً في ساحة راشيا يخلد ذكره ويسجل لهم أنهم لا ينسون عظمتهم .

اما نسيبي السيد جورج موسى ابو عسلي الذي ذكرتموه لي في رسالتكم فهو احد كبار الأثرياء في البرازيل وعليه ان يساهم باكثر نصيب في المشروع المتقدم الذكر ، لاسيما والمرحوم فارس غنطوس هو ايضاً احد ابناء ابي عسلي الذين أقدر عددهم بألف في البرازيل وحدها .

اما راشيا فاليكم بعض ما أعرفه عنها :
إنها بلدة قديمة ، يدلُّ على ذلك اسمها الآراميُّ (السرياني) وقد مرَّت بها ادوار عديدة . وهي اليوم مركز قاتماتمية وفيها محكمة (حاكم منفرد) ، ودائرة مالية ، ومركز بريد وبرق ، وفصيلة درك ، ومستوصف صحي ، وفيها ايضاً مجلس بلديٌّ مؤلف من تسعة اعضاء .
أما عدد سكانها المقيمين فيبلغ ثلاثة آلاف بينما يبلغ عدد المنتشرين منها في شتى المهاجر بضعة عشر ألفاً

ويسوئي القول إنها مهملة من الحكومة ، يقتصر نصيبها منها على الوجود وما يزال سكانها يشربون من مياه الامطار التي يجمعونها في آبار قد تكون نظيفة وقد لا تكون ، ولولا مناخها الممتاز لعلوها عن سطح البحر نحو الف وثلاثمئة متر ، ولولا جوُّها الصافي وهواؤها المنعش ، لكانت مياهها الملوثة تسبب للأهلين شتى الامراض والعلل . وضالة النور الكهربائي فيهما تجعل السكان يذكرون بالخير عهد سراج الزيت الحلو وضوء خشب اللقش .

قلعتها المشهورة قديمة جداً وكانت مقرّاً لبعض الأمراء الشهابيين

منذ عهد الامير بشير الاول . ثم تحولت مع الايام الى مساكن ثم الى حصن تمر كز فيه الجيش الفرنسي في ثورة ١٩٢٥ وبقيت مقرّاً للجيش الى أن كانت الحرب الكونية الاخيرة إذ تحولت الى معتقل للأجانب ثم الى معتقل للرئيس السابق وصحبه ، وبينهم فخامة الرئيس الحالي ، في ١١ تشرين الثاني عام ١٩٤٣ . ومنذ ثلاث سنوات جرى إصلاح بعض اقسامها وجعلت مركزاً لدوائر الحكومة . اما باقيا فيدُ الخراب تعمل فيه وكان من حقها أن تعود ثكنة كما كانت على عهد الفرنسيين اما مورد الارتاق فيها فضعيف جداً لا يذكر والصناعة فيها معدومة وكذلك التجارة ، لذلك كان معتمدا الوحيد ما يبعث به المغتربون لأقاربهم ، وهذا هو السبب الاكبر لتهافت ابناءها على الهجرة ، ومن لا تعينه الحال على المهاجرة الى اميركا ينزح الى المدن كبيروت ودمشق وزحلة وغيرها سعياً وراء الرزق »

هذا ما اجتزأته من رسالة الاستاذ شفيق أختتمه بالشكر وبتوجيه نظر المعنيين والمسؤولين اليه .

كفر مشكي - بلدة صغيرة قائمة على رأس رابية ، مرت بها في طريقي من راشيا الى متنزه نهر الحاصباني ، وينم جمال ابنتها وحسن نظامها بعناية ابناءها المغتربين الميامين بها ، مما يقضي لهم بالحمد وحسن الاحدوة . اما شعبة المشهورة بجمال موقعها وغزاره مياها وعذوبتها ولذة فاكهتها وبطولة مغتربها فأسف انني لم أتمكن من زيارتها .

حاصبيا - مدينة جميلة ذات ابنة جله متناسق وكلها متدرّجة لقيامها على جبلين متقابلين . ولما كانت مدينة الاجداد كان لا بد من إثبات رسم لها ، وقد قضت بتأخيرها شتى العوامل القاهرة .

اشتهرت بسوق الحان ومتنزه نهر الحاصباني .

ميمس والكفير - قريتان متجاورتان والطريق اليهما على شيء من الضيق والوعورة ، على انها حسنتا الموقع وأبنتهما لا بأس بها .

الصحة في لبنان - كان صديقي الطبيب حبيب كحيل الذي جمعني به الاقدار في ثغر بورت سودان الجهنيّ عرضةً للزكام ، فاذا ما أصيب به صيفاً شكاً إليّ قائلاً : « الزكام في الشتاء يرافقه الرجاء بالابلال في الصيف ، ولكن ما حيلة من يُبتلى به في هذا الفصل » ؟
ومن آيات الطبيب جورج قدّوم الذي عرفته وسياقي ذكره : « إن الطبيعة قد اعطت الانسان كل الصحة فاذا مرض كان ذنبه على رأسه ، وكان المرض من دواعي خجله !

وقد يكون لمن يمرض ، أياً كان ، عذرٌ مشروع ، ولكن ما عذر من يمرض في لبنان حيث استعدتُ أنا الشيخَ شباي ؟
مع ذلك وجدت في بيروت بنوع خاصّ عداً من تضمهم المستشفيات ، مرضى وسقماء عديدين يسعون وفي جسومهم الناحلة ووجوههم الشاحبة وعيونهم الغائرة أسوأ الشهادات الناطقة بسوء مناخ لبنان ، وهو البلد الصحيّ الذي لا يُضاهى ، لذلك كانوا بمظهرهم المؤسف اعداء أنفسهم وسواهم ووطنهم الصحيّ الجميل .
وما سمعت في رواحي وغدوّي وفي ايّ اجتماع حضرته سوى ذكر الطبيب والدواء والابر على اختلافها .

ومردّ هذه الظاهرة المستهجنة الى سوء التغذية في بعض الحالات وفي البعض الآخر الى التعرّض والاهمال والافراط .

وهذه ظاهرةٌ لحظتها ونبّهت عليها في تشيلي التي تشبه لبنان من وجوه عديدة ، فمواطنونا فيها ، كما في لبنان ، يُفسدون ، انكلاً منهم على جودة المناخ في إصلاح ما يفسدون . لذلك يغلب أن يكون الناس في الاماكن الرديئة المناخ أصحّ اجساماً لانهم فيها يتّقون ويتّبعون القواعد الصحية .

الجمال في لبنان - في لبنان جمال من نوع فاتنٍ جذاب ولكن ، وقد طغت عليه كما طغت على سواه موجة المدنية العصرية التي تبيح

للمرأة المعاقرة والمقامرة والتدخين وكل ما لا تتحمله بنيتها الضعيفة بالنسبة الى الرجل ، فقد لحظت أنّ الجمال في وجوه عديدة مصطنع ، على الأخص في العاصمة حيث الانغماس في كل ما تقدّم يكاد يكون شاملاً ، بينما هو في البلدان والقرى الجبلية على قلة ، وفي بعضها على ندرة

مناسبات ومصادفات

الأولى - في عاليه وبيت الدين وشتورا وبعلمبك : نظراً الى ما يشعر به لبنان من الامتنان للبرازيل لانها أحلّت على الرحب والسعة عشرات الالوف من بنيه فكانت لهم البلد المضيف لا بل الوطن الثاني الذي بفضل طيب عنصر أهله وسماحة شرائعه اتسعت امامهم فيه سبل العمل والكسب والعيش الهنيء كان طبيعياً أن يغتم حكومة وشعباً كلّ سائحة تعرض لآظهار امتنانه لها وعرفانه بلجيلا ، فكلُّ برازيليّ أياً كان شأنه ، مرحّبٌ به في لبنان كواحد من ابنائه ، فكيف والقادمون ستة من نواب سان باولو ، وهي الولاية الجبارة التي تضم اكبر عدد من المغتربين اللبنانيين ، وفيها أصاب جلّهم نجاحاً منقطع النظير . ولما كان قد سبق للنائب الجريء اللبق جان خليل سكاف أن أمّ البرازيل فأحبها وأطال إقامته فيها فألمّ بلغتها ، كان خير من يُعتمد عليه في استقبال أولئك الزملاء الكرام ومرافقتهم وإعداد مساق يضمن تمتعهم وإكرامهم على الوجه الأليق والأتمّ ، ولكن في الساعة الأخيرة عرض لفريق من أولئك النواب ما استوجب تخلفهم في إيطاليا فلم يصل منهم سوى نائبين يصحبهما صحافيّ . وبصفة كوني من أعضاء النقابة الصحافية في سان باولو ونسيباً لعطية الحوري اللبناني الأصل ، وأحد النائبين ، رأى الصديق الكريم جان تلطفاً منه ان يضمني الى الوفد في مناسبتين : الأولى ، حفلة الاستقبال الشائقة التي

أقامها له في دارته الأنيقة في عاليه الرجيه نقولا بستوس ، والثانية ،
الرحلة الى بيت الدين ومنها الى شتورا حيث أدب له ، ثم الى بعلبك
لمشاهدة قلعتها التاريخية حيث كان سروره عظيماً لان الدليل كان
شاباً لبنانياً يجيد الاسبانية ويحسن التعبير والشرح والتدليل بحيث
لم يفت الزائرين الكرام من اوصاف ذلك الهيكل الأثري العظيم
شاردة ولا واردة .

الثانية - في إبل السقي : كانت مهمتي فيها تمثيل صديقي الكريم
جورج يوسف ابي سمرة فأفتتح عنه حفلة تدشين المدرسة الرجبة الانيقة
التي شادها وقرينته الفاضلة منيرة غطاس ابو سمرة وأقدمها باسمها الى
وزارة التربية . لذلك كنت حالاً في دار الأسرة ضيفاً على أخيه
الأكبر كامل ، محاطاً بمثل ما كان لیساق اليه لو كان مكاني من الحفاوة
والاكرام . على أني بعد ان اطلعت على تفاصيل العمل والمساعي
الجبارة التي بذلها الأخ كامل لاتمام البناء في غضون عام واحد ، ورأيت
اجدر مني بتلك المهمة وأحق من كل وجه ، خطأت الأخ جورج
وعهدت بتلك المهمة المشرفة الى اخيه الأكبر ، معتذراً عن الكلام
إفساحاً للمجال وتخفيفاً عن السامعين . على ان الأخ كامل ابي إعفائي
وأصر على أن اكون بين المتكلمين فخطر لي في الساعة الأخيرة مغزى
طريف ينطبق على الواقع ويحيي المديح المائع المؤلف الذي أبحه
ولا يستسيغه سوى السخفاء وهو ان أقيم وجه شبه بين ممدوحني ومعن
بن زائدة الذي اشتهر بالوجود اشتهاره بالحلم الذي قيل فيه إنه سيد
الأخلاق ، ولكنني استبدلت من القذع والشتيمة اللذين امتحنه بهما
ذلك الشاعر لوم صديقي والعتب عليه لانصرافه الى المادة بعد ان جلى
في العلم والادب فكان منطق المفحم في إجابتي تبرعته السخية لمشاريع
عديدة في البرازيل والوطن .

وأعترف بأنه قد ازدهتني على أثر إلقائي ذلك الخطاب كلمة ثناء

حارّة مخلصه جادت بها عليّ سيدة نبيلة لم تسبق لي بها معرفة او يقدرّ مني اليها احد ، كما اكبرت فيها حدة الذهن ودقة الفهم بدليل استشفافها مغزاي الحقي . ولكنني ما كدت اعلم بالاستقراء أنها من مواليد المهجر المكسيكي حتى شككت في إخلاصها ، ولم يُعيد إليّ ثقتي واطمئناني سوى التفسير التالي الذي ادلى به إليّ بعد زمن قرينها الامير عبد العزيز شهاب الذي كان لا يزال إذ ذاك محافظ الجنوب ، وهو حقيقة طريفة تكاد تكون رواية من نسج الخيال : ذلك أنها وُلدت فعلاً في المكسيك من أبوين لبنانيين من بكاسين ودُعيت هنريكتّا ، ولكن اتفق لأخت كبرى لها أن اعتزمت الترهّب واستحال على والديها تحويلها عن عزمها فاكتفيا باشتراط ترهّبها في لبنان الى حيث كانا ينويان العودة بعد زمن قصير فرضيت بشرطهما . وكانت هي بعد طفلةً في دون الثانية غير انها كانت ضعيفة البنية فرأى والداها أن يغتصبا تلك السانحة فيرفقاها بأختها على ان تصحب الأختين خالةً لهما فتدخل الكبرى الى الدير وتعود بالصغرى بعد أن تكون قد قضت فصل الصيف في ربوع لبنان مستشفية . ولكن حدث ان نشبت الحرب الكبرى الاولى فانقطع الطريق وتعذّرت على الوالدين العودة الى لبنان ، وهكذا تسنى لها ان تتثقف ثقافةً عالية وتصبح لبنانيةً لا غشّ فيها وتقنن بالأمر وتصحبه بعد القران في رحلة الى المكسيك للتعرف الى ذويها !

وخلا ما تقدّم كانت الحفلة رائعة ومستوفية الشروط من كل وجه ، اختتمها وزير التربية بخير ما يُقال في المعتربين وقدر عطفهم على وطنهم الأصلي وامتنانه لهم ، واعدّ وعدّ حرّ بتقليد المهدي الكريم وساماً من الدرجة الاولى وقد انجز

الثالثة - في حاصبيا : كنت في هذه نزيل مضيف كريم هو ناصيف الرئيس احد مدوّني الوقائع في الندوة النيابية وسمي نسيبه

رجل لبنان الفذّ في عهد المتصرفية ، بفضل أسرة نسب تربطني به ،
اكتشفها سمي الاديب توفيق الرئيس من صناعي سان باولو وأدبائها
الموهوبين ، وبحقها حملني اليه بطاقة وصاة وتعريف .
ولم تتعدّ مدة إقامتي يومين بلغني في أولهما ، وكان يوم سبت ، أنّ
وزيرنا المفوض الأمير خالد شهاب عاد من عمان فتذكرت بأية حماسة
وبأيّ اندفاع كان صديقي لبيب قطيط يُحدثني عن نزاهته ونبيل صفاته
ومكارم اخلاقه ووددت لو تسنّى لي معرفته بصفته الخاصة لا العامة ،
ولكن نظراً الى قصر الوقت لم أشأّ إزعاجه فور وصوله ، على كثرة
المتزاحمين للتسليم عليه من أصحاب المقامات والصلات الجميمة القديمة .
وفي صباح الأحد بينما أنا أهمّ بموافاة مضيفي الى مقهى مجاور كان قد
سبقني اليه فوجئت بقدوم الأمير خالد نفسه للتسليم عليّ فأكبرت
تواضعه وتنازله لغير مبرّر من صلة صداقة او سابق معرفة ، مؤكداً
له أنّ السعي كان يجب ان يكون من جهتي ، ولكنه تلفّ فعزاً
إليّ من الصفات التي بلغته بالسماع ما برّر سعيه إليّ ، وتحدّثنا طويلاً
عن البرازيل ومغتربيننا فيها فأعرب لي عن رغبته الملحة في أن يكون
وزيرنا المفوض لدى حكومتها .

وفي المساء رددت له الزيارة المشرقة وودعته شاكراً ممتناً .
وقد زرته مُستوسطاً أكثر من مرة ، بعد توليه رئاسة الوزارة ،
فكان دون استثناء مثال التواضع والطف وكرم الأخلاق
وما اعجبني منه شيء كرده في الندوة على نائب ارتأى أن تعتزل
وزارته لانها وزارة موظفين ، إذ وقف وأكد لذلك النائب أن قد
سبق له مراراً ان كان وزيراً او رئيساً لوزارة من النواب والسياسيين
وخرج منها خالي الوفاض طاهر الذيل كما هو الآن .

رُسُلُ الشَّيْئَانِ

إذا نحن وضعنا في كفة ميزان أبناء هذا الرطن الصغير الذين جلسوا في المضمار الماديّ في مختلف الأصقاع النائية ، وفي الأخرى إخوانهم أصحاب المواهب والقيم الروحية ، كان أولئك بمثابة جسم النسر لأنهم يَحْصُونَ بمئات الألوف وهؤلاء بمثابة ريشه لان عددهم لا يجاوز العشرات . ولكن عندما نعلم الى الوزن المعنويّ القائم على اساس دوام الاثر وخلود الذكر تنعكس الآية تماماً فيصبح نصيب لبنان مما في الكفة الاولى نزرّاً ويبقى له ما في الثانية باكملة ملكاً ثابتاً يذكّر الأجيال المتعاقبة بالنسر اللبنانيّ الذي ارتاد الآفاق وحلّق في مختلف الأجواء وسيظلّ محوّمًا حتى انقضاء الدهور . ذلك أن الموت الذي يقضي بانتقال كل حطام يملكه الراحلون الى ايدي وارثيهم يقف عاجزاً عن غير المكسوب من ذوب الادمغة وعصير القلوب ، إذ أن غير المكسوب لا ينتقل ولا يؤخذ ولا يوهب .

وكما اتسع المجال في هاتيك الاصقاع للعزائم الحديدية والهمم القعساء فجلّت في كل مضمار ماديّ وظفر اصحابها بالثروات الطائلة فعاشوا في بسطة ورخاء وساهموا بما زاد عن حاجتهم في إنشاء المشاريع الانسانية الجبارة المحدثّة بصمتها عن عراقة اصلهم وطيب عنصرهم ونبيل مراميهم كذلك انطلقت الأفكار بما كان يكبلها في الوطن الأصليّ من قيود الأوهام والعادات والتقاليد وراحت تعبّ حتى الارتواء من كل منهل

وترتاد كل أفق وتجول في كل مضمار من مضامير المعرفة ، مستنيرةً
مستشفةً في بيئات لا تعرف للفكر قيوداً ولا لجولاته حدوداً ، فكل
منهل سائغ ولو كان أجاجاً وكل رأي محتوم ولو كان بدعةً ، ما دام
هناك محكٌ للنقد والتمحيص يميز بين الغث والسمين .

ولكن بينما حالت شتى العوامل دون انتقال نتاج الغزائم فظلَّ
جلُّه محتزناً حيث تمَّ جنيُّه ولم يتسرَّب منه الى الوطن الأصلي إلا
أقلُّه فقد انتقل نتاج الأفكار لا الى لبنان فحسب بل تعدَّاه الى كل
قطر عربيٍّ فانتهل منه البعض في خشية وحذر والبعض الآخر في
جراءة وإقدام ، ولكنه راح في الحالين يسير ويبدأ ملقحاً الأفكار
ومبدلاً ما في النفوس ومجرئاً على تقويض القديم العقيم الذي قدَّسه
العرف والتقليد حتى أصبحنا اليوم نرى ما نراه من حفول طائفة كبيرة
من العلماء ورجال الفكر بالأدب المهجريِّ وانبواء كثرة من عليه
القاد لدراسته وتمحيصه وجلاء غوامضه وإبراز محاسنه ، كما استهوى
آخرأ عدداً من الجامعيين وطلاب المعاهد العالية فاتخذوه موضوعاً
لأطروحات ينالون بفضلها مختلف الرتب العلمية .

وهذا ما يعود بالذاكرة الى نصف قرن خلا عندما كان هذا الأدب
مستهجنًا يनावبه العداء المتزمتون ويُقبل عليه الراغبون في التحرُّر
والانطلاق ، لا إعجاباً واستحساناً بل استعذاباً لأسلوبه الطريف
واستلذاذاً بطيب نكهته وحسن وقعه ، كما يُستحبُّ من الطفل تعثره
بالألفاظ في أوائل عهده بالنطق ويُغتفر له ما يرتكبه من اخطاء .

وأخص بالذكر من واضعي أسس هذا الأدب وحملة لوائه رسلاً
خمساً عادوا واستقرُّوا في لبنان بعد ان صفا جوهرهم وطهرت نفوسهم
وسمت مداركهم ودقَّ إحساسهم ورقَّت مشاعرهم فخلصوا بالصبر
والتنقية من شوائب المآرب والأطماع والأحقاد وزهدوا في المناصب
والرتب والألقاب واطَّرحوا كل مظهر يشوب الحقيقة او يستورها

وتعرّوا امام نور الحق الساطع وتجنّدوا للقيام بالمهمة التي اخفق في تأديتها على وجهها الصحيح دُعاة المبادئ المسيحية الذين أحلّوا العرّض محلّ الجوهر وقدّموا للمتهافتين القشور بدلاً من الباب فأخطأوا القصد وضلّوا السبيل .

أولئك هم الرسل الأمناء الحقيقيون الذين راحوا يبشرون إخوانهم في الانسانية بالمبادئ المسيحية الحقّة التي بدونها لا سلام ولا تحاب ولا تأخّي ولا تعاون ، متخذين لهم شعاراً الأدب — وهل كان المسيح سوى الاديب المثاليّ الواجب الاحتذاء ؟ — هذا الادب الذي لا يميز بين الاجناس والالوان والعقائد ، لذلك كان اللغة الشاملة التي يفهمها جميع الناس وفي استطاعة ايّ كان منهم أن يتلقّفها دون أن يسعى اليها في ايّ مكان او زمان .

إنهم جنودٌ مجهولون لا يميّزهم زيّ خارجيّ ولا سمة فارقة ، ولم يُكرهوا احداً قطّ على اتّباعهم او يقيدوه بواجب طاعتهم او يفرضوا عليه إرادتهم او يزعموا أن بين شفاهم الموت والحياة ، وفي استطاعتهم أن يُصعدوا الى السماء او يُنزلوا الى الجحيم .

هكذا يبدو لعينيّ هؤلاء الرسل الخمسة الذين أخذت على نفسي عهداً بأن أغتمّ عودتي الى لبنان لأحجّ مقاماتهم فيه مغبطاً إياهم لأنهم صمدوا في معارقلهم كالرواسي ، لا يُصفون إلا الى نداء الحق والواجب فلا يغريهم وعد ولا يُرهبهم وعيد ولم يلتصقوا يوماً الى حزب او يشتركوا في نزاع على التوافه ولم يغشوا الصحافة مكتسبين فظلوا في معزل عن مزيّاتها والتلوّث بأدرانها ، ولم ينغمسوا في ايّ من المعارك السياسية الحزبية فاحتفظوا بكرامتهم وتساميهم وظلّ معين ادبهم يجري رقراقاً صافياً غير مَشوب .

وقد ارتاد جميعهم الآفاق البعيدة وحلّقوا في الأجواء السامقة فشعّوا في مختلف الأصقاع وكانوا المشاعل الساطعة التي انارت وهدت

والينابيع الصافية التي انتهت منها شعوب عديدة ذات حول وطول
وثقافات عالية ومدنيات عريقة فكبر بهم وطنهم الصغير لبنان وتمجد.
لقد بثوا في الغرب روحانية الشرق فاسترعت نغماتهم العذبة الاسماع
واستساغتها النفوس فأقبل عليها الغريبيون الذين لم تشبع المادة منهم
لرؤيتهم في تلك الروحانية المثالية راحةً لضمائرهم وبعثاً لوجدانهم الصحيح
وهكذا اغتنمتُ رحلةً خاطفة الى زحلة جعلتها وقفاً على زيارة
تمثال فوزي عيسى المعلوف القائم في اجمل بقعة من واديها، وضريح خاله
ميشال نعمان المعلوف مؤسس العصبة الاندلسية ورئيسها الاول، وقد
تلطف فكان رفيقي فيها الشاعر والنسيب جوزيف سعيد جحا .

وقد اوحى إليّ وقفتي أمام التمثال البيتين التاليين :
حلقت حتى جُزت أجوازَ الفضاء ورجعت كما تستريح من العناء
وحللت في الوادي فلما زرته ألفتُهُ بالطهر قد أضحى سماء
أما الضريح فعلى العكس من التمثال إذ هو قائم في أعلى نقطة من
زحلة وقد اوحى إليّ وقفتي حياله بيتين ايضاً هما :

أودعت فيه وأمشي فوق تربته فأيتنا يا ترى المغبون والفاني
أصبحت كنزاً ثميناً في خزانته وقد يضم رفاقي غير لبنان
ثم اغتنمتُ رحلةً الى الشمال فزرت متحف جبران خليل جبران
وضريحه وأمت الفريكه فزرت متحف امين الريحاني الكائن في منزل
أخيه البير الذي أفرد منه غرفتين وقفهما على ما خلفه شقيقه الراحل
من آثار وما تلقاه في رحلته الى البلدان العربية من هدايا ملوكها
وأمرائها . ولو أعطي للريحاني أن يُنجب لما خلف ابناً ابناً من
أخيه وأحرص على مخلقاته وآثاره وأدب على نشرها وتعميم نفعها .
والذي لحظته وأريد أن أعلّله بأسلوبي التصويري الخاص الطليق هو
أن البير ريحاني مصاب بالوحام الأدبي، ومثله بالعدوى والاقتناع زوجه
لورين شقير العالية الثقافة والتهذيب ، إذ هما لم يكتفيا بإحياء ذكر الامين

على الشكل المتقدم ، فأطلقا اسمه على بكرهما البالغ اليوم العاشرة او دونها ، ولكنه بفضل الروحام الأدبيّ المتقدم الذكر جاء من النجاة والتوصن وعمق التفكير وطلاقة اللسان وحسن التعبير حدّا ييشر بأنهما سيمهران لبنان والبلدان العربية قاطبةً بأمين جديد يُعلي ويتمّ البناء الذي بدأه عمه وسميه القديم .



(مشاهد مضمومة من مقرّ الامين المشرف على وادي الفريكة الجميل)
وأخيراً تسنت لي زورة لميخائيل نعيمة ، لا في شخروبه بل في منزله في بسكنتنا حيث كان يتوقع زورة من بعض اصدقائه والمعجبين به . واستغرق اجتماعنا ساعةً كاملة تبادلنا فيها الاحاديث عن الادب في البرازيل ، وبنوع خاصّ العصبة الاندلسية وأعضائها الذين يقدرهم ناسك الشخروب ولا يجهل قدر احد منهم . وعلى هذا الشكل تمت زيارتي للرسل الخمسة وجميعهم في نظري أحياء .

لقد اقتضت على ذكر هؤلاء الخمسة من رسل لبنان لمناسبة زيارتي
مقاماتهم ، ولكن لما كانت شرعة الادب لا تميز بين الاجناس والالوان
والعقائد كما قدّمت لا يسعني إلا أن اذكر الى جانب هؤلاء اللبنانيين
الخمسة إخوانهم وأخذانهم السوريين نسجاً مني على منوال الرابطة القلمية
في نيويورك فقد كانت تضم بين اعضائها عبد المسيح حداد الذي كانت
ولا تزال جريدته « السائح » لسارت حالها ، وشقيقه الطيب الذكر
والاثر ندره ، ومثله نسيب عريضة ، وجميعهم حميصون سوريون .
ونسجت على غرارها العصبة الاندلسية في سان باولو فضمت في من
ضمت المحصين السوريين ايضاً : داود شكور وحسني غراب ونصر سمعان
والدمشقي جورج ليان .

وخلا الرسل اللبنانيين الخمسة الذين ذكرتهم لمع في الولايات المتحدة
الشمالية ايليا ابو ماضي ورشيد ايوب ووليم كاتسفليس ، وفي البرازيل
شقيق عيسى المعلوف ، رئيس العصبة الاندلسية الحالي ، ورشيد سليم
الحوري (الشاعر القروي) وشقيقه قيصر (الشاعر المدني) واسكندر
كرباج ويوسف اسعد غانم والياس فرحات وشكر الله الجرّ وجبران
سعادة وتوفيق داود قربان المعداد من كبار الدارسين والمحققين ،
والطيبو الذكر والاثر جورج الحوري كرم وأئيس يواكيم الراسي
وجورج كفوري وعقل الجرّ .

وبفضل الاغتراب تألق نجم الخطيب العالمي حبيب اسطفان الذي
اشتهر في جميع المهاجر الاميركية وكسب لوطنه لبنان مجداً لا يقوّم
بمال ، كما انعكس فضل نبوغه على مواطنيه في كل مكان تجلّت فيه
مواهبه الخطابية النادرة واستأهل من اجلها عشرات الاوسمة الرفيعة كما
خفر له اكليل الغار كبار العلماء ورجال السياسة والفكر في جميع
جمهوريات اميركا الجنوبية ، دون استثناء كثيرة من رؤسائها . ولكنه
لسوء الحظ شغله المنبر عن القلم فلم يخلف من الآثار القلمية ما يوحي

ولو ظلاً من عظمته كخطيب ملسان استوعى الاسماع وخب الألباب
وأطلق الخناجر بهتاف الاعجاب والاستحسان

وكان آخر من عرفته الطيب والعالم الروحاني جورج الياس
قدوم المجهول كل الجهل في وطنه لبنان فقد ولد ونشأ وتلقى دروسه
الابتدائية في قرية كفر من أعمال قضاء جبيل ، والعالية في مدرسة
الفرير وكلية الآباء اليسوعيين في بيروت وأتمها في ليون حيث نال
شهادته الطبية ، كما أقبل فيها على درس العلوم الروحانية ثم أمّ جمهورية
إكوادور حيث تسنى له ان يجترح في إحدى قراها أعجوبته الكبرى
التي اذاعت صيته وأدّت الى إرغامه على ممارسة مهنته في تلك الجمهورية .
ذلك أنه عالج سيده أُصيب على أثر الوضع بشلل عامّ اقعدها طيلة
خمسة وعشرين عاماً دون ان يلجأ الى ايّ من الوسائل التي تمتّ الى
طب الاجساد بصلة وأنهضها من فراشها وسارت برفقته تتخطى في احد
شوارع القرية سليمةً سوية . فلما ابصرها الشعب طفق يمجّد الله في
شخصه وركع امامه كاهن القرية وقبّل يده

وما اطّلع رئيس الجمهورية على ذلك الحادث الحارق حتى استقدمه
اليه وسأله أن يعالجه من مرض اعجز أطباءه . وبعد أن شفاه حظّر
عليه الاشتغال بالتجارة وأكرهه على تعلم لغة البلاد وتقديم فحص لكي
يؤدّن له بتعاطي مهنته ، مهدّداً إياه بالطرد من البلاد اذا هو أبى
الاذعان . وكانت حجة الرئيس أن في بلاده فوق كفايتها من التجار
بينما هي لا تملك سوى طبيب واحد من نوعه .

وبعد أن أُجيز عكف على التطبيب بأساليبه الايحائية ووسائله
البسيطة وراح يتعمق في دروسه منشئاً في العلوم الروحانية فصولاً
شائعة ضمنها مجلات ثلاث كان يصدرها ومؤلفاً فيها حتى ناهز عدد
مؤلفاته القيمة الخمسين ، طبع منها حتى اليوم حوالي نصفها وهو الآن
في سبيل إصدار ستة منها في المكسيك . وقد نال بفضل مؤلفاته

ومبثات المحاضرات التي القاها في مختلف الجمهوريات الاميركية من
 الثناء والاعجاب والتقدير ما لا يقع تحت حصر ولا يحيط به وصف .
 وفي رأس ١٠ يفكر فيه ويعمل على إدنائه من الافهام حقيقة ما
 رمى اليه الكتاب بقوله : « إن الله خلق الانسان على صورته ومثاله » ،
 محاولاً أن ينتزع من الازدهان الصورة الظاهرة التي لا تمت في شيء
 الى الواقع بدليل التفاوت في التركيب والهيئات والالوان ، وإفهام
 الناس أن الكتاب عنى الروح التي هي جزء من القوة الشاملة وأن
 الانسان إله متجسد وما ضلله عن حقيقته إلا نتيجة اهتمامه بالصورة
 الظاهرة دون الروح الحفية ، بما يدينه من الحيوانية ويُبعده عن
 الألوهية ، في حين أن في استطاعته ، مع اعتناؤه بالجسد كوعاء للروح
 ليحتفظ به سليماً طاهراً ، أن يبقى فيه على شعلة الألوهية ويبلغه
 الكمال المنشود . فهل بعد هذا من مطلب اسمي ومسعى اولى بالاعظام
 والاجلال ؟

ولكن كل مؤلفاته ومحاضراته باللغة الاسبانية ، ومن الغبن القادح
 أن يظل مجهولاً في وطنه الأصلي وهو الانساني الذي شملت محبته
 الاوطان بأسرها وساوت في نظره بين الشعوب على اختلافها . فلا
 يصح وهذه نزعة ان يكون للغرب دون الشرق ويبخل على وطنه
 لبنان وسواه من البلدان العربية ولو بنصيب من ظله وزهره وثمره
 لذلك أودت أن يتيسر لي حظ نشر كتابه ذي الأسلوب الجبراني الذي
 ترجمته الى العربية وعنوانه : « كتاب بلا عنوان لمؤلف بلا اسم » .

وفي جملة من زرتهم من نسور لبنان الذين لمعوا خارجه دون
 أن يغادروه : العلامة الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف ، والرياضي
 النابغة الأستاذ منصور جرداق ، الاول في مجملون والثاني في ظهور
 الشوير ، وقد تلتف بمرافقتي الى منزله صديقي المغترب المعروف فارس نمر

نور الكنبه

زرت من المطارين السادة بولس الحوري في جديدة مرجعيون
وثيودوسيوس ابو رجيلي في طرابلس والكسندروس جحا في حمص .
ومع أني صارحت كلاً منهم بأن زيارتي للشخص لا للثوب فقد لقيت
منهم جميعاً كل تُلطف وإيناس . وكان رفاقي بالتتابع الاخوان كامل
ابو سمره فإبراهيم الحلو فعيسى انطون بندقي
وقد اعجبني من الاول تجاوبه معي في بيت من الشعر كان قد
سبق له أن نظمه ونشره وهو :

كم نفوسٍ توتُ في طلبِ المالِ لتحيا بموتها الأجسامُ
كما تُلطف فيما بعد فنشر في مجلته « الارثوذكسية » التي يُصدرها عن
دار المطرانية الحطاب الذي القيته في إبل السقي برومته
ومن الاخير تغنيته بذكر الجوالي المحمية في البرازيل والارجنتين
وتشيلي لتبرؤها السخي للكلية الارثوذكسية في حمص
ولقيت اتفاقاً المطران ايليا صليبي في فندق نورماذي مسلماً على
صديقي الشاعر جورج صيدح ، وكانت العظة البليغة التي سمعته يلقيها
في سمع مزوره ومزوري الكريم استنكاره للحملة الشعواء التي كانت
إذ ذاك مشنونة على الرئيس السابق ، وسأعرب عن رأيي في هذا الموضوع
وكان صديقي يوسف جورج عطيه قد أجرى التعارف بيني وبين
خاله الاديب توفيق مسرة شقيق صديقي المرحومين جورج والياس في
سان باولو ، وتكرّم وشقيقته ملكة فدعواني للغداء يوم سبت وإذا
بي احضر حفلة مرتجلة بالنسبة اليّ إذ لا ناقة لي فيها ولا جمل لانها
تشير الى بناء كنيسة في الحازمية . وقد ضمت زهاء اربعين شخصاً
برئاسة المطران ايليا كرم فلم اشدّ مع سيادته عن القاعدة التي اتبعتها
مع سابقيه ، وكان مثاهم كريماً متساهلاً

سُورِيا وَمِصرُ وَلِبنانُ

هما من مجموع البلدان التي تؤلف الجامعة العربية الأقربُ الى لبنان جواراً والادنى ثقافةً والاكثر احتسكاً وتقاهماً ، أخلاقياً وسياسياً واجتماعياً ، والاوفر تقارباً في الذوق الفني والتقاليد والعادات

هذا على وجه التعميم ، فاذا انتقلنا الى التخصيص ازدادت كل هذه الصلات توثقاً لانني عشت في سوريا حتى العشرين من عمري وفي مصر والسودان زهاء عشرة اعوام ثم عاشت الشطر السوري المغترب وصادفته نحو اربعين عاماً ، وأخص منه مغتربي حمص الذين يُحصون في سان باولو وحدها بالآلاف ، وقد سبق لي أن عرفت مدينتهم كما عرفت من قبلها دمشق

لذلك كان من أقصى أمني أن يتبأ لي بعد عودتي الى لبنان ان ازور القطرين ، ولكن شاءت الاقدار ان تحرمني حتى اليوم من زيارة مصر بتاتاً ولا تجود لي إلا بزورة عابرة لحص ودمشق لم تتجاوز مدتها في كل منهما اليومين . وإذن فأنا من حيث حقيقة الجاري في كلا القطرين سواء ومن لم يتسن لهم الانتقال من المهاجر فيعتمدون على ما تنقله لهم الصحف السيارة من الآراء والاخبار . على انه لا يهني البتة ان تكون دائرة اطلاعي على الماكرات اوسع ومعرفتي اعمق إذ لا دخل لي ولا شأن في سياسة البلدين الداخلية ، يشهد لي بذلك أنني في غصون اجتماعين متقاربين داما ساعات بأستاذي فارس

الحوري رجل سوريا ونسرها الاكبر المخلّق في الأجواء السياسية العالمية لم أوجه اليه سؤالاً سياسياً واحداً . سبب ذلك هو ان ما يهمني فعلاً هو خير القطرين وهماؤهما وقد وجدت في الانقلاب الاخير الذي حدث في كلّ منهما خيراً ما يحقق متمناي هذا ، لذلك كنت من مجبدي الانقلابين معاً دون ان تكون لي اية صلة او معرفة بأبطالهما ، على الاخص وقد تحقق في كلّ من القطرين ما تمنّيته واعتبرته منذ البداية شرطاً اساسياً لتحقيق الاصلاح المنشود وتدعيمه حتى لا تكون للماضي البغيض رجعة ، والى القارئ البيان :

حدث الانقلاب السوريّ الاخير قبل مغادرتي البرازيل ببضعة اسابيع ، بعد ان كانت قد سبقته ثلاثة انقلابات غير مثمرة لانها اقتصرت على استبدال الرأس مع بقاء الأعضاء على حالها ، او أن الرأس نفسه أعوزه الاخلاص وعصفت به ربيع الغرور فأساء التصرف والتدبير ، مما اثبت لي أنه ولو تمت في الرأس الشروط المطلوبة فعملية التقويم تحتاج الى عامل الوقت وأن التعجل مقادة الى الانتكاس . وقد استبعدت كثيراً أن لا يكون زعيم هذا الانقلاب ، على ما ابداه من ذكاء وحنكة ودهاء ، قد توصل الى هذه النتيجة المنطقية بعد اشتراكه في الانقلابات الثلاثة الاولى ومرافقته لسيورها واضطلاعه بأسباب فشلها لذلك اعتبرت وعده بقرب إجراء الانتخابات تعليلاً وأنه لاجئٌ بعده الى سياسة التسوية وتهذيب الخواطر ليمّ له في مدى ثلاث سنوات على الأقل القضاء على عوامل الفساد وتطهير النفوس من الادران التي علقت بها طيلة عقود من السنين . لذلك رأيناه على الاثر يلغي الاحزاب ثم يفرض إدماج الصحف لكي يقضي ما امكن على البلبلة والتشويش . ثم هو كان من الصحافة وسداد الرأي بحيث اجتنب الخطأ الذي وقع فيه سابقوه وأدّى الى فشلهم والتطويح بروؤوسهم فعهد برئاسة الدولة

الى سواه ورفض الترقية وزيادة المرتب ، مثبتاً لنفسه بكل ذلك
النزاهة والاخلاص وحسن القصد

وعلى أثر وصولي الى لبنان بأيام حدث في مصر انقلاب بمائل
نسج زعيمه محمد نجيب على غرار زعيم سوريا اديب الشيشكلي . ولم
تتقصر اسابيع على الاجتماع الذي جرى بين الزعيمين في القاهرة حتى
رأينا الاول يلغي بعد لأيٍ وتردّد الاحزاب ويرجى الانتخابات
النيابية ثلاث سنوات كاملة ويتولى هو رئاسة الدولة

وقد اصاب كلا الزعيمين حتى اليوم إصابة تامة لانهما جاريا سنة
الطبيعة ، فكلٌ من سوريا ومصر كان بمثابة جسم انتابته شتى العلل
فأشقى وبلطف من الاقدار انبرى لمعالجته طبيب حاذق عارف بعلمه
وأساليب مداواتها ففرض عليه ملازمة فراشه والعمل بأوامره ونواهيه
في ما يختص بوسائل المعالجة وما يجب ان يتناوله او يمتنع عنه من
الأغذية ، وعهد بتنفيذ اوامره وتعليماته الى ممرضين اكفاء يثق من
أمانتهم وحرصهم على اتباعها فيرغمون عليه على التقيد بها ويحولون
دون مخالفته ايّاً منها .

وكان طبيعياً ان عليلاً من هذا النوع طال زمن اعتلاله حتى صحّ
فيه قول المتنبي .

أَلَفْتُ السَّقَمَ حَتَّى صَارَ جَسْمِي إِذَا فَقَدَ الضَّنَى اضْحَى عَلَيَّ
لا يمكن ان يستسلم ويرضى بجميع ما تقدّم ذكره من الزواجر والقيود
مختاراً فهو لا شكّ معترضٌ ومنتقض وعاملٌ بكل حيلة ووسيلة على
استغلال ممرضيه ، مؤثراً المرض مع التمتع بما أُلّفه على الشفاء بفضل
الامتناع عنه . وهو بالطبع يكره طبيبه ويتمنى لو هو استطاع الاجهاز
عليه لكي يحطم قيوده ويستعيد حريته في إيذاء نفسه . ولكنّ الطبيب
يريد له الحياة ، وما من شكّ في أنه متى تم شفاؤه سيندم على ما كان
منه وينقلب من عدوّ ناعم الى صديق مسالم يعترف لطيبه النبيل

العطوف بالفضل ويحفظ له الجميل ما عاش .
 هذه حكاية سوريا ومصر في سطور ، ولست منجماً لأتكهن عن
 مصير ايٍّ من اديب الشيشكلي او محمد نجيب او كليهما فقد يظفر بهما
 خصومهما ، وهم بطبيعة الحال كثر في البلدين ، وقد يسلمان وينتصران
 انتصاراً حاسماً كاملاً كما يشتهي لهما كل مخلص فيضفر لهما خصومهما قبل
 مشاييعيهما أكاليل الغار ويعترف لهما بلداهما بالجميل ويخلّدان ذكرهما
 الى الابد . ولكن اذا صحت منهما النيات وثابرا على خطتهما المثلى
 فإنهما ، وإن لم يسلمان كبشريين من الوقوع في بعض الأخطاء والهفوات ،
 بالغان القصد ومحرزان الحمد والثناء وخلود الذكر بفضل ما ابدياه حتى
 اليوم من حسن نية ونزاهة وإخلاص .

والى القارىء الآن تفاصيل الرحلتين القصيرتين اللتين قمت بهما الى
 حمص ودمشق :

في حمص - قصدت الى حمص من زحلة في حافلة تضم زهاء ثلاثين
 مسافراً ، وكان طقس ذلك اليوم الحاريفيّ جميلاً غير أنّي كنت اخشى
 هجوم البرد فجأةً ، ولم اكن مستعداً له ، لذلك كنت معوّلاً على ان
 لا أطيل مدة إقامتي في حمص اكثر من يومين .

ودام تمنعنا حتى بلغنا المحفر الجمركيّ اللبناني وبعده السوريّ ، ففي
 الأول وقوف ومراقبة جوازات وفتح حقائب ورزم وتفتيش دقيق
 لئلا يكون بين المسافرين من ينقل مهربات ممنوع إصدارها ، وفي
 الثاني مثل كل ذلك وفوقه حذراً من دخول ما هو ممنوعٌ استيراده .
 وتقديماً من التكرار وإطالة الشرح أقول إنّ هذا هو الجاري ايّاً كان
 قصد المسافر واتجاهه ، وقد يطول الوقوف في حالة الاشتباه ويتكرّر
 في مخافر أخرى تلي الحدود حذراً من ان يكون قد حصل شيء من
 الاغفال او غض النظر في المحفر السابق ، كما تبين لي في العودة بطريق
 طرابلس وفي رحلتي التالية الى دمشق من بيروت وعودتي منها في

الطريق عينه . وهذا كله من المخرجات المؤلمات بين بلدين يُقال إنهما شقيقان !

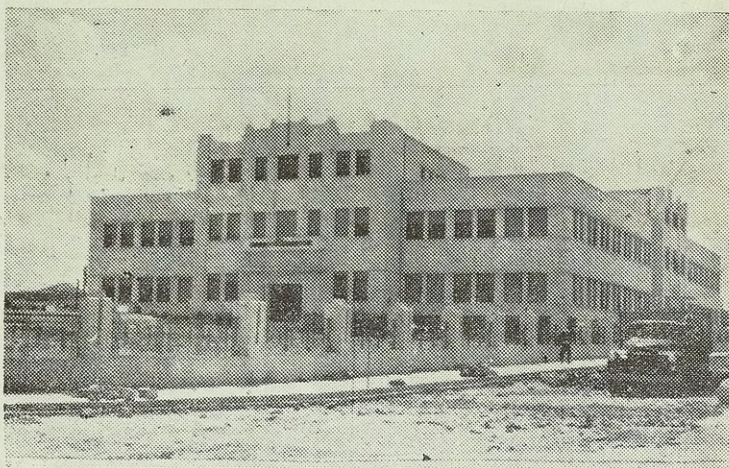
وأخيراً وصلنا الى حمص قبل الظهيرة بقليل ، وكنت موصىً بالنزول في فندق « قصر رعدان » ومعوّلاً على العمل بالوصية لسبب خاص بي هو تحيُّلي أنني بذلك اغنى عن زيارة شرق الاردن ، وقد وجدت هذا الفندق قريباً من مكتب النقليات حيث حطت حافلتنا رحالها .



(فندق قصر رعدان الذي حالته)

ولم أجد صعوبةً في الاهتداء الى منزل الصديق القديم انطون عيسى بندقي الذي عرفته في البرازيل فأحسن وعيلته الكريمة استقبالي وجنّدت بكركه الثقيف المهنّذ عيسى فكان لي نعم الرفيق إذ هو عرّفني بالكثيرين من كرام المحصّين المقيمين ومن سبق لهم الاعتراب الى البرازيل وسواها من المهاجر الاميركية كالارجنتين وتشيلي ، وتلطف بعضهم فزارني مرحّباً في منزل مضيبي الكريم . كما سرّني أن لقيت الاديب موسى رزق سلوم الذي عرفته في البرازيل فكان لي في وقت معاً الصديق المعوان والمضيف الكريم ، وفيما بعد أنقذ إليّ عدداً من

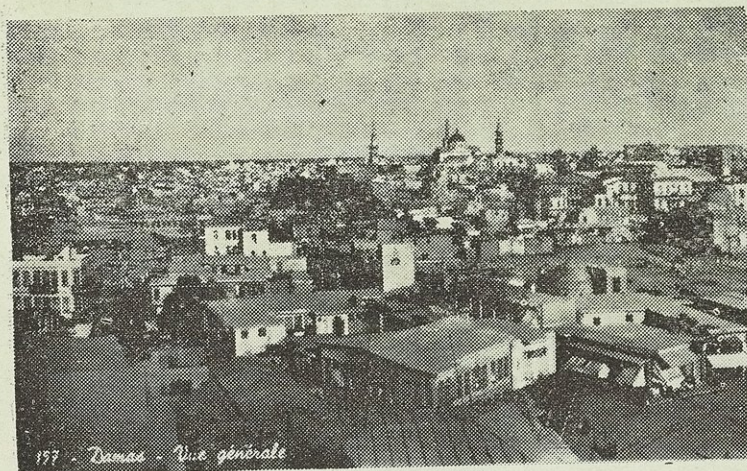
رسوم المدينة اختوت منه ما يراه القارىء مثبتاً في هذه الصفحات .
 وبسهولة الاهتداء وسرعته طالت مدة إقامتي القصيرة اضعافاً فعرفت
 في أصل اليوم الاول عينه المكتبة البلدية الرحبة الانيقة الحديثة الطراز
 والتي تجدد من الشيبية الحمصية الراقية إقبالاً منقطع النظير ، وبعدها
 جامع خالد بن الوليد ، وكفى بذكره تعريفاً ، وفي مسائه متنزه الميلاس
 الشهير ، وقد اصبح منظماً ومستوفياً شروط المتنزهات الحديثة .
 وفي اليوم التالي زرت برفقة دليلي الكريم الامين المستشفى
 الحكومي الواقع في ظاهر المدينة والبالغ حداً رفيعاً من الرحابة
 والاتقان ، وبرفقة صديقي موسى رزق سلوم زرت دار الحكومة الفخمة
 التي تتسع لجميع الدوائر ، وفيها تطف باستقبالنا مدير الاذاعة الكاتب
 اللوذعي محمد روجي فيصل الشديد الاعجاب بالمعتربين والتقدير لمآتهم .
 ثم عرّفني رفيقي الاول الى حيّ المحطة الحديث بشوارعه الرحبة
 وأبنيته العصرية الانيقة ، فدار المطرانية الارثوذكسية الجديدة ، فالكليّة
 الارثوذكسية .



(دار الحكومة ، وقد اصبحت الطرق التي تحيط بها معبدة)

وفي وسط المدينة حديقة بديعة التنسيق تظلمها الاشجار الوارفة يرتادها الالوف للترفيه والاستراحة والمباشطة وتناول القهوة والمرطبات والاطعمة على اختلافها ، والاصغاء الى ما يبيته المذيع من اخبار وقطع موسيقية وغنائية . وفي إحدى زواياها مطعم رحب مستوف شروط الاناقة والانتقاء يرتاده من شاء ويصبح ارتياده إلزامياً في فصل الشتاء وفي حصص عدد كبير من الساحات والميادين والشوارع الرحبة القائمة في وسطها احواض مشجرة يكسوها العشب ، وتستلقت النظر فيها حركة العمران ففي كل مكان هدم وبناء وتوسيع وتقويم وتجديد ، مما يبشر أنها بعد سنوات معدودة ستصبح مدينة عصرية من الطراز الاول مظهرأ ومخبراً .

فهنيئاً لآخواننا ابناء حمص بما بلغته مدينتهم عروس الوعر من تقدم وارتقاء في غضون اربعة عقود من السنين .



(مشهد عام من دمشق)

في دمشق - أمتها من بيروت ، وكما غنيت في حمص عن زيارة شرق الاردن بنزولي في فندق « قصر رغدان » غنيت فيها عن زيارة

العراق بنزولي في فندق « قصر الرشيد » ، ولكن لا ذنبَ للعاصمة ولا للخليفة العظيم في ان يكون هذا دون ذاك موقعاً وأناقَةً وجَدَّةً بيل ذنبي انا لانني اخترته لوقوع مكتب النقليات فيه ، لا مراعاةً لجانب الاقتصاد لان تعرفته لا تقلَّ عن تعرفه زميله المحضِّي وكنت لأسباب لا موجب لذكرها قد ارجأت رحلتي الى دمشق حتى اواخر الحريف ، وكانت قد بلغتني انباء موجة برد شديد اجتاحتها منذ اسبوعين ، لذلك لم أعتَرِّ بجبال الطقس الذي صادفني على غير انتظار فجددت مدة إقامتي ، مع الذهاب والاياب ، بثلاثة ايام ، وقد سلمني الطقس فيها كلها



(ساحة المرجة المجاورة لفندق « قصر الرشيد »)

واضطرنني قَصْرُ المدة الى الاقتصار على الأهم فقصدت فور وصولي الى مكتب صديق فاضل عرفته في صغري ولقيته اتفاقاً في رحلة ، هو فيليب نجل اسكندر كحيل صديق والدي ، فكان كريماً وشجعني على الاتصال به حال وصولي الى دمشق ، وفعلًا انجز وعده وحقق حسن ظني إذ هو احسن استقبالي ووصلني تفونياً بأستاذي الكبير

فارس الخوري الذي لم يكن لي بغية اعزُّ من الاجتماع به بعد فراق طال تسعة وخمسين عاماً لم يطرأ فيها على النسبة التي كانت بيننا أي تبديل . وما سمع أستاذي اسمي وأصغى الى تحيتي حتى راح يسرد لي كل ما وعاه من سيرتي كأنه يقرأ في كتاب ثم تطف باستعجالي في القدوم اليه لانه كان على موعد سابق بعد ساعتين فلم أبطئ والتقينا . وبعد العناق وتبادل التحيات وعبارات الود رحنا نتحدث عن البرازيل وجاليتنا الجبارة فيها ونشاطها وحيويتها والمنزلة الرفيعة التي تسنمها بفضل المشاريع الكبيرة النافعة التي انشأتها وما أهل المتحدرون انفسهم له من مراكز مهنية رفيعة وظفروا به من مناصب حكومية سامية ، مما أثلج صدره وأشاع الجبور في عينيه ، وفي الوقت نفسه جدّد اسفه لحيولة موانع القاهرة دون زيارته البرازيل منذ عامين .

ثم ابلغني أن في نية الجمع العلمي القيام ببادرة تم بقدره جاليتنا في البرازيل ، وذلك بمنحه عضويته لبعض رجال العلم والادب العاملين بينها ، كأعضاء مراسلين ، وأن أول من يفكر به الجمع الاستاذ رشيد عطيه فحمدت له حسن اختياره ، وسألني رأيي بشأن واحد او اثنين سواه فاقترحت اسم رشيد سليم الخوري (الشاعر القروي) والاستاذ توفيق داود قربان الذي يُنتظر منه بفضل نشاطه وتنقيبه الدائم الخير الكثير .

ولدى إعرابي له عن ارتياحي لما هو بادٍ في وجهه من علائم الصحة والحيوية والنشاط شاء ان يؤيد قولي بدليل جديد فاقترح عليّ مرافقته الى سطح المنزل الذي يسكن الدور الثاني منه والمؤلف من اربعة ادوار ، وسار أمامي بهمة الشباب متوقلاً بحجة السلام الثلاثة حتى بلغنا السطح وأطللنا على ارووع مشهد يمكن أن يُلمَّ به الطرف من دمشق . والمنزل واقع في حي المهاجرين الجاري منذ زمن تجديده بأسلوب هندسيّ بديع فالطرق المؤدية اليه كلها عريضة ومعبدة والأبنية القائمة

من جانبها من أحدث طراز بحيث تتنافى وتلك التسمية المتواضعة .
 وبما رواه لي أنه عندما ابتناه لم يكن في تلك الضاحية الآهلة اليوم
 سواه ، وكان محاطاً بشبه غوطة تتعدّد فيها مجاري المياه بين الأشجار
 والادغال . ولما كان مقابلاً لوزارة الخارجية سألته ما إذا كان البناء
 الذي تحته هذه خاصاً فكان جوابه للأسف مخيباً لظني إذ أن جلّ
 الدوائر الحكومية في دمشق كما في بيروت مؤتجر . ووافقتني على أن
 في ذلك تذبذباً لأن شأن الحكومة غير شأن الافراد فهي مستقرة
 وليست مثلهم بحكم المقيم على نية الارتحال بين عام وآخر لذلك كان
 من الحكمة وسداد الرأي والمصلحة العامة أن تشيّد الحكومة ابنية
 خاصة بمجموع الاجور الباهظة التي تدفعها في خلال سنوات معدودة .
 وبعد عودتنا من رحلتنا راح يفكهنني بسرد حادث طريف جرى
 له منذ ستة واربعين عاماً مع الاستاذ رشيد عطية الذي أمّ دمشق في
 اواخر حزيران سنة ١٩٠٦ ، وعلى أثر وصوله ونزوله في فندق «الخراب»
 زاره في داره ولبث خمسة ايام كاملة يتوقع ردّ تلك الزيارة ولكن
 على غير جدوى . فلما عاد الى مقرّه في سوق الغرب بعث اليه بتاريخ
 ٥ تموز بقصيدة تقع في نحو عشرين بيتاً ضمنها عتبه المير على ذلك
 التقصير ، روى لي منها عن سطح الذاكرة بيت القصيد فيها وهو :
 أظننت كلّ الردّ يقبح فعله ردّ الزيارة غير ردّ البأس
 فأجابه في العاشر منه بقصيدة تقع في أربعين بيتاً روى لي منها
 عن سطح الذاكرة ايضاً الايات التالية :

أحفيت في التنقيب بين معاذري وبذلت في تحريرها مجهودي
 فعجزت عن إيجاد ما هو نافعي وعلمت أن الزور غير مفيدي
 فأتيت معترفاً لعلك عادل بعقوبي عن خطّة التشديد
 فتعدّ ذنبي «خلة» من «فارس» وتقول كم من ضلّة «لرشيد»
 يا بلبلاً نزل الخراب ولم يكن عهد الخراب بلبل غريد

وكان الموعد المضروب قد أرف فودعتُ وانصرفت. وفيما انا
عائدهُ وقع نظري على لافتة في الدور الثاني من بناء عالٍ جميل
يتوسطها اسم « الفيحاء » فقلت في نفسي لا بأس باغتنام هذه الصدفة
فأزور جريدة واحدة في دمشق من باب أن ما لا يدرك كله لا
يترك جلّه ففعلت ونعمت بمعرفة الاستاذ عبد الرزاق الذهبي سكرتير
تحرير تلك الجريدة اليومية الواسعة الانتشار وهو شاب ثقيف كريم
الطبع نبيل الخلق تطف بي ويسر لي الحصول على رسوم من بعض
المشاهد الرائعة في دمشق فكنت له من الشاكرين
ومن غرائب الصدف ايضاً أن الشارع الذي تحته ادارة تلك
الجريدة هو شارع البرازيل .

وكان ذلك اليوم خميساً تالياً لعيد سوريا القومي الذي جرى فيه
العرض العسكري العظيم ، قضيت بقيته وسحابة يوم الجمعة متجوّلاً
متفقدّاً مستطلعاً وخرجت من تجوالي الطويل ذاك في الأحياء القديمة
والحديثة بنتيجة مرضية للغاية ، فدمشق بساحاتها وميادينها وشوارعها
المستقيمة العريضة المعبدة وأبنيتها العديدة الفخمة الحديثة الطراز سائرة
بخطى واسعة حثيثة لتصبح مدينة نموذجية من كل وجه . وأجل ما
فيها في نظري مجرى نهر بردى الذي يحترقها ، حتى في إبان انحساره .
وصباح السبت سرت قاصداً مكتب صديقي لأتلفن لأستاذي
وأستأذنه في زيارته مودّعاً . وفي الطريق تذكرت المطارحة السابقة
الذكر التي جرت بين الاستاذ عطيه وبينه فخطر لي ان أنصب نفسي
حكماً فيها ، ولهذا الغرض نظمت البيتين التاليين :

عتبُ الرشيد عليك لست أقرُّه كيفه أنك لا تردُّ البائسا
إنّ الزيارة منه شبه « عطية » لا تستردُّ فكيف اضحى يائسا
واستأنفت طريقي وتلفنت فأتاني الجواب مشجعاً على الزيارة ،
لا بل حاضاً عليها ، إذ لم يكن لدى أستاذي في ذلك اليوم ما يشغله .

وبعد وصولي بقليل أتاه زائراً عقل القطامي احد ابطال ثورة ١٩٢٥
ووجه آخر فأجرى بيننا التعارف ورحنا نتحدث عن جالية البرازيل
المعروفة القدر والقيمة . وسألني القطامي عن الشاعر القروي وذكره
بالخير شاكراً له فضله في ما بعث به اليه من منظوماته الوطنية .

وذكرت لأستاذي حكاية التحكيم ورويت له البيتين المتقدمين
فنهض لساعته وأتى بدفتري يتضمن القصيدتين السابقتي الذكر وسألني
أن أذيلهما بيتي ففعلت . ثم خطر لي ان أفكه بالقصيدة « البطنية »
التي عارض فيها ناظمها كامل فضول الحمصي نزيل الارجنتين قصيدة
السموأل الفخرية : « إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه » ، ومطلع
معارضته :

إذا المرء لم يملأ من الكشك بطنه فكلُّ غداء يغتديه قليل
فارتاح اليها وسألني تدوينها في الدفتري ليلقيها ذلك المساء عينه على
مسامع نخبة من رجالات دمشق الذين جمعوا بين كبر العقول وكبر
البطون ثم ينشرها في مجلة هزلية

وملت عليه اقول إن لي مأرباً آخر من تلك الزيارة هو أن
اتعرّف الى نصفه الأفضل بعد ان لقيت نصفه الأمثل فهأنني على حسن
حظي لان قرينته كانت ذلك اليوم في عطلة استثنائية حتى الثانية بعد
الظهر . وقدمت تلك السيدة الفاضلة التي اشتهرت بكل نبيل من
الصفات ورفيع من الاخلاق فقدمني اليها وإذا بالخبير يحقق الخبر فهي
مثال الغيرية والعطف على اللاجئين والتفاني في سبيل المعوزين . إنها
رئيسة اتحاد الكنائس المسيحية الدولية ومنخرطة في سلك اربع عشرة
جمعية مختلفة الغايات والاهداف الانسانية مما يضطرها الى هجر منزلها
طيلة النهار وحتى منتصف الليل وبعده احياناً لتؤدي واجبها نحو من
يحتاجون الى عطفها وعونها ، فهل من مطلب اسمي وخدمة اجل وأجدي؟
وتلطفت فاقترحت عليّ ان أبقى للغداء على ان أرافقها عند الساعة

الثانية لمشاركة مركز إغاثة اللاجئين فقبلت شاكراً ، وللحال تلفنت الى مكتب النقلات مرجئاً سفري الى الثالثة . وكانت جلسة لطيفة تبادلنا فيها الاحاديث عن جالية البرازيل وعطفها على اللاجئين ، ذاكرين للاستاذ فارس دبغي مساعيه الحميدة في هذا السبيل ، كما ذكرت لي السيدة خوري فضل جمعية الاوانس السوريات التي ترئسها الآنسة الثقيفة ادال قسطنطين الحوري ، وأرثني رسالة تلقيتها منها مطوية على تحويل بألف دولار إغاثةً للاجئين . أما العبارة التي لا تزال ترنّ في أذني فهي تمني أستاذي أن نلتقي ثانية بعد انقضاء تسعة وخمسين سنة أخرى أتمناها له لكي يدوم نفعه وإن لم نلتق .

وبعد الغداء اصطحبتي السيدة خوري على سيارتها الخاصة ترافقنا ابنة شقيقة لها عالية الثقافة والتهديب وتتلهب غيرةً على منكوبي بلادها فلسطين . وبلغنا مركز الاغاثة فاذا هو مؤلف من عدة غرف مكتظة بعشرات الاكداس من الاكياس المتضمنة الملابس المختلفة الانواع والاشكال والاحجام ، ومثلها من الاغطية الصوفية المرسلة من شتى الاماكن والأصقاع برسم التوزيع على المحتاجين . وفتحت امامي احدها وراحت مع معاوناتها المأجورات يفرزن محتوياتها لكي 'تعدّ' منها فيما بعد رزمٌ 'ترسل الى اشخاص معينين تبعاً لحاجاتهم . في ذلك المكان تحشعت ولا تحشع المصلي في معبد وأحنيت رأسي لتلك السيدة الوقور وودّعت وانصرفت حاملاً هذه الذكرى الطيبة العرف لأنشرها في هذا الكتاب .

حُبُّ لِبْنَانٍ

في حفلة تدشين مدرسة البنات التي شادها في إبل السقي صديقي
الجميل الكريم جورج يوسف ابو سمرة وقرينته الفاضلة منيره غطاس
ابو سمرة استهللت كلمتي بقولي إنه من تحصيل الحاصل الاشادة بوطنية
المغتربين وحبهم للبنان وعطفهم عليه بينما نحن نقوم بتدشين هذا البناء
الجميل وتقديمه لوزارة التربية ليكون وفقاً على الغاية التي سُيّد من اجلها
فهو بصمته يعرب عن هذه المزايما هو ابلغ من كل قول وقيم بذاته
الدليل المحسوس الملموس على صدق الوطنية وخالص الحب وجميل
العطف . وإنه اذا كان جلّ المواطنين المغتربين قد فاتهم حتى اليوم
إقامة دليل مثله فإننا على الاقل لا نجد في المهاجر كلها عدوًّا واحداً
للبنان بينما اثبت لنا الانقلاب الاخير بصورة دامغة أن اعداء لبنان
الألداء الذين يُخشى منهم على كيانه ومصيره مقيمون فيه . وإنَّ
بادرةً كالتّي نحن بصدها تُعتبر في حقيقتها بواذر إذ هي تحفز الكثيرين
للقيام بمثلها ، إن لم يكن نوعاً فقيمةً .

وعلى قدر ما تعبه الذاكرة أورد المشاريع الفردية والبلدية
والاقليلية التالية التي قام بها بعض كرام المغتربين تبعاً للتّرتيب الزمنيّ :
خليل اندراوس - تسوير مقبرة البيادر في زحلة لذكرى نجله
المرحوم البرتو الذي دُفن فيها .
ميشال وشكرو الله والياس اسعد التبشراني - تعليم غير القادرين

من الاحداث في مسقط رؤوسهم بسكننا .

جورج نعان المعلوف - تعليم غير القادرين من الاحداث في زحلة وتلا صنيعة هذا آخراً تبرّعه بخمسة آلاف ليرة لبنانية لمستشفى تل شحيا في زحلة ، وهو المستشفى الذي أتمه وأثمه وجهره بالمعدات الجراحية الحديثة كرام مغربينا وإخواننا الزحليين في الولايات المتحدة الاميركية . كما انبرى لتشييد مأوى للعجزة بنفقته الخاصة . واغتم نسيبه نجيب قطيني المعلوف سانحة عودته الى الوطن وزيارته للمستشفى عينه فتبرع لصندوقه بألف ليرة لبنانية .

توما وغطاس وحبيب الخوري - تعليم غير القادرين من الاحداث في بلدتهم كفرقوق .

اولاد جورج الزرزور - بناء سور وملجأ لجبانة معلقة زحلة لذكرى موتاهم المدفونين فيها .

عزيز نادر - أنشأ في مسقط رأسه القبيات مستوصفاً خيرياً مثالياً يكلفه ، خلا اسكلافه الانشائية ، ثلاثة آلاف ليرة لبنانية شهرياً .

ملحم وكروم سمعان الرامي - تجهيز بلديهما إبل السقي بمولد للنور الكهربائي كلفهما نحو مئة ألف ليرة لبنانية .

شكوي الرامي - تعبيد طريق رئيسي في بلدته إبل السقي تبلغ اسكلافه المقدرة نحو عشرة آلاف ريال اميركي .

سمعان سمعان الرامي - تجهيز مدرسة الصبيان في إبل السقي بمقاعد ومباضد نموذجية بلغت اسكلافها ألف ريال اميركي

المربي الفاضل الطيب الذكور والاثر جبران مكاري - عندما ادركته الشيخوخة وشعر بدنوّ الأجل شاء ان يقدم لوزارة التربية مدرسة المساواة التي أنشأها في مسقط رأسه أنفه ، وقام على ادارتها عدة عقود من السنين ، فاستقدم من سان باولو بكره حاتم ليقوم عنه بمهمة التقديم فكان عند ظن أبيه ببرّه واريحيته فوسّع نطاق المدرسة

من ماله الخاص وقدّمها مستوفية الشروط باسم والده المحسان .
يوسف خليل - قام بمأثرتين في بلدته خربة قنّافار ، الواحدة :
تثقيفية والثانية اقتصادية جاوزت أكلافهما مئة ألف ليرة لبنانية .
وتقوم الثانية بتسليف المزارعين مبالغ دون فائدة لآجال اقصاها
خمس سنوات وعهد بتنفيذ هذا المشروع النموذجي الى حكمة ودراية
النائب الجريء جان خليل سكاف .

وله ماثرة ثالثة دلت على الحب والعطف ولكنها لم تأت بالنتيجة
المطلوبة لانه أخطأ التقدير ، ذلك أنه احب بلبلاً لبنانياً يجيد الانشاد
ويطرب فأراد أن يحتكره في قفص ويضربه فيصبح بازياً يحسن
الاقتناص ، وهكذا اتمته الماطفة عن حقيقة واضحة هي أن البلبل
لا يمكن ان يصير بازياً وأن الذين احسنوا الاقتناص في المهاجر هم
الذين يعبرون مثله بالاشارات لكي لا ينفروا الفريسة فنقوتهم .

ولم يكن ذلك البلبل سوى الياس ربابي الاديّب والخطيب
المعروف . ومع أنني وسواي توقعنا النتيجة التي لم يكن منها بد ،
وهي عودة الربابي الى العش الذي ألفه ، فقد قدّرت ليوسف خليل
حبه وعطفه معتبراً فيه حسن النية بدليل الابيات التالية التي نظمها
للحفلة الوداعية التي أقيمت للربابي تعويضاً له بمجلاوة التكريم عن مرارة
الحياة ، في بهو الجمعية الخيرية المارونية عشية الثلاثاء الواقع في ١٨
ايلول سنة ١٩٥٠ وهي :

فقدتُ الصبا مذ شبتُ دون خضاب
فما قيلَ يوماً : أنظروا المتصابي
وقد عشتُ بالذكرى ولست بأسف
فما حاجتي بالكأس دون شراب
ولكنّ أنفامي عزائي وسلوتي
وكيف أغني إن فقدتُ «ربابي» ؟

فالأبيات التالية التي نوّهت فيها بفضل يوسف خليل .
 يقولون إلياساً مفارقنا غداً ولست أرى هذا الفراق جميلاً
 ففي وجه أخلانا تلوحُ كآبةٌ وفي وجهِ شائنا نرى التهليلاً
 وفي أرضنا حسنٌ وسحرٌ وروعةٌ وهيئاتٍ ان يلقى الغداةً بديلاً
 على رسلكم يغنيه عن حسن « يوسف »
 وفيّ بلاه فاصطفاه « خليلاً »

جورج يوسف ابو سمرة وقرينته منيره غطاس ابو سمرة - بناءً
 فخم لمدرسة للبنات في إبل السقي كاملة المعدات تتسع لزهاء مئة تلميذة
 واذا كانت قد ندّت عن ذهني مأثر أخرى فالعنب على ضعف
 الذاكرة او قلة الاطلاع ، ولكنّ التقصير عن التنويه لا ينفي الفضل
 الذي تشهد به المآثر الناطقة فليقس المطلعون على ما ذكر ما لم يُذكر ،
 حسب اصطلاح النحاة .

ولم يقصر إخواننا السوريون في مضمار الحب والعطف فقد قام
 نفرٌ كريم منهم بمآثر ذات قيمة وخطر ، في حلب ودمشق وحمص
 وسواها من المدن و البلدان والقرى السورية .

اما القادرون من اللبنانيين الذين ما زالوا مقصّرين بسبب امتلاء
 قلوبهم من ذواتهم بحيث لم يبقَ فيها متسع لسواهم فقد نظمت في
 الزمن الأخير بعنوان « يقظة الضمير » ابیاتاً تهكمية تصح أن تكون
 لسان حالهم كاعتراف جميل منهم يخفف جرم تقاعدهم عن نصره وطنهم
 الاصيلي ، وهي في ما يلي :

قد بنينا في غير ارض الجدود صرح عزّ على أساسٍ وطيد
 وغدونا اجانباً عن حمانا بقلوبٍ مقدودةٍ من حديد
 لا نؤمُّ البلادَ إلا انتجاعاً وانتفاعاً ، شأن الغريب البعيد
 ذكرُ لبنان في الشفاهِ سعيً وإنما القلبُ قطعةٌ من جليد

حبُّ لبنانٍ - لا يقوم بقولٍ
 بذلَ الروحَ من تخلفٍ فيه
 حاربوا حربنا ونحن بقيناً
 جاع بعضٌ وفات بعضاً كسائِ
 لم نجدُ في الخطوب إلاّ بنزراً
 أو بذلنا بذلَ الشحيح وثناً
 قد هجرناه نضو ظلمٍ وفقرٍ
 ولدُنْ قيلَ قد تحرّرَ قلنا
 إن يجاهدُ وينتصر نحن منه

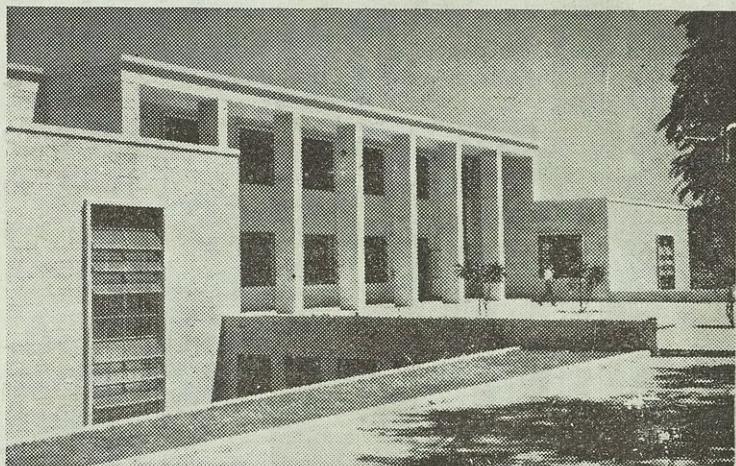
قد نرحنا للفتح والغنم عنه
 ونسينا فضلَ السلاحِ علينا
 لو صدقنا في ما نقول ادّعاءً
 ونفرنا الى العرينِ خفافاً
 وانتصرنا من دونِ عودٍ حميد
 وهو منه من طارفٍ وتليد
 لحسيننا الموجودَ كالمفقود
 قبل قولِ العرينِ اينَ أسودى



(مشهدٌ من مدينة صيدا ، أو صيدون ، التاريخية ومينائها)

مكتبة نعيم يافيت

في الجامعة الاميركية



(واجهة المكتبة المقابلة للدائرة العلمية ، أقدم بناء في الجامعة)

لا أخصُّ هذا المشروع بالأفراد والتوجيه نظراً الى جسامته فقط ،
إذ سبق لي القول إنَّ كلاًَّ يبذل على مقداره وضمن دائرة إمكانيه ،
ولكن لتيقني بعد عودتي أنه اتخذ بالفعل اساساً وذريعة لتأميم اعظم
معهد علمي في الشرق ككله ، لا بالتحكُّم والاكرام كما جرى في
عبادان بل بروضى أصحابه ومؤسسيه واختيارهم ، وأعني بذلك المعهد
الجامعة الاميركية في بيروت . ذلك أن هذا الموضوع أثير منذ

ثلاثين عاماً ، يوم اعرب مجلس الأمناء في نيويورك عن استعداده للتخلي عن هذا المعهد لهيئة عربية مؤلفة من قدماء المتخرجين بشرط أن يؤهلوا ذواتهم لتسلمه وصيافته وتنميته واستمرار عمله التعليمي والتبديي على شكل يوحى الثقة ويضمن حسن المال ، إذ أن مجلس الأمناء حريص على هذا التراث حرص الوالد على وحيد فلا يمكن أن يعهد به إلا الى من يحسن تربيته .



وليس ما يوحى
الثقة كتوفر المؤهلات
في المتبني ، وفي رأسها
إقامة الدليل المحسوس
على استعداده للتضحية
والبذل ، من باب أن :
« ما لا تتعب فيه الايدي
لا تحزن عليه القلوب »
وعلى هذا أنشئت

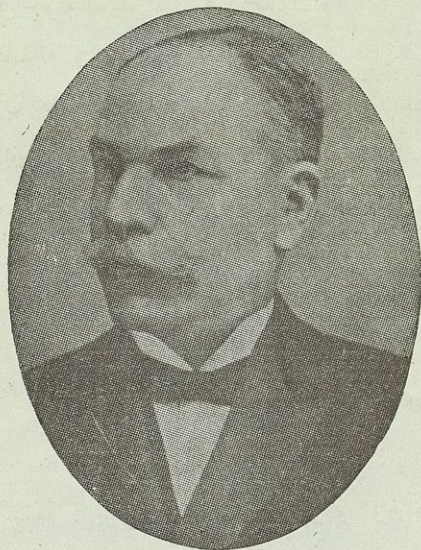
جمعية متخرجي الجامعة
المركزية في بيروت
وراحت تبث الفكرة
وتعمل على إنشاء فروع
لها في كل بلد يضم
عدداً من المتخرجين

فكانت فروع مصر وأميركا (رسم جانني يبدو معه برج الدائرة العلمية)
الشمالية والبرازيل والمهاجر الأخرى . وطفقت الجمعية المركزية تجمع المال
بمختلف الوسائل حتى استطاعت في الزمن الاخير أن تشيد على مقربة
من الجامعة بناءً فخماً مؤلفاً من عدة طبقات تستغله كنادٍ للمتخرجين ،

واحتفظ فرع البرازيل بما جمعه من المال ليعلم من فائدته عدداً من غير القادرين من الطلبة النجباء ، منيباً عنه في اختيارهم الاستاذ منصور جرداق ، ومشتروطاً عليهم بعد تخرجهم وولوجهم مضمار العمل أن يردوا تبعاً لامكانياتهم ما أنفق في سبيلهم لكي يستفيد منه سواهم . ومنذ سنوات آثر على الفائدة المصرفية اقتناء عقار يدر ريعاً ثابتاً مضموناً ، على أن نشوب الحرب الكبرى الاخيرة حال دون استمرار هذا المسعى الحميد .

ولست على علم بما فعله إخواننا في مصر وسواها من الاقطار ولكنني على يقين من أننا قد أخطأنا القصد وضلنا السبيل إذ بالأساليب الاستثنائية التي اتبعناها وقفنا من مجلس الأمناء على هذا المعهد العظيم موقف الريبة والحذر وكنا كذاك الذي جعل للنار والماء اللذين فرضهما على نفسه شأن ما فرضه على سواه من الدقيق والسمن والعسل ، او أننا أسبهننا مصدق في إصرارنا بأن يكون التأميم خالصاً لوجه الله .

فلا عجب والحالة هذه أن نرى المجلس يعدل بدوره الى الاحجام عن الشروع في تنفيذ خطة التأميم التدريجي الذي اقترحه تلقائياً .



اما الذي عجز عنه الالوف من المتخرجين المنتشرين في كل مكان فقد حققه ورثة نعمة يافث بمأثرتهم الخالدة التي نظر اليها مجلس الأمناء

(نعمة يافث الذي تحمل المكتبة اسمه)

معين الاعتبار والاحلال واتخذها كحجر الزاوية في بناء التأميم الموعد
بدليل أنه خطا في سبيله الخطوة الاولى، وكانت خطوة واسعة مبشرة
على ما سألينه في الفصل التالي . ولعلّه مؤتمّ بما ورد في الكتاب
فيكتفي بتلك البادرة الطوعية السخية اكتفاء الله بصالح واحد لكي
يعفّ عن المدينة فلا يخرجها .



نجيب يافت

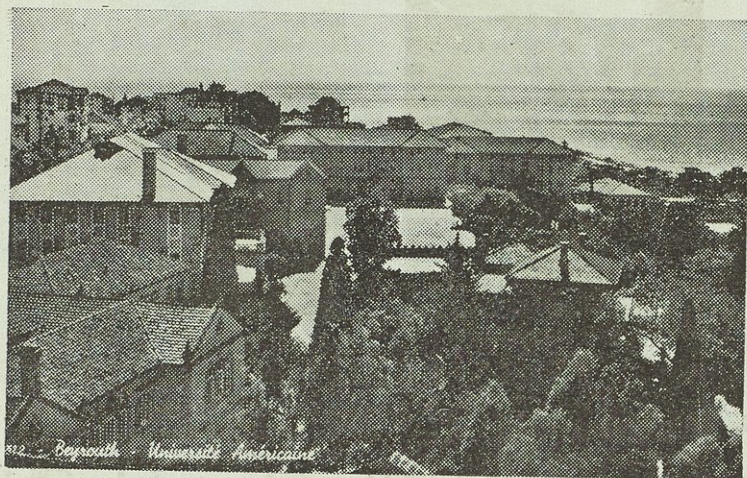
خليفة المعلم ومستأنف جهاده النبيل

وبناء المكتبة الذي كلف
نحو مليون ليرة لبنانية جاء من
احداث طراز مستوفياً شروط
الرحابة والأناقة والتنظيم والترتيب
ويتسع لزهاء خمسمئة قارىء
ودارس . وقد تلمظ مديرها
الاستاذ جبران نجعازي فراقني
في جولة استقرائية في جميع
طبقاته وأقسامه وسرّني كثيراً
أن علمت منه أنه نجل « الحال »
الذي كانت لي صلة وثيقة بمطعمه على ما ذكرت في « العهد القديم »
من هذا الكتاب ، وقد وعدته بأن أقنع اصدقائي في البرازيل بأن
يهدوا ما لديهم من الكتب العربية القيمة الى المكتبة لتُحفظ فيها
باسمائهم تخليداً لذكراهم او ذكرى موتاهم .

مقدمو المكتبة لذكورى فقيدهم الغالي :

عفيفة ناصيف التبشراني ارملة المغفور له المعلم نعمة يافت وأولادها
السبعة : شديد ونجيب وريكاردو وفردريكو وكارلوس وغلادستون
وروبرتو .

الجامعة الأميركية



(مشهد عام من الجامعة)

هي المعهد التربويّ الذي كان معروفاً في عهدي باسم « الكلية السورية الانجيلية » ، ولم يكن يضم سوى اثني عشر بناءً ، وقد عدت فوجدته جامعةً تشغل ضعفي مساحتها منذ نصف قرن ويزداد عدد ابنيته الى خمسة وخمسين ويصبح عدد طلبته عشرة اضعاف ما كان عليه في عهدي .

ومما لا يحتمل الرّيب هو أن نموّه وازدهاره على هذا الشكل قد أثار إعجابي وكان مدعاةً لارتياحي واعتباطي ، ولكن ما أثلج صدري

شيءٌ كرؤيتي في سدة رئاسته ونيابتها علمين عربيين من اعلام الفكر المشهود لهم بالتفوق في مضامير الثقافة وسعة الاطلاع وإحسان الادارة والتنظيم والتوجيه ، بعد أن كان يُضنُّ فيه حتى على المجلِّين في اللغة العربية نفسها بلقب أستاذ .



فؤاد صرّوف البناي



فستطين زريق الدمشقي

وهذان هما العلمان اللذان أشرت اليهما وهما من خريجي الجامعة وكلاهما في غنى عن التعريف . وكفاهما فخراً اختيارهما في العام الفائت : الاول لمنصب رئيس الجامعة بالنيابة عن رئيسها المتغيب في اميركا ليجمع في جولة قد تستغرق عامين زهاء عشرة ملايين ريال ، والثاني كنائب رئيس اتّصاليٍّ دائم ، وقد برهن كلٌّ منهما أنه كفوء المنصب الذي يشغله ولكنني اعتقد ان جلّ الفضل في اختيارهما مردودٌ الى الاثر الحسن الذي أحدثته المأثرة اليابسية التي تقدّم ذكردا في نفوس الأئماء .

وبما يلفت النظر أن العمل جارٍ والمساعدى مبذولة لابلاغ الجامعة اعلى مستوى ممكن من حيث الاحاطة والشمول في كل فرع من فروع

العلم النظرية والعملية ، وأهمها في ما يختص بلبنان الدائرة الزراعية التي يكملها الحقل التجريبي الذي اقتنيت لاجله ارضٌ صالحة في البقاع .
اما ما افتقده وكان من المواد الرئيسية التي تُدرّس عندما كان لهذا المعهد صفةٌ مذهبية فهو « الأثكس » او ما يسمى « الفلسفة الادبية » وقد عجبت لالغائها بعد ان فقدت الجامعة تلك الصفة والاستعاضة عنها بمادة « سيفكس » او ادب السلوك او التهذيب الاجتماعي الذي نعيته في ما تقدّم من هذا الكتاب . وسرُّ إثاري هذه الفلسفة يعود الى أنها تتواءم والمبادئ الاساسية التي تركز عليها جميع الاديان وترفع الانسان في عيني نفسه فيتسامى ويترفّع عن الدنيا ويأتي الصالحات ، لا خوفاً من عقاب ولا طمعاً في ثواب ، كما تقنعه بأن في مصلحته في هذه الحياة الدنيا أن يكون محسناً لنفسه ولسواه ، وبهذا الشكل يعيش البشر حياةً فاضلة ويكونون إخواناً متضامنين لا اعداء متنازعين

ومهما يكن من امر فالجامعة معهدٌ مثالي لا يمكن أن نطمع في اي بلد عربيّ بأفضل منه وقد برهن الامير كيون القائمون عليه ، بالبادرة التي صدرت عنهم ، على حسن نية ونبالة خلق وإنسانية مثالية ، فمن الانصاف وسداد الرأي أن نفرّق بين هذا الشعب وحكومته فلا نأخذه بما ارتكبته في فلسطين وحاولت رياء ان تبرّره او تخفف وقعه بأساليب لا تجوز على العيمان فضلاً عن المبصرين .
ويكفي أن رئيسه الفاضل النبيل الدكتور بنروز كان اشدّ منا وطأةً على حكومة بلاده وقد دانها وقال فيها فوق دينوتنا وما يمكن ان يقوله فيها اشدّنا تألماً واحتداماً .

ومما زادني ثقةً بأهلية اللبنانيين وسواهم من مثقفي الاقطار العربية الأخرى لادارة هذا المعهد ما لمست من كفاءة القائمين على ادارة كلية المقاصد الاسلامية وهي مشروع وطني صرف فلا ينقصنا والحالة هذه سوى التصميم والسعي الحثيث المتواصل للفوز بهذه الأمنية الغالية .

الحكمة الوطنية في لبنان

تاريخ في سطور - إن صلة لبنان بفرنسا قديمة عهد وقد توارث اللبنانيون حبها أباً عن جد وكانت اعزّ أُمّية يجبر بها سوادهم هي أن يروا علمها المجيد يخفق يوماً فوق ربوعهم بدلاً من العلم التركي البغيض . ذلك لاعتقادهم بالتوارث والتقليد أن قد رُكِّب في طبع هذه الدولة الانسانية النزعة حبُّ لبنان واللبنانيين والعطف عليهم والمبادرة الى نجدتهم كلما وقع عليهم ظلمٌ او حلت بهم كارثة . وقد برهن اللبنانيون مراراً على قدرهم لعاطفتها المفترضة هذه فلم يحجموا حتى عن بذل ارواحهم رخيصةً في سبيل نصرتها وتأييدها .

وأى حرج عليهم في ذلك ، على الأخصّ بعد الثورة التحرّرية الكبرى التي جرى فيها الدم الفرنسيُّ انهاراً وأدّت الى إعلان شرعة حقوق الانسان وصيرورة فرنسا جمهوريةً اتخذت لها شعاراً الكلمات الثلاث الخالدة : « حرية . مساواة . إخاء » فاشتهرت بفضلها ، لا عند اللبنانيين فقط بل في العالم بأسره ، بكونها أمّ الحرية ونصيرة الشعوب الضعيفة المغلوبة على أمرها .

ونشبت الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤ فكان طبيعياً أن يتمنى لها حلفاؤها اللبنانيون النصر . ولم يكن الاتراك يجهلون نزعتهم هذه ، فعندما دخلوا الحرب سنة ١٩١٧ الى جانب الالمان طفقوا يرهقون اللبنانيين ويضيّقون عليهم الخناق ، على الاخص بعد ان عثروا في

محفوظات القنصلية الفرنسية في بيروت على وثائق تثبت على بعض
احرار اللبنانيين التجّاهم الى فرنسا لكي تحرّروهم من النير التركيّ
فاعتبروا هذا المسعى حياةً عظمت فلم يعودوا يكتفون بتعقب
الاحرار وسجنهم ونفيهم وشنق بعضهم بل هم حملوا سواد اللبنانيين
تبعاً لتلك الحياة إحلالاً منهم للنية محل العمل وتقديراً أنّ من لم يجهر
فقد أضمر . وعلى هذا الاساس اعتمدوا سياسة التجويع الشامل وهي
أدهى من التشريد والتقتيل وأمرٌ وراحوا ينفذونها بصورة سافرة
لا تقبل التأويل .

وفي اواخر سنة ١٩١٧ وقع اعتداء من جانب الغوّاصات الالمانية
على بعض البواخر التجارية البرازيلية فلم تجد البرازيل بدءاً من شهر
الحرب على المانيا والانضمام الى صفوف الحلفاء ، وبدخلها تحرّج
موقف السوريين واللبنانيين كرهاي للدولة التركية التي اصبحت عدوة
البرازيل ، وبجكم هذا الانتساب كان أفراد الفريقين في ذلك العهد يُدعَوْنَ
اتراكاً فرأى عقلاؤهم في سان باولو أن يعلنوا سوريّتهم ويتصلوا من
تلك التابعة التي اصبحت وبالاً عليهم في بلاد يداؤن فيها وينعمون
بظلّ شرائعها السمحاء فعقدوا اجتماعاً قرّروا فيه أن يجاهرُوا بولائهم
للبرازيل والدول الحليفة ملتزمين اعتبارهم شعباً ضعيفاً مرهقاً أكره
على اعتناق الجنسية التركية ، وطيّروا الى رئيس الجمهورية بروقةً باسم
الجالية السورية في البرازيل يعلنون فيها انضمامهم الى صفوف الحلفاء
ويعرضون على البرازيل دماءهم واموالهم ، كما راحوا يتبرعون لصندوق
الصليب الأحمر البرازيليّ بمبالغ طائلة أربى مجموعها في ذلك العهد على
خمسین ألف ليرة ، او ما يساوي اليوم مليوناً . وقد رت لهم البرازيل
هذا الموقف الولائيّ النبيل فاحتضنتهم وأكرمتهم إكراماً حكومياً
شعبيّاً منقطع النظير .

وبعد أن آمنوا واطمأنوا وصانوا ذواتهم ومصالحهم على هذا

الشكل أنشأوا « الجمعية الوطنية السورية » ، مفوضين اليها العمل بأفضل
 الوسائل الممكنة على رفع الضيم عن إخوانهم اللبنانيين الذين أصبحوا
 عرضةً للموت جوعاً . وراحت الجمعية تستنهض الهمم وتجمع التبرعات
 لارسال المؤن الى لبنان بواسطة جمعية الصليب الأحمر الدولية وتوفقت
 الى شحن باخرة بكاملها من الحبوب والأقوات ولكن جاءهم بعد حين
 أن الاتراك أبوا ان تقوم لجنة دولية محايدة بتوزيع هاتيك المؤن
 مصرين على ان يتولوا هم امره فيكونون الخصم والحكم في وقت معاً ،
 فوثقت الجمعية من سوء نيتهم وعمت على السوريين في جميع انحاء
 البرازيل بلاغاً مؤداه أن لم يعد لديهم من وسيلة لانقاذ إخوانهم من
 براثن الوحش التركي سوى مناصبة الاتراك العداء داعيةً الشبان منهم
 للتطوع وتأليف فرقة تنضم الى أحد الجيوش الحليفة ، وبذلك يثارون
 لاخوانهم ويؤيدون حق بلادهم بالحرية والاستقلال ، إذ لا ادل على
 حيوية شعب من تضحيته بالدماء والأرواح في سبيل حريته واستقلاله .
 وكان الانكليز في ذلك العهد مسيطرين على البحار وفي مقدورهم
 تجهيز متطوعينا وتدريبهم وتسليحهم ونقلهم الى جزيرة قبرص ومن ثم
 الى فلسطين حيث كانت المعارك دائرة لاجلاء الاتراك عن سوريا .
 فاندبنتي الجمعية وزميلاً لي لمخابرة القنصل الانكليزي بهذا الشأن
 فأحسن استقبالنا وأبدى استعدادة لمؤازرتنا ولكنه اشترط تحديد
 عدد المتطوعين لكي يخبر حكومته على اساس راهن فتتخذ الاجراءات
 اللازمة لنقلهم جملةً على باخرة واحدة الى ساحة التدريب في قبرص
 ومنها الى ساحة القتال في فلسطين . ولكننا كنا إذ ذاك في بدء نهضتنا
 نعمل بكل ما لدينا من الوسائل على استفزاز اكبر عدد ممكن من
 الشبان للتطوع فكيف يمكننا تحديد اي عدد ؟ لذلك اعتبرنا أننا
 أخفقنا في مسعانا وعدنا فابلغنا الجمعية نبأ خيبتنا فتقرر أن نولّي
 وجهنا شطر فرنسا فلقينا من لدن قنصلها عكس ما لقيناه من زميله

الانكليزيّ إذ هو ابدى ارتياحه لحُطتنا واستعداد دولته لقبول اي عددٍ من المتطوّعين فتنقلهم من ثغر سنطس أفواجاً تبعاً لمواعيد إبحار البواخر الفرنسية منه ، فعَدنا شاكرين ومبشرين بتلك النتيجة الباهرة .
ورحنا فعلاً نُعدُّ المتطوّعين وتلقى من القنصلية الفرنسية البلاغات عن مواعيد سفر البواخر فنوافيها الى ثغر سنطس بالعدد المتيسر منهم . وكان جميع المتطوعين دون استثناء يُلحّون في الاجار ويطالبوننا بالتعجيل في تسفيرهم ونحن نستملهم ريثا تخين مواعيد سفر البواخر . ولكنَّ عددهم على ما اذكر لم يجاوز العشرات لان حركة التطويع توقفت بعد حين لسبب سياقي ذكره .

وراحت الامور تجري على ما نشتهي ونحن تقابل بادرة فرنسا بالامتنان حتى جاء يومٌ علمنا فيه بقدوم وفد من قبل جمعية سورية أنشئت في باريس بوحى وتوجيه الوزارة الخارجية الفرنسية مؤلف من طبيب من أصل أرمنيّ او حليي يُدعى يوسف لكح وسياسي سوري تاشي يُدعى جميل مردم ، وتخلّف منه الشيخ يوسف الحازن إباءً .

اما قصد تلك الجمعية على ما أبلغنا فقد كان الاتصال بندايتها الفرعية في المهاجر والتفاهم معها على انتهاج خطة موحّدة والعمل ويناها يداً واحدة لا بلاغ عدد المتطوّعين أعلى حد ممكن . وكانت المخبرة بهذا الشأن قد جرت مع بعض اعضاء جمعيتنا ولا علم لهيئتها الادارية به . ومع ذلك تقرر استقبال الوفد في العاصمة ومرافقته الى مركز الحركة في سان باولو .

وفي الاجتماع الاول الذي عقدته الجمعية لاستقبال الوفد الزائر بصفة رسمية والتفاهم معه بشأن الخطة الأجدر بالاتباع اعرب عن حسن نية فرنسا مؤكداً استعدادها للعمل التحريريّ في لبنان وسوريا . ولكن على قدرها للتضحية التي انبرى لبذلها المغتربون السوريون والليثانيون تشترط ان نضيف الى دستورنا مادةً نعترف لها فيها

بحقوقها التقليدية في سوريا ولبنان . وبعد الاطلاع على نص تلك المادة المنوي اقرارها في دستور الجمعية ومناقشتها طُرحت للتصويت فكانت الاكثرية في جانب رفضها وإرجاء البت في مصير البلاد الى ما بعد انتصار الحلفاء وعقد مؤتمر الصلح .

وكانت حجة الاكثرية ان البت في مصير البلاد حق للمقيمين لا يجوز للمغتربين ان ينازعوهم إياه ثمناً للعون الرمزي الذي يبذلونه في سبيلهم بإزاء التضحيات الجسيمة التي بذلها ويبدلها المقيمون ، على ما سبق لي تبينه .

على ان هذه النتيجة لم تُرضِ الوفد الذي اثبت باستيائه منها انه كان مسخراً لبلوغ الغاية الاستعمارية التي تنطوي عليها تلك المادة فراح اعوانه من اعضاء الجمعية يسعون لتحقيق أمنيته بطرح اقتراحه في جلسة تالية اعدوا لها عدتهم بإدخال اعضاء جدد يعتمدون على موافقتهم . وبرغم مخالفة هذا التدبير لدستور الجمعية وكل جمعية سواها ، واحتجاج الاكثرية الفائزة عليه ، رجحت كفة اصحاب المال والنفوذ الذين جهلوا او تجاهلوا سوء نية فرنسا من فرضها تلك المادة التي لا تخرج عن كونها ابتسامة صديق تخفي وراءها نواجز عدو ، او قفازاً مخملياً يستو برائن المستعمر .

وعلى أثر تلك المخالفة الصارخة لكل قانون وعرف ، وفوز الاقلية التي اصبحت في الجلسة التالية اكثرية ، انسحبت وبعض الزملاء من الجمعية ورحلنا ناصبها العداء ونشئ عليها في صحفنا غارات شعواء محذرين المواطنين من بذل دماءهم ثمناً لاستعبادهم بدلاً من أن يتقاضوا لقاء حريتهم المسلوقة ابهظ الاثمان ، ويظنون خاسرين . وهكذا وقفنا حركة التطوُّع ولكن فرنسا لجأت الى أسلوب سياسي بارع هو انها اوفدت سفيرها الى سان باولو ليؤازر الجمعية والوفد فأعلن في اجتماع عام مقسماً بشرف دولته أنها لاتنوي لبلادنا سوى الخير وأنها

منسجبة على أثر تحريرها من النير التركيّ تاركةً لأهلها حق تقرير مصيرهم . ولكنني ورفاقي لم ننخدع بهذه المناورة ورحنا نؤكد للمواطنين انه لا أهون على فرنسا من التنصل من تصريحات سفيرها على اساس أنّ الغاية تبرر الوسطة .

وكان ما كان من امر الانتداب الذي اقرّته جمعية الامم ودام خمسةً وعشرين عاماً لم تبلغ في أثنائها البلاد المستوى الذي يؤهلها للاستقلال . ولولا اندحار فرنسا الاخير لظلت رازحةً تحت وطأته .

هذا بكل اقتضاب تاريخ الانتداب مما قد يحهل السواد تفاصيله لحدوثه في مهجر سحيق . ولكنّ حقيقة ما رميت اليه هو ان أثبت للمقيمين أنّ المغتربين لم يكونو يوماً دونهم في العطف على وطنهم الأصليّ والاستعداد للتضحية في سبيل هنائه وإسعاده ، لا بالمال فقط بل بالارواح ايضاً ، فليطمئنوا وليثقوا بما سبق لي قوله ، وهو أنّ اعداء لبنان فيه لا خارجه .

ومما يجب ان يزيد اللبنانيين والسوريين ثقةً هو امتداد هذا الشعور وانتقاله الى المتحدّرين من الاصليّين السوريّ واللبنانيّ بدليل التظاهرات التي أقاموها في جميع انحاء البرازيل احتجاجاً على ضرب دمشق ، دون فرق بين المتحدّرين منهم من اصل سوريّ او لبنانيّ .

عودة الحكم التركيّ — إن امر الانتداب معروف فقد ضجت منه البلاد وتألّبت على مكافحته بكل وسيلة اكثر شأها الساحقة ، بأحزابها وطوائفها ، ولم ترض عنه سوى أقلية من النفعيين الانتهازيين من باعة الوطن ولو بأكلة عدس . وجاء وقت انتقض عليه امين الريحاني بصورة سافرة على ما سبق بيانه . ولكنه لسوء حظ لبنان عاجلته المنية قبل تقلّص ظل الانتداب عن ربوعه ، في حادث لم يكن في الحسبان . ولكن ما فاتته منذ عقد من السنين أعطي لي أنا بعد عودتي التي لم تكن اقل مفاجأةً من منيئته ، فهو قصد الاتراك بالذات دون أن يخطر له

في بال أنهم سيعودون ممثلين افضل تمثيل بحكومة وطنية تلعب دورهم بشكل يفوق الاصل براعةً وإتقاناً .

لقد حل الرئيس السابق مكان عبد الحميد وفعل فعله وتدرّع بمثل وسائله للاحتفاظ بالسلطان والتشبُّث بسدّة الحكم . والغريب أنه لم ينجس من الفرنسيين الذين عاب عليهم عسفهم وطمعياهم فناوهم وانتهى امره معهم بان اعتقلوه وحجروا عليه في قلعة راشيا فهبَّت البلاد بأسرها تؤيده وتنتصر له ، بما اكرههم على الافراج عنه مع رفاقه وإعادةه الى منصبه حرّاً موفور الكرامة ! ألم ينجس على قرب عهده بهم أن يبدّهم بعد توليه شؤون بلاده في ما استنكره منهم وهم الغرباء الاستعماريون الطامعون، وأعني الاستيلاء على مقدّرات وطنه وتحويله الى مستعمرة يستغلّها ويُرهبق أهلها بمختلف الاساليب المنكرة ؟ ألم ينجس من الذين نصرّوه فخذلهم وأعزّوه فأخذلهم وحفظوا عهده فخانهم وصدّقوه فكذبهم ؟

ولم يكنف بهذا بل هو راح يخدع المغتربين بتصويره لهم حكومته حكومةً مثالية لا يمكن ان تنعم البلاد بأفضل منها ، في رسالته اليهم وما أعرب عنه من المبادئ السامية في خطابه الافتتاحي لدورة الانسكو التي عُقدت في لبنان ، وما ابدى فيه من براعة وسعة اطلاع واستمساك بالمسئل الانسانية العليا ، مما كسب له احتراماً وتقديراً عالميين .

لقد برهن بصورة عملية أن الفرنسيين قد احسنوا الى البلاد باعتقالهم اياه وكانوا ، وهم الغرباء الذين لا يُرجى منهم الاحسان ، أبرّ منه بها ، هو الوطني ، إذ هو كان شرّاً عليها منهم ، وأنه إنما كان يسعى لاجلائهم عنها ليستأثر بالفريسة دونهم !

وكم سمعت من مشيدٍ بذكائه وعلمه وسعة اطلاعه عادّاً إياه، حتى بعد سقوطه ، رجلَ لبنان الاوحد ، فكنت اندب في سرّي وجهرى حظ

لبنان لفقره بالرجال الى هذا الحد الميئس اذ مصيره قطعاً الى الاضمحلال .
 إن الانكايذ على عظمتهم وسعة سلطانهم ابوا الاعتراف لتشرشل الذي
 انقذهم والعالم بأسره بأنه رجلهم الاوحد ، مع انه كان مثال البطولة
 والنزاهة والاخلاص والوطنية الحقة ، فكيف برئيسنا السابق وقد
 برهن على أنه مجردٌ من كل هذه الصفات ؟ إن المتغنين بمقدرته
 ومؤهلاته لا يفرقون في شيءٍ عمن يتعزى عن الاندهاس بكون السيارة
 التي دهسته من نوع فخم انيق وأن سائقها حسناً بالغة حدّ الظرف
 والكياسة والجمال !

لقد اتضح لي على أثر وصولي الى لبنان ان لا فرق البتة بين ما
 كان عليه يوم غادرته منذ نصف قرن خلا وما صار اليه سنة ١٩٥٢
 التي عدت فيها اليه . فلا اختلاف إلا في المظاهر والتسميات ، ا.ا في
 ما عدا هذه فكل شيء فيه باقٍ على حاله : طغيان وإقطاعية ورشوة ،
 محسوبيات ووساطات وشقاعات ، فقدان امنٍ ودوس حقوق
 واستهتار بمصالح الناس ، ظلمٌ وفقرٌ يفرّ منهما من استطاع ويقاسي
 مضضهما من بقي ، ولا يأبه لهما من كان منهما بمنجاة .

وما الذي كان في زمن الاتراك اكثر من هذا ، فهل انا فريسة
 خداع السمع والبصر وأنني في لبنان في عهده الاستقلاليّ النيابي ،
 الذي سمعت به وقرأت عنه وهماً ، وفي العهد التركيّ فعلاً ؟

ولا عبرة مجرية الفكر وانطلاق اللسان والقلم ما دام العقاب
 الصارم منتظراً من يعثر لسانه او يزلّ قلمه ، ومفسرو الرموز من
 رجال القانون كمفسري الأحلام لا تحفاهم خافية . فاذا كنت الناقد
 حاذقاً حذراً ولم يقع في الفخ كان عقابه إغارة ما يقوله أذنأ صماء ،
 فالمسؤول الاول لا يصغي للصيحات وإن تعالت ، ولا يأبه للتهم مهما
 تكن صائبة . ومن لا يذنبه من غفلته الصياح لا يمكن أن يلقي بالاً
 لما يُطلقه الشعب من شكوى وتذمر وأنين ، فمذهبه مذهب نيتشه القائل :

« إن المغلوب لا يجوز أن يُترك له سوى عينيه ليبكي بهما ». ولو هو شاء
 الاصغاء لما استطاعه لأن زمرة الشر والفساد التي أحاط بها نفسه تلجأ
 إذ ذاك إلى قرع الطبول ونفخ الابواق فتجرف كل صوتٍ مهما
 اعلو ، وكلٌ منهم نداءً لأبي الهدى الرفاعي وأحمد عزّت العابد في
 تخدير وجدانه لينفسح لهم المجال للعيث والافساد والارتكاب ، متخذين
 اسمه تعويذةً ، لعلهم أنه محاطٌ بهالة من التقديس تحول دون تناوله
 بكلمة سوء ، فأسلوب الحكم في لبنان ديموقراطيٌّ على غرار الولايات
 المتحدة الاميركية ولكنه في ما يختص بالرئيس ملكيٌّ على غرار إنكابترا
 دونما أيّ نظر إلى الفرق البين بين الدولتين من حيث انطلاق يد
 الرئيس وتقيد الملك التام بإرادة شعبه ممثلاً بمجلس العموم .

حتى إن لجرائدنا العربية في أميركا ملء الحرية في تناول الرئيس
 وسمعته على ما تشاء وأن تقول فيه ما لم يقله مالك في الحمر دون أن
 يجرؤ على إسكاتها لأن حرية الفكر والقلم واللسان في بلاد العم سام
 مقدسة ، بينما جرائدنا في لبنان مقيدة بواجب احترام الرئيس إلى
 حد أن تكذب سمعها وبصرها إذا هو اتى امرأً فرياً .

ولا ننسَ إلى كل ذلك أن كل رئيس تولى شؤون الولايات
 المتحدة الاميركية غادر كرسيّ الرئاسة أفقرَ منه عندما جلس عليه ،
 فعلامٌ تتشبه به في سلطانه ونخالفه في تنزّهه ؟

افمن أجل هذا المصير جاهد اللبنانيون في لبنان وخارجيه وملاؤوا
 اسماع الكون بتغنيهم بلبنانهم العزيز بعد أن أصبح دولةً مستقلةً
 ذات سيادة ومكانة بين الشعوب ؟

ولكنّ هذا هو الواقع فقد تحرّروا من حكم الاجنبيّ ليستعبدهم
 إخوانُهم في الوطن والجنس . فلبنان كان دولةً في الخارج ومزرعةً
 في الداخل يستغلها الحكام والاقطاعيون والمتمولون من ابنائه ، فما
 كان اشبهه بالقبر المكس !

فيا حُبيبة الامل مجيبس راشيا وأعوانه الذين غضب الشعب لما وقع عليهم وأعدّ عدته لبذل دماؤه لفك إسارهم وإعادةتهم الى مناصبهم معزّزين مكرّمين .

وإن ما استفاده الرئيس واعوانه من اموال الامة لا يُعتبر شيئاً مذكوراً بالنسبة الى الضرر الادبيّ الذي ألحقه بالبلاد باساءته اخلاق اهلها وإفساد ضمائرهم ، اذ ان الناس على دين ملوكهم .

تلبية النداء — كان من حقي وقد عدت الى وطني لبنان بعد نصف قرن كامل من مغادرتي إياه للمرة الاولى أن اطفر وأغني ولكني وجدته في مأتم فاستحال عليّ إبداء الاعتباط والابتهاج . وما على المرء إن هو سمع نداء فلبى ، على الاخص اذا كان المنادي وطنه الحبيب .

لقد طرق سمعي هذا النداء منذ سنوات لا تقلُّ عن سبع ، وكان المنادي اللبنانيُّ الأول ، بل بالأحرى المسؤول الاول في ذلك العهد عن كيان لبنان ومصيره ، ثم تکرّر بلسان مسؤولين آخرين .

لبنان ينادي ابناؤه المنتشرين في كل صقع وتحت كل كوكب أنْ عودوا الى وطنكم الباسط ذراعيه لاعتناقكم وضمكم الى صدره الحنون وكانت النداءات كلها عاطفية وعلى وتيرة واحدة متفق عليها . لبنان يرحّب بأبنائه المغتربين دون ان يطمع منهم برفد او عون . إنه يريدهم أن يعودوا اليه بعد طول الغياب ومرير الكفاح ليتمتعوا في أرجائه ، سهلاً وجبلاً ، بالراحة المستأهلة ويطفئوا بعودتهم شوقهم اليه وشوق إخوانهم المقيمين اليهم . إنه يريد قلوباً لا جيوباً .

ذلك أن لبنان لا يحتاج الى مال لانه ليس مديناً لأحد ، وموازناته السنوية المتتالية متعادلة الكفتين ولديه للطوارئ مالٌ احتياطيٌّ فهو في مأمنٍ حاضراً ومستقبلاً .

اما النداء الاول الذي أشرت اليه فهو رسالة الرئيس السابق التي

حمل السفير الأول للبنان لدى الحكومة البرازيلية نسخةً منها ، وشاء صديقي الصناعي الكبير عزيز نادر ، الذي اشتهر بصدق وطنيته وأريحيته ، أن يعممها بنفقته فعهد إليّ بطبع خمسة آلاف نسخة منها لتوزيعها في جميع انحاء البرازيل ، فنصّدت حروفها بيديّ إذ لم اعثر في ذلك العهد على منضد ذي كفاءة .

وبلغ من اقتناعي بصحة ما جاء فيها وتحمّسي بسببها للعهد الوطني الجديد ورجاله أني نظمت لحفلة استقبال السفير في النادي الرياضي اللبنانيّ ابياتاً كان من حسن حظي أن حالت موانع دون إلقيائها في تلك الحفلة ، وأكتفي الآن بإيراد بضعة منها .

قالوا استقلّ فقلتُ شيءٌ حاصلٌ ما كان تخلقُ النورِ جديداً
لبنانُ في العهدِ القديمِ مسودُّ أيكونُ في العهدِ الجديدِ مسوداً ؟
ما ذلّ إلاّ للاله تعبداً لا يُحسبُ المتعبّدون عبيداً
ابناؤه مثلَ النجوم تناثروا وغدوا له خلفَ البحارِ جنوداً

أما الرئيسُ فكلّنا نشأه ومن القساوة أن يظلّ بعيداً
فقدومه هو للجميع « بشارته » وأرى قدومكم له تهيئداً
ومتى أتى « الخوري » أصبح « شيخنا » وله أقمنا كلَّ يومٍ عيداً
ولكن ابن تلك البشائر السارة مما تتألى نشره في الصحف شهراً بعد
شهر وعاماً بعد عام وكله مما ينفي ما جاء في تلك الرسالة المزيّقة التي
شاءها الرئيس ان تكون طعماً جذّاباً

ولكنّ المطالبة بنت الاقتناع والاخلاص والثقة بطهارة الذيل
ونقاء الصفحة ، لذلك رأينا حكومة العهد الجديد في سوريا لا تكتفي
بمطالبة المهاجرين ببذل العون لوطنهم بل تنعى عليهم تقصيرهم في أداء
الواجب ، مع أنهم لم يكونوا يوماً من المقصّرين . وقد فعلت ذلك
بلسان وزرائها المفوضين في بلدان المهجر قائلةً لمواطنيها إن هذا الوطن

لنا ولكم وعليكم نحوه ما علينا فعلاّم نخدمه نحن المقيمين وتتقاعدون
انتم المغتربين عن نصرته .

وكم رأيت في لبنان من الأنانيين الجشعين الذين بعد أن ظفروا
بثروات طائلة بفضل تواطؤهم مع حكومة جائرة على اكثرية شعبية
كادحة في سبيل القوت اليوميّ باتوا لا يباليون بما يحلّ بالبلاد وأهلها
من ضيق وأزمات خانقة . وطالما سمعتهم يبارون الحكومة في تبجحها
بأن لبنان في نعيم بفضل ما يعتمد عليه من الموارد غير المنظورة التي
حيرت الخبراء الاقتصاديين ، لانه وهو يُصدر وشلا من الضروريات
ويستورد مجرأ من الكماليات على اختلافها لا يبدو عليه شيء من ادلة
العجز الماليّ . اما وهذا هو الظاهر فلا يهم الحكومة ولا الجشعين ولا
الخبراء أن لا تكون حاجات تسعة اعشار الشعب الضرورية مؤمنة .

ولو لم يكن لصاحب الفخامة وحاشيته من الأبناء والاخوة
والأعوان والمحاسيب نصيب كبير من هاتيك المبالغ الطائلة التي
استجلبت بها هاتيك الكماليات التي تستنزف دم البلاد لكان الافضل
أن توظّف في مشاريع إنشائية ، زراعة وصناعية وتعددية ، تريد
الانتاج المحليّ وتُرخص الحاجيات بدلاً من إغلائها وإكراه الطبقات
المتوسطة والعاملة والفقيرة على ابتداع الأصناف الضرورية المستجلبة
بأسعار فاحشة ، او تجوع وتعري . ناهيك بالأساليب الترويجية التي
لجأ اليها الجشعون ليزيّنوا للشعب استنزاف المحفوظات والمقدّات
والأشربة والمرطبات الأجنبية ، وقد مازت الطبيعة الجوّادة بلاده
بخير ما يؤكل ويُنتهل لو صحت النيات وتضافرت الغرائم على إنتاجه
بمقادير تفيض عن حاجته ، وأخص بالذكر الماء العذب المبذول . وفي
متناول اليد مزجه بما يفضل الرحيق مما تنتجه بساين لبنان من
مستقطرات الأزهار وعصير الاثمار ، ويهيء تحضيره سبيل الارتزاق
لالوف العاملين .

وصاحب الفخامة وأعوانه لا يجهلون أن عودة المغتربين لا تقل
استحالةً عن استئزال النجوم من أبراجها ، ولكنهم اتخذوا النداءات
العاطفية وسيلة بارعة لدغدغة عواطف النازحين واستدرا عطفهم على
ذويهم فيوالون إغداق النقد النادر عليهم بمقادير اوفر تتسرّب في النهاية
الى ايدي المستوردين الذين يؤدون لهم الجزية عما يأذنون لهم باستيراده
من الكماليات الكفيلة بزجّ البلاد بعد سنوات معدودة في وهدة
الافلاس .

وإذن كان تبجح بعضهم بالموارد غير المنظورة من قبيل ذرّ الرماد
في العيون ، إذ ما تلك الموارد المحكيّة في الواقع سوى المنظور المأموس
من اموال المغتربين التي يُساء استعمالها فيزاد بها الاغنياء غنىً والفقراء
فقراً ، دون استثناء أولئك الذين يتلقونها من ذويهم في المهاجر ، فمتى
يخجل اصحاب السطوة والسلطان في لبنان من ذواتهم فيتورّعون عن
ابتزاز اموال المهاجرين بهذا الأسلوب الشائن المنكر ؟

ولكن اذا هم لم ينجحوا او يرعوا فليعلموا أنهم بسلو كههم على هذا
الشكل يهدون لسقوطهم هم في الحفرة التي يحفرونها لاخوانهم المجاهدين
عبر البحار ، لانهم وهم بمثابة احجار مزخرفة تتوّج البناء سينتهي امرهم
بالسقوط من شاهق بانتزاعهم بأيديهم حجارة الأساس المتواضعة التي
يقومون عليها . او هم شبه شيء بمن يقف على غصن ويقطعه بيده من
أصله . وما هاتيك الحجارة سوى الشبان الذين يأبون أن يهبطوا لهم
سبيل العمل والانتاج ويكرهونهم على هجر البلاد فلا يبقى فيها من
يستطيع ان يستنزف مستورداتهم فتكسد ويحل بهم البوار .

وما الشبان الذين يهاجرون سوى الصفوة من اهل البلاد بشمهم
وإبائهم وعلوّ همّتهم . ولا يتخلّف فيها سوى العالات من خائري
العزائم الوكاين المستجدين وظيفهً ولو إسميةً تدرّ عليهم القوت الذي
لا يستأهلونه . وبمثل هؤلاء تزداد البلاد فقراً وشقاءً .

إن مورد الهجرة آخذٌ في التقلص تدريجاً بموت المسنين ، ورهن الانقطاع التامّ بعد عشرين عاماً على الأكثر ، وإذ ذاك يصبح اغنياء اليوم في طليعة من يفتقرون بانقطاع ذلك المورد الذي يتسرّب الى جيوبهم بأساليبهم المتقدم ذكرها ، فسبيل لبنان إذن هو الاعتماد على نفسه واستغلال موارده الطبيعية الى ابعد حد ممكن ، حتى لا يبقى فيه شهر واحد غير مُستغلّ . وقد استُمت بمنتهى الارتياح والاغتباط ما يقوم به بعض الافراد في المناطق الجبلية التي تعلو عن سطح البحر زهاء تسعمئة متر ، وتصلح بفضل هذا السموق لزراعة التفاح ، فيجوّلوت تلك المنحدرات الى مدرّجات مسطحة تضمن استقرار الاغراس واستفادتها من التربة وماء الريّ فتتمو وتعطي خير الثمار . وليس افضل من ان تنشّط الحكومة هذا النوع من الزراعة وتعممه بتسليف المزارعين قروضاً بفائدة زهيدة طويلة الآجال وإعفائهم من الضرائب سنوات معدودة ريثما تزدهر مزروعاتهم وتغلّ .

بعد هذه المقدّمات انتقل الى موضوعيّ الرئيسيين وهما الانتاج وعون المغتربين :

الانتاج — القاعدة الاساسية للانتاج هي ان يكون على قدر الحاجة لانه اذا زاد فسدت الزيادة او كسدت وضاع ما أُنفق في سبيلها من جهد ومال ، واذا نقص اورث النقص كارثةً . ولنا على ضرر الزيادة امثلة صارخة ، منها إحراق مقادير هائلة من القطن في اميركا الشمالية والقمح في الارجنتين ، والبن في البرازيل ، والشبان في الحاضر كما في الماضي السحيق في لبنان . لذلك تحدّد الدوائر الزراعية الانتاج من كل صنف بمقدار يكفي للاستنزاف المحليّ وما يمكن إصداره الى الأسواق الأجنبية ، وتحتاط بكل الوسائل للحؤول دون النقص .

ويسري على البشر الحكم نفسه ولكن بصورة غير مدرّكة إذ لو هم أعطوا الخيار لاختار كلّ منهم ، له اولبنيه ، أعلى المناصب ولاختلّ

التوازن بنقص الايدي التي تعمل وتنتج وقمارس مختلف المهن التي
اصطلاح الناس على اعتبارها دنيئة . ولكن القوة الخفية الحكيمة
المدبرة تنقذ البشر من انفسهم وتكمل نقصهم بإعدادها القدر الكافي
لكل مجتمع من الزراع والصناع والباعة والساقة والخدم والجالين
والزبالين الخ .

اما الوسائل التي تعتمد عليها فما يستنكره الناس لضعف مداركهم
وقصر نظرهم وضيق أفق تفكيرهم ، كأن يكون الوالد كسولاً
او سكيراً او مقامراً او مُقعداً بحكم مرض او عاهة فيعجز عن تعليم
اولاده وتهذيبهم فينشأون مُعدّين بطبيعتهم للاخذ بهاتيك المهن ،
بينما أن البنين الذين يستطيع والدوهم تعليمهم وتهذيبهم ينتهي امرهم
بالظفر بالشهادات العالية وتسئم المناصب الرفيعة ويكون منهم اصحاب
المهن الحرة كالأطباء والصيدالة والمهندسين والمحامين وأصحاب المتاجر
والمصانع والمزارع الخ .

وعندما يزيد او ينقص عدد اية فئة عن المقدار اللازم يختل التوازن
وتحدث الازمات فتسبب انخراط الرفيع وارتفاع الوضع ، تبعاً لمقدار
الزيادة والنقص الحاصلين

وإذن فبانتفاء عامل الاختيار ينتفي كل مبرر للمفاضلة بين الفئات
المختلفة الا بمقدار تجلية او تقصير كل من افرادها في القيام بواجبه
وإحسانه او إساءته عمله . لان كل مجتمع لا يخرج عن كونه آلة متعددة
القطع والاجزاء ، ولكل من اجزائها مهما جلّ او هان وظيفته ،
وسيان تعطل او نقص اي منها على السواء اختلت الآلة بكاملها
ووقفت عن الحركة والانتاج .

ونظراً الى كثرة عدد المتعلمين في لبنان والتهافت البادي على
تحصيل العلوم العملية على قلة ، والنظرية على كثرة ، فلا ندري لماذا لا
تتدخل وزارة التربية لتحديد الانتاج من الصنفين للحوول دون

صيورة العلم كارثة على البلاد ، وهو من الضرورة بمثابة النور والهواء والماء . ولكن الذي يضيره هو إساءة فهمه او استعماله إذ هو يولد عند من يزدانون به من انبائنا عكس المراد منه : إنه على ما رأيت وثبت لي يولد فيهم صلفاً وكبرياء وترفعاً عن صنوف الاعمال ، اذا لم يتبها لهم ما يطمحون اليه من المراكز التي يعتبرونها رفيعة ، لان الذين يتولونها عندنا يسيئون استعمالها ايضاً ، وفي طليعتها الوظائف الحكومية ، بينما الدوائر بأسرها تشكو التخمّة والاكتظاظ . فإذا أصرّ المتعلم على شغل وظيفة تليق على زعمه بمقامه ، وإلا قعد عن العمل ، اصبح العلم لعنة بدلاً من أن يكون بركة ، وشرّاً على البلاد بدلاً من أن يكون خيراً .

وعلى مفاخرتنا بالاستقلال وإنكارنا على الاجانب حق التدخل في شؤوننا ، لماذا لا نعلم الى الاستقلال في الرأي فنتمهد احوالنا بالاصلاح تبعاً لوضعية بلادنا الخاصة والظروف الاستثنائية التي تحيط بنا ، بدلاً من أن نلجأ الى محاكاة من ليسوا في مثل حالتنا إذ رُبّ دواء افاد غيرنا كان ضاراً بنا .

او اذا نحن اصررنا على التقليد فعلام لا يقتدي المتعلمون منا بأندادهم في اوربا وأميركا حيث يُعتبر العلم صقلاً وتكميلاً ، ولذلك يُطلب لذاته لا لما قد يؤدي اليه من ربح او خسارة ، فكم بينهم من حملة الشهادات العالية يعملون زراعاً وساقّةً وندّلاً ، الى ما لا يقع تحت حصر من صنوف الاعمال . وهم المفضّلون لانهم بحكم ما تحلوا به من علم وتهذيب يحسنون كل عمل يقومون به اضعاف ما يحسنه الجهلة والسوقة ؟

وعلام ، ونحن في بلد الاسعاع ، لا نلجأ الى الابتكار غير آبهين لما يتقيد به سوانا من تقاليد وعادات ومصطلحات فنعمد - وبلادنا صغيرة لا تقوى على الدفاع ولا يحميها سوى الضمان الدولي ، كما هي

لا تصلح للاكتساح ولا هي تنويه - الى نوع آخر من التجنيد غير
 مألوف عند سوانا من الشعوب ، وأعني التجنيد الزراعي فنفرضه كما
 نفرض التجنيد العسكري على كل فتى بين السادسة عشرة والثامنة
 عشرة ، بعد أن يكون قد حصل على الشهادة الابتدائية ، فيعمل مدة
 ثلاث سنوات في مزارع نموذجية تنشئها الحكومة بدلاً من السكن
 والمسكرات فتفيد بها وتستفيد منها . وقد يألف بعض أولئك الفتيان
 العمل الزراعي ويستسيغونه فيثابرون عليه ، وتزداد البلاد به انتعاشاً
 وازدهاراً . وإذا هم عافوه بعدها ظلّ لديهم متسع من الوقت
 لاستئناف دروسهم والفوز بالشهادات العالية ، ولكنهم يكونون
 قد تعلموا الزراعة وألفوها فلا يعودون يستنكفون من تعاطيها اذا
 اضطرهم الظروف ، بدلاً من ان يلجأوا الى الكسل والبطالة ؟

هذه خواطر عرضت لي على أمل أن يُنظر اليها بعين الاعتبار
 وتوضع موضع الدرس والمناقشة للتثبت من فائدها وإمكان تنفيذها عملياً
عون المغتربين - إن عون المغتربين لأهلهم وذوي قرباهم في الوطن
 الاصلي ، ، او استعانة هؤلاء بهم ، قديماً عهد كالهجرة نفسها . فكان
 المغترب اذا ما ردّ اكلاف سفره التي كانت في المتوسط عشر ليرات
 انكليزية بدأ تبعاً لتحسن احواله يطالب نفسه او يطالبه ذووه بما يسد
 بعض الحاجات الدائمة او العارضة على قاعدة :

إنّ الكرام اذا ما ايسروا ذكروا من كان يألفهم في المنزل الحشن
 وكانت اكلاف السفر يؤديها الآباء او بعض القادرين من الأنساب ،
 او تستمدّ اقتراضاً بكفالة او رهينة . ولكن كم اتفق لراغب في
 الهجرة أنّ لم يكن يملك مالاً او ليس لديه ما يرهن او يُباع فاضطر
 الى رهن نفسه باقتراضه اكلاف السفر من مرابٍ جشع يغتم فرصة
 حاجته لاستغلاله كما تستغلّ السوائم فيشترب عليه أن يشاطره ثمة جهاده
 سنوات معلومة كشريك مضارب فأمضى له بذلك عهداً معزّراً

بتواقيع الشهود . وقام جلُّ المقترضين على هذا الشكل بعهودهم ، إذ كانت الأمانة والوفاء في ذلك العهد لا يزالان من الحلى الخلقية التي لا يتنزّل عنها أصحابها بأيّ ثمن .

ومع الزمن أخذت الدائرة تتسع ، متناولةً أولاً الحاجات القروية كتزويد الكنائس أو تشييد المدارس أو فتح الطرق . وكانت المطالبة في بادئ الأمر تجري بالمكاتبة ، ولكن ، بفعل التقاعد أحياناً من جهة المغتربين وتفاقم الحاجة عند المقيمين ، لم تعد هذه تفي بالغرض فراح المقيمون يأتمون بالقول المأثور : « ويفعل السيفُ ما لا يفعلُ القلمُ » ويشدّون الرحال معتمدين على فعالية الحضرة والصوت الحيّ فيحسن المغتربون استقبالهم ويكرمون مشاؤونهم ويعودون مزودين بالمقدار اللازم من المال وفوقه . ولكنّ الاستدراء لم يساوق ازدياد الدرّ إذ في العقود الثلاثة الأخيرة أصبح الوشل مجراً ولكنّ المستقين ظلّوا مكتفين بالوشل لعدم حاجتهم محلياً إلى أكثر منه فكان يقتضي إذن أن تقوم في البلاد هيئات أو منظمات تنشئ مشاريع أعم وأنفع يتسع بها النطاق ويصبح أوفر قابلية للاستيعاب ، ولكن هذا ما لم يفتن إليه أحد ، كما أنه لم تقم في البلاد حكومة واحدة تنبّه إلى هذا الموضوع الخطير وتعيّره ما يستأهله من الالتفات والاهتمام ، لذلك ظلّ كنز الهجرة الثمين مقلّلاً . ونتج عن ذلك الإهمال الذريع أن المهاجرين انفسهم دانوه وراحوا يسجلون على المقيمين تقاعدهم وتقصيرهم ، كما يثبتون قابليتهم للدرّ لو وُجد في البلاد مستدرّون بما انبرى بعضهم لإنشائه من المشاريع النافعة ، على ما تقدم من الأمثلة .

أما أبلغ ما أثرته من أدلة عطف المغتربين على ذوي قرباهم في الوطن فهو أن إحدى نزيلات مأوى العجزة الذي أنشأته جمعية اليد البيضاء في سان باولو اقتصدت في غضون سنوات مئة ليرة من مرتب شهريّ استمددته لها من سيدة نبيلة كريمة ، وشاءت أن تبعث

بها معي لأخ لها في بيروت ، ثم حملتها لهفتها على اختيار شخص سبقني في القدوم ، وبقي لديّ عنوان أخيها الذي عثرت عليه آخرّاً بين محفوظاتي .

لقد فانت لبنان فرصتان لاستعادة عدد كبير من المغتربين بأموالهم وخبرتهم : الواحدة على أثر انتهاء الحرب الكبرى الاولى وتولي فرنسا الانتداب عليه وعلى سوريا ، عندما أخذ الكثيرون بما اشتهر عن فرنسا من أنها محرّرة الشعوب وواضة شرعة حقوق الانسان فتوقعوا لوطنهم في عهدها حياةً عدلٍ وأمنٍ ورخاء وراحوا يتأهبون للعودة ، حتى إن بعضهم صفى اشغاله فعلاً وعاد بثمرة جهاده ليستغلها في وطنه وبين اهله وذوي قربه ومواطنيه ، ولكن لم تنقضى على عودة الطليعة أسابيع معدودة حتى قفل العائدون الى المهجر نادمين على تسرعهم ، لا لما حلّ بهم من خسارة او فاتهم من كسب بل لفقدانهم في وطنهم ما كانوا يتمتعون به في غربتهم من حرية وأمن ووصون حقوق . وبطبيعة الحال اتعظ إخوانهم بمثلهم فوقف منهم من كان على أهبة اللحاق بهم عمليات التصفية واستأنفوا اشغالهم شاكرين الله على استفادتهم من تسرّع سواهم .

وكانت الثانية عندما استقلّ البلدان وتولّت إدارة شؤونهما حكومتان وطنيتان ، فشعل لبنان عن التمهيد لعودة مغتريه بكل ما يزيدهم تشبّثاً بمهاجرهم ، ولم يكن لبلوغ أمنيته في حاجة الى اكثر من إجراء العدالة وتوطيد الأمن وإحلال النظام محلّ الفوضى والحوول دون هجرة المقيمين بتهيئته لهم سبل العمل والارتزاق ، وإلا استمرّ سيل المهجرة وكان استمراره نذيراً للمغتربين بسوء الحال والعقبى ومنقراً لهم من العودة ، فكيف وقد ثبت لهم أنّ من كانوا يدعّون الوطنية والاخلاص لم يكونوا يرمون من وراء مناواة فرنسا والعمل على إجلائها عن البلاد الا الى الحلول مكانها وبذّها في سياسة الارهاق

والاستغلال ؟ وقد احسن المغتربون هذه المرة إذ هم تعلموا من سابقتها فلم يتسرعوا ولم يغالوا في تفاؤلهم ، وكانت نتيجة تربيّتهم المحمود أنهم أدركوا بعد زمن قصير أن الانقلاب كان إسميّاً ولم يجرّ التبديل الا شكلياً .

ولكنّ انقطاع امل المغتربين من العودة إلا مستجمّين او منتجعين لم يُنسهم واجبهم نحو وطنهم فراحوا يوسّعون دائرة غوثهم له ، منبرين من تلقاء ذواتهم لانشاء مشاريع نافعة تتكافأ وما اصبحوا عليه من بسطة ورخاء ، إن كان في سوريا ام في لبنان ، على ما تقدم بيانه . على ان المشاريع الفردية التي قام ويقوم بها افاضل المغتربين وكرامهم لا تعدو ، على جسامتها بالنسبة الى نبل العاطفة التي اوحتها وتوحيا ، أن تكون علاّات او سواقي مبعثرة لا يترتب عليها كبير فائدة . فلكي تأتي بالفائدة المطلوبة يجب تحويلها الى مجرى واحد يتدفق فيروي ويندفع فيحرك ويولّد .

إن الحاجة الى مشاريع حيوية يشترك في إنشائها اكبر عدد ممكن من المغتربين ، ولو بمبالغ زهيدة بالنسبة الى ثروتهم الضخمة ، فتحصل من هذا التعاون المنظم فوائد ذات شأن وخطر في ترقية البلاد وإنعاش اقتصادياتها وانتشالها من الوهدة التي زجها فيها الافراد الأناينيون الجشعون .

لقد فاق اللبنانيون العزّل الانكليزَ بفتحهم السامي والتوسع فيه الى اقصى حدٍّ ممكن ، ولكنّ هؤلاء عرفوا بفضل التنظيم وإحسان الادارة كيف يستفيدون من ملحقاتهم عبر البحار واستبقاء سيطرتهم عليها ، وعجزنا نحن عن الاحتفاظ بأيّ منها وأصبحت على وشك أن تخرج من ايدينا الى الابد ونصبح كأننا ما فتحنا ولا غمنا .

وبينما هم انتقضت على فتوحاتهم قرون عديدة ولا يزالون محتفظين بجلّ ذلك الملك الواسع نرانا نحن على وشك ان نضيع جميع ممتلكاتنا

نهائياً في أقلّ من قرن واحد . فهل رأى الانانيون الذين تولوا الحكم
اية كارثةٍ انزلوها بوطنهم ؟

ولا عبرة بالثروات التي جنوها ما دام جشعهم قد أدّى الى سقوطهم
ونبتهم ، فالمال لا يفي بفقدان الكرامة ومصيره الى الزوال ، ولكن
العار الذي لبسوه لا يُحى . وما أصدق ما قاله الفيلسوف بايكون :
« إنَّ أسوأَ الأحياء حظاً هو ذاك الذي يمشي في جنازة صيته » .
ولهان الامر لو انه اقتصر على الاستغلال غير المشروع ، فالمال معوّض
ولكنّ المصاب الاكبر والأدهى هو أنّ سياسة الفساد التي اعتمدها
انتقلت بالمثل والقذوة والعدوى والضرورة الى الشعب بأسره فانحطت
الاخلاق وانعدم التهذيب الاجتماعيّ وتحوّل معظم السكان الى وحوش
ضارية لفقدان كلّ منهم ثقته حتى بأخيه واعتقاده أنه إذا ظلّ حملاً كان
نصيبه الافتراس ، وأن سبيله الوحيد هو ان يكون ذنباً مفترساً .

إنّ للبنان في الخارج ملكاً يفوقه سعة ألف ضعف ، وثروة تجعله
نسبياً أغنى بلدان العالم ، دون استثناء الولايات المتحدة الاميركية .
فما اعظم غبنه لانه لم يستطع أن يستفيد من هذا الخضمّ العظيم الا
رذاذاً لا ينشّ فضلاً عن أن يطفى عطشاً . ولكن إذا كان قد فاتته جلّة
هذه الثروة الفلكية فلا يزال لديه مجالٌ لاستفادة بعضها ، ولكنّ للفوز
بهذا البعض شروطاً اذا عمل بها ضمن كيانه الى الابد وإلا ظلّ عرضةً
للأحداث .

ولبنان في وضع خاصّ يختلف عن سواه من جميع الاقطار
العربية إذ في خارجه ما يقرب من عدد المقيمين من سكانه . ومهما
بلغ من اغترار المقيمين بما وقع لهم من ارباح طائلة بسبب ظرف
عارض إبان الحرب العظمى الاخيرة وما غنموه بفضلها من اموال
وأرزاق وعتاد عندما جُنّ جنون المحاربين فباتوا لا يعرفون للمال قيمة
ولا يحسبون له حساباً وراحوا يُغرِقون البلدان الفقيرة المحتلة بجميع

مقومات العيش يحسبونها هباءً . ذلك لان مصير كل ذلك الى الزوال ، فكل ما لا ينبع ينفد ، والعمدة على الموارد الدائمة الثابتة ، وهذه تنقص عن الحاجة في زمن الاستقرار . كما أنه قد ثبت تبخّر احتياطيّ الحرب وبدأ العجز يظهر في الموازنة ، برغم التبجح المعهود بالموارد غير المنظورة .

ومن يدقق في الأمور ولا يؤخذ بالأوهام يرّ ويشعر ويلمس اليأس والضاوة البادين في سلوك سواد السكان على اختلاف طبقاتهم : من باعة وتجار وصناع وزرّاع وملاّكين وفندقيين وسوّاقين ، فإنهم لا يرون في المقيمين من إخوانهم سوى عظام او ذئاب مثلهم لذلك يحصرون همهم في افتراس الحملان القادمين من الخارج ويغالون ما استطاعوا في استغلالهم ، وهذا طبعاً ينفّر الزائر ويجمله على إطلاق لسانه عند عودته فينفّر بدوره سواه من القدوم .

ولا يكفي أن يلوّح المقيمون للمغتربين بجمال لبنان وجودة هوائه وعدوبة مائه وكثرة وسائل التمتع في ربوعه ، فهذه كلها من هبات الطبيعة لا من صنع أيديهم . وكل ما يستطيعونه هو أن يُديّلوا من محاسنها ويحوّلوها الى قبح ويمرّروا حلاوتها بالوسائل التي تقدم ذكرها فلا يعود يستسيغها احد .

والواقع هو أنّ امل لبنان الوحيد ومستنده الاكيد اصبح ثروته في الخارج ، وهو ثروة قارونية لا اقول بإمكان نقلها لانه مستحيل إذ هي صارت او صائرة بعد قليل الى ايدي اعقابهم الأجانب عنهم ، ولكنّ الممكن هو اغتنام بعضها من اصحابها ما داموا في قيد الحياة ، لا هبة لكي تبدّد كما بُدّد سواها مما كسبه لبنان في الظرف الاستثنائيّ الذي تقدم ذكره ، بل لتوظّف في مشاريع حيوية توجد موارد وتهبّ عملاً لألوف العاطلين وتحول دون هجرتهم . والذي أقول به هو الاعتدال الى اقصى حدوده لان الطمع بالاكثر يُفقد الأقلّ . ويجب

أن يكون اعتماد لبنان على كياسته ولباقة وحذق وبراعة ممثليه في الخارج فيحملون المغتربين على المساهمة في هاتيك المشاريع، ولكن بعد أن تَوَلَّف للقيام بها شركة وطنية تدعو المغتربين الى الانخراط في سلكها والمساهمة في تسييرها وإدارتها وتوجيهها ، وتقوم على اساس اقتصاديٍّ مجتهد الى الانتاج الذي يعود بالنفع على البلاد وفي الجهد ورأس المال . وتظلَّ أسهم المغتربين إرثاً لأولادهم فلا يكون ارتباطهم بوطن آبائهم عاطفياً فقط ، بل نفعياً ايضاً ، وبذلك يصبح من مصلحتهم إثارة لبنان كمنتجع فيتمتعون فيه وفي الوقت نفسه يتعهدون العمل الذي هم بعض اصحابه . وهذا هو المعقول والمضون والدائم ولا يحتاج الى دعوة وتشويق وإقناع . وليكن اسم الشركة: « الشركة الوطنية للزراعة والصناعة والتعدين » .

والذي أقدم وفتح وكسب مجده واجتهاده ثروةً يتركها لأعقابه لا يُعقل ان يُستكثر عليه ، لا من جهة اولاده ولا من جهة حكومة البلاد التي جمع ثروته فيها ، الحقُّ بأن يوظَّف في وطنه الاصلي الذي زوَّده برأس المال من واحد الى عشرة بالمئة منها يستغله في وطنه ويخلِّفه فيها لورثته .

فاذا كانت إدارة الشركة منظمة ونزيهة وحكيمة تتضاءل امامها النقطة الرابعة بقيود وشروط وتسخير لأغراض وتعريض لحروب تذهب برأس المال والغلة .

ولو جعلنا رأس مال الشركة خمسمئة مليون يساهم في توظيفها مناصفةً المغتربون، والمقيمون شعباً وحكومةً، في مدى عشر سنوات، لما كنا البتة مغالين . وهذا التحديد راجع الى مراعاة حالة المقيمين ، إذ لو اقتصر الامر على المغتربين لاستطاعوا وحدهم تغطية هذه القيمة بواحد في المئة فقط من رؤوس اموالهم الضخمة . ولكن الشرط الاساسي هو أن يحصل المغتربون على الضمانات الثابتة الوافية لأنَّ ايَّ

ممول ، وإن لم يكن يهدف الى الكسب ، همه أن لا يذهب ماله ضياعاً دون أن يفيد سواه ، إذ ليس من يزرع إلا على نية الحصاد ، حتى في حقل الاحسان المجرد ، وإلا زهد في الاحسان وفضل عليه تحجر العاطفة .

ولا يحول دون قيام هذا المشروع الحيوي الانقاذي ونجاحه سوى ما اشتهر من إحجام القادرين من المقيمين عن كل ما يحتاج الى وطنية وإيثار وتضحية ، مؤثرين الاساليب الانتهازية الاستغلالية المعبودة . وقد أعجبني الدواء الذي وصفه احد الحكماء الخبيرين لهذه الزمانة وهو سنٌ تشريع يستند الى حكم الضرورة يفرض على القادرين المساهمة القسرية بما لا يقل عن خمسة وسبعين في المئة من ارباحهم السنوية ، ولنا في ذلك أسوة بالانكليز والاميركان الذين ابلغوا الضريبة الحربية على الارباح الفاحشة زهاء تسعين بالمئة . ويظل الغني اللبناني بالنسبة الى نده الانكليزي او الاميركي افضل حالاً ومالاً بما لا يُقاس ، إذ بينما يُنفق ما يؤديه هذان في الاستعدادات الحربية ويُفقد نهائياً يُقيّد ما يؤديه هو باسمه ويُستغلّ لحسابه .

لقد حصل في لبنان انقلابٌ يبشر بخير عيم للبلاد فالرئيس الجديد من الذين صفت نياتهم وحسن قصدهم ووضحت نزاهتهم ، وقد بدأ بعملية التطهير بتؤدة وحكمة وأحسن اختيار اعوانه ، والمأمول أن يثابر على خطته الحكيمة هذه فتجدد مدة رئاسته وهكذا يستمر الاستقرار الزمن الكافي لتنفيذ كل امانيه الصالحة بحيث يألف متولو الاحكام والشعب برمته أسلوب الحكم الجديد القويم فلا تكون لهم رجعة الى القديم .

وعلى هذا أدعو ذوي العلم والاختصاص والاختبار والمقدرة المالية من إخواني اللبنانيين الى درس هذا المشروع بدقة وروية ورسم خطة له تضمن نجاحه فيحققون لوطنهم العزيز الجميل ما يصبو اليه من منعة

ورخاء وتوطيد كيان ، ويجول دون الهجرة البغيضة .
هذا هو العمل البنائي المجدي الذي أعرضه على النخبة المثقفة الواعية
النزيهة المخلصة من اهل بلادي .

وسبيل الحكومة الجديدة بعد ترميم ما تهدم وتقويم ما تعوج
وإصلاح ما فسد أن تعتمد سياسة بناءية قائمة على التنظيم والاقتصاد
وحسن التدبير ، إقالة البلاد من عثاها والسير بها قدماً في معارج
الرفق والفلاح . وبهذا كله توحى الثقة للمغتربين فيركنوا اليها ويولوها
ثقتهم ويهرعون الى التعاون معها وتلبية مطالبها العادلة لكي تبلغ
بوطنهم العزيز الى الذروة التي يريدونها له . وهذا بمثابة رسالة الفاطها
اعمال مشهودة وملموسة تزي بكل العبارات المعسولة والنداءات
العاطفية التي اصبحت لكثرتها وكذب معظمها كالنداء على الذب .

ولا ريب في أن المورد الحقيقي المنظور ، الذي يسمى تضليلاً او
تجاهلاً غير منظور ، هو ما يبعث به المغتربون الى ذويهم ، او ما ينفقه
المصطفون من النقد النادر الآخذ في التناقص من سوريا ومصر ،
والمترديد من الأردن والعراق والمملكة السعودية والكويت ، والقليل
حتى الآن ، وهو رهن التزايد ، من المهاجر الاميركية متى اطمأن
المغتربون الى وجود العدالة والأمن والنظام في وطنهم العزيز لبنان ،
مع تشجيعهم وتيسير الانتجاع لهم بمختلف اساليب التذيع والتشويق
والاقناع .

ولما كان مورد الهجرة آخذاً في التضاؤل ، ومصيره الى الانقطاع
التام في مدى عشرين عاماً على الاكثر ، كان من الحكمة وسداد
الرأي الاحتياط للكارثة قبل وقوعها فيعمد لبنان منذ اليوم الى
سياسة الاقتصاد والتعويل على النفس ، نافعاً من ذهنه وجود هذا المورد
غير المنظور وينصرف بكميته لتحقيق الحطة التي تقدم ذكرها ، مهيناً
بها لنفسه من موارده الخاصة ما يكفيه

وأَيُّ ضير من كل هذا، ولو صحَّ رأي المتشائمين فلم يتم المشروع التعاوني الذي أشرت إليه؟ إنه لا يمكن أن يُنتج الا الخير، على غرار ما حدث لأولئك الشباب الثلاثة الذين اوصاهم والدهم المحتضر بالاحتقار على كنزهم في الحقل الذي اورثهم اياه فراحوا يحرثونه ويقبلون ارضه حتى ازدادت غلته اضعافاً فكانت هذه الكنز الموعود . وقد تتحقق الآمال ويصيب لبنان يوماً لحظ الذي اصاب البلاد السعودية والكويت فيتدفق البترول في سحمر ويحمر تدفُّقه فيهما ويصبح في مقدور رئيسنا اذا أمَّهما يوماً أن يتكرَّم فيهما تكرُّمَ سموِّ وليِّ العهد السعوديِّ عندما أمَّ لبنان زائراً وكان في وقتٍ معاً الضيف والمضيف الكريم . وهكذا تنقلب الآية ويصبح اغنى المغتربين افقر الى لبنان منه اليهم ، وهذا ما نؤثره ونتمناه لوطننا الحبيب .

ولما كان المدى الذي حددته لنضوب المورد من المغتربين يمثل ثلاث دورات، وخاب الأمل في التجديد، فالأمر ان تكون الدورة الحالية الصالحة نموذجاً للحكومتين اللتين تليان بعدها الحكم فتتألف كلُّ منهما من نخبة صالحة من اصحاب الاهلية والنزاهة والوجدان السليم وتستأنف خطة سابقتها فتعطي البناء حتى يبلغ التام .

ويأتي بعد الحكم من حيث المسؤولية الموظفون الذين يجب أن يضعوا نصب اعينهم المصلحة العامة ليستدعوا عملهم وانتفاعهم لان إهمالهم وتهاونهم يؤديان قطعاً الى ازدياد عددهم وبقاء مرتباتهم على حالها ، بحيث لا تعود تفي بحاجتهم . كما هو حاصل وملومس اليوم . ثم يأتي دور الأنانيين الجشعين فيكفُّوا عن المغالاة في الاستغلال لانه مؤدِّ قطعاً الى إنباك قوى المستنزفين فتتناقص مواردهم وينتهي امرها الى النضوب التام .

وبعد هؤلاء جميعاً يأتي دور الافراد من سائر الطبقات فيعتبر كلُّ منهم مسؤوليته كعضو في جسم المجتمع لا يُجيز لنفسه المطالبة بحق قبل

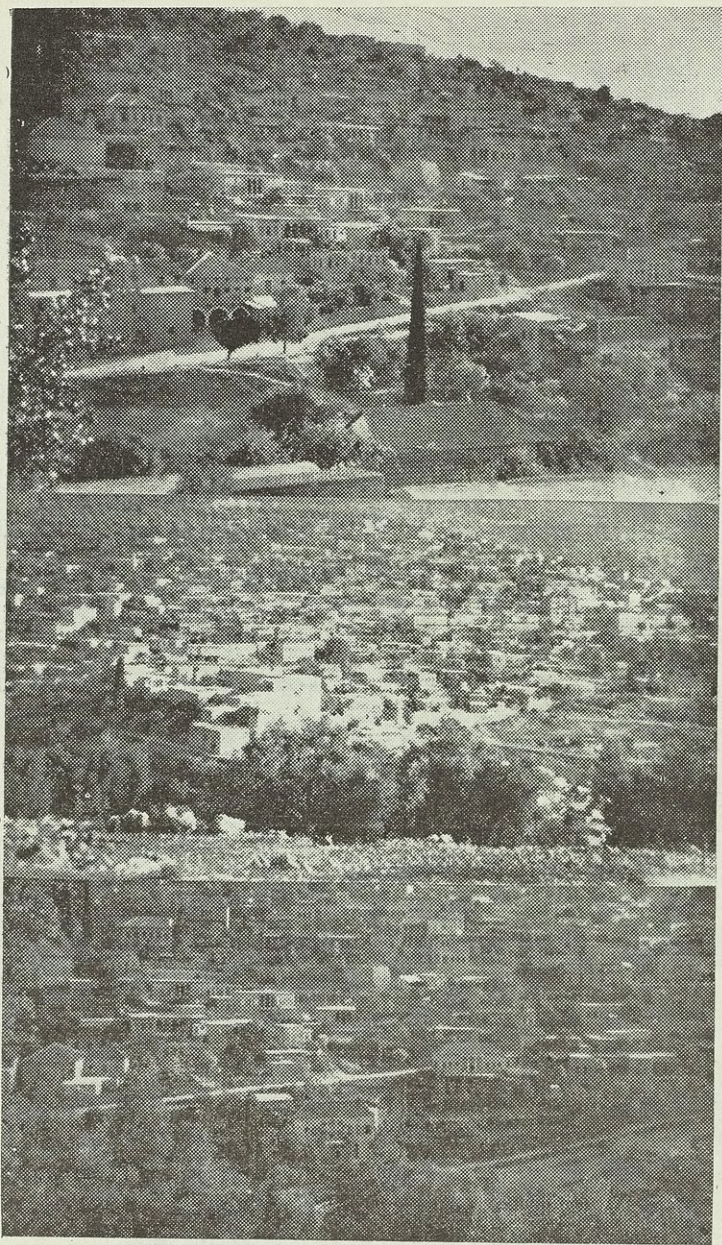
ان يسبق هو الى القيام بالواجب المفروض عليه ، والذي اذا قصر في تأديته أثر تقصيره في سواه ، وعلى التوالي يتسلل الخلل الى سائر الجسم فينقضى عليه هو كعضو فيه .

كأننا مسؤولون - لقد قلت في الرئيس السابق وأعوانه كل ما اوحاه اليّ وجداني وواجبي الوطني ، غير أنّ هناك حقيقة لا أريد أن أتجاهلها وأودّ ألاّ يجهلها أحد وهي أنه لا يشرف ايّ شعب أن يُشهر حاكماً استبدّ به طيلة سنوات ، إذ هو بذلك يعترف ضمناً أنه كان مطيةً ذلولاً ركبتها ذلك الحاكم الى اغراضه الشخصية وأعمل في شاكلتها مهمازيه وأهلب قذالها بسوطه ، بدلاً من ان يكون حسب السنّة خادماً المطيع ومنقّذ أغراضها وراعي مصالحها ، فهو مهما بلغ من القوة والسلطان فردٌ ضعيف بالنسبة الى مجموع الامة ، لم يبلغ مأربه منها الا لتخاذل وأنانية كل افرادها، خنوعاً او بملاةً او انتفاعاً، ورحم الله القائل :

ظلم الرعية كالعقاب لجهلها ألم المريض عقوبة الابهال
والبرهان على ذلك أنها عندما اتحدت وأجمعت رأيا طوّحت به
واستعادت حريتها .

الكيان اللبناني - يجب ان يكون دستور الايمان عندنا المحافظة على هذا الكيان ولو كان بالشكل المخزي الذي كان عليه في العهد الأخير ، وقد قلت فيه ما لم يقل مثله عدوّ . ولكن هذا لا يعني أنّي أستسيغ ايّ تدخّل اجنبيّ، فما من شخص ، مهما يكن مريضاً مشفياً ، يرضى بأن يستبدل شخصيته ؟

اما الخارجون عن هذا الكيان ويتطوّعون لابتداء الرأي او التدخّل فيجب أن يرتدعوا ويخجلوا من ذواتهم لان كل اقتراح يبدوونه بهذا الصدد لا يخرج عن كونه قحةً وسماجةً ، إذ خير لايّ جسم الموت من ان تكون صحته وحياته مستعارتين من سواه .



(ثلاثة مشاهد رائعة من حاصيا منبت الأجداد)

حقوق المرأة

لقد سرّني ظفر المرأة اللبنانية بحقوقها السياسية بفضل إصغاء حكومة الانقلاب لنداء الحق والواجب واستجابتها لهذا المطلب العادل، وهو اعتبار المرأة عضواً عاملاً في جسم الأمة بحيث يحق لها ان تنتخب وتنتخب، ولكنها حصرت هذا الحق بحاملات الشهادة الابتدائية على الأقل، منكرة إياه على الأميات. ولكن الذي عبته على متزعمات هذه الحركة المباركة في لبنان، والتي انتصرت بفضل جهادهن ومثابرتن، هو سلبتهن في مطالبتهن لاختواتهن الأميات بمثل حق المثقات، أسوة بالأميين من الرجال المتاح لهم حق التصويت، بدلاً من الموقف الإيجابي المنتظر منهن وهو مطالبة الحكومة بمساواتهن بالرجال في حرمانها الأميين منهم أيضاً من حق الانتخاب. غير أن حملتهن الصادقة حققت مطلبهن هذا فأصبح للأمية حق الأمي، فعسى أن ينجم عنه الخير المطلوب.

وكانت فاتحة الخير الاولى لهذا المسعى الذي تكمل بالنجاح تعيين الحكومة عضوات ثلاث في المجلس البلدي هن: ابتهاج قدّورة ولور ثابت وألن ريجان. ذلك أن المرأة ادق شعوراً من الرجل وأرغب في التجميل والتنظيم والتكميل، وليست عرضة للمساومة والاستنزال والتفريط بحق الامانة.

بقي أن تبوهن المرأة اللبنانية بصورة عملية على استيهاها هذا الحق

بقيامها بما يرتبّه عليها من واجب ، ويجد الفريق العامل المدرك من النساء الذي انتصر على الحكومة ، بفضل جهاده ومثابرتة على المطالبة بحق المرأة المشروع ، نصرةً من الفريق الأكبر المتقاعد اللامبالي المنصرف الى كل ما يضرُّ به وبمصلحة بلاده ، وإلا كان شرّاً عليه من الحكومة السابقة التي حالت دون فوز نساء لبنان بذلك الحق ، سواء كنّ مثقفات ام أميات .

وأنا وإن تأخرت عن زميلي الكريم جرجي نقولا باز الذي اشتهر بانتصاره للمرأة ، لا أقلُّ عنه إيماناً بها بدليل أني عندما اطلّعت على كتاب الذكريات الذي اصدرتة الأدبية المعروفة سلمى صائغ في سان باولو كتبت اليها اقول : « قرأت كتابك فأمنتُ بالنساء وكفرت بالرجال » . وقد أثرتُ بالاختبار الشخصي في المهاجر الثلاثة : البرازيل والارجنتين وتشيلي ، ومهاجر أخرى بالسماع ، كل ما زادني اعتقاداً بمقدرة نساءنا وتفانيهن . وقد طالما غبطتهنّ ونوّهت بفضلهنّ لما قمن به من المشاريع الانسانية التي اخفق فيها الرجال إخفاقهم في توطيد دعائم السلام في العالم ، وأصبح الأمل في كل ما يعود على البشرية باخير معقوداً على النساء ، اذا أفسح لهنّ الرجال المجال .

ويكفيني لاثبات قولي هذا الابيات التالية التي ودّعت بها في مطار سان باولو السيدة الثقيفة المجاهدة سلوى خوري قرينة صديقي الصناعي نسيب ميخائيل محفوظ عند ما قامت منذ عامين برحلة الى لبنان وسوريا وهي :

سيوري بأمنٍ فعينُ الله ترعاك	يامن مسحت دموع البائس الباكي
فيك الفضيلة والتقوى نجلّهما	ليرحم الله من للخير رباك
بتناً وأختاً وزوجاً كنت صاحبة	وامتزت أمّاً فمن يحصي سجاياك
سيوري وبُني بذورٍ خير في وطن	له حقوقٌ علينا فهو أنشاك
وفي غيابك لا « سلوى » تخامرنا	وطيب عهدك «محفوظ» كذكراك
واذا تجاوزنا عن التسمية والتعيين فمن دواعي سروري واغباطي	

أنه برغم تيار المدنية الزائفة الذي جرف الكثيرات من سيداتنا في المهاجر لا يزال لدينا عددٌ كبير من اللواتي أستطيع ان أسجل لهن شرف المقاومة والثبات في معاقلهن المنيعه بحيث يصح ان توجه الأبيات المتقدمة الى كلٍ منهن ، كما سرّني ان أجد في لبنان الذي طغى فيه ذلك السيل اضعاف طغيانه في المهاجر عدداً كبيراً من امثال من ذكرت . وإني واثقٌ من أنه لا يسوء السيدة سلوى البتة ازدياد عدد ندياتها اللواتي يستأهلن ان تُقال في كلٍ منهن تلك الأبيات التي قيلت فيها لانها لو انفردت باستيهاها لأصبحت كالطير المهيبض الجناح واستحال عليها تنفيذ نياتها الصالحة .

وخير دليل على كفاءة المرأة اللبنانية ومقدرتها على الادارة والتنظيم أن جامعة الهيئات النسائية تنضوي تحت لوائها ثنتان وتسعون جمعية مختلفة المقاصد والأهداف

لقد تهيأ لي بفضل الاخت ابتهاج قدّورة أن احضر اجتماعاً في منزلها العامر كنت فيه الرجل الوحيد بين زهاء مئة سيدة وآنسة من زهرات مجتمعنا البيرونيّ في مختلف المضامير المشرفة ، عقدته احتفاءً بالسيدة امينة السعيد المبرزة في مضمار الثقافة والتحرير والتوجيه في مصر ، والتي لا تحتاج الى تعريف فيها ولا في ايّ قطر عربيّ آخر .

لقد كانت فرصة نادرة لم يتهيأ لي مثلها عمري ، أتيح لي فيها التحدث الى عدد كبير من ارقى سيداتنا ثقافةً وتهذيباً وتفكيراً ، كالسيدة حنية الطرشا المجاهدة منذ عشرات السنين في ترقية شأن المرأة في لبنان وإحدى دعائم مجلة صوت المرأة ، لسان حال تلك النخبة الصالحة من سيداتنا ، وندّتها وصديقتها الطيبة جمال كرم حروفش والمربية القديرة الآنسة زاهية قدّورة ، وأضرابهن في مضامير الثقافة والتهذيب والاحسان وفي ذلك الاجتماع الراقي اطمأنت على لبنان ومستقبله وخرجت منه اوفر ثقةً بالمرأة اللبنانية وتغنياً بفضلها .

الصَّحَافَةُ فِي لُبْنَانٍ

أيُّ شيءٍ في هذا الوجود يكثر ولا تقلُّ قيمته بنسبة فيضه عن حاجة ؟ حتى إنَّ الصحف ، على جلاله قدرها ، غير مستنعاة من هذا الحكم .

وليس الكساد مردوداً الى الكثرة بل هو يتناول النوع ايضاً ، بدليل أن بعض الصحف المصرية يصادف رواجاً كبيراً في لبنان ، حتى إن جريدة الأهرام ، على غلاء ثمنها ، تبلغ الى اصغر قراه ودساكره .

لا أنكر أن في لبنان صحفا ذات قيمة ولكن الكثرة تتخم فتصير الشهيء نفسه تافهاً . فكيف وجلُّ اعمدها تشغله الاخبار الخارجية والداخلية المتكررة ، وفي هذا ما فيه من بعثرة القوى والتبذير والاساءة . فحبذا الادماج الطوعي بعد ان ندَّت بعض الصحف بحكومة الانقلاب عندما لوَّحت بعزمها على فرضه بمرسوم اشتراعي . ولا بد من استثناء الجرائد الحزبية التي نبذُ بعدها اعظم بلدان الارض ، ففي روسيا حزبٌ واحد وفي كلِّ من إنكلترا واميركا حزبان وأؤكد للزملاء أن جريدة واحدة مستوفية الشروط من حيث الحجم والمادة يُقبل عليها المغتربون مهما يكن بدل اشتراكها السنوي لأنها وإن صدرت بست عشرة صفحة تغنيهم عن عشر صحف لا يفضُّون غلافها لما تقدَّم من الاسباب ، بينما هي لا تكلف مصدريها اكثر مما تنفقه الصحف العشر مجتمعة .

التربية الوطنية

نعت في ما سبق على كثرة من اهل لبنان تكلمهم باللغات الاجنبية ، وبنوع خاص اللغة الفرنسية ، وأعود الآن الى هذا الموضوع بشيء من الاسهاب :

أريد أن أسلّم بالأمر الواقع فأعترف بأننا قد استدرجنا بمختلف الاسباب والعوامل الى تقليد الغربيين ، ولكن علام ، وقد أصبح هذا لسوء الحظ ديدننا ، لا نقادهم في الحرص على لغاتهم وصيانتها من كل عبث ؟

ويبرّر مطالبتي هذه كوننا اصبحنا مستقلين في ادارة شؤوننا وعندنا وزارة تربية مسؤولة في الدرجة الأولى عن اللغة وسلامتها وتعميمها وفرض تعليمها للنشء . فلبنان عربيٌّ بحكم انضوائه تحت لواء الجامعة العربية فكيف يصحّ والحالة هذه ان يكون بلغته مالطياً ؟ والذي لحظته هو أن بعض اللبنانيين قد تفرنسوا الى حدّ ان يروا في تكلم العربية سبباً تدعو الى الحجل ولكنّ الأكتريّة المعوّل عليها تنجح الى الفرنسية او الانكليزية لعبزها عن التعبير المحكم بلغة البلاد والأجداد ، والتبعة في هذا العجز تقع على أعضاء المجامع اللغوية التي أنشئت في مختلف الاقطار العربية لعدم إيجادهم الاوضاع للمستحدثات فأبقوا اللغة في حالة جمود وعجز عن التادية الصحيحة . وتأني بعد المجامع وزارات التربية والمعاهد العلمية على اختلافها . وأخيراً تقع التبعة

على الآباء الذين لا ينشؤون اولادهم في حداثتهم على حب اللغة فيقتصرون في مخاطبتهم عليها حتى ترسخ في اذهانهم وتتمكن فيها ، فاذا جاء دور البناء في المدرسة قام على اساس متين ثابت . ومتى حذق التلميذ لغته هان عليه تعلم وحذق اية لغة سواها ، وفي وقت قصير .

الى كل ما تقدم لا يجوز ان نغفل هذه الحقيقة وهي أننا اصبحنا في عصر كثرت فيه المواد التي لا بد من تدريسها ويجب ان نفسح لها مجالاً ، لا باهمال لغتنا او وضعها في مقام ثانوي ، بل بتبسيط قواعدها والاقترار على الضروري اللازم من مفرداتها وتعابيرها .

والاصلاح المطلوب لا يتم في يوم او عام ولكن يكفينا الآن أن نتنبه ونبدأ بالعمل ، « وكل من سار على الدرب وصل » . ولا تفوتي الصعوبة التي تقوم في وجه وزارة التربية بإزاء المعاهد الأجنبية التي لا نستطيع الاستغناء عنها حاضراً نظراً الى ضعفنا ، حتى ليُخَيَّلَ إليّ أننا من هذه الجهة في مثل موقف الشحاذ الذي لا يحق له ان يشارط . فلتبدأ على الاقل بمدارسها فتفرض تعليم الأحداث مبادئ العلوم كلها باللغة العربية حتى سن الثانية عشرة وتدرّج في ذلك حتى يأتي يوم ترغم فيه المعاهد الاجنبية على الرضوخ لمساقتها التربويّة هذا تحت الرقابة الوطنية المشدّدة ، كما هو جارٍ في البرازيل منذ أعوام ، حيث لا يُسمح بتعليم الأحداث اية لغة اجنبية قبل ان يبلغوا الثانية عشرة .

ومن أدلة الاستهتار الشائن التغاضي عن عبث الأفراد الى حد ان يعلّقوا لافتات بخطوط انيقة جميلة كالتي تلي ، دون اية مراقبة او محاسبة او إكراه على احترام لغة البلاد :

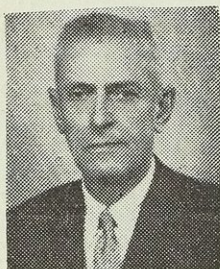
مؤشش كراسي . المعهد الرقص . محل تطريز اليدوي . مصبغة السويسرية . هذه امثلة قليلة من مئات ولكنها تكفي لان تُجْهِل وتحفز الى العمل لسكي يرتدع امثال هؤلاء العابثين .

الادب في لبنان

لقد كان الادب بمعناه في جملة ما جنى عليه الحكم الوطني الذي كان مفروضاً أن يزدهر الأدب في عهده اضعاف ازدهاره في عهد الانتداب ، فلا بدع إذن أن نبكي من هذه الجهة على ما بكينا منه . لقد دفن فؤاد حبيش « المكشوف » وأحل مكانه مؤسسة للطباعة والنشر ، وانصرف كرم ملحم كرم ، أخصب دماغ في لبنان واغزرق قلم إنتاجاً ، الى تأليف الروايات الخيالية ، وغاص سواهما من الأدباء المجلّين في خضم السياسة ، كما غاص الشعراء البارزون في ليج من اليأس وراحوا يتحينون المناسبات التي تدرّ . وهكذا تحوّل الأدب عندنا من ادب نفوس الى ادب بطون .

ولم يسلم ادب المجالس نفسه من مثل هذا المصير الكئيب . وقد حاولت عبثاً إحياءه فاستغنت بصديقين أديبين كريمين هما اليبور الريحاني والطبيب وليم نعمة ، وتوفقنا الى عقد عدة جلسات في منزلها العامرين ضمت عدداً كبيراً من خيرة الأدباء والاديبات ونخبة من الشعراء . واذا استثنينا إلقاء بعض المنظومات القديمة ورواية بعض النكات المأثورة لم ينبثق من هاتيك القرائح الحصة الذيرة أدب .

اما القليل الذي ظفرت به بفضل الصدق والسوانح العارضة فأثبتته في ما يلي من الصفحات تبعاً لمواقيته :



المؤلف

مجنونان

بالتفاني

وبالتفاني



احمد الصافي النجفي

كنا ذات ليلة نسمر في احد القصور اللبنانية في سانت باولو
فيخطر لي أن أرسم للحضور في ذلك النعيم صورةً من جحيم احترق
بناره قديماً الشاعرُ البغداديُّ ابو الشمقم فخلّق في وصفه في سماء
الاجادة بقوله :

انا في حالٍ تعالى اللهُ ربي أيَّ حالٍ
ليس لي شيءٌ اذا قيل لمن ذا ؟ قلت ذالي
ولقد أفلستُ حتى صحَّ أكلي لعيالي

فالأبيات التالية في وصف مسكنه :

برزتُ من المنازلِ والقبابِ فلم يعسر على احدٍ حجاي
فمنزليَ الفضاءِ وسقفُ بيتي سماءُ الله او قطعُ السحاب
فانت اذا اردت دخولَ بيتي عليَّ مسلماً من غير باب
لأنني لم أجِد مصراع بابٍ يكون من السحاب الى التراب
فأشاع التبائن الهائل بين الصورتين العيانية والذهنية المرح والضحك
بين الحضور إذ كانت النار التي صهرت نفس ذلك الشاعر ، وسبكتها
في هاتيك الأبيات ، برداً وسلاماً عليهم وهم في ذلك النعيم .
وما خطر لي قط بعد ذلك الحادث العارض أن التقى يوماً بأبي

شتمق آخر حي متقمص شخصية ذلك الشاعر الذي طواه الوجد منذ
اجيال حتى قذفتني الأقدار الى بيروت والتقيت في مكتب الصديق
البير الريحاني بالشاعر البغدادي ايضاً احمد الصافي النجفي فحسبته وقد
دخل علينا بزيته البدوي الساذج ذا حاجة مجهولاً ولكن سرعان
ما خاب حدسي إذ ما كاد مزوري الكريم يتبينه حتى وقف له إجلالاً
وأجرى بيننا التعارف المألوف فتصافحنا وجلس هو على المقعد طويلاً
ساقيه بعد ان حرر قدميه العاريتين من نعليه .

واستهلت حديثي معه بذكر ابيات له كنت قد عثرت عليها في
عرض مطالعاتي فأعجبني وحفظتها لانها صورت لي شاعراً صنواً لي
في الغزوف عن المادة ، إلا ما قات منها وستر وأظلم ، مع مراعاة
الفرق الكبير بين ارسوقراطي الظاهرة وشعبيته بحيث خجلت أمامه
من نفسي ، لذلك أنست اليه ورحبت به وراح واسطة العقد يراقب
حركاتنا ويصغي الى ما نقول جذلاً مغتبطاً ، كما يروق لعامل أن يرى
مجنونين يتبادلان الآراء . اما تلك الابيات فهي :

يا قوم مالي مشكلٌ معكم	لقد اقتسمنا وانتهى الامرُ
لكم الثمار تباع رابحةٌ	ولي المروج الحضر والزهر
ولكم سفائنكم محملةٌ	في البحر ماخرةٌ ، ولي البحر
والقصرُ لي منه مناظرةٌ	ولكم اثاث القصر والقصر
ولكم مدينتكم وما ضمنتم	ولي النسيم الحلو والعطر
أرواح لي ، فخذوا الجسوم لكم	دنياكم لكم ، ولي الشعر

ورحت كلما رسمت صورةً نثريةً مني تعرب عن حقيقتي وآرائي
ومبادئي يأتيني فوراً من منظومه بمثلها شعراً سلساً رقيقاً لا تعقيد فيه
ولا تعاضل ولا إيهام ، حتى أزف وقت الانصراف فأراد زميلنا أن
يهيئ لنا جلسة اطول في جو شعري لنستأنف حديثنا ونستوفيه فكان
لنا ذلك بفضل بعد يومين في الفريكة في منزله المطل على الوادي الموحي

وشيء آخر كنت أفتش عنه وهو شاعر صادق ، وقد وجدته
في الصافي المجنون لان الكذب أداته العقل ، لذلك كان والجنون
خدّين لا يلتقيان . فالصافي مرآة تعكس الأشياء كما هي دون اية
حيطة او حذر او خشية ، ائتماً منه بقول حكيم رواه لي عن لسان
جعفر الصادق ، وهو :

« من تعود ان لا يكذب رزقه الله حدساً صائباً ورؤيا صادقة »
وسأله لماذا لا يتقيد بعبادات المجتمع فأجابني :
أتتبع العادات وهي زخارف

وما زلت بين الناس اسعى لرفعها
ولست بعبادات الانام مقيّداً

لأنّي ما شاركهم يوم وضعها
وعندما عرضت عليه العنوان السابق أنشد من نظمه :

في الكون مجنونان : ذاك لعبقري يُسمى وذا لا يدرك الأشياء
هذا يُدير العقولون جنونه وجنون ذاك يدبّر العقلاء
وهو لا ينظم متعملاً ولا مكلفاً ولو في حضرة ملك ، وقد ينظم
ديواناً في أيام ولا ينظم بيتاً في سنوات . ومن اقواله في ذلك :

لا أطيق النظم إنّ شئت وإنّ اجهدت فكري

إنّ بركان شعوري إنّ يهيج يقذف بشعري

وأوردت التحديد التالي للأديب تبعاً لمفهومي من الأدب :

« الأديب كائن يهدف الى الجمال والكمال في كل فن ومطلب .

يرضى من المادة بالكفاف ويتوفّع عن الشكوى ما دام في هذا
الكون كادح أجدر بها منه . وبينما هو يرى نفسه من جسم البشرية في
موضع القدم لا يرى - لاستغناؤه - من هو اكبر منه » ، فأنشدني :

لا أرى اكبر مني . لا أرى مني اصغر

إنّ أجدر اكبر مني واحداً فالله اكبر !

وكان قد اهدى إليّ اثنين من دواوينه العديدة قابلته على اثر مطالعتهما فأعربت له عن استحساني لكل ما قرأته . ولكن على جزالة شعره وسواعته ثبت لي انه وزّع الروائع التي كان قد القاها في سمعي على جميع دواوينه فليته يجمعها في ديوان واحد برسم المغتربين فيمتّعهم ويضمن الرواج والدرّ فأبى لأنه لا يراعي في ما ينظمه اذواق الناس ومفاهيمهم المتباينة ، ويعتقد أن منهم من يُقبلون على ما قد يعدّه بعضهم تافهاً ، فلا يجوز أن يكون نصيب أولئك منه الحرمان والحق يُقال إن شعر الصافي لا يُشبع منه ولا يُملّ فقد ضمتني ذات ليلةٍ والبير الريحاني وزوجه الراقية جلّسة في منزلها العامر كان مطربنا وندينا الوحيد فيها ديوانه «التيّار» الذي اجتزناه من الضفة الى الضفة فرؤينا من الراح دون أن يُطفأ لنا ظمأ الى ابياته الملاح . وهو لا يقبل هبة اياً كان مصدرها ، فاذا تورّع لأمر عن ردّها حوّلها لمؤسسة خيرية . وقد تبرعت له وزارة المعارف العراقية بطبع بعض دواوينه فقدّم لها من النسخ ما يعادل رأس المال واكتفى زهداً منه باجتناء الفائدة .

هذا هو الصافي : نفس من دُرّ في جسم من صدف ، او هو منها في مهرجان ومن مظهره في مأتم . ويبدو قدره لنفسه وحرصه على كرامتها في البيتين التاليين :

هذي الأمانة قد عيت بحملها إنّ النفوس أمانة الخلاق
أوصلتها لليوم وهي سليمة أعافها عند القليل الباقي ؟
وقد طلبت منه رسمه فتروّد بحجة أنه لا يريد أن ينكب قرّائي ،
ثم لانَ ولكنه عاد آسفاً لفقدانه الرسم الوحيد الذي يصلح للنشر ،
فاستعنت عليه بالريحاني وكان أن أخذناه يوماً على غرّة وفزنا بالرسم المنشور .

وهو أنوف عيوف الى الحد الذي عبر عنه بهذين البيتين :

إذا الأرض بي خاقت سموتُ عن الأرضِ
وأرفضُ خفض العيش إذ يقتضي خفضي
وآكل من نفسي إذا اقتقرت يدي
وهيهات يوم الجوع آكل من عرضي
أما أروع ما وصف به نفسه فهو في رأي الأبيات التالية بعنوان :
« اكلُ الحرام » :

يَمْتُ مِثْلَ ذَوِي الْحَلَاةِ حَانَةً
قَرَّبَتْهَا مِنِّي وَإِنْ لَمْ أَحْسُهَا
حَتَّى مَ أَعْبَدَ سَمْعَةً وَهَمِيَةً
حَطَمْتُهَا مِنْ بَعْدِ مَا شَوَّهْتُهَا
وَعَدَوْتُ حَرًّا مِثْلَ قَوْمِي عَائِشًا
أَمَعْتُ فِي نَقْلِ الْمَدَامِ تَعْدِيًا
وَأَكَلْتُ نَقْلًا كَانَ حَقًّا لِلطَّلِي
وَنَجَلْتُ مِنْ إِبْرِيْقِ خَمْرٍ مُتَمَلِّ
ظَمِئْتُ كَوْوَسَ الْقَوْمِ حِينًا وَارْتَوْتُ
فَسَقَيْتُ كَأْسِي جَرْعَةً وَمَزَجْتُهَا
تَرَنُّوْا إِلَى عَيْنِي عَيُونُ حَبَابِهَا
كَمْ أَتَّبَعْتَنِي أَكْوَاسِي فِي صَمْتِهَا
وَلَكَمْ جَلَّتْ لِي نَوْرُهَا لِتَنْوِيرِ لِي
فَبَقَيْتُ إِرْمَقَهَا بِطَرْفِ جَامِدٍ
فَكَأَنَّ بِنْتَ الْكَرَمِ مِنِّي زُوِّجَتْ
وَالنَّاسَ حِينًا يَضْحَكُونَ تَعْجِبًا
يَتَهَامِسُونَ عَلَامَ جِئْتُ لِحَانِهِمْ
هَذَا يَقُولُ حُلَّةُ ذَا مُتَّقِي
أَنْظَرُهُ أَفْنَى نَقْلِهِ فَكَأَنَّهُ

ووضعت أقذاح المدام أمامي
حتى أشوة سمعتي ومقامي
فكأنها صنم من الأضنام
فخرجت من دنيا من الأوهام
لما صبغت الصيت بالآثام
لم أراع للصهباء حق ذمام
هذا ، وحقّ الراح ، أكل حرام
يرنو إليّ ، ومن فراغ الجام
حيناً ، وجامي طول ليلي ظام
حتى أغالط أعين الخدّام
شزراً ويمعن عطرها بلامي
ورمت إليّ بقارصات كلام
قلبي وأغرت عطرها بمشامي
والكأس تدعوني بقلب دام
هرماً حكى هرماً من الأهرام
مني وحيناً من جمود مدامي
أو ما نهتني جبتي وحزامي
فيجيبه بل ذا من الأنعام
سكّير نقلٍ أو صريع طعام

كُفِّرَتْ بَيْنَ الشَّارِبِينَ وَقَبْلَ ذَا
عُفَّتِ الَّذِينَ قَدْ اتَّقَوْا لِقِيُودِهِمْ
الْكُلُّ مِنْهُمْ عَابِدٌ عَادَاتِهِ
أَنْىَ أَرَى حَرِيَّةً ضَيَّعَتْهَا

وَمِنْ رَوَائِعِ صِرَاحَتِهِ وَتَعَالِيلِهِ :

عِنْدِي عِيُوبٌ بِنَفْسِي سَوْفَ أَظْهَرُهَا
وَالْعَيْبُ يَجْدُرُ أَنْ يَبْدُوَ لِيَعْرِفَهُ
إِنِّي وَإِنْ كُنْتُ فِي جَهْلٍ لَهُ صَغُرْتُ
بِعَوِضَةٍ أَنَا فِي الدُّنْيَا ، وَحِينَ أَرَى

وَالْبَيْتَانِ التَّالِيَانِ آدِقٌ وَأَصْدَقُ تَعْبِيرًا :

أَلَا كَامِلٌ فِي النَّاسِ يَبْدُو بِهِ نَقْصِي
يُلُوحُ كَمَا لِي حِينَ فَحْصِي لَجُورِي
فَقَدْ غَرَّني بِنَفْسِي ، بَيْنَ الْوَرَى فَحْصِي
وَيَبْدُو لِنَفْسِي ، حِينَ اخْلُوبَهَا ، نَقْصِي

وَفِي قَدْرِهِ لَشَعْرُهُ وَإِنْصَافُهُ لِسَوَاهُ :

إِذَا رَاقَنِي شَعْرُهُ تَرَانِي مَرْدَدًا
أَرَى شَعْرَ غَيْرِي شَعْرَ نَفْسِي مَتَى يَرْقُ
وَتَبْدُو إِنْسَانِيَّتُهُ فِي الْأَبْيَاتِ التَّالِيَةِ بِعَنْوَانِ : « مَلَكَ وَشَيْطَانٌ » :

عَجَبْتُ لِلنَّاسِ يُدْعَى كُلُّهُمْ بَشَرًا
هَذَا يَرْقُ لَذِي بَوْسٍ فَيُطْعِمُهُ
أُحَاوِلُ السَّبَبَ لِلنَّاسِ مِنْ رَجُلٍ
حَتَّى حَسَبْتُ ، وَفَعَلَ النَّاسُ مُخْتَلَفٌ ،

وَمِنْ أَطْرَفِ الْمَوَاضِعِ الْعَالَمِيَةِ الَّتِي تَنَاوَلَهَا « الْقَنْبَلَةُ الذَّرِيَّةُ » :

يَا ذَرَّةَ لِبْنَاءِ الْكَوْنِ نَاسِفَةٌ
قَدْ انْفَجَرَتْ فَزَلَزَتْ الْوُجُودَ بَنَّا
فَكُّ الْكَهَارِبِ مِنْ دُنْيَاكَ مُحْكَمَةٌ
يَا ذَرَّةَ الْعَقْلِ فِي دُنْيَا الْوَرَى انْفَجَرِي

هَلْ تَسْتَطِيعِينَ نَسْفَ الْحَرَصِ وَالطَّمَعِ
هَلَّا انْفَجَرَتْ لَنَا فِي رَأْسِ مَخْتَرَعِ
اخْفُ مِنْ فَكِّ مَا فِي النَّفْسِ مِنْ جَشَعِ
وَحَطَمِي عَالَمَ الْأَوْهَامِ وَالْبَدْعِ

هذي قيامتنا الصغرى قد ابتدأت فهل قيامتنا الكبرى على التسع
عجبت للعقل من سر الآله دنا والخلق ما زال خلق النمر والضبع
رام المغفل أسراراً محجبة والحزم يزجره عنها وليس يعي
لم يكشف السر حتى نابه ندم وراح يصفق غبناً ، كف منخدع
يروم للسر إرجاعاً لمنبعه والعلم بالسر شيء غير مرتجع
لا غرو أن تهلك الإنسان تجربة فإنه كأبيه ، عادم الورع
وما كادت تولد القنبلة الهدروجينية حتى ولدت لشاعرنا موضوعاً
جديداً فقال :

أليس من حدٍ لسخف البشر فعلمهم القاهم في سقر
حسبك برهاناً على سُخْفهم قنابل من هدروجينٍ وذر
قد أُعطيَ العقل لهم هادياً فجُنَّ هذا العقل حتى اتحر
ثم شاء أن يختصر وصف نكبة العالم بالعلم فقال :

ماذا يفيدك بعد اليوم يا بشر إن كنت بالعلم لا بالجهل تنتحر
وقال في السرعة التي أصبحت اليوم داء العالم العقام :

أيها العالم المجدُّ سريعاً قف بمقدار ما تعي ما أقول
انت تعدو ، فهل امامك قصد هل وراء الوصول إلا الوصول
وقال في مشكلة الروح تجاه المادة الطاغية بعنوان « المسيح في
نيويورك » :

انا والعصر قد تعاكست سيراً فكأنني أعيش في عصر نوح
انا أسمى في عالم الروح دوماً في زمان لم يعترف بالروح
فكأنني المسيح حل بنيويورك فإذا يكون حال المسيح ؟
وكان يوماً يفتش عن غرفة في بيروت أو إحدى ضواحيها فأقلته
آنسة على سيارتها الخاصة وراحت تمنّيه بغرفة تخصه بها من منزل
تبنيه في رأس بيروت ، تتواءم بناءً وأثاثاً وروحاً الشعرية ، تبعاً
لتصميم مرسوم في فكرها ، فقال فوراً :

قالت سألني غداً بيتاً تقيم به معي ، هو اليوم مبنيٌ بأفكاري
 فقلت : حسبي أني اليوم أسكنه بيتاً بفكرك لا بيتاً بأجبار
 وما يشرفه ويشرفني أنه استنسب البيت الاخير كما أثبتته بعد أن
 كان قد رواه ونشره كما يلي :

فقلت حسبي أني اليوم أسكن في بيت بفكرك لا بيت بأجبار
 وبصر يوماً في احد شوارع دمشق بطفلة اجمل من دمية علم ان
 اسمها « سلمى » فوصفها بهذين البيتين :

سلمى الى الحور تُنمى في وجهها الحسنُ تمّاً

لو عاد « مجنونٌ ليلي » لصار « مجنونٌ سلمى »

وكتب عنه أمين الريحاني فصلاً جميلاً مسهباً في كتابه « قلب
 العراق » ، ولم يطق صبراً ريثما ينجز الكتاب فغلّف المزمرة التي تحتوي
 ذلك الفصل وأنفذها اليه الى دمشق معنونةً كما يلي :

« الى الذي يشرف « مقهى الكمال » ويغنيه بغير المال - الى
 احمد الصافي النجفي المحترم في كل حال . »

ومما يصح ان يُسمى « شعر آخر ساعة » ، الابيات التالية التي نظمها
 صباح الخميس الواقع في ٤ حزيران سنة ١٩٥٣ :

مبعثرةٌ جميعُ الكتبِ عندي قد انتشرت كعائلتي بداري

تعيش بغرفتي متنقّلاتٌ فليست تستقرُّ على قرار

وكتبُ المترفّين مجمّدتٌ تعيش غريبةً عيش الاسار

حرمةٌ على انظار قاري مهياةٌ لجاهٍ وافتخار

مبثّنةٌ كجزءٍ من جدارٍ منسّقةٌ كأجبار الجدار

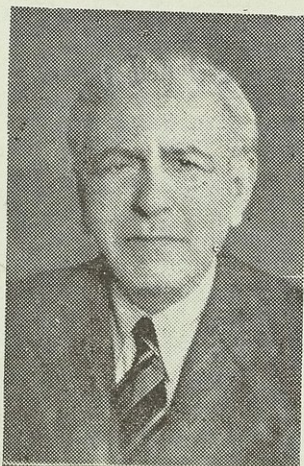
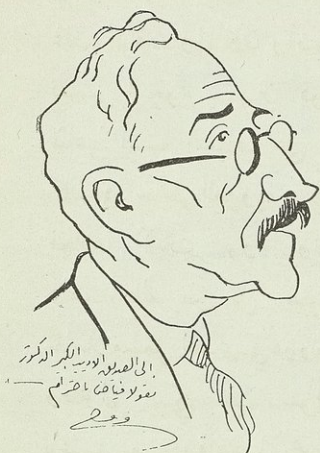
غدّت موؤودةً في مكّباتٍ فقد بُليت من الموتى بجار

هذا ما اكتفيت به لضيق مجالي لا لنضوب معينه أختتمه بقولي له :

بروحي انت يا صافي لأنّ الموردُ الصافي

وانت الدرُّ مكنوناً بأسمالٍ كأصدافٍ

بابل يرثي اخاه



خليل مطران

نقولا فياض

في جلسة ثنائية ضمتني والصديق الطيب والشاعر نقولا فياض ، وهو الدرّة الوحيدة الباقية من ذلك العقد النضيد الذي سبق لي ذكره ، القى عليّ من محفوظاته القصيدة التالية التي صدرها بهذه المقدّمة المقتضبة : « وكانت الحكومة اللبنانية تنوي إقامة تمثال لخليل مطران في ساحة الاونسكو فدعا وزير المعارف ، وكان يومئذٍ رثيف أبي اللمع ، بعض الأدباء الى داره وتباحثوا في الامر وأجمعوا على إقامة الحفلة والتمثال بعد شهرين ، ووقع الاختيار على ستة منهم للخطابة نثراً وشعراً فأعدّ الناظم هذه القصيدة ، غير أن الوقت مضى ولا خبر من الحكومة فاذا الحفلة لا تُقام ولا تمثال ولا كلام . وبقيت القصيدة مدفونة » ولرؤيتي في هذه القصيدة أثراً يفوق التمثال ، قيمةً وأبقى لذكر الفقيد الغالي الذي قيلت فيه خيّل إليّ أن موعدها قد حان فابتزتها من الناظم لأنشرها في هذا الكتاب كخير كنز ادبيّ عثرت عليه في لبنان

قلّ للبنان ما جفاك الحليلُ فخليلُ يروي ثراه النيلُ
 كوّنته الحياةُ منك ومنه فاستوى الأرضُ عنده والنخيل
 وهو اليوم حيث شاء فلا يحرم قطرُ ولا يُعاف قبيل
 غلب الوقت والمكان وأضحى في ذرى المشرقين روحاً تجول
 تتمشى النجوم بين قوافيه ويسري بها النسيم العليل
 شاعرُ أسبغ الشباب على الشعر فكان الجديدُ في ما يقول
 كان في خاطر العروبة فكيراً شقّ عنه حجابها المسدول
 فجلاها آيات نورٍ ونارٍ وعلى كل آية تنزيل
 ذاهباً بالقريض كلّ سبيلٍ عزّ فيما مضى إليه السبيل
 حاملاً مشعل الهدى في دروبٍ ضاع فيها الهدى وضلّ الدليل
 وطول يبكي عليها سواه ويُعني لها فتحيا الطول
 باعثاً من رقادها همماً أخى عليها خوعها والحمول
 شاهراً حربته على كلّ بغية تقصر الحرب دونه ويطول
 وبيميناه من سلاح الليالي قلمٌ كالحسام ماضٍ صقيل
 طالما ألهب النفوس زئيراً منه أو أطرب النهى ترتيل
 يا لجرّ البيان من شعر مطران وفيها التحريم والتحليل
 فتعبُ العقولُ منها ولكنّ مثلها قلّما تصبُ العقول

فتنة الأرض يا يراع فزدي فتنةً في السما لها تهليل
 وأطل في الحديث عنها فلا كان يراع في وصفها لا يُطيل
 تلك أخلاقه وأي فتى في الناس محبوبك ما حباك الحليل
 خصّه الله بالعفاف وبالزهد وبالودّ ثابتاً لا يحول
 وحنانٍ على الضعيف فلا يبلى رجاء ولا يُخيّبُ سؤل
 وهب الناس وقته وقواه وكفاه شجوبه والنحول
 يجذب الناس كلّ يومٍ إليه حبهُ الناس والسخاء الحبول
 وحديثٌ يمرُّ بالأذن كالسحر ويمشي في اللب وهو شمول

وله من تواضع النفس ما يرخص معه المديح والتبجيل
يرسل الخالدات رهو صموت لا ادعاء بها ولا « تدليل »
ومن الناس من اذا قال بيتاً سبقته زموره والطبول
يا هزار الوادي نزلت عليه من رُبي بعلبك نعم النزول
عيّد المسلمون قبل النصارى لك لما دعاهم اليوبيل
ورأينا كيف الوفاء على الارض يغذيه فتية وكهول
يا خليلي هذا رثاؤك لا إغراق مني فيه ولا تضليل
لا بحار غيضة ولا دك طود لا ولا آن من دكا الأفول
غير أن الخائل الحضر أقوت من أمير الغناء فهي ثكول
وضلوع القيثار حطّم فيها وتر قد يعز منه البديل
وجنود الأخلاق ، يا ويح للأخلاق ، أودى عريفها المأمول
سقت لبنان والفراق قصير كيف يسلك والفراق طويل
لا تظن الرحيل يقصيك عنه ليس يقوى على القوافي الرحيل
فهي في سمعه وفي نظريه نعم ساحر وضوء جميل
وهي تحت الشفاه اعذب ما يروى فيروي منها النهى سلسيل
أوحشت عرشها جبابرة التاريخ فالיום عرشك المشغول
انت كالكوكب البعيد تزول النار منه ونوره لا يزول
يمسح الأفق والقرون ومنه يتلقى الضياء جيل فجيل
إيه لبنان ما ذكرتك إلا هزني الوجد والفؤاد عليل
لم تشأ أن يغيب وجه كريم عن مغانيك ، والكرام قليل
فأقمت التمثال ذكرى لأمس يتغنى به الغد المجهول
حاملاً للشباب رمزاً جميلاً يلتقي المجد عنده والجميل
انت يا منبت العباقره الاحرار والدولة التي لا تدول
فيك للخلد الف معنى ومعنى قبل أن ينحت الصفا الإزميل
حفظ الله للجمال مغانيك وظل الأديب فيها ظليل

وليمة أهلية

لو قلت ، على المجاز ، إنَّ السادة رزق ، قازان وشركاء يأكلون الأحذية ويشربونها لاستهجن الناس قولي . ولو كان هؤلاء السادة اصحاب مصنع قبعات مثلاً لما استهجنوه . ومستند المستهجنين طبعاً هو أنَّ القبعات محترمة لأنها لباس الرؤوس ، والاحذية محتقرة لأنها لباس الارجل ، في حين أنَّ من الرؤوس ما هو مقررٌ قذارة تستنكف منها الاحذية نفسها . وإذا نحن راعينا الاهمية كان التفوق نصيب الارجل ايضاً لان الذي يفقد رأسه لا يتألم البتة في حين أنَّ من يفقد رجله يقضي حياته متألماً . وعلى هذا اقول بكل جرأة إن رزق ، قازان وشركاء لا يأكلون الاحذية ويشربونها فقط بل هم يطعمونها ويسقونها سواهم ايضاً ، وبسخاء حاشي ، مخالفين ذلك الامير الشحيح الذي قيل فيه :

أميرٌ يأكلُ الفالوذَ سرّاً ويُطعم ضيفه خبزَ الشعير

بعد هذه المقدمة المقتضبة أقول :

لناصر شاتيللا صاحب جريدة ابجد هوّز عليّ حقوق لا أنكرها ، بسبب خدمات سابقة لا اجحدها . ولما كان لا حقّ بلا واجب رأيت ان لا اعود من رحلتي الاخيرة الى الربو عاصمة الفن والجمال بيد فارغة لان المثل يقول : « اليد الفارغة مجوّية » . ولكانت المهمة هينة لو أنَّ الهدية لناصر نفسه ، إذني لأتيته بطاسة من الشعر المستعار يستو بها صلته وانتهى الامر . على أنها اصعب من ذلك بما لا يُقاس لعلمي

الأكد أن ناصراً غيبيّ نزيه يأبى هديةً لنفسه ويؤثرها أن تكون لقرّائه . فالهدية اذن يجب أن تكون لأبجد هوّز لا لصاحبها ، ومن اين لي بهدية تليق بصحيفة الفكاهة والمجون المستحب في محيطنا هذا وأدباء الريو وشعراؤها ابعد الناس عن ولوج هذا المضمار ، فهم إما كسول متقاعد ينظم في العام كلمه بيتاً او يكتب سطرأً ، والشهواني الذي لا يتغزّل الا بجمال الحسان ولا يصف الا الاثدية والأفخاذ والأعكان ، والصوفي الذي يعيش على الارض ويسبح في السماء ، فمن اين تأتي الفكاهة وليس من ينزع الى الدعابة والمعاينة اللتين تنبؤان بالقرائح عن مواطن الجد وتغريانها بابتداع النكتة ؟ ولكن أخيراً خدمتني الأقدار على شكل لم يكن في الحسابات واستنزلتُ للمضمار حتى اصعب أدباء الريو مراساً وهو صديقي الشاعر نعمة قازان شريك العنوان المشهور : « رزق ، قازان وشركاء » لصنع أسبق الاحذية في مضمار السير كميةً وشكلاً ونوعاً . وكان هو الجاني على نفسه دون ان يدري إذ هو أبى يوماً إلا اصطحابي الى المصنع برفقة بعض اعضاء الوفود التي قدّمت الى العاصمة من سان باولو للاشتراك في احتفال مهيب . ذلك أننا ما أنهيّا دورتنا في المصنع مهللين للذكاء والاقدام ومعجبين بكل ما تقع عليه العين من ادلة النظام والترتيب والاتقان وعدنا الى المستودع الرحب المكتظّ بنتاج ذلك المصنع الهائل حيث قمنا بما رتبته علينا الواجب من التناء والتهنئات الحارة وخير التمنّيات حتى هبط صديقنا الشاعر من جوّ الالهام الذي يسمح ابدأً فيه ويعود منه بالخرائد الحسان وراح ينظر الى أقدامنا نظرة الصنّاعي الحاذق والمضيف الكريم . وعلى الأثر اخذ يسأل كلاً منا عن قياس قدميه فادر كتنا قصده واحتججنا ، على الطريقة الشرقية ، بالاكتفاء والرغبة عن التثقيل ، وكان احتجاجنا طبعاً من اللسان ، ولكنه أصرّ فانصعنا واخترنا من الأحذية اجودها وأمتنها .

واذ ذاك بدرت من مضيفنا عبارة " كانت نواة هذا المقال وعنوانه دون
أن يخطر له في بال أنه سيُستنزل الى مضمار هو ابعد الناس عن خوضه ،
وهي : « إن ثمن هذه الاحذية يفيض عن اكلاف وليمة فاخرة » .
وللحال اغتنمت تلك السانحة وافتتحت سوق النكتة بقولي بلسانه من
معلقته الي « ملأت الدنيا وشغلت الناس » :

كلوا يا فراخي ، كلوا وانعموا فان اباكم في نعمة
وعقت عليه بقولي بلسانه البيتين التاليين موجّهين إليّ :
لو كان يُهدى الى الانسان قيمته لكنت أُهدي لك الدنيا وما فيها
لكن حدوتك هذا النعل معتقداً أن الهدايا على مقدار مُهديها
وقد قلتها مقتبساً ومستنداً الى قوله هو في معلقته ايضاً :
يا ربّ معنى عملتُ به وكان لغيري غدا عملي
فجاراني هو في هذا الاستناد تلطّفاً وأجاب قائلاً :
لقد اهديتُ توفيقاً حذاء فقال الحاسدون وما عليه
أما قال الفتى العربي يوماً شبيه الشكل منجذب اليه
وفاضت قريحته فقال ، لا فُضّ فوه :

لو كان شعري كشعر البعض احذيةً لكنت املاً هذا الكون اشعاراً
لكن شعري مساميرٌ « مبشّمةٌ » اودعتها في رؤوس الناس أسراراً
وهاجت قريحة الرفيق انطون سليم سعد فكلّفني النظم بلسانه فقلت :
رآني نعمةً أمشي الهويناً مخافةً ان أجور على مداسي
فقال إليك يا هذا حذاء فقلت القيد من شرّ المآسي
ولكنّ انت جوادٌ فعذراً رضيت به على عيني وراسي
وغار الرفيق ميشال جبور الحوري الخطيب المعروف فنظمت
بلسانه ايضاً :

عجبتُ لشاعرٍ يُهدي حذاءً لملقي الدرّ من فوق الكراسي
حذاءً ساءً في ان احتذيه مخافةً ان يقصّر عن قياسي

ولكن حين سرت به اختياراً رفعت به على الاقران راسي
وعدنا الى المدينة بمحمولنا من تلك الاحذية المغذية للقرائح فذاع
الخبر وتعالى شكوى الرفاق والأدباء الذين حرموا من مثل تلك
النعمة فأرضينا الرفيق فريد ابو موسى بما حضر من محل إبراهيم سعد
وأخيه سليمان الذي يتغذى من مصنع غاندي فطرب وتلثم على غير
عادته بعبارات الشكر فقلت فيه :

فريد نال إنعاماً فريداً حذاء صنع «غاندي» لا يبارى
وإذ لبس الحذاء غدا طروباً وعند الشكر عريد كالسكارى
فقلت لنعمة ذا السكر عكساً فرأس فريدنا في الرجل صاراً
وادعى الأديب اديب سعادة حق الزمالة وطلب المساواة ،
وكنا في المقهى المجاور وقد أقفل المحل فلم نستطع تلييته فأمضه الجوع
وقال بلهجة الملسوع :

وقفت ابكي على حظي وقد لمعت انوار احذية في ارجل الخُطباء
فقلت يا نعمة اخطأت ذا أدب مُني علي وإلا أهجر الأديبا
فأجابه الأديب والشاعر عفيف الأشقر ، وقد اخطأه الحذاء ايضاً ،
باهجة المشارك المؤاسي :

يا زميلي الكريم في الحرمان نحن كُنا فريسة النسيان
فعزاء فاننا مثل « غاندي » ولنا الفخر أننا حافيات
نحتذي المجد إن يفتنا احتذاء ولنا الأرض والسما كسوتان
وعطف مشيراً اليّ ومبطناً الحسد :

رأيت توفيق يمشي مشية البطل فقلت ماذا ؟ فقالوا فاز بالأمل
قد نال نعمة رب الشعر مغتبطاً أعني حذاء به يعلو على زُحَل
فأجبت فوراً :

يقول صبحي هنيئاً يا أخا ادب هذا الحذاء مُغذٍ كل ذي سغب
فقلت مهلاً فهذي « نعمة » حصلت هيا احسدوني على «رزق» بلا تعب

وشكا في اليوم التالي الاديب انطون شكور الحرمان يصيبه من
حديقه الحميم نعمة فقلت :

يقولُ انطونُ والأيامُ مُدبرةٌ ما كان نعمة بالتقصير معذورا
لو أنه كلفيفِ القومِ عاملي لقلتُ قولاً غدا في الناس مشهورا
أنا شكورُ ولكنْ حينْ شكلي بشدة نعمة أصبحتُ «شكورا»
والتقينا الشاعر نسيم الحوري فقال معاتباً نعمة :

أخبرتُ نعمةً جوَّادُ بأحذيةٍ يا طالما غذتِ الافرنج والعربا
وقد رأيتُ ضيوفاً يخطرون بها لما اتونا وقالوا إنهم خطبا
فقلتُ والنفسُ قد زادت مرارتها ألا يرى حوله في ارضنا أدبا؟
عجبتُ منه غريباً في تصرُّفه يجوِّعُ الأهلَ كيما يُطعمَ الغربا!
وخطر لي أن ناصراً سيطالبني حال وصولي بمثل نصيبي فأعددتُ
له سلفاً الخطاب والجواب التاليين :

أقام صحابي في غيابي وليمةً وقد أكلوا حتى أصيبوا بثخمة
فقلتُ وجوعي صافرٌ في أضالعي أهذا جزائي ما ذكرتُ بلقمة ؟
سأشكو الى «رزقٍ» مصابي «بنعمة» لعلِّي بعد القحط أحظى «بفردة»
فألبسها عند التنزه حبالجاً ومعتقلاً خوف السقوط «أجيتي»
وأصبرُ صبرَ الكاذبين على الطوى الى أن يجي دوري وتأزف رحلي
فأكلُ وحدي مثل ما اكل السوى وأنزلُ بالساهين عني تقمّي
وعندئذٍ يصفو دماغي «بشدة» وأمشي كذئبٍ بعد فوزٍ بنعجة
فأجيبه بالبيتين التاليين وهما مسك الحتام :

أقول لناصرٍ والعتبُ ظلمٌ مررت بخاطري وحياة راسك
ولكنْ رُغمِ بحثي عن حذاءٍ فُشلتُ وما وجدتُ على قياسك
هذا في عُرفي ادب يدلُّ على ديموقراطية حقّة . وبعد ان تطالع
ياقارئ العزيز هذا المقال أسرّ إليّ رأيك ، وما احسب الا انك تستطيب
هذه الوليمة فوق استطابتك الولائم الفاخرة ولو كلفت الوف الليرات .

الانكلیز فی السُّودان

(ما علیهم وما لهم)

تفرّد الانكلیز بفضائل لا یشار كهم فیها احد كما اشتهروا برذائل
 هي مُشاع بینهم و بین جمیع الشعوب . والحكم هو من أنفق وقته
 فی اقتباس فضائلهم بدلاً من ان یضعه عبثاً فی مخاصمتهم لرذائلهم .
 ولا یسع منصفاً ان ینكر علیهم تفوّقهم فی مضامیر الحرية
 والعدالة والنظام ، ولكنهم فی بلادهم كالمضيف الكرم یتقید نفسه
 بواجب إكرام الضیف الى حد التجاوز عن إساآته . او هم بالاحرى
 كالأسد فی قفصه ، فما علی من یشاء ان یتأكد من شدة بأسه ومدى
 ضرارته وبطشه الا ان یواجهه طلیقاً فی غابه ، وهذا هو شأنهم فی
 المستعمرات حیث یعتمدون سياسة الطوارئ تبعاً لاختلاف البیئات
 والظروف والحالات العارضة . وهم بالطبع لا یجهلون ما یرتكبونه
 ولكنهم یرثرونه بضرورة المحافظة علی كیان الامبراطورية والابقاء
 علی هبیتها فی النفوس ، ومنطقهم فی ذلك أنه ما دامت الامبراطورية
 قائمة ففی وسعها ان تعوّض عما قد ترتكبه مكرهةً من ظلم او
 إجحاف ، او تصلح بحسن السياسة ما تكون قد افسدته بالاحتكام
 الى القوة الغاشمة . اما اذا هی انهارت فانها تفقد كیانها ویستحيل
 علیها التعویض او الاصلاح . وليس لنا ان نعالی فی تجریمهم ومنا القائل :
 والظلم من شیم النفوس فان تجد ذا عفة فلعله لا یظلم
 ونحن الشرقیین سواسية فی ما نالنا من الغربیین ولكن لا یضیرونا

شيء كالإقتصار على الشكوى والصخب ولا ينفعنا شيء كاعتزافنا
بأن الذي مكّن الغربيين منا هو نومنا ويقظتهم ، وجهلنا وعلمهم ،
والمخاططنا أخلاقياً وارتقاؤهم .

ولتوطيد هيبة الدولة وفرض احترام العنصر الانكليزي على
الشعوب الخاضعة لسلطانها يحرص الانكليز كل الحرص على الترفع فلا
يعريهم شيء بالتبذّل ويجرّمون على انفسهم الاختلاط بسواهم اجتماعياً .
ففي الخرطوم كانت كبارهم من مدنيين وعسكريين ينتبدون حياً
خاصاً يمتدّ على طول الشارع المحاذي للنيل يسكنون فيه بيوتاً رحيبة
انيقة تحيط بها حدائق غناء تبسق فيها اشجار غضة تحجبها عن ابصار
المارة ، وقد ابنتها لهم الحكومة وجعلتها وقفاً عليهم بأجور زهيدة ،
حتى ليصحّ القول إن كل كبير انكليزي يقيم في منزل يعتبر في
بلاده قصراً ويتمتع بمجديقة لا تقل كثيراً عن بعض حدائقها العمومية .
ولهم نادٍ خاص يختلفون اليه ويمارسون فيه ما يشاؤون من اساليب
اللهو والقصف والتبذّل دون ان يتعرضوا لنظرة استهجان او ازدراء ،
كما أنهم لم يكونوا يسمحون للوطنيين وابناء الاقطار العربية الأخرى
بمجاورتهم في الاسفار البرية والبحرية ، باستثناء من هم في الدرجة
الاولى من الموظفين ، تقديرأ منهم أن هؤلاء على جانب من التهذيب ،
ولو اختار الموظف الثانوي أن يدفع فرق الاجرة بين الدرجتين لما
وجد عرضه قبولاً .

ولصغارهم مصغر ما لكبارهم من كل وجه ، كما ان في أولئك
نسبياً مثل صلف هؤلاء ، وهذا ما لم اكن أطيعه ، ففي رأس العوامل
التي حملتني على هجر السودان اضطراري للعودة من بورت سودان حيث
كنت مستقلاً في مكتبي الى الخرطوم حيث كنت على علم بأنني
سأكون فيها تحت إمرة رئيس كتّاب على وشل من العلم والتهذيب ،
إذ انه نُقل الى السلك المدني من الصفوف وكان فيها رئيس عشرة .

وهذا السلوك الذي يجرح عاطفة ذوي الاحساس مفروض في المستعمرات على كل إنكليزي ، صغيراً كان ام كبيراً ، مدنياً ام عسكرياً ، فهو مقيد بواجب الظهور بمظهر لائق ، محاسب على ما من شأنه ان يحط من قدره وبالتالي من قدر دولته ، حتى إنهم في سبيل الابقاء على هيبة واحترام الجنس الابيض لم يكونوا يسمحون لغانية بدخول السودان لاستغلال أي فن من فنون الترفيه او الاغراء .

وتمكيناً لاحترامهم في نفوس السودانيين فرضوا على كل راكب ، أيّاً كان شأنه ، أنه اذا أبصر بضابط او موظف انكليزي مقبلاً أن يترجل ليؤدي التحية ويقف وقفة الاحترام والاجلال ، ولا يعود الى ظهر مطيته الا بعد ان يكون قد ادى الواجب المفروض . ولطالما غالى بعضهم في احترام الجنس الابيض فترجلوا محيين من هم ليسوا بإنكليز ولكن الانكليز في الوقت نفسه حكماً منون وقابلون للتكليف والتطور تبعاً لمقتضيات الحال فلا يفوتهم مبدأ أن لا أخذ بلا عطاء . من ذلك أنهم على اثر احتلالهم مصر ومن بعدها السودان راحوا يراعون الى ابعاد حد شعائر اهل البلاد وتقاليدهم وعاداتهم الدينية والاجتماعية . ولم تقتهم حتى المظاهر ففرضوا على انفسهم الاعتمار بالطربوش في الدوائر والمكاتب والاحتفالات الرسمية . ومنذ ذلك الحين فرضوا على كل موظف إنكليزي أن يستطيع على الاقل التكلم بالعربية الدارجة على ان يتعلمها تدريجاً قراءةً وكتابةً وهياً والسبيل للراغبين في تعلمها من طلاب الوظائف بإنشائهم كرسياً لتدريسها في كل من جامعتي أو كسفورد وكمبردج . وكان الموظفون الانكليز ، من الحاكم العام فما دون ، يواصلون دروسهم العربية على ايدي موظفين يجيدونها ، ويكسب هؤلاء من التعليم ما يفي بنفقاتهم فيقتصدون مرتباتهم بأكملها .

وبحكم السياسة السائدة كانت كل من الانكليز أستاذاً في المرونة

وسوم النفس احياناً ما لا يطاق ، وكنا نحن الشرقيين ، على اختلاف قومياتنا ودرجات تهذيبنا ، نتخلف عنهم اشواطاً في هذا المضمار ، حتى إني وسواي طالما رأينا كبيراً انكليزياً يستقبل ذوي الميكانة من السودانيين ، الكاسين والعراة ، النظاف والقذرين ، استقبلاً حافلاً تتخلله المصافحة والعناق والتربيت ، ويجلسون القرفصاء يتناولون بأيديهم طعاماً سودانياً يستنفونه بطبيعتهم ، متظاهرين باستساغته والتلذذ به وأذكر من اساليب محاسنتهم للشعب السوداني واستمالتهم إياه أنه كلما نوى الحاكم العام القيام برحلة تفقدية في اية ناحية من نواحي البلاد كنا نعدُّ له في الخزينة قراطيس تتضمن نقوداً نحاسية وفضية حديثة السبك لكي تبهر بجدتها ولعانها ابصاراً من ينفحهم بها من محالبي رفقته والدولة الانكليزية لا تميز في مضمار العدالة بين الانكليزي وغير الانكليزي الا انها تحرص على صون كرامة رعاياها في نفوس البريطانيين وسواهم فتعاقب المذنبين منهم في بلادهم . من ذلك ان ابراهيم ديمتري الذي كان امين سرّ سلاطين باشا روى لي أنه عندما كان مرةً في لندن بصر بكبير انكليزي عرفه في الخرطوم ممسكاً بعنان حصان انتظاراً لعودة صاحبه لقاء دريهمات يتوقعها أجراً على خدمته تلك . وحكاية ذلك الكبير انه ارتكب ذنباً استوجب إعادته الى انكلترا ومحاكمته فيها فثبت إجرامه وعوقب بالنبد والحرم . وكان اول ما تبادر الى ذهن صديقي أن يحييه ويبيدي له اسفه لما آل اليه حاله وينفحه بمبلغ يستعين به على الدهر ، ولكنه لم يلبث ان عدل عن فكرته خشية ان يعرضه لما هو اقل من الفاقة او ان يتعرض هو لمفاعيل سورة غضب تأخذ ذلك المجروح الكبرياء فيجزيه على صنيعه الجميل بالرفض القبيح .

وعرفت موظفاً لبنانياً اسمه امين الحداد كان يشغل وظيفة كاتب ومترجم في الدائرة الحربية المصرية في الخرطوم وظالت زمناً أعجب

كيف أن ثلج المشيب لم يطفئ لهيب حدته وأن صدره لم يستعر شيئاً من سعة وترامي البلاد التي يقطنها حتى علمت سبب نزقه وضيق صدره وهو أنه حوكم مرة لقبوله سرج حمار هدية من أحد ذوي المصالح من مشايخ السودان وحُكم عليه بفقدان « الاسبقية » فظل أعواماً عديدة واقفاً ورفاقه يتقدمون حتى علاه من كثرة رتبة ومرتباً ، وهكذا كان أحد فرائس العدالة الانكليزية التي لم أر أشد منها وطأةً على الراشي والمرتشي ، الا في المستعمرات حيث تؤاخذ الموظفين وتغذر الوطنيين لاعتبارها ان هؤلاء ربوا في احضان الجهل وتحت رهبة الظلم والارهاق .

وكان جل الذين يبدأون بوظيفة مفتش من أبناء العيال العريقة الغنية لا يملكون سوى مرتباتهم الضئيلة بالنسبة الى ما كانوا يرتعون به في بلادهم من مجبوحة لان الارث عندهم ينتهي الى البكر الذي يحمل لقب الاب ويتولى مهمته فينفق على إخوته ويعنى بتثقيفهم وتهذيبهم الى أن يتهيأ لهم الانخراط في سلك يدرك عليهم نفقتهم ويشقوا وخدمهم طريقهم الى الارتقاء فلا يطالبون اخاهم الأكبر بشيء ولكنه يغتتم طوعاً بعض المناسبات فينفقهم على سبيل الهدية او التذكار بمبلغ من المال ينفقونه في بعض ما يتوقون الى التمتع به من الكماليات .

والانكليز هم الذين ألغوا الرق في السودان برغم احتجاج « الأسياد » وبعض العبيد ايضاً ، تاركين هؤلاء الخيار في أن يبقوا عبيداً او يتحرروا . ولكن في الحالة الاولى اشتروا على السادة إحسان معاملتهم عبيدهم وعدم إرهابهم او معاقبتهم بوحشية .

اما من حيث الشجاعة والاقدام وتحمل ما لا يُحتمل فعلى شدة مراس السودانيين واتصافهم بشجاعة تكاد لا تُصدق فقد وجدوا في الانكليز انداداً ، ولم يروا شيئاً من الغضاضة في إعطائهم حقهم من الاعجاب والتقدير .

ومن الامثلة على شجاعة الانكليز ورباطة جأشهم أن كان في الخرطوم ضابط كبير يُدعى هنتر ، ونظراً الى ما كان يديه من ضروب الشجاعة حرقوا اسمه الى عنته. وحدث يوماً أن كان هذا الضابط في حديقة قصر الحاكم العام يتحدث الى سيدتين من ذوات المقام فاذا به يراهما تحولتا فجأة الى تمثالين ارتسمت على محياهما ادلة الجزع الشديد . فالتفت الى الجهة التي تسمرت فيها اعينهما واذا به يرى اسداً مقبلاً فأدرك للحال حرجة الموقف . واتفق إذ ذاك أن يكون سلاحه الوحيد الذي لا يردُّ غائلةً ولا يدفع خطراً قضيباً من الخيزران فأشار الى رفيقته بالتسك والتزام الصمت وسار لمقابلة الاسد مصوباً اليه نظرات حادة ممغنطة ومشيراً بعصيته الواهنة في اتجاه القفص الذي أفلت منه لاهمال او سهو ارتكبه الحارس ، فما كان من ملك الوحوش ، وقد رأى من إقدام ذلك الضابط ما يفوق شجاعته ، الا أن ارتدَّ على اعقابـه وواصل سيره حتى دخل القفص المفتوح وأقفل عليه الضابط الباب .

وكان الانكليز بالمقابلة يحترمون السودانيين لشجاعتهم وصراحتهم ويحسبون لهم حساباً لنفورهم من الذل واستعدادهم الدائم للانتفاض والعصيان . لذلك وجد السودانيون انفسهم بعد الفتح في نعيم بالنسبة الى ما نالهم من الظلم والارهاق في ايام عبدالله التعايشي الذي خلف المهدي . ولكن لم يخل الامر من ثورات قام بها الطامعون في التسلط في أصقاع نائية عن مركز الحكم والقوة فاستغلوا جهل الشعب واستسلامه فسيّرت عليهم الحكومة حملات عديدة . وعندما كنت في رفاعة حصل انتفاض في مركز الكاملين التابع لمديرية النيل الازرق ، والذي يبعد عن الخرطوم مسيرة يومين على الجمال ، وكان ضحيته قائد المئة المصري محمد شريف والمفتش الانكليزي مونكريف اللذان اصطحبا بضعة جنود لقمع عصيان قام به احد المتعصبين ، مهدداً له بالامتناع عن

دفع الضرائب . وكان من رأي محمد شريف تسيير قوة كافية ولكنّ مونكريف استجبته ورأى ان يأخذ العصاة باللين . وبعد ان فإوضحهم بواسطة رسول دخل عليهم في مجلسهم فاستقبلوه ورفيقه بالترحاب وأوسعوا له في صدر المكان . ولكن ما إن استقرّ بهما المقام حتى انتقضّ عليهما المتآمرون فاجتثوا لسانيهما وقتلوهما شرّاً قتلة ، مما اثار الخواطر واطلق الألسنة بالمطالبة بالانتقام الذريع .

ولكنّ الانكليز على مسارعتهم لقمع كل عصيان لم يلجأوا يوماً الى البطش والارهاب بمعناهما ، بل كانوا يؤثرون الهوادة والرفق والتفاهم ، لنسبتهم كلّ انتقاض الى وحي زعماء جهة مغرضين .

وكما أنهم لم يتجاهلوا يوماً ما تعمر به صدور السودانيين من عزّة ونخوة وإباء وقابلية للانتقاض والعصيان لم يكن يفوت السودانيين تفوق الانكليز على المصريين وانصياح هؤلاء لأوامرهم ونواهيهم ، فهل يُلامون بعد ذلك على استصغار شأن المصريين ورفضهم الباتّ ان يكونوا لهم في ذلك العهد انداداً ، فضلاً عن أتباع ؟

وأيّ برهان ادلّ على انحطاط العقلية المصرية في ذلك العهد من سماعي موظفاً يفاخر بأن رئيسه الانكليزيّ وجهّ اليه ما لا يُطاق من الالهات والشتائم ، متخذاً تلك « البادرة » من رئيسه « المحبوب » دليلاً على ما بينهما من رفع الكلفة وما يضره له هذا من الحب والاعزاز ! اما عدم الاهلية وسوء الادارة والاثنان فدلّيلي عليها أن الجامع الوحيد الذي كان جارياً تشييده في الخرطوم انفتحت عليه دائرة الاوقاف المصرية سبعين الف جنيه ولم يتمّ وكنت احسبه لا يتمّ لان بناءه على ما اذكر كان مورد كسب لبعضهم

ترعة بنما أخطىء في تقدير اكلافها مرة واحدة وقد تمت ، اما هذا الجامع فقد أخطىء في تقدير اكلافه مراراً وقد ظلّ الخطأ ممكناً . وقد سمعت أن جميع الذين تعاقبوا على بناءه من مدنيين وعسكريين

ابتنوا لذواتهم بيوتاً من المواد التي كانت تُستجلب لبنائه ، فكيف يتمُّ وليس من يرغب في إنعامه .

ويزداد هذا السلوك فظاعةً إذا هو قيس بسلوك رؤساء المصالح من الانكليز فإن هؤلاء كانوا يغتنمون عطلاتهم السنوية لكي يتسوّقوا ما تحتاج اليه مصالحهم من الآلات والمعدات من افضل المصادر في اوروبا ، نوعاً وسعراً . فاذا ما تلقوا من المصانع كوسطاء العمالة التي تفرضها هذه على نفسها حوّلوها تَوّاً الى الخزينة لتجسم من ثمن ما ابتاعوه وإذن فلم يكن السودانيون في ذلك الزمان على خطأ في حكمهم على المصريين ، ففي مصر نفسها كانت تظاهرات الحزب الوطني أشبه شيء بالألاعيب إذ لم يكن يحتاج رجال الامن في قمعها الى اكثر من إطلاق الماء الحارّ على المتظاهرين ، حتى إن عقلاء المصريين لم يكونوا يعتقدون أن أولئك المتظاهرين واعقابهم يمكن أن يتلقوا يوماً بصدورهم الحراب ويثبتوا امام وابل من الرصاص فيكيلوا المستعبد بهم بالكيل عينه ، لان الايمان بالوطنية كان سطحياً والغاية من طرد الانكليز فاسدة لا تتعدى انطلاق يد الجاهل المتعصب في إيذاء نفسه وسواه واستبداد القويِّ بالضعيف ، فبلوغها إذن كان أضمن وسيلة للتدمير لا للتعمير .

كان المصريون إذ ذاك آلات تحسن الطاعة والتنفيذ ولكنها لا تصلح للادارة والتنظيم لان مصر كانت مصر الجهل والتعصب ، مصر التخاذل والتواكل ، مصر الخنوع وضعف الثقة بالنفس ، مصر الخاصة دون العامة ومصر الموظفين دون سائر الطبقات العاملة . وكانت المدارس الأميرية لا تخرّج الا الذين يصلحون للوظائف يلتمسونها بالتذلل والزلفى ويحرصون عليها حرص من يخشى الموت جوعاً ، وجلُّ التجار اجانب يهتمهم بقاء المحتلين في البلاد ، والفلاح المصري يزرع تحت وطأة مستغلي جهده من المحتكرين والمرايين ، فأنى للبلاد

ان تنهض ولشعبها ان يثور ويسير في طريق الارتقاء ؟

ولكنّ حسن طالعتها قيّض لها ان تنجب الزعيم البركانيّ مصطفى كامل الذي ايقظ النيام وألّب الصدور بجرارة الايمان وأفهم المصريين أنهم بشرٌ كسواهم لهم حقٌ بالحياة الحرة يجب ان يطلبوه ولو في حلق الاسود ، فكانت الحماسة الوطنية والنهضة القومية . وكان أنه عندما بجاء سعدٌ وجد الحديد حامياً فضرب وتم له تكييفه على ما اراد . فالمرحوم مصطفى كامل إذن اعدّ له الطريق بأن نفخ في الشعب المصريّ حياةً وعرف هو كيف يستفيد من تلك الحياة ، وفي ايامه وتوجيهه عكف النشء المصريّ على طلب العلم الصحيح والتحلي بالاخلاق الفاضلة فاستفادت مصر اساتذة من ابناءها يعملون مخلصين فازدهرت فيها العلوم والفنون وسادها النظام والأمن ونشطت الى الأخذ عن الانكليز كلّ ما كان عاملاً في تسوّد الانكليز عليها .

إن السودانيين لم يكونوا يحبون الانكليز ولكنهم كانوا يحترمونهم ، ونظراً الى ما كانوا يلحظونه من خضوع المصريين لهم كانوا يعتبرون الاشتراك في الحكم حكايةً لا يجوز ان يؤخذوا بها ويرون في خضوعهم للمصريين عبوديةً مزدوجة ، او على حد قول الشيخ ناصف اليازجي : « فيا ويلَ عبدِ العبدِ ذلٌّ على ذلٍّ . لذلك ما كنت اعتقد انه سيأتي يومٌ يقرّ فيه السودانيون سياسة وحدة الوادي ويرضون بانضواء بلادهم تحت التاج المصري .

وإذا كان في الزمن الاخير قد نشأ في السودان حزب يرضى بالحالين فالفضل في ذلك عائدٌ كله الى صيرورة المصريين احراراً ينزلون الانكليز بالقوة ويرغمونهم على الجلاء عن بلادهم بحيث اصبحوا في نظر السودانيين انداداً لا يرون اية غضاخة في أن ينضموا اليهم ويكافحوا معهم من اجل حريتهم واستقلالهم ويطيعوهم طاعة الاخ الاصغر لأخيه الاكبر .

وكان أول عهدي بالاطلاع على النشاط الذي يبدية إخواننا
المصريون لتحقيق هذه الأمنية الغالية عام ١٩٤٧ الذي تسنى لي فيه
سماع السفير المصري محمد وجيه رستم يدلي بآرائه في هذا الموضوع
الحيوي في اجتماعات عامة وجلسات خاصة في أثناء زيارته للجلاليتين
السورية واللبنانية في سان باولو بدعوة من صديقي الأديب والصناعي
فيليب لطف الله ، وبعد ذلك في السفارتين اللبنانية والمصرية في ريو
دي جانيرو .

وبما اذكره أنني عند زيارته للنادي الرياضي اللبناني استقبلته بهذين
البيتين :

أودعت مصرأ صدرَ حرٍّ ماجدٍ وأتيتَ تعرّضها على الأبصارِ
وقلوبنا أولى بها فانزِلْ إذن من كلّ قلبٍ مخلصٍ في دارِ
وعندما ودّعته في المطار يومَ عودته الى العاصمة القيت في سمعه
هذين البيتين :

آمنتُ بالسودانِ قطراً مؤمناً وكفرتُ بالسودانِ قطراً جاحداً
ما دام للقطرينِ نيلٌ واحدٌ فغداً نرى القطرينِ قطراً واحداً
وعند توديعي إياه في السفارة عائدأ الى سان باولو بعد زورة قصيرة
للعاصمة تلطف فقدّم لي مذكرةً تتضمن مستندات ووثائق تاريخية تثبت
حقّ مصر في دعواها ، استدلت منها على أن هذه الحركة أعمق وأعرق
مما كنت اتصور ، ثم رحت اتتبع سيرها وتطوّرها في مصر وفي
السودان وما يجري بشأنها من محادثات بين المصريين والسودانيين
وأخبار البعثة السودانية الى الاقطار العربية لاقناعها بحق الشقيقة مصر
في مطلبها وموافقة اكثرية سودانية عليه ، كما طالعت الشيء الكثير
في مجلة المصور الى أن قرأت في العدد ١٢٧٧ منها الصادر في اول
فبراير سنة ١٩٤٩ بلسان عبد الرحمن عزام امين سر الجامعة العربية
ما يأتي :

« كنتُ اظن أن القبائل السودانية التي تتكوّن منها الآن اغلبية اهل السودان اقبلت عليه عبر البحر الاحمر عن طريق ارتريا . فلما زرت السودان في عام ١٩٣١ تبينت أن الاكثوية الساحقة ، بل تسعين في المائة من هؤلاء العرب السودانيّين ، إنّما وُلدوا في شمال الوادي وجنوبه تجمعهم صلة الدم والنسب والقربى »

طالعت هذه الفقرة فتذكرت أنني في غضون الاشهر السبعة التي قضيتها في مركز رفاة من أعمال مديرية النيل الازرق ، وتنقلي بينها وبين واد مدني حاضرة تلك المديرية ، انتهيت من مراقبتي لهيئات السكان ولهجاتهم وعاداتهم وأساليب عيشهم الى القول بعروبيتهم وإنهم يمتّون بأصلهم الى الجزيرة العربية ، أي أنني كنت على وفاق وصديقي عبدالرحمن عزام في ما كان يعتقد ، او يظنه ، قبل زيارته للسودان سنة ١٩٣١ . ولكن بما دعا لاستغرابي هو أنه بعد زيارة عارضة للسودان غير ظنه ذاك في حين أي بعد أن قضيت عشر سنوات في ذلك القطر ، وحتى اطلاعي على رأيه المتقدم ، لم أغير رأيي .

و كنت بالاكثير أستند في اعتقادي الى طائفة من الالفاظ التي يستعملونها وكلها فصيحة الاصل ، والى القارىء بعضها :

الدهك : من دهك ، طحن . التدليك : من ذلك ، مرس ، غمز ، فرك ، دعك . الفسل : من فسل ، الرذالة ، والمفسول الرذل الذي لا مروءة له . الزؤل : الشجاع ، الجواد ، ويطلقونها على الشخص احتراماً وتعظيماً في الخطاب وفي الاستفهام فيقولون « يا زول ، ومن الزول » ؟ المريسة : من مرس التمر في الماء نقعه ومرثه باليد حتى تتخلل اجزائه . ومن ألطف ما سمعته في الخرطوم تسميتهم الدراجة « حمار الحديد » !

وهم يستطبّون بعلاجات بدائية لا اعلم اذا كانت مألوفة في الصعيد المصري فيداوون الحمى بالحمية والمعرقّات . ولدغ العقرب بفرك المكان

« بالثوم ولسع الحية بامتصاص السم . أما الزهري فيداوونه بتطهير
الامعاء بشربات الصودا يستخلصونها من التراب ، والسيلان بنقع التمر
المختمر مضافاً اليه مسحوق جذر يستخرجونه من ضفاف النيل ، وقد
ثبتت لي فاعلية هذا الشراب ولكنني لسوء الحظ لم أعن بحفظ اسم
ذلك الجذر العجائبي او التحقق من نوعه

على أنني لا اجزم في شيء واعتبر رأي الصديق عزام هو الاعلى ،
لانه إذا لم يكن اعرف مني بالسودان فهو يفوقني بما لا يُقاس في
معرفة القطر المصري .

ومما ثبت إخلاصي لاخواني المصريين ويبرئني من تهمة الخط من
قدرهم في ما سبق لي أن اوردته عنهم من الحقائق بصراحتي المعهودة
الابيات التالية التي استهللت بها محاضرة موضوعها « الاجتماع » دُعيت
لالقائها منذ خمسة وأربعين عاماً في النادي المصري في الخرطوم :

يشوقه قائل في مصرَ ذي بلدي وهو الشامي وغير الصدق لم يُردِ
فتى من الشام يُهديكم تحيته وقلبه ليس يُهديه الى حدِ
مخافة القول قد جادت سجيته بما « لهند » ولولا ذاك لم يجدِ
لا اكذب الله قد اضحى لها ابداً يا ويلَ صبّ بلا قلب الى الأبدِ
لولا « اجتماعي » بصحب عزّ صاحبهم بكيّ قلبي بكاء الأم للولدِ

والغريب أنني لا ازال اذكر هذه الابيات كما كتبتها وألقيتها في
تلك الحفلة في حين أني اضعت صورتها على أثر إلقاءها ولم أروها بعد
ذلك الا لصديقي الاديب الطيب صموئيل الحوري في إحدى الليالي
المقمرة في بلدة واو حاضرة مديرية بحر الغزال ، ولا ازال اذكر
مداعبته إياي بتأويله لفظه « عز » الواردة في البيت الاخير !

ومما لا يزال عالقاً بذهني من تلك المحاضرة أنني ضربت مثلاً
للإجتماع الراقي من التقاء النيلين الابيض والازرق وسيهما معاً
متضافرين على ما فيه الخير للبلاد والعباد .

ويسرني أن اختتم بحجي هذا بذكر حقيقة تدعو الى الاعتزاز وهي اننا نحن السوريين واللبنانيين لم نكن في ذلك العهد متخلفين عن إخواننا المصريين والسودانيين في طلب الاستقلال فقد كنا نحلم به منذ خمسة وأربعين عاماً ، حتى إن صديقي فريد عطية روى لي أنه بينما كان مرةً مسافراً بجمعية المستر كزبي مدير المعارف سأله هذا : « من تفضلون من الدول لادارة شؤون بلادكم اذا تقلص عنها يوماً ظلُّ الاترك » ؟ فأجابه بكل جرأة وصراحة : « إننا نفضل أن نعيش احراراً مستقلين ، ولا نريد أن تحكمنا دولةٌ اجنبية اياً كانت ، وفي راس القائمة انكلتوا ! وهذا ما كررته خطيباً جواباً على سؤال مماثل وجهه اليّ المستر اتلي سنة ١٩١٦ في سان باولو ، وكان اذ ذاك قنصل بريطانيا العام فيها . والحق يُقال أن نصيب هذين الجوابين كان الاستحسان والتحييد ! ومن غرائب الصدف أنني بعد أن وضعت نقطة الختام لهذا الفصل أطلّ عليّ في مكتب الريجاني وجهٌ من اكرم الوجوه في السودان هو الشيخ احمد البشير الطيب هاشم الذي كان مفتش تعليم في وزارة المعارف ويقوم بعد إحالته الى المعاش بوظيفة ناظر مدرسة البنات الثانوية في أم درمان ، وقد جاء يحمل الى الأخ البير رسالةً ووصاةً من شقيق قريته وديع شقير الصيديّ في الخرطوم .

وما زادني به استئناساً وله إجلالاً هو أنه نجل المغفور له رجل التقى والفضل والنبيل الشيخ الطيب هاشم مفتي السودان من ١٩٠٠ الى ١٩٢٤ ، وقد اتصلت به بواسطة صديقي الحميم نسيب فيلبس الذي كان يجلّه ويقدر صفاته النادرة .

والشيخ احمد في السادسة والخمسين وقد امّ لبنان للاستمتاع بجماله وجوده هوائه وعذوبة مائه وليتعرّف اليه كقطر عربيّ بعد ان عرف الكثير سواء من الاقطار الشرقية والغربية ، فنعمّ النزول . وقد أدب له الأخ البير في منزله فكانت ليلةً من ليالي العمر

شوارن وخواطرن

الى هنا انتهت الصورتان كما تهيأ لي رسمهما ، لا كما اردته . وقد سبق لي أن اعددت هذا العنوان المطاط او العوام لكي اورد تحته كل ما فاتني كتنقيح للصورتين او تكميل لهما . وقد تبين لي أنني كنت مصيباً ، وما احرى هذا الفصل بأن يُدعى « الكشكول »

التاريخ يعيد نفسه - وأول استدراك او تصحيح أسارع الى إثباته هو إبراء ذمة الاديب فؤاد حبيش مما أضفته الى هذا الكتاب بعد أن عرضه عليه ، وهو كثير يقتضيني على الأقل مشاطرته المسؤولية التي حملته إياها برومّتها في البيان الذي استهللت به تحت عنوان « ميت » فكأنني جعلته يمضي على بياض واطلقت يدي في تقييد ما أشاء على حسابه دون أن يجد الى التنصل منه سبيلاً . وسر شعوري معه من هذه الجهة هو أنني 'نكبت منذ ربع قرن بمثل نكبته بي إذ سألني صديق مقدّمه لرواية عربها واستنزل احد الأثرياء لدفع اكلاف طبعها بتقديمها اليه ، فإذا بي ارى بعد صدورها أنه دس في مقدّمتي عبارة لا أوافق عليها ولا يمكن ان تصدر عني ، فكأنه قولني ما لم أقول مديلاً بإمضائي الذي لا أستطيع إنكاره .

صورة الغلاف - هي صورة التقطها لي اتفاقاً في شرفة منزله في سان باولو صديقي وأخي شفيق عيسى المعلوف ، فكانت تلك المرّة الاولى التي رأي فيها بغير عين الحب . ولكن ايّاً كانت نظرته إليّ فإنه يظل في نظري الشاعر المخلّق ذا الخلق الكريم والطبع النبيل .

خطوط الغلاف ورموزه - من وضع الخطَّاط المعروف فهد العنداري ، وقد كان في تقاضي الأجر عنها « فهداً » .

خطوط الفصول والمواضيع - ولما علمت اتفاقاً انه الساقية قصدت الى النبع ، وأعني الأستاذ الاكبر الشيخ نسيب مكارم الذي ربطتني صلة صداقة بأخيه في البرازيل الشيخ عبدالله سعيد ، غير مبالٍ بتحذير بعضهم إياي من أن نسبة تلميذه اليه كنسبة الدلف الى المزراب . ذلك أني ذهبت متحذراً ومتسلحاً بحجته على المواطنين وهي انهم لا يقدرون الفن لانهم يقيسون الانتاج الفني بالدقائق التي يستغرقها ويضربون صفحاً عن السنين التي أنفقت في الدرس والتمرُّن لبلوغ الغاية فيه . وكانت حجتي المقبولة على اقتضاها أن الادباء ليسوا اقلَّ غناً من اصحاب الفنون

ونسيب مكارم ليس خطاطاً فقط بل رجل فضل ايضاً ، فهو الشيخ الذي شكَا إليَّ التدهور الحُلقيَّ في بلادنا فرقته عنه بعض الشيء بقولي إنَّ جميع بلدان الله قد نُكبت بعد الحربين الكونيتين الأخيرتين بالخطاط المستوى الحُلقيَّ فيها ، ولكنَّ الذي جسَّم نُكبتنا ولا سبيل الى التغاضي عنه هو ان الاخلاق الفاضلة التي اشتهر بها اجدادنا وورثناها عنهم كانت رأس مالنا الوحيد !

طبع الكتاب - لم يكن من الممكن ان اتوفَّق الى افضل من مطبعة صادر وريحاني لأطبع فيها كتابي هذا لأن البير الريحاني متوليَّ شؤونها أديبٌ قبل ان يكون تاجراً . وقد وثقت بصورة عملية من أنه يقدِّم الروح على المادة وتهوَّن عليه التضحية بهذه في سبيل تلك ، إذ انا على يقين من أنَّ صفقته معي لم تكن رابحة ، وإني احمده الله عنه على أني بحكم الشاذ الذي لا يُقاس عليه ، اذ لو كان كلُّ زُبنة مثلي في التدقيق وإضاعة وقت العمال في التنقيح والرتق لكانت « مطابع صادر وريحاني » في خبر كان قبل هذا الزمان . وقد زاد على ذلك

أنه أعار كتابي عنايةً خاصةً إذ هو اقترح تذييله بفهرس للأعلام وتطويع لوضعه ، مضيحياً في هذا السبيل بوقته الثمين ، شأنه في خدمة مشاريع عديدة تقتضيه التغيب عن مكتبه عدة ساعات يومياً . وقد نهني بسلوكة الفدّ هذا الى افتقار لبنات لأمثاله من الغيريين فلا يكون كذلك التلميذ الذي بعد أن فاخر والده بأزه الأول في صفه سُئل عن عدد من تفوّق عليهم « محروسه » فأجاب أنه الوحيد ! ولم يكتف بما تقدّم بل هو رأى أن يُصدر من هذا الكتاب بنفقتة طبعةً شعبية يعرضها للبيع بسعرٍ مغرٍ لا يدُرُّ ولا يُضِرُّ .

هذا هو اعترافي وهذه حكايتي مع البير الريحاني ولا أزيد

بركة المكتب - اما بركة المكتب فصره العالم العامل يوسف صادر الذي لم تقعهه الثمانون عن خدمة العلم والأدب والمشاريع الوطنية والخيوية ، وإشاعة المهابة والوقار ، مقتونين الى دماثة الخلق وأنس المحضر . ومن دواعي حزني أن الأجل لم يمهله ريثا يقرأ هذه الفقرة المقتضبة المعبرة عنه ، وقد عدّد صفاته النادرة وبكاه جميع عارفه

الحرب بالنظارات - لا أستغرب أن يتبادر الى بعض الأذهان أنني كنت أبطأ من سلحفاة في إصداري هذا الكتاب بعد إقامة عام كامل في لبنان ، بحيث اكون قد كتبت اقلّ من صفحة في اليوم . فلمثل هؤلاء اقول إن المسألة ليست مسألة ملء صفحات بل إعداد تربة وبذر وتعهّد ريثا ينبت الزرع ويعقد وينضج ويثين وقت حصاده . وقد كنّيت بهذه العمليات كلها عن الدرس والاستطلاع والتثبّت من الامور وقتلها تفكيراً وتعليلاً ، فكل مدة تُتفق في هذه السبل تظل قصيرة ، بدليل ما نقضته من احكام وما عدّته من آراء في غضون الاشهر التي قضيتها متنقلاً ومقيماً ، بما قصر في نظري الزمن الذي قد يستطيله من لا يشعر مثلي بالمسؤولية ولم يعان ما عانيت من الكدّ والارهاق ، لذلك اعجب بدوري للذين يقضون

ويمضون على أثر دراسة سطحية لا تستغرق أكثر من أيام أو اسابيع .
 وإني أقيم من نفسي وشعوري الخاصّ شاهداً على أن الغريب أو
 القادم بعد غيبة سنين يتبين ما لا يراه المقيم ولا يحسُّ به ، فإن جميع
 ما أعربت للوهلة الاولى عن استفظاعي اياه اخذت مساوئه تتضاءل
 رويداً في نظري حتى بتُّ لا أستبعد ، لو انا أقمت عاماً آخر فقط ،
 ان يأتي يوم اتغاضى فيه عنه او أستسيغه كالمقيمين تماماً .

دستور الايمان عندي - لو كان ابن زُرَيْق البغداديُّ متسلحاً
 مثلي بدستور الايمان الذي سننته لنفسي منذ عهد بعيد لما امضته الحبة
 وقضى ياساً بعد ان نظم رائعته التي خلّدتها على مرّ العصور ، ومطلعها :
 لا تعذّليه فانّ العذلَ يولعهُ قد قلت حقاً ولكن ليس ينفعهُ
 فدستوري الذي قويت بفضلها على كل ما تلقّيته من أبناء مؤلّة ،
 وما حلَّ بي من خسائر فادحة ، بالنسبة إليّ ، مؤلف من شقّين : اولهما
 ان صحتي كنزي الوحيد فاذا فقدتها فقدت كل شيء ، لذلك لا يجوز
 ان يهتني شيء في هذا الوجود كالحفاضة عليها واحتمال كل مكروه في
 سبيل صيانتها ، إذ في جنايتي عليها بالتألم او الشكوى جنايةٌ على
 نفسي وعلى كل من يهمني امرهم ويهمهم امري .

وما اجمال ما قاله ابن الرومي في تسفيه الشكوى :
 لا تظهرنّ لعاذرٍ او عاذلٍ حاليك في السرّاء والضرّاء
 فليرحمة المتفجّعين مرارةٌ في القلب مثلُ شماتة الاعداء
 وثانيهما اني كمعتنق مبادئ تعاكس جلّ ما تواضع عليه الناس
 يجب ان اتوقّع منهم الصلب ، لذلك تظلّ صفقتي رابحة مهما ينلني منهم
 بما هو دونه .

ولكي أستديم صحتي يجب ان أستديم زهوي ومرحي باستعاضتي
 عن كل ما فقدت بما انا واجد ، فأنا في جوٍّ عائليٍّ من منازل انسابيّ
 الذين سبق ذكرهم ، وفي جوٍّ وديٍّ حميم من اصدقائهم ومعارفهم

وَمَنْ كَسَبَتْ وَدَّهْمٌ وَأُولُوْنِي عَطَفَهُمْ مِّنْ جَدَّدَتْ صَلَاتِي بِهِمْ أَوْ
اسْتَجَدَّتْ لِي بِهِمْ مُخْتَلَفَ الصَّلَاتِ ، عَلَى مَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ . فَكَأَنِّي وَالحَالَةُ
هَذِهِ لَمْ أَنتَقِلْ وَلَمْ أَهْجِرْ ، حَتَّى إِنِّي نَقَلْتُ مِنْ سَانٍ بَاوُلُو إِلَى بِيْرُوْت
بَعْضَ الْمَنَازِلِ الَّتِي لَا يَهْوَنُ عَلَيَّ مَفَارَقَةُ سَكَانِهَا طَوِيلًا بِإِحْلَالِي مَكَانَهُمْ
مِنْ يَنْوِبِ عَنْهُمْ مِنْ ذَوِي قُرْبَاهُمْ .

وَالْإِلَى ذَلِكَ فَانَا مُوزَّعُ الْقَلْبِ بَيْنَ إِخْوَانِي فِي الْإِنْسَانِيَّةِ ، لَا فَرْقَ
عِنْدِي بَيْنَ مَنْ يَصَادِقُنِي مِنْهُمْ أَوْ يَعَادِيْنِي ، عَمَلًا مِّنِي بِقَوْلِ الْمَسِيحِ :
إِذَا أَنْتُمْ أَحْبَبْتُمْ الَّذِينَ يُحِبُّونَكُمْ فَأَيُّ فَضْلٍ لَكُمْ ؟ وَإِذَا شَقَّ هَذَا عَلَى
صَدِيقِي وَسَاءَهُ أَنْ لَا أُفَرِّقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَدُوِّي فَلْيَذْكُرْ أَنَّ الَّذِي يُحِبُّ
عَدُوَّهُ يَسْتَحِيلُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ حُبُّهُ لَصَدِيقِهِ أَصْدَقَ الْحُبِّ وَأَثْبَتَهُ وَأَتْقَاهُ .
وَإِذَا تُقَيِّدْتُ ، كَمَا جَرَى لِي فِي لُبْنَانَ ، بِوَاجِبِ الْإِنْتِزَاعِ إِلَى طَائِفَةٍ
مَعِينَةٍ لِأَنِّي وُلِدْتُ فِيهَا حُرَّرًا فِي الْمَسِيحِ نَفْسُهُ بِقَوْلِهِ صَرَاحَةً : « إِذَا
أَرَدْتُ أَنْ تَصْلِيَ فَأَدْخُلْ إِلَى مَخْدَعِكَ وَاغْلِقْ بَابَكَ وَصَلِّ لِأَبْنَيْكَ الَّذِي فِي
الْحَقَاءِ وَأَبُوكَ الَّذِي فِي الْحَقَاءِ بِجَازِيكَ عَلَانِيَةً » ، ذَلِكَ أَنِّي بَرِمْتُ مِنْذُ
زَمَنِ بَعِيدٍ بِالصَّلَاةِ الْمَشْتَرَكَةِ لِكثْرَةِ مَنْ تَعَجُّ بِهِمُ الْمَعَابِدُ مِنَ الْمَرَاتِينِ
الَّذِينَ يَنْدَسُونَ بَيْنَ الْمُخْلِصِينَ أُنْدَسَاسَ الذَّنَابِ بَيْنَ الْخُرَافِ ، مَتَّخِذِينَ
مِنْ مَظَاهِرِهِمُ التَّعَبُّدِيَّةِ سِتَارًا لَمَّا يَرْتَكِبُونَهُ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ ، وَتَكُونُ
النَّاتِجَةُ الْمُنْطِيقِيَّةُ تَزَايِدُ عَدَدَ الذَّنَابِ الَّتِي تُفْتَرَسُ وَتُنَاقِصُ عَدَدَ الْخُرَافِ
الَّتِي تُفْتَرَسُ . وَمَا أَجَلُ مَا قَالَهُ أَبُو الْعَلَاءِ بِهَذَا الْمَعْنَى ، وَقَدْ رَوَاهُ لِي
الشَّيْخُ الْفَاضِلُ أَحْمَدُ الْبَشِيرُ الطَّيِّبُ هَاشِمُ السُّودَانِيُّ الَّذِي مَرَّ ذِكْرُهُ :

إِذَا رَامَ كَيْدًا بِالصَّلَاةِ مُقِيمُهَا فَتَارَكْهَا عَمْدًا إِلَى اللَّهِ أَقْرَبُ

وَتَفْسِيرُ الْخُلُوعِ الَّتِي يَأْمُرُ بِهَا الْمَسِيحُ صَرَاحَةً هُوَ فِي اعْتِقَادِي حَصْرُ
الصَّلَاةِ فِي مَا يَنْبُضُ بِهِ الْقَلْبُ لَا بِمَا يَجْرِي بِهِ اللِّسَانُ لِأَنَّ الشُّعُورَ هُوَ
اللُّغَةُ الَّتِي تَسْتَفْنِي عَنْ الْإِلْفَازِ ، وَجَمِيعُ الْبَشَرِ ، عَلَى تَعَدُّدِ لُغَاتِهِمْ ، فِي
التَّعْبِيرِ بِهَا سَوَاءٌ . وَعِنْدِي أَنَّ اللَّهَ لَا يَصْغِي إِلَى سِوَاهَا وَيُوصِدُ سَمْعَهُ

دون اية لغة ينطق بها اللسان الذي لا يتلفظ بالصدق مرةً حتى يتلفظ
الفأ بالبهتان .

وهذا ما رميت اليه في الابيات التالية التي القيتها في حفلة تدشين
دار المطرانية الارثوذكسية في سان باولو التي ابتناها وأثناها وقدمها
للطائفة آل عزّام عن نفس فقيدهم نعمة عبدالله عزّام الذي توفي منذ
سنوات في الوطن :

ليس الصلاةُ وقرعُ الصدر مشوّبةً إذ طالما دينَ من صلوا ومن صاموا
إنّ المصليّ يروم الأخذَ عن طمعٍ والأخذُ كالصفر والاعطاء ارقامُ
صلُّوا بأعمالكم واللهُ يأجركم ها قد اراكم طريقَ الخلد عزّامُ
وقد نالت هذه الأبيات استحسان أخواني فارس دبغي
والارشمندريت إيصائيا عبود ، فنشرها الاول في جريدة « برازيل -
لبنان » التي يقوم على تدبيج إفتتاحياتها ، والثاني في النشرة الكنسية
التي يصدرها شهرياً عن دار المطرانية .

واكتفاء المسيح بالأعمال بيّن من قوله : « من ثمارهم تعرفونهم... »
ولم يفرض اللجوء الى الوساطة والشفاعة بقوله : « تعالوا إليّ يا جميع
المتعبين والثقيلي الأحمال وانا أريحكم » .

وما رأيت كالاعتراف وإنالة الغفران مجرّئاً على العودة الى الحماة ،
لذلك اعتقد أن الذنوب يجب ان تظلّ كأشواك وخنازة تحت كل
إبط . والا فما الذي يتركه الناس لرحمة الله وغفرانه اذا هم لم يُبقوا
على ذنب الا غفروه بحيث ينتقل الجميع الى العالم الآخر مطهّرين من كل
وزر ؟ واذا غفر زيدٌ لعمرٍ جريمةً ارتكبتها هذا ضدّ بكر فهل
يسري هذا الحكم على بكر ، وهو الفريسة التي لا يجوز عقلاً وشرعاً
أن يضيع لها حق ؟

وبالاختصار يكون مذهبي العمل جهدي كبشريّ ضعيف بما تأمر
به الاديان المعروفة على اختلاف طقوسها وتقاليدها والامتناع ما

أمكنني عما تنهى عنه ، وإذن كنت من أشياع محي الدين ابن
عربي القائل :

لقد كنتُ قبلَ اليومَ أنكرُ صاحبي
إذا لم يكن ديني الى دينه داني
فأصبح قلبي قابلاً كلَّ صورةٍ
فرعى لغزلانٍ وديراً لرهبانٍ
ومسجداً أوثانٍ وكعبةً طائفٍ
وألواحَ توراةٍ ومصحفَ قرآنٍ
أدين بدين الحبِّ أنيَّ توجَّهتُ
ركائبه فالحبُّ ديني وإيماني

على أني لا افرض على أحد عقيدتي هذه او اسومه اتباعي فليعتقد كلُّ
بما شاء وليعبد الله على الأسلوب الذي تطمئن اليه نفسه ويصادق عليه
وجدانه ، ولكنني لا أحترم إلاَّ من يعمل بموجب معتقده ، من العوامِّ
كان ام من الكهان والأخبار .

ولمن شاء من المؤمنين ان يُجرِّمني بسبب عقيدتي هذه ويعتبرني
من الهالكين ، ولكنني أطمئنه بأن المسيح تاركه ومفتش عني ، عملاً
بالمثل الذي ضربه عن الحروف الضالِّ . والمهم عندي أنني اصدق
المسيح فوق تصديقي أيّاً من ممثليه على الارض

والآن أروي على سبيل المثال حكاية احد المنازل التي نقلتها من
سان باولو الى بيروت ، وهي واقعية لا اثر للخيال فيها :

اتصلت على اثر وصولي بجورج بشاره كرم التاجر ، لا النائب
ولا الوزير ، أولاً في مكتبه ثم في منزله ، وكنت قد سبق لي ان
عرفته وقرينته الفاضلة سوسن طربية كرم في منزل عديله صديقي عزيز
نادر وقرينته الفاضلة إفلين طربية نادر . ونتج عن معرفتي إياه في مقرّه
في بيروت أن ثبت لي بالمقارنة أن العديلين ، باستثناء الفوارق الشكلية

الظاهرة ، عنوان بحيث يكاد كلُّ منهما يكون نسخة طبق الاصل من الآخر : فكلاهما فينيقيّ طموح ، وبفضل إقدامهما وجدّهما واجتهادهما أثريا الى حدّ كبير وابتنى كلُّ منهما قصراً فخماً جرى فيه على مألوف الاجداد فكان « البيت المفتوح » ، كما يؤخذ من قولي في صديقي عزيز نادر بمناسبة ابتناؤه القصر الذي يحلّه في سان باولو منذ سنوات ، ويجدر بكل من يبني قصراً أن يطالب نفسه بمنطوقه :

ماذا يفيدك ما تبني بلا أسسٍ من الفضائل بقيه وتعليه
لا كان قصرٌ يرثى الطرفَ منحسراً إن لم يكنْ إسهُ من خُلقِ بانيه
بدأت بالنفس فاستصفيت جواهرها وزنتها بحمِلِ الفعلِ توليه
وقد غنيت بها عن مسكنٍ نقشت يدُ الصنّاعةِ آيأ في حواشيه
لكنْ لعلَّكَ مستبقٌ به أثراً مما احتشامكْ تحفيه وينفيه
جودٌ وذوقٌ وحبٌّ للجمالِ وما شريكةُ العمرِ توحيه وتليه
ولست تملكُ هذا القصرَ منفرداً ما دمتْ تشركُ إخوانَ الوفا فيه

والى ذلك فقد تساوى في حسن الاختيار فاقترا أولهما بإفلين كريمة اللبناني الكبير المغفور له وديع طريبه والثاني بشقيقتها سوسن . والشقيقتان أيضاً متشابهتان في الهيئة والثقافة العالية والتهديب الرفيع حتى لكأن الواحدة منهما صورةً مكبّرة أو مصغّرة من الأخرى . وهما متباريتان بنوع خاص في حبهما لوالدتهما ماريانا طريبه فعلى اثر وفاة والدهما طارت إفلين من سان باولو الى طرابلس وعادت بوالدتها فأبقتها بقرها زهاء ست سنوات ، وفي الزمن الاخير طارت سوسن وأجمرت وعادت بها الى بيروت . وكلا الأختين انجبت ثلاثة ذكور . وكلا العدلين لم تبطره الثروة ولم تنتزع من قلبه روح التقى والنزوع الى إتيان الصالحات ، ولهما على ذلك من قرينتيهما خيرُ معوان وأصدق دليل على تأصل روح التواضع المسيحيّ في نفسيهما هو ان الحلية الفنيّة المفضّلة في قصر الاول في سان باولو صورة زيتيّة

لاسكافي بريشة الفنانة اللبنانية الموهوبة هند خوري ابي جودة (وآخرأ
الغريب) ، وفي قصر الثاني في بيروت صورة زيتية ايضاً لشيخ اسود
البشرة جالس على الارض يعزف على الرباب . وكلا الصورتين باللغة
حدّ الروعة والاتقان

من اجل كل هذا 'يُحْيِلْ' إليّ كلما أمت منزل جورج كرم في
بيروت كأنني في منزل عزيز نادر في سان باولو ، على الأخص اذا
اتفق ان يكون ذلك اليوم خميساً .

وما شقّ عليّ شيءٌ كنتلقيّ من سان باولو نعيّ صديقي وأخي
ميشال نقولا مطران الذي لم يقلّ حزني عليه عن حزن شقيقه فوزي
وجورج وشقيقته اوجني الذين عرفتهم بواسطته ، لأنّه رحمه الله كان
عنوان الصدق والاخلاص في حبه إياي

خليل خوري - وكان طبيعياً على أثر وصولي ان أوّم مصيف
بولونيا للتعرفُ الى عائلة ابن الحال باترويني ، واذا بي اكتشف في
طريقي اليها بصحبته ان جاره الذي سأله عني ، وأبدى رغبةً ملحةً
في مشاهدتي ، هو صديقي الطبيب الداموريّ الذي ساكنته وعاشته
طيلة ثلاث سنوات في مستشفى بورت سودان منذ اربعين عاماً . فهو
يملك بيتاً رحباً انيقاً فيها كما اصبح ملاكاً ومزارعاً في الدامور ،
وبذلك بعدت الشقة بيننا لانني ما زلت من الذين يبتنون في السماء ،
وسرّني أني لقيته كما عهدته ، باستثناء ما يكلل هامته ويزين عارضيه من
الحیوط الفضية . وهو مقترونٌ بسيدة ذات جمال ومهابة وذكاء من أسرة
غرّيب اسمها حنيّنة . وقد احسن الزوجان استقبالي فوصلا بذلك
بين ماضيّ السحيق وحاضري الراهن

ومن طريف ما حدث عندما كنت اشرح لهما ولالأستاذ كفوري
نظريتي في الادب وهي أنه كما زلال في وعاء يندھق منه بقدر ما يطرح
في الوعاء من الحجارة التي تمثّل المادة ، سمعني البستانيّ الذي كان يعمل

في الحديقة على مقربة من النافذة فاطمأن الى أنه قد تم فيه الشرط الرئيسي في الاديب لان جيبه يشكو الفراغ . فعندما خرجنا جابهني برأيه هذا فأزلت توهّمه بتوجيهي نظره الى شرط آخر اهمّ وهو أنه الى جنب فراغ الجيب يجب ان يكون ممتلئ الدماغ !

جورج كفوري - وكم سرّني ان يكون بين المصطافين في تلك الغابة الجميلة رجل العلم والفضل الاستاذ جورج كفوري الذي كان في زمن مضى وزير التربية في الحكومة اللبنانية . وكان الفضل للزوجين الكريمين المتقدمي الذكر في الجمع بينه وبينني على مائدة سخية في منزلها العامر فتحدّثت اليه طويلاً ورأيت فيه مجراً يغري بالاعتراف وتواعدنا على ان نستأنف ما تناولناه من المواضيع في جلسة مقبلة ولكن حالت موانع دون لقائنا حتى علمت بعودة قرينته الأدبية الثقيفة نجلاء صفدي من البرازيل حيث طمع بها مجموعنا للاستفادة من مواهبها واستبقاها زهاء عام كامل . ولكن الذي ساءني هو أنني لم أزرها مهنئاً فقط بل معزياً ايضاً بشقيقها توفيق الذي كان من العناصر الصالحة وقد قام في كلّ محيط حلّه في البرازيل بخدمات جليلة مقدورة بقلمه ولسانه ومسايعه الخيرية والوطنية الحميدة رحمه الله عداد حسناته .

اسكندر ميخائيل اليازجي - وكم سرّني أن لقيت اتفاقاً في بيروت هذا الاديب المهنّذ الذي سبق له أن أمّ سان باولو من نيويورك حيث يتّجر وحلّ ضيفاً على نسيبه الصناعي والأديب يوسف نقولا اليازجي فعرفت فيه دماثة الاخلاق ولين الجانب وساءني أنه لا يتمتع بصحته الكاملة بسبب ما حلّ به على يد اليابانيين الذين اعتقلوه كسواه من الاجانب طيلة اشهر في الصين ، الى حيث كانت قد دعتة مصالحه التجارية، وقد أمّ لبنان مستشفياً وهو الآن مقيم في بلدته الجميلة مرمريتا الحصن . وقد كان في نيويورك من نصراء الادب وصديقاً للأدباء ، وعلى الاخص اعضاء الرابطة القلمية ، وإن لم ينخرط في

سلوكها ، وبنوع خاص منهم ميخائيل نعيمة ناسك الشخروب الذي طالما اضاف في منزله في بسكنتا وزاره في بيروت حيث اجتمعنا مراراً . وقد عرفني الى اخيه الثقيف الياس الذي ملّ التدريس فانتقل من جسيمه الى نعيم التجارة ، والى ابن عمه الأستاذ كمال اليازجي الاستاذ في الجامعة ، وقد كان نزيله طيلة مدة إقامته في بيروت .

شفيق نصر — هذا مغترب من بيت علم وأدب لذلك عاد منذ سنوات من البرازيل الى موطنه الشويفات خالي الوطاب ، ولكنه يعيش فيها منذ ذلك العهد عيشة راضية مطمئنة . وكان له الفضل في التقنيش عني وإكرام وفادتي لأنه في جملة المدعوين بكفائي ، لا بل ربما كان في طليعتهم ، ولكن ليس لي إلا أن احمد اندفاعه في هذا السبيل لانه كان من العوامل الفعالة في تشجيعي . وهو شقيق الأستاذ نسيم نصر المدرّس المعروف في حلب وقد نعمت بواسطته بالتعرّف الى شقيقه طنوس في مكتبه في بيروت .

اديب يوسف — هذا مغترب حكيم نشأت بيني وبينه صلة صداقة عائلية في سان باولو وسرّني أنه اغتنم ظرفاً مؤاتياً فصفى اشغاله على أثر انتهاء الحرب الاخيرة وعاد مع قرينته الفاضلة سلوى فواز وأنجلاه الأعرّاء الى لبنان ليستغلّ فيه ثمرة جهاده السنين الطوال ، وهو يقيم في بيروت على مقربة من الجامعة حيث يتلقى اولاده العلم ويقوم على زراعة الأشجار المثمرة وسواها في ارضٍ صالحة يملكها في مستط رأسه ميمس . وإلى جانب كل ذلك استعداد كنية فوّاز التي كان قد فقدوها في البرازيل جرياً على مألوف الكثيرين من المواطنين في اختصار اسمائهم تسهيلاً للفظها على الوطنيين فأصبح اديب يوسف فوّاز .

الوساطة والشفاعة — كم تذكرت في بيروت وسواها ايام الصغر عندما كان لا يؤم قريةً أفّاقاً بدبّ او سعدان ليستغلّ فضول الراغبين في التلهي والتسلية حتى يهرع الناس كبارهم وصغارهم لمشاهدة

الحركات المضحكة التي يقوم بها احد هذين الحيوانين المروضين . وكان في جملة الدعاء الذين اغروا المربيّ القدير الواسع الاطلاع الاستاذ حسن فروخ بزبارقي في صومعتي مساعدته في إدارة مدرسة حوض الولاية الزاهرة ابن العم ميشال الياس ضعون . وقدم هو والاستاذ في الموعد المعين فحمدت للزائر الكريم زيارته المشرفة وكنت طيلة الوقت آخذاً لا معطياً ، ولم يكن هذا بالشيء المستغرب ، ولكن حدث اتفاقاً ودون علم مني ما اكسب اجتماعنا ذاك معنى خاصاً وجراً الى موضوع ذي بال يصلح درساً وعبرة . ذلك انه بدلاً من ان تقدّم القهوة صاحبة النزل او زوجها دخل بها احد التزلاء وهو فتى يدعى انيس زيدان فأبدى الزائر الكريم دهشته لتطوّعه لتلك الخدمة التي لم تكن من شأنه . ولكن على اثر انتهاء تلك الزيارة ابلغتني صاحبة النزل ان ذلك الفتى اصرّ على ان يقوم عنها بذلك الواجب وودّ لو اضاف اليه من عنده تقديم شيء من البرتقال استدراراً لعطف مدير ذلك المعهد التربويّ عليه لأنه من تلاميذه ، وأنه ينتظر مني لقاء خدمته تلك العمل على كسب عطف الاستاذ عليه . فأبقيت ذلك في ذاكرتي حتى جاء موعد قيامي بواجب ردّ الزيارة للاستاذ في مكتب المدرسة عينها فسألته ما اذا كان يتلقى احياناً مثل ذلك الاستدراج الصامت فجهر بما كنت اتوقّعه او اخشاه وهو أنه في مواعيد الامتحانات يستتر عن الاعين ويردّ طالبي مقابله بمختلف الأساليب والأعذار فلا يلي لأحد طلباً الا اذا كان قانونياً ومشروعاً . فاطمأنت وازددت إعجاباً بنزاهة المربيّ القدير الحكيم وعدت فألقيت على ذلك التلميذ موعظةً كان لها وقع حسن في نفسه وما أحسبه ينساها . وقد اثبت هذه الحادثة لكي يتعظ بها امثاله .

ولا يسعني في هذا المقام الا أن أستغرب ، ونحن في لبنان بلد الذكاء والمقدرة على التحصيل ، أن يتذرّع الدارسون بالوساطة والشفاعة

ليفوزوا بعلامات جيدة ، متناسين انهم بذلك يحنون على انفسهم
ومستقبلهم ويقفون موقف الذلة والاستجداء ، وفي استطاعتهم بالدرس
والاجتهاد أن يتفوقوا عن جدارة واستيهال ويظلوا اعزاء موفوري
الكرامة بدلاً من ان يضيعوا زمن الدرس والتحصيل باللهو
والاستمتاع بما يجني عليهم حاضراً ومستقبلاً ، وهو ما يجب ان يرجئوه
ليكون لهم مكافأة مستأهلة على حسن جهادهم وتقوّمهم .

الاستاذ جبران مسعود - مدرّس بالقسم الفرنسي في الجامعة
الاميركية وهو جار لابن العم ميشال وقد استدرجه كسابقه لزيارتي
فوجدت فيه ذكاءً وأدباً وليت طلبه فأعترته النسخة الوحيدة التي
كانت لديّ من كتابي « ذكرى الهجرة » ريثما اتلقى بضع نسخ منه
كانت في الطريق ، وقد بررت بوعدي . وقد اثبت لي بما اقتبسه من
كتابي أنه من الدارسين المحققين فكان له عليّ بذلك فضل لا انساه .

الضالون الذين وجدتهم - ومن لقيتهم في بيروت من اصدقائي
الأعزاء في السودان إسكندر فريوه مزيل الهموم وابن حميه اسكندر
مرقص الذي قدّم من اللاذقية لكي يراني . واسحق عطية زميلي في
الدراسة في الكلية وفي الخدمة الحكومية في السودان ، قادماً من بينو .
وفارس نصار الذي فتش عني وزارني في مكتب الريحاني . وأذكر
للأخير فضل احلاي مكانه في مدرسة اليهود للصبيان في القاهرة سنة
١٩٠٤ ، ومن بعدها مدرسة البنات ، ولكنني افلحت في تلك وأخفقت
في هذه لأنني لم اكن مثله « فارس ذلك الميدان » . على ان ما يسوءني
هو انني لم استطع أن اذبح لهؤلاء الضالين الذين وجدتهم العجل المسّمّن
وأعود بالذاكرة الى زحلة حيث لقيت ابنة العمه ليزا جحا ونجلها
رشيد شاكر البركس الموظف في دائرة البريد وقد عرفني فيها اتفاقاً
فعرّفني بقرينته الفاضلة وأنجّاله الأعزاء وشقيقته قرينة السيد اسعد
ماروني . وقد هنّأت هذين الزوجين بنجلهما ميشال الأديب الذكيّ ذي

النزعة الروائية والموسيقية، وهو صاحب مكتبة في حلب

عودة الى الجنوب - ومن عرفتهم في حاصبيا السيدة الكاملة كاملة يوسف ابو سمرة قطيط ارملة صديقي القديم في البرازيل المرحوم اديب قطيط وكريمتها ليلى ونجلها فيصل المنتظر سفره قريباً الى سان باولو ليعاون عمه لييب في عمله ، وكريمتها نبهة عقيلة النطاسي اللبق رشيد حداد . كما عرفت الصديق القديم في سان باولو سليم دبغي وابن شقيقه فايز شقيق صديقي الكريم فارس دبغي . وما الطف الخدمة الصغيرة التي كلفني بها هذا الاخ اذ هي كانت السبيل لتعرّفي الى ابنة شقيقه المذكور الانسة الجميلة اللطيفة منى المتلمذة في مدرسة الاميركان في بيروت .

وكان لي الحظ انّ لقيت في جديدة مرجعيون الاستاذ الفرد ابو سمرة صاحب « القلم الصريح » وفي بيروت اكثر من مرة الاستاذ راضي دخيل صاحب « صدى الجنوب » . واني مدين لكليهما بالفضل وفي الكفيل التي اقلّنا اليها على سيارته الانيقة الشاب المهدّب جميل حاوي ، ابن حمي الصديق ميخائيل عزّام ، كان لي الحظ بالتعرف الى الاستاذ ايوب الحوري الشقيق الاكبر للنوابغ المعروفين فارس وداود وفايز و خليل يعقوب الحوري . وقد أسفت أشدّ الاسف للنكبة التي حلت بذلك الشيخ الجليل الوقور بفقده نجله الذكي اللامع في دمشق

اسعد اديب قطيط - هو الحقوقيّ اللامع الذي عرفته في سان باولو حيث قضى اشهرأ بضيافة عمته الفاضلة سلوى ارملة المرحوم الياس محفوظ . وقد لقيته في بيروت على أثر إنجائه دروسه بتقوُّق في فرنسا وتقديمه أطروحة نالت منتهى الاستحسان، مما حمل حكومة الانقلاب على الاستفادة من علمه ومواهبه وتعمّقه في الشرع الدوليّ فعينته مستشاراً حقوقياً في دائرة الطيران المدنيّ .

وقد كان له الفضل في حصولي على رسوم حاصبيا المنشورة في الصفحة

٢٣٥ من هذا الكتاب ، وقد اتت بحكم الضرورة في غير موضعها .
في وزارة الخارجية والمغتربين - قادتني الى هذه الوزارة رغبتني
في قيد اسمي في عداد الذين اختاروا الجنسية اللبنانية ، وفيها لقيت
رفاق سان باولو الذين تعاقبوا على تولي الشؤون القنصلية اللبنانية فيها
وهم الاساتذة هكتور خلاط ونعيم الاميوني ومحمد فتح الله . كما تهيأ
لي حظ التعرف الى مدير دائرة المغتربين النشط الاستاذ فؤاد بريدي
الذي عرفني الى الاستاذ اديب نحاس سفيرنا السابق في الارجنتين
والعتيد في البرازيل .

كذلك عرفت فيها الاستاذ مُمْنَح يراكيم الراسي بعد أن كنت
عرفت في إبل السقي أخاه سلام القائم على توليد النور الكهربائي وتوزيعه
على المشتركين فيها .

وكم سررتني أن اتعرف فيها ايضاً الى اثنين من اشبال صديقي
المغفور له إبراهيم المنذر ، ذلك الأسد في عزته وإياه ونبالته ، وهما
الأستاذان بديع قنصل لبنان في العراق ، وصلاح احد موظفيها
النشيطين ، وكانت قد سبقت لي معرفته وقرينته وكريمته الثقيفتين على
مائدة السيدة النبيلة حنية الطرشا .

نادي المغتربين - يرأس هذا النادي الاستاذ إميل عضيبي احد
كرام المغتربين سابقاً ، وقد عرفني به الاستاذ امين حتي صاحب
مكتب السفريات الشهير الذي عرفته بواسطة الصديق البير الريحاني .
وقد لمست في الاستاذ إميل غيرهً ونشاطاً ورغبةً صادقة في أن يجعل
هذا النادي في مستوى يليق بلبنان ومغتريبه ، وقد رسم لبلوغ هذا
الغرض خطة يقوم مع زملائه الأعضاء على دراستها بكل دقة وروية
ضماناً لتنفيذها فحبذا الفكرة التي اتفنى لها النجاح .

عزيز العبد - هو اول من عرفته إذ على اثر وصولي حلت
فندقه وأنست إليه . كيف لا وهو ابن عم صديقي العزيزين وديع

وشقيق إبراهيم العبد في سان باولو . وهو من الطف والبقي من
عرفتهم من الفندقين ، وقد بلغ من عنايته بي أن تحولت من نزيل
الى صديق حميم .

جورج عبود الاشقر - هو ابن الصديق القس عبود الاشقر الذي
عرفته في معلقة زحلة منذ خمسة وخمسين عاماً وفارقتة حديثاً فجمعتني
به الاقدار وهو كهل ذو قيمة ومقدار . والغريب انني لم التق به إلا
في الزمن الأخير مع أنه الشريك الرئيسي في محل « اشقر وقربان
وشركاء » الانيق الذي زرته عشرات المرات دون ان ارى فيه سوى
صديقي سليم داود قربان الشريك والمدير معاً ، ولم يخطر لي يوماً أن
أسأله عن شريكه « الاشقر » المستتر او يُبلغني هو انه صهره . وكما
عرفت الجدة عرفت حفيده الشاب الذكي المهذب فؤاد جورج الاشقر
الذي تخرج آخرّاً من الجامعة الاميركية طبيباً .

وعلى اثر هذا اللقاء الذي سرّني كثيراً ضمّنا اجتماع عائليّ كان
له اطيّب الاثر في نفسي ، وكان واسطة عقده صديقي الاستاذ نصري
دارد قربان على اثر عودته من سان باولو ليستقر نهائياً في لبنان .

حليم وجباني - وفي المحل عينه عرفت ونعمت بطيب عشرة هذا
الشاب المثقف الواسع الاطلاع في اللغة العربية وآدابها والحافظ لعهدا
برغم اغترابه الطويل في إحدى الولايات الجنوبية من اميركا الشمالية .
ولا بدع فهو من أسرة اشتهرت بالعلم والوطنية والفضل

ليندا عبدالله - وهذه مغتربة كريمة في نيويورك يصحّ عليها
الحكم السابق عينه . وهي شقيقة صديقي يوسف عطيه وابنة
شقيقة خاله توفيق مسرة . قدّمت بعد غيبة عشرين عاماً في نيويورك
حيث تعمل أمانة في « المكتب العربيّ الأميركيّ للخدمة التجارية » .
وكان فرح الوالدة والأهل والأنسباء بها كبيراً . وقد حضرت
حفلتين ترحيبيتين بها أقام الأولى منهما شقيقها في سوق الغرب والثانية

خالها في بيروت . وفي هذه استحقت إعجابي فنوّعت في الحلقة عينها
بفضلها ونصبتها مثلاً لسواها في كلمة الشكر التي القتها بلغة عربية
فصيحة وعبارات منسجمة متزنة مليئة بالعواطف النبيلة فكانت مثلاً
للمغترب المفاخر بأصله المعتزّ بوطنه المحافظ على تراث اجداده .

وسيم **امين تقي الدين** - اكتشفته في إدارة « الجريدة » وعلمت
أنه ابن زميلي في الدراسة منذ ستين عاماً الأديب والشاعر المجيد الشيخ
امين تقي الدين ، وقد وجدت فيه الشيء الكثير من سمات والده ،
وفي طليعتها الشاعرية ، بدليل هذا النموذج الذي أثبتته من شعره
بمعنوان « الهوى المحطم » :

كان لي حُبُّ مدي الخاطر غنّاهُ صبايا
أخضرُ اللحنِ من الطيّبِ برتهُ شقايَا
أشقرُّ الأحلامِ ينسابُ على خفقِ مُنايا
كان دنيا رغبتي النَّشوى وأفراحَ هنايا
فغدا اليومَ سراياً نفضتهُ مُقلّتايا
فعلى جفنيّ منهُ بعضُ الوانِ رؤايا

هكذا ضلَّ فؤادي هكذا مات هوايا
واستبدّت بي ظنوني وتولاّني أسايا
رفيق معلوف - وهذا صنوٌ لسابقه عرفته في إدارة « الجريدة »
وفي منزل نسيبه وصديقي الشاعر قيصر نعمان المعلوف ، وإلى القارئ
نموذجاً من شعره بمعنوان « خيبة » :

أسفي ضاع كلُّ عهدٍ بليلي وغدا الحبُّ ذكرياتٍ تهيجُ
ذُبُلَ الوردِ والليالي استحالت وتبقى على يديّ الأريجُ !
الياس قلفاط - جمعتني به الصدقة في منزل الصديق توفيق مسرة
فعلمت أنه صاحب المطبعة المتقنة التي ذكرها لي صديقي جبران قلفاط

يومَ ودعته في سان باولو : ولكن بعد ان سمعته يرتل بعض الاغان
الكنسية بصوته المطواع الشجيّ الرنان وثقت من انه احد اصحاب
المواهب الضائعة في الشرق وأسفت لانه احد المشتغلين بالطباعة بدلاً
من أن يكون متفرّداً بفنه كمطرب

ثريا مسرّة بيضا — هي السيدة الثقيفة شقيقة الاخ توفيق وأرملة
العصاميّ اللبنانيّ جبران بيضا . والغريب انها الموهوبة الوحيدة بين
اشقائها وشقيقاتها جميعاً في فن التصوير ولها فيه روائع ، ولكنها
مارسته كهواية ، ولو اتفق لها ان احترفته لكانت في عداد المجلّين
عبد الحفيظ محمصاني — اديب وصحافيّ لقيته آخرّاً صدفةً على
أثر عودته من رحلة في اميركا الجنوبية في سبيل كتاب اصدره عن
لبنان فاحتفى بي ايّما احتفاء وعرفني ، كخطوة تمهيدية ، بنسيبه
الحقوقيّ اللامع صبحي محمصاني ، على أن لا يدع ذا مقام وخطر في
بيروت دون ان يعرفني به . ولكنّ هذه النجدة غير المنتظرة جاءت
متأخرة إذ بات يعوزني الوقت للتعرف الى وجوه جديدة .

وما أشبه موقفني مع هذا الاديب الكريم بموقف الطبيب
المغضوب فهو يُصرّ على مبادلتني الحُدَم الجليلة التي ادّيتها له في سان
باولو وأنا لا اذكر ولا واحدة منها . وقد ابى إلا ان أرافقه الى
مكتبه حيث ساق اليّ صوف الاكرام ثم اقتادني على رغمي كشاة
للذبح والتقط لي على الرصيف عدة رسوم معه ومع معاونيه ونشر
بعضها في جريدته الأسبوعية « العاصمة » .

ولست ادري ، وقد سامني كلّ ما لا يتفق وطبعي وخطي ،
أشكره أم اشكوه !

سعيد عقل — هو الاديب الزحليّ المعروف بسعة اطلاعه وعمق
تفكيره وشعره الرمزيّ الذي ظلّت حياله كما ظلّ جميل صديقي
الزهاوي حيال ريق الحبيب ، بدليل قوله :

لم يذقهُ فهي ولكن ظنوني بلَعَنَتْنِيهِ من وراء الثام
وما سمعت يوماً إليه وما كنت أودُّ ان أجتمع به لبعده ما بيننا
وعدم توقُّعي التفاهم معه على امر . ولكن شاءت الاقدار ان تجمعي به
في منزل الاستاذ جورج كفوري وعقيلته المارّ ذكرهما فندمت على ما
فاتني لكثرة ما بينه وبينني من الشبه في التخيُّل ووضع النظريات في
المقام الاول فهو مؤمنٌ بقُدسية الأدب يشجب التطفل على موائده
ويحصر ممارسته بالأكفاء . ولا يُثبت الكفاءة في عرفه كمحك الشر في
دوره المعروفة وإلا كان الأديب مُداناً اذا هو نشر إنتاجه بنفقته او
استعان بحكومة او متمول او فريق من المتمولِّين ، لذلك هو دان
القرويّ لان فريقاً من مجموعنا الكريم في البرازيل والأرجنتين اعانه
على طبع ديوانه « الألفي » وقدّم له على شكل يستتفه هو ويشجبه ،
فلم أستطع إلا أن أوافقه على كل ما ادلى به ، ولكنني ، وأنا في
سبيل إصدار كتابي هذا على الأسلوبين عينهما اللذين عابهما على القرويّ ،
لم يسعني الا ان أصارحه بالواقع فيُجري عليّ الحكم عينه

والغريب ، وقد افهمته أن لا سبيل الى تصريف كتاب في ايّ
مبهر إلا بطريق العرض ، أنه اصرّ على ان من واجب الادباء ان
يقنعوا القادرين من المغتربين بأن ينشؤا بأموالهم داراً للطباعة والنشر !
والأغرب أنه قدّر مما قرأه لي أنني في الخمسين ، وقد اصرّ على صحة
تقديره هذا حتى بعد أن رأيته .

« مصائب قوم ... » - قضت الاقدار بان أحرّم في حمص من لقاء
رجل الفضل والمروءة وصديق الصبا محرز سلامة ثم اصلحت ما
افسدت بأن حملته اليّ الى بيروت التي جاءها مع شقيقته اولغا لمرافقة
مرض ابن شقيقتهما سيمون كبّاش في مستشفى الجامعة الاميريكية
حيث أجريت له عملية جراحية على عينيه كان نصيبها النجاح والبرء التام
وسيمون شابٌ مهذبٌ موظف في فرع البنك السوري في حمص

فيليب خوري - شابٌ ثقيف مهذب يعمل في السفارة الاميركية في بيروت ، أجرى التعارف بينه وبين ابن الحال باترويني ، وكان لي خيرَ معوان للحصول على إذن لدخول الولايات المتحدة كما كان له الفضل في تعريفني الى شقيقته الثقيفة الراقية خرستين خوري رزق **خليل زيدان** - بحكم الجوار عرفت هذا الصناعيَّ الاديب وقرينته الثقيفة ايها صباغة وشقيقها فكتور الموظف في دائرة المحاسبة في الجامعة الاميركية ، ومن تحلو عشرتهم .

وخليل اديب كتب ونظم ولكنه ارعوى قبل ان يتوغل وانصرف الى الصناعة فأفلح وظل يتذوق الادب . وهو محدث لسن وذو حافظة ممتازة وراوية للجيد المعجب من المنظوم .

عبود نصرالله - مغترب مفلح في افريقيا وتحمله احياناً مصالحة التجارية الى اوروبا واميركا كما يؤم لبنان للاصطياف في ربوعه مع عيلته المقيمة في بيروت . وكان قدومه آخرّاً لهذه الغاية سبيلاً لتعرُّفي اليه بعد ان كنت عرفت في بيوت الأنسباء قرينته الاميركية المولد فدوى الفرّان وعرفت فيها الذكاء وخفة الظلّ وروح الدعابة . ولا بدع فهي ابنة المرحوم الياس الفرّان الذائع الصيت الذي اشتهر بروائعه في الشعر القوميّ كما اشتهر بوطنيته الصميّة وثقل وطأته على الحكم التركيّ ضمن دائرة إمكانه المحدودة حتى جاء وقت اضطر فيه لمغادرة لبنان الى اميركا حيث ظلّ يذكره ويحنّ اليه حتى النفس الاخير . وهي تنظم الشعر القوميّ وتلقيه ولكنها تكتبه بالحروف الانكليزية ، واذا لم تحفظه تتعثر احياناً في قراءته .

واتفق أن زرت السيد عبود مسلماً فاذا بي امام رجل مثقف متمكن من اللغات العربية والانكليزية والفرنسوية ، ومع ذلك رأيتّه يبيح مزج العربية ببعض الاوضاع الاجنبية يأساً منه من مجازاة لغتنا للتطورّ العصريّ لتخلّفها عن سائر اللغات الحية في النحت والاستعارة .

ولكنّ تلك الزيارة العابرة لم تتسع لاستيفاء البحث في هذا الموضوع الحيويّ الخطير .

فؤاد النجار وأنيسة روضة - زوجان مثقفان ثقافة عالية عرفتهما في منزل الاخ البير الريحاني . والسيد فؤاد مهندس زراعيّ مفلح . ومما سرّني أنني علمت بالاستقراء أن الزوجين من الطائفة الدرزية الكريمة وخالهما كليهما صديقي القديم الكريم في السودان يوسف النجار الذي توصّل الى منصة القضاء وكان مفكراً ومحدثاً لبقاً وكاتباً لامعاً .

روز عطالله شحفه - هي الادبية والمفكّرة والخطيبة المعروفة ، وقد صدرت لها آخرّاً مجموعة خطب قيّمة نشرت رأيي فيها في مجلة الشرق في سان باولو ، ولا بدعَ فهي من بيت علم وتقى وصلاح . وتربطني بها صلة نسب من جهة امرأة الحال صوفيا عطالله بيني ، وقد عرفتها في حدائتها ثم رأيتها بعد عودتي زوجاً لمصيّ كريم هو السيد سرحان شحفه ، وقد انجبت له ثلاثة ذكور هم وليم الطيب قرين مينرفا ابراهيم عطالله ابنة ابنة الحال ماري بيني عطالله ، وإميل والبير ، وأنثى واحدة هي سعاد قرينة السيد إدوار بشّور

تهنئة بحماة - وهذه من الغرائب إذ أن المشهور والمتعارف أن الحماة هي آخرُ من يُهنأ به ولكنني أسستني ، لا بحاملةً بل اقتناعاً ، الشیخة الجليلة لطيفة الصغير شقير حماة الصديق البير ريحاني وأرملة المرحوم سليم فهد شقير الذي كان من الرعيل الاول الذي احرز رتبة ب . ع . من الكلية الانجلیة والجامعة الاميركية اليوم . ولكنه توفي في سن مبكرة تاركاً لها أعزّاء هما وديع وفؤاد ولورين ، ونصرة المقيمة في بنغازي مع قرينها الموظف في السفارة البريطانية فيها . وقد قبلت مصيبتها بالشكر وجاهدت جهاد الابطال حتى ابلغت اولادها جميعاً اعلى مستوى ممكن من العلم . وقد سبق لي وصف كرميتها

لورين كما علمت أن ابنها وديعاً صيدليٌ مفلح في الخِرطوم وفؤاداً طيب في السودان ومركز عمله في مديرية كردوفات .

وهي حاصبانية عزومة حزومة ، وإلى ذلك دمثة الطبع ذكية الفؤاد خفيفة الظلّ حاضرة النكتة ، تتذوق الادب وتجيد نظم المقطعات العامية ، فأسأل لها العمر المديد لتنعم طويلاً بشمرة جهادها في سبيل الفضيلة والكمال الانسانيّ وأهنئ بها الأخ البير تكراراً

برثا كايس ريحاني - كانت مفاجأة لي أن أعرف في تلك الليلة التي أحيّاها الاخ البير ريحاني ، احتفاءً بقدم الشيخ الطيب هاشم ، هذه السيدة الاميركية الآخذة بناصية الادب والفن والتي تتمتع في محيطها الراقي بمنزلة رفيعة ، وأن أعلم انها الى ذلك زوجة امين الريحاني حبيبنا وحيب العرب قاطبةً . وقد انسنا في تلك الليلة اليها ورأينا من أدلة ذكائها وسعة اطلاعها ودقة نظراتها الفنية الشيء الكثير ، كما كانت « الجريدة » سباقة الى استنزالها لحديث طريف ممتع بواسطة الاستاذ الجسر ، احد مخبريها الأذكياء الموهوبين

نيناء عرييد يني - لقد شقّ عليّ ان لا أستطيع الانتقال الى القاهرة لمشاهدة ابن الحال العزيز بولس يني وعيلته العزيزة ، ولكنني تعزيت نوعاً اذ تهيأ لي ان اتعرف الى نصفه الافضل نينا كريمة الطيب إبراهيم عرييد ، وإذا بي أمام سيدة ذكية مرحة لبقة تجتذب اليها القلوب فلم يسعني بعد أن عرفتها وأباح لي للمرة الأولى اقتطاف بضعة قبلات من خديها الناعمين ، على سبيل المبادلة الضئلي ، إلا أن أهنيّ ابن الحال العزيز بحسن اختياره وأتمنى لو تهيأ لي العيش بقية العمر في جواره !

هدية تولد شعراً - بحكم العلاقة التي نشأت بيني وبين شاعر الحياة قيصر نعمان المعلوف عرفت صهره المثوري المعروف الفرد سكاف وقرينته الثقيفة نينا كريمة الشاعر ولقيت من لدهما حفاوة لا أنساها ، كما أنني لا أنسى تल्प السيدة نينا عندما اعتزمت العودة من سان باولو

بجملها الى والدها مني هدية تبغ برازيلي ارفقتها بهذه الابيات :
 من تبغ ارض حلها « اعطيت قيصر ما له »
 فشكت طويل بعهاده عنها وقالت ما له
 فأجبتها قري فعطرك عنك قد اوما له
 ومتي تمايل عطفه قولي الحنين أمله
 فتلقيت منه الأبيات التالية من نفس الوزن والقافية :

أعطيت تبغك قيصرأ وجعلت ما لك ما له
 وكذا الكريم فإنه ابدأ يجود بما له
 أو مات للعاني وكم عهد الوفا أوما له
 لكننه عن ميله صرف المشيب أمله
 شكراً أبا الفضال من يتلفت الأعمى له
 تقل النسيم عيره وتلا الندى اعماله

عبد اللطيف اليونس — ما أخطأ من دعا هذا النائب السوري
 السابق « عبد اللطيف » ، إذ ما كاد يعلم بوجودي في بيروت حتى
 بعث إلي بواسطة صديقي الشاعر صيدح بتحية معطرة بشدا أدبه الرفيع
 أذكرتني الأثر الطيب الذي خلّفه في سائر بآولو كأديب لامع
 وخطيب ملسان . ثم اجتمعت به في بيروت التي أمّها قاصداً البرازيل
 والأرجنتين يصحبه مودّعاً شقيقه الذي المهدّب محمود ، فنهلت من
 معين أدبها وظرفها طيلة يومين كما زرت برفقتها إدارة جريدة الحياة
 فأعجبت بعصامية وإقدام صاحبها الأستاذ كامل مروّه وبكل ما
 شاهدته في دوائرها ومكاتبها الحديثة الطراز من ادلة النظام والدقة
 والترتيب . وفيها عرفت للمرة الاولى المربيّ القدير الاستاذ حسن
 الأمين الذي سبق لي أن أعجبت بما نُشر له من جيّد الشعر عند ما
 كان زائراً في الارجنتين .

وحضرت جلسة أنس في قاعة « منصور » دعاه اليها صديق الأدباء

السيد جودت شبّوع صاحب مكتب السفريات الشهير ، تيّاً لنا فيها سماع قطع غنائية لطيفة ، كان اعذبها وقعاً ما شتّف به الاسماع المطرب الموهوب وديع الصافي الذي عرفته في البرازيل .

وتلت هذه الجلسة مائدة عشاء وداعية فاخرة اقامها له السيد جودت في منزله العامر وفي صباح اليوم التالي ودّعناه في المطار آسفين لفراقه ، مهنيين إخواننا في المهجرين الكيبرين بطيب لقياء ومتمنين له طيب الاقامة بينهم والعودة الى مقرّه في صافيتا سالمًا .

عصبة الزجل - اذكر من اعضائها اللامعين ، الى جنب رئيسها الشاعر والكاتب المجلّي الاستاذ وليم صعب صاحب لسان حالها مجلة « البيدر » ، الاخوان خطار إبراهيم وشفيق ابو نعيم وفؤاد مطر ، ابن شقيقة صديقي في البرازيل المرحوم اسكندر ماضي ، والشاعرة القومية المجلّية الآنسة حنية ظاهر ، وهما اللذان تجري بينهما مساجلة شعرية طريفة من يدري ما اذا كانت لا تؤدي يوماً الى ما أتمناه لهما ! وأخيراً رجل الأخلاق والعواطف النبيلة والمدرّس الحاذق الأستاذ رزق الله قطيطه الذي كان له الفضل بتعريفي الى الشاب المثقف الواسع الاطلاع والاداريّ النابغة جوزيف رشيد متيني صاحب معهد العلوم التجارية والفنية الذي يُقبل عليه مئات الطلبة لحدق اللغات الحية والعلوم العملية على اختلافها . وبفضل جهاده وحسن تدبيره نما نمواً مدهشاً وبات في حكم المقررّ إنشاء فروع له في بيروت وطرابلس وسواهما .

الفيكونت فيليب دي طوازي - هو العالم العامل الذي بلغ التسعين ولا يزال بكامل وعيه ونشاطه الفكريّ مؤيِّداً بذلك نظريتي في أن الحياة تبدأ في السبعين . وقد استعاض آخراً عن نور البصر بنور البصيرة فاستعان بمتطوّع نبيل هو الاستاذ إبراهيم ناصر سويدان يقرأ له ويُملي عليه ما يعنّ له من المنشور والمنظوم .

وهو صاحب الفضل في تأسيس المكتبة الوطنية وتنظيمها ، وإثباتاً

لجبه للعلم ورغبته في انتشاره أهدى من مكتبته المحتوية على اثني عشر ألف مجلد ٥٦٠٠ مطبوع و ٣٤٤ مخطوط الى المكتبة الوطنية و ٢٨٠٠ مطبوع و ٢٢٠ مخطوط الى مكتبة دير الشرفة

وفي مكتبته تحف أدبية نادرة أهمها ثلاث مجموعات من خطوط مشاهير الشرق ، ولا تقل عنها أهمية مجموعة مؤلفة من العدد الاول من كل جريدة عربية صدرت حتى اليوم ، وعددها سبعة آلاف ومئتان وقد زرت به بصحبة الأخ البير الريحاني متبركين وتمتعنا بعذوبة حديثه زهاء ساعتين وتلطف فأهدى الى كل منا مجموعة من بعض مؤلفاته القيمة هي :

٣ مجلدات من كتابه : « أصدق ما كان من تاريخ لبنان » ،
« وخزائن الكتب العربية » الجزء الرابع ، وديوانه « قرّة العين »
بالشكل الكامل .

وودّعناه شاكرين وداعيين له بطول البقاء لكي يزداد إنتاجه ونفعه
كيف عرفت حميد فرنجيّة - حميد فرنجيّة حقوقيّ لامع ونائب
جريء ، كما كان وزيراً خطيراً ومنافساً وحيّداً للرئيس الحالي على
أثر الانقلاب ، غير أنه وقف بتنزله طوعاً موقفاً نبيلاً كنت في عداد
قادريه . ولكنّ كلاً من هذه الصفات ، وكلها مجتمعة ، على خطرها ،
كان من شأنها ان تقصيني عنه ، عملاً بدستوري السابق الذكر . غير
ان الأقدار شاءت ان تجمعني به على صعيد آخر ، ولسبب يكاد
لهجنته يكون من نسج الخيال ، فهو خطبة الحقوق والصحافي حنا
غصن للأنسة جاكين صيدح . ذلك أني كنت في عداد شاجبي هذه
الخطبة لعدم التناسب في السن ، وفقتهم بسبب تهمة الصقها به نسب
لي وافقتي على خطرها والد الخطيئة صديقي الكريم الشاعر جورج
صيدح ، ولو هي ثبتت عليه لامتنعت عن حضور حفلة الزفاف ، وربما
حال دونه والد العروس نفسه . فلما اتصل خبر تلك التهمة بالعريس

أحالني على حميد فرنجية كمفوض عنه في إبطائها وتقديم الترضية المطلوبة
 وكان أن زرت هذا اللباني الكبير في مكتبه فأحسن استقبالي
 الى حدٍّ لم اكن اتوقعه وكان طيلة مدة تلك المقابلة التاريخية التي لم
 تكن قصيرة لا يتألك نفسه من الضحك لان حكاية تلك التهمة لم
 تخرج عن دائرة المزاح البريء ولم أنصرف من حضرته الا بعد أن اثبت
 لي وراء كل شك بطلانها ، حتى إني ، وانا وكيل مكلف لا أصيل ،
 رأيت من واجبي ان أكفر عنها بالعدول عن موقعي وحضور
 حفلة الزفاف ، كما حضرتها فعلاً .

والى القارئ القصيدة الرشيقة التي اعلن بها الشاعر جورج صيدح
 خطبة ابنته ليلة رأس السنة ، وقد أعجبت كل من سمعها وطالعها الى
 حد ان تغني ببعض ابياتها سواء اقوا السيارات المرابطون حول فندق
 نورماندي :

من أن تعثر بين الهدب والجفن	ربيتها بين اجفاني وبي جزع
حنّت الى أفق تنأى به عني	حتى إذا أعبلت واشتدّ ساعدها
فيه وجاء زمان اللعب في ذقتي	مضى الزمان الذي أشبعته لعباً
فأصبحت ترقص « السامبا » بلا إذني	كانت تروح وتغدو إن أذنت لها
قصور آماله ، يا غبن من يبني	يبني على الرمل من يبني على ولد
يُملي عليه الهوى في الشرح والمثني	قلب العذارى بياض حالم بفهم
عن نفسها صحفي حاذق الفن	الله في عون حسناء يراودها
وأني إنسيّة تقوى على الجن	باللفظ يسكرها باللحظ يسحرها

لا خاب ظنك في العقبى ولا ظني	يا خاطب الحسن والاخلاق فزت بها
عن الغنى بهناء الحب تستغني	هذي الوحيدة أنت اليوم واحدها
فاستعذبت منك ما لم تستطع مني	مهرتها أدباً يعلو على أدبي
الى انتخاب بلا رشو ولا طعن	ماساومت في انتخاب الكف بل عمدت

خَيْرُهَا وهي تدري ذوقَ والدها فاختارت الصهرَ من لوني ومن وربي
إني أفاخر أَصهارَ الملوكِ به والحدُّ أَفضلهُ في حدةِ الذهنِ
أقولُ للقلبِ أَنزلهُ على سعةٍ فأنتَ يا قلبُ بيدُ لابنتي وابني
وهذه هي الأبيات التي وجهتها الى ذوي العروسين على أثر انتهاء
حفلة الزفاف :

بهذا العرسِ راعيتُم طباقاً عززَ الفتنَا
فصيدحُ في الهوى طيرُ على « غصنِ » النقا غنى
وفرخةُ عشِّه فرعُ لمجثمِ أصله « حنا »

الاستاذان البير اديب وشكري بخاش - بحكم الصلة التي ربطتني
بهذين الأديبين كمثل في البرازيل لمحلة الاديب وجريدة زحلة الفتاة
لقيتهما مراراً في ادارتيهما ومنزليهما العامرين وحظيت منهما ومن
عيلتيهما الكريمتين بكل رعاية وإكرام اذكرهما بالامتنان .

« ما فاز بالذلة الا الجسور » - هذا قول ينطبق على صديقي
العزیز جان ابو منصور فانه ما كاد يحلُّ زحلة زائراً حتى لقي الآنسة
الثقيفة المهندبة عائدة كريمة الاسنانی إبرهیم شحادة وقرينته منيرة ضومط
شحادة فأقدم واقترن بها وصحبها الى مقرِّ عمله في سان باولو ، وقد
هنأته بالأبيات التالية :

غادرت ارضَ الغربِ تبغي نزهةً في الشرقِ لا تبغي سواها فائده
لكن هداك لدى وصولك هاتفُ في الصدرِ : يا جانُ الحقيقة واحدة
ما دمت من بعد التمتع عائداً شرطُ التوافق أن ترافق «عائده»
كيف عرفت مارون عبود - كنت ذات يوم في مقهى الجمهورية
وإذا بجليسي الأستاذ أحمد مهدي حيدر يسألني ما اذا كنت اودُّ أن
التقي الناقد النابعة مارون عبود لانه مرَّ من امامنا في تلك اللحظة
منصرفاً ، فاستعجلته في اللحاق به فأدركه وأقبل الناقد الساخر الخفيف
قائلاً : « ما كنت لأعود تلبيةً لرغبة مغترب من اساطين المال ، اما

والداعي الاديب ضعون فعودي مضمون »

وكان لقاءً قلت بعده مع سمعان : « أطلق الآن عبدك يا رب »

بسلام ... » ! ولكن الرب لم يُطلقني فاجتمعت به ثانية كما مرّ

محاضر فذّ - لم أسمع بعد حبيب اسطفان محاضراً ذا بيان مشرق

خلابّ يأسر سامعيه ويستولي على مشاعرهم كالحقوقيّ الشهير مصطفى

السباعي الذي سمعته في قاعة الميتم الاسلامي مشيداً بالاسلام مؤيداً

لرسالته فكان إعجابي به كبيراً

صفقة راجحة - من الرسائل التي عادت عليّ تأديتها باللذة والفائدة،

كما اثمرت عبرةً لسواي ، التحية التي حملتها من صديقيّ الاديبين

الياس الوف في سان باولو وأخيه جان في الربو الى والدتهما وأخويهما :

نقولاً احد صاحبي نزل قادري في زحلة ، وإبراهيم الموظف في بيروت ،

فقد خفّفت من لوعة تلك الأم الفاضلة بذكري لها أمهات فارقهن جميع

اولادهنّ ، كما هنأته بعودة ابنها نقولاً من سان باولو ليكون مع

عيلته بقرها بصورة دائمة في زحلة ، وقد وجدت فيه انا نفسي اخاً .

وفي النزل عينه لقيت رفيق الصبا والدراسة نجيب نكد الذي سرّني

أنه اصبح من كبار رجال المال والأعمال دون ان يحفّ ويفقد نزعته

الأدبية . والصديق نخله رايه صاحب التجارة الواسعة في شمالي البرازيل

وقد كان مثال المغترب الحكيم ، إذ بعد أن أضنكه وأضناه طول

الجهاد القى عبء أعماله على سواه وآثر على التداوي الدائم في البرازيل

العيش مع زوجته وأولاده في لبنان متمتعين بالصحة والزهو والنشاط .

زد الى ما تقدّم تعرّفي الى شريك النزل الآخر خليل قـادري

المجونيّ الذي لا يحارى في سخريته وخصوبة خياله وإجاداته الحارقة في

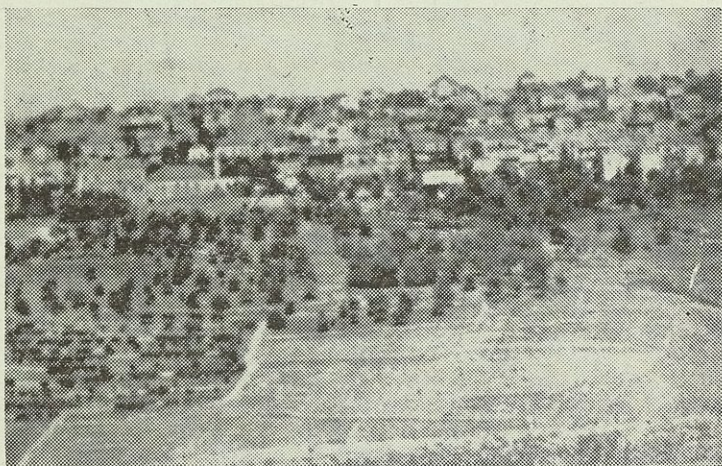
التعبير والالقاء بحيث يغدّي نزلاءه جسدياً وروحياً في وقتٍ معاً .

سامي سليم - عرفته كهلاً وديعاً بشوش المحيا لين الجانب يتودّد

على مكتب الريحاني وله فيه حبّ واحترام لانه من رجال الله

الصالحين ، ولكنه صاحب عقيدة ينافح عنها ويكافح في سبيلها في صلابة وإصرار ضمن دائرة إمكانياته المحدودة ، وأقصاها إصدار نشرات وتوزيعها بنفقتة بتوقيع « الرجل المجهول » ، يهدف فيها الى خير وطنه ومواطنيه وإحياء ذكرى شهداء لبنان وسوريا بإقامة أنصاب لهم في البلدَيْن . وقد عُرف بهذه الصفات حتى أصبح بها « معلوماً » . ومما جاهد في السبيل الاخير استحق ما رشح له الشهداء إذ ناله مثل مُصيرهم على يد بعض ذوي قرباه الطامعين بقليله ، رحمه الله .

رأيي في القوية اللبنانية - بعد ان تنتقل الشيخ أحمد البشير الطيب هاشم في بعض انحاء لبنان عاد برأي وجيه هو أن مستوى العيش في لبنان أعلى منه في ايّ قطر عربيّ آخر زاره ، مستنتجاً ذلك من حياة الفلاح اللبنانيّ مأوىً وكساءً وغذاءً ، الى جنب كرمه كمضيف **جديدة مرجعيون** - اعود الى ذكرها بمناسبة حصولي على الرسم التالي منها بهمة صديقي الكريم وابنها البارّ وديع جباره الذي عاد اليها منذ اشهر من سان باولو ، وسعيّ مساكينيّ جمبل فهد راشد الموظف في العدلية . وكاد يكون أصعب مثلاً من النوق العصافيرية



(جديدة مرجعيون مركز محافظة الجنوب)

فضل لا انساه - لقد أسعدني ان لقيت في لبنان ثلاثين شخصاً
تكرّموا بقبول كتابي « ذكرى الهجرة » هديةً كما أمضني أن احدهم ،
وهو صديقي الشاعر الياس حنيكاتي ، اكرهني ، تحت طائلة تقبيل
يدي ، على أن اقبل منه فلس الأرملة لقاء هديتي .

وقد تلقيت من اصدقائي الأدباء والشعراء المؤلفات التالية التي لا
محال لديّ لتناولها بما تستأهله من الاسهاب فأكتفي اضطراراً بالاشارة
اليها والشكر عليها :

« قلبٌ يغني » - شعر للاستاذ وديع ديب الذي يحفظ ويروي
الشيء الكثير لأفذاذ شعرائنا في المهجر ، وقد أعجبتني في ديوانه هذا
بنوع خاصّ الأبيات التالية :

والذي صيرَ الملوكَ ملوكاً شممٌ مات في نفوس العبيد

لست ارضى عنك بعداً واغتراب في سبيل الكسب ما دام الشباب
ثروتي يا موطني هذا التراب

« الغريب » - شعر منشور للاديب نقولا يوسف حلبي ، ويتلخص
بالعبارة التالية المدوّنة على غلافه : « وطني هذا الكون ، لكني
غريب حيث يعتبرون الظلام نوراً والكفر ديناً والظلم عدلاً والشر
خيراً وابن البلاد غريباً » . وفضله الآخر عليّ أنه لم يستنكف مما
ابديته له من الملحوظات اللغوية ، بل هو أقرّها وشكرني عليها ،
وهذا نادر !

« تحوُّر وتجدّد » - للشاعر الطرابلسي جميل الحاج ، وهو
يتضمن رواية شعرية تلهب العواطف وتثير الشعور بالعزة والكرامة
القومية ، على الاخص اذا هو القاها بأسلوبه الأخاذ .

موعد مع التاريخ - كتاب يتناول « تجارب الامم في ثلاث
سنوات » ، كله نضج وعمق تفكير وحسن توجيه ، ولا بدع فهو من
إنتاج فؤاد صروف وكفى .

رفيف الأقحوان - مجموعة من خيرة ما نظم الطيب والشاعر
تقولا فياض الذي لا يحتاج الى تعريف ، وكل ما نظمه مما يُقرأ
ويعجب ويطرب .

لمن - مجموعة من الشعر الرمزي للاستاذ البير اديب صاحب مجلة
«الاديب» الشهيرة ، اصدرتها دار المعارف بمصر فجاءت تحفة فنية بما
يزينها من رسوم رمزية ملونة واستأهلت من راسخي القدم في تفهم
الشعر الرمزي ما يفوق حجمها من التقريظ والاطراء .

ديوان الملاط - يتضمن جل ما نظمه شاعر الأرز الموهوب
شبلي ملاط ، وجله من الروائع التي لم تقتني منها واحدة . وكان
الفضل لصديقي الطيب وليم نعمة في اجتماعي بناظمه اللباني الكريم
بعد ان كنت عرفته سنة ١٩٠٩ .

رباعيات وتأملات - وهي سلسلة نثرية شعرية للصديق الشاعر
النائر حلیم دموس يُصدرها في عشرة اجزاء متتالية وفيها الشيء
الكثير من المفيد وما يحفز الى التأمل والتفكير .

وقد أبى إلا أن أقول شيئاً في سلسلته فكان الأبيات التالية :

نثرتَ روائعاً من كلِّ قول حكيمٍ ناشراً معه شذا
وشعرٍ مشرقٍ فكراً ونظماً ينمُّ بأنَّ داهشَ قد هدا
فما أدري وقد أشبهتَ بحراً أطري فيك دركاً أم ندا

جعبة الصياد - مجموعة لطيفة للكاتب اللبق الفكاهة الاستاذ سعيد
فريجه صاحب مجلة «الصياد» ، وخير ما اعجبني فيها اخبار رحلاته
الى مختلف البلدان ، وقد استندت الى بعضها في مستهل هذا الكتاب .
على دروب الحياة - لرشاد دارغوث الاديب الذي يهدف في كل
ما يكتب الى ما يرقى ويقوم ويفيد ، وقد لمست في ما سبق لي أن
قرأته له خلقاً كريماً ونبالة طبع ادركت من كتابه الاخير هذا
سرهما مما ذيَّله به الناشر من سيرته والأصل العريق الذي يمتُّ اليه .

مواضع النقد والتخطئة في هذا الكتاب

إذا انأقمت بهذه المهمة فما الذي أتركه للنقاد والخططين؟ ولكنني أتناول نقطتين على سبيل التصحيح والتبرير : الأولى في الصفحتين ٢٠ و ٢١ حيث أقفلت باب ذكر الاشخاص ثم جنحت الى التوسّع فيه إذ خطر لي فيما بعد القول العامي المأثور : « الجنة بلا ناس ما بتنداس » فبدا لي الكتاب دون اشخاص يُشيعون فيه الحياة كالقفر البلقع ، الى جنب أن الافلاس الذي رضيت به عبء ليس من السهل حملة . والثانية قولي في الآتسة ابتهاج قدّورة إنها « معدودة بحق السيدة الأولى في لبنان في مضامير الثقافة والوطنية والاجتماع » ، وقد اكون انسقت الى هذا الحكم بالعاطفة الأخوية التي ذكرت حكايتها ، لأنني لم أعرف جميع سيدات لبنان ليحقّ لي مثل هذا البت . ولكن الذي ينقذ موقفني هو لفظة « المعدودة » التي تفيد أنني دعمت رأي الخاص برأي الكثيرين والكثيرات في هذه اللبنانية المثالية .

وأعتبر أنني كُفّرت عن الأولى بما سبّبته لي من آلام لان قراري الأول أغناني عن تدوين الحوادث والاسماء في مفكرتي ، لذلك كان نبشها من مدافن الذاكرة اشدّ إجهاداً من عملية الولادة التي هوّنتها في الزمن الاخير المخدّرات الحديثة ، على أن فعل هذه في حالي من شأنه أن يأتي بعكس النتيجة المطلوبة ، إذ كنت احوّج الى المنبّهات .

وما يجعل موقفني رهيباً هو تقديري ما ستبتدئنه عين البغض في مولودي هذا من المعاييب بعد أن تبيّنت بعضها عين الحب .

اللغة والمجامع اللغوية

لا ادلّ على أهمية اللغة في الربط بين الاقوام وتوحيد الأماني والأهداف من سعي المستعمرين لاحتلال لغاتهم محلّ لغات البلدان التي يحتلّونها . على انها ليست بالآصرة الوحيدة بدليل إتقسام أبناء اللغة الواحدة الى شعوب متعدّدة ، كما هي حال الشعوب او الدول التي تتألف منها اليوم الجامعة العربية ، وعددها سبع . ومثلها انكثروا والولايات المتحدة الأميركية ، والبرتغال والبرازيل ، وإسبانيا وبقية جمهوريات اميركا الجنوبية

ولكنّ حرمة اللغة وقداستها ظلّتا مرعيّتين في جميع البلدان المفتوحة او التي وقعت تحت نير الاستعمار ، برغم انفصالها عن الوطن الأم ، فجلا الفاتحون والمستعمرون عن جميع هاتيك البلدان وبقيت لغاتهم مرعيةً فيها ، شأنهم قبل ان يصابهم الوطنيون العداء ويحاربوهم حرب المستميت .

وبرغم كون اللغة ، ككل كائن حي ، قابلة للنمو والتطور والتأثر فقد ظلّ فصيح جميع هاتيك اللغات وجوهرها مصونين ، كما روعيت نسبتها الى أهلها ، فلغة أميركا الشمالية الانكليزية ، والبرازيل البرتوغالية ، وبقية جمهوريات اميركا الجنوبية الاسبانية او القشتالية .

وهذا ما خطر لي عندما انشأت في التشيلي سنة ١٩٣٤ جريدة « الاعتدال » فوقع اختياري على عنوان يصحّ ان يشمل البلدان العربية بأسرها فكان « أخبار البلدان العربية اللسان » ، إذ لم يكن في ذلك العهد ، وحتى هذه الساعة ، وطن يصحّ القول إنه دولة عربية ، ولم تكن فكرة الجامعة العربية نفسها قد وُلدت بعد ، ومع ذلك اعتبر بعض المهوِّسين ذلك العنوان نقياً للعروبة عن جميع هاتيك البلدان ، وكانت

الكارثة التي قضت بأن لا تعمّر جريدتي تلك سوى سنة واحدة .
ولما كانت اللغة العربية في طليعة ما يوحد بين الاقطار العربية
كافةً فالذي استغربه ولا أزال أستغربه هو إغفال الجامعة العربية
شأنها وتسامحها بإنشاء عدة مجامع لها في حين أنها كانت يجب أن تقدّمها
على كل صلة أخرى فتفرض إنشاء مجمع واحد يضم مندوبين من جميع
الاقطار مهمتهم التداول والمناقشة والتحصيص والتصحيح والوضع
والنحت وتوحيد المصطلحات باختيار الأدلّ والأقرب منها الى
الفصحى . فاذا ما استوفوا البحث في لفظة ما وأقرّوها بالاجماع او
بالاكثورية عمموه في كل مكان تقادياً من البلبلة وتنقيةً للغة
من كل شائبة .

وإذا قيل إن لنا في تعديد المجامع أسوةً بجميع البلدان التي
ذكرتها فحجة المستندين الى هذا الواقع مردودة بأن لنا شأنًا خاصًا
بحكم التجاور وسهولة الانتقال والاتصال ، بينما جلُّ هاتيك البلدان
فروع تفصلها عن أصولها اوقيانوسات وأبعاد شاسعة . ناهيك بأن
المجامع فيها علمية اكثر منها لغوية ، ومع ذلك فعندما رأت البرازيل
ضرورة تبسيط التهجئة حبّاً بالاختصار وحرصاً على الوقت والمجال
ظلّ جمعها يخبر المجمع البرتوغاليّ طيلة سنوات حتى توصل المجمعان الى
اتفاق نهائيّ .

هذا رأيٌ ابديته ولعله مصادفٌ يوماً أذنًا صاغية .
اما الكتابة فقد سرّني وأنعش آمالي سعي الشاعر الأستاذ يوسف
غصوب وعمله الجديّ لوضع حروف عربية يسهل وصلها بحيث يُكتفى
بستين حرفاً لتنفيذ الجرائد اليومية ، مستعيناً لتحقيق مسعاه المحمود
هذا بالخطاط الأشهر الشيخ نسيب مكارم . وقد رأيت من هذه الطريقة
الطريقة نموذجاً مرضياً ، وسعي صاحب الفكرة والخطاط الموهوب
متواصل في سبيل التحسين .

ملحة فهرس الاعلام

كما كان للشروع في إصدار هذا الكتاب حكاية ، قضت الاقدار بان يكون لحتامه حكايةً ايضاً ، إذ تبين لي أن الصفحات الست التي خصصتها لهذا الفهرس لم تكن كافية لاستيعاب نصفه ، لذلك اقتضاني تضمينه هذا الكتاب زيادةً ملزمةً كاملةً عليه ، خلا ما بذله الأخ البيروماني وبذلته من الوقت والجهد والعناء في وضعه وترتيبه

وبعد ان تجلّى لي بشكله النهائي رأيت فيه خيرَ عوضٍ عن الوقت المضيع والجهد المبذول ، وحدث للأخ البيروماني فكرته النيرة ورأيه الصائب إذ هما أدباً الى الجنوح عن المؤلف وتحقيق نزعتي الشعبية فالأكثرية الساحقة من الذين ورد ذكرهم فيه يمثلون الاكثرية التي تمشي على الارض وتكدح في سبيل الارتقاء ولا تضحي بسواها من اجل انانياتها وجشعها ، معرضةً عن المظاهر الغرّارة والعظمة الفارغة ، مؤثرةً التواضع وخفض الجانب وخدمة المجموع بتفانٍ وإخلاص ضمن نطاق الحق والواجب ، دون ايّ تدمير او شكوى . وإذن اكون قد بلغت من حيث لم اقصد غرضاً اجتماعياً إنسانياً يرضي شعوري ويرتاح اليه وجداني

وبفضله اكتشفت أن قد ندّ عن ذهني اشخاص هم أجدر بالذكر والتنويه لما في حياتهم من بواذر البطولة والتضحية اللتان تثيران الاعجاب وتوجبان عليّ أن أحصيهم في عداد ابطالى الذين سبق ذكرهم وأشيّد لهم رواقاً حديثاً . زد الى ذلك ما تتضمنه حكايتي مع بعضهم من عبر وعظات وذكريات عذاب :

مراد بهيج البارودي - هو سميّ جدّه الكبير الذي اشتهر بكثرة فضائله ، وما احراني بأن أطلق عليه لقب « روزفلت لبنان » إذ هو كارئيس العظيم مصاب بشلل الاطفال . وبرغم ما اشتهر من ان

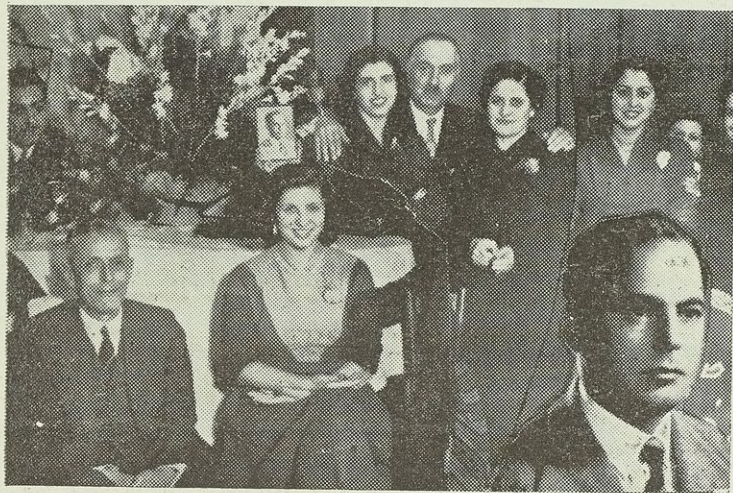
العاهة الجسدية تضعف النفس وتغري بالقعود او تبرره ، كما قد تتخذ وسيلة لاستيهال الشقة واستدراار العطف ، فقد أدت في حالة «مرادنا» الى إثبات ناموس التعويض إذ تحولت قوى نصفه المشلول الى نصفه السليم فنشأ ذا نفس جبّارة تزخر بالطموح والتوثب والاقدام . فهو ذكيّ ثقيف عالي الهمة يقوم بأعمال كبيرة تقتضيه احياناً الانتقال الى مختلف الاصقاع النائية . وهو الى ذلك زوج ووالد لثلاثة اطفال

إملي فارس إبراهيم - لم تكن هذه السيدة مجهولةً مني فقد عرفتها كاتبةً بليغةً لبقّة ، وزادها الخبرُ قيمةً إذ رأيت فيها صفات يتدر اجتماعها : كالجمال والذكاء والرّصانة وعمق التفكير . وإلى ذلك علمت أنها عاملةٌ نشيطة وربة بيت مدبّرة ومربيةً قديرة استطاعت كـبعض الأعضاء الرئيسية المزدوجة في الجسم أن تقوم في أثناء غياب قرينها الطويل في فنزويلا بوظيفة الأم الرؤوم والأب العطوف معاً . فقد عاكست الأقدار قرينها المجاهد ، وكـم له في كل مغترب من أنداد .

لذلك استحققت هذه السيدة إعجابي واحترامي ، فكيف وهي الى كل ما تقدم في طليعة المجاهدات في الحقل النسويّ الاجتماعيّ خير لبنان وإسعاد بنيه والحوّول دون هجرتهم الى الاقطار الدانية والنائية سلام جهجاه - اذا استثنينا بعض الخصائص والمؤهلات فهذه السيدة ندّةٌ لسابقتها في جلّ صفاتها البيتية وقيامها بمثل أعبائها في غضون تغيب قرينها في فنزويلا ايضاً ، وهو المهندس اللامع جوزيف جهجاه الذي ابت الاقدار الا ان تحبط حتى اليوم جلّ مشاريعه التي كان مقدراً لها النجاح . ولذلك استحققت كندتها إعجابي واحترامي .

توفيق وهي - عرفته شخصياً للمرة الاولى في سان باولو ، وكنت قبلُ من المعجبين بأسلوبه السهل الممتنع في ما كانت تنشره له الصحف عن باريس . وقد زعم أني قمت نحوه بخدمة في مغتربي ذاك فعرض عليّ خدماته في كل ما احتاج اليه في بيروت ، مستهلاً باقتراح

مأدبة احتفائية تقام لي وتضم عدداً من رجال الفكر والقلم ونخبة من
 ارباب السياسة والمناصب العالية . وبالاختصار شاء ان يفصل ثوباً
 ففضفاً لجرمي الضئيل الذي جسّمته في تقديره عين الحب فشكرت له
 عاطفته النبيلة واعتذرت اليه بتنكبي في كل مكان ولأية مناسبة عن
 المظاهر التي تساوي بين الأشخاص بفعل النفخ والتضخيم ، دون مراعاة
 اي مبرر أو وزن أو قياس . وإزاء رفضي البات الحاسم اكتفى
 بما رزيت عنه كل الرضا وقبلته بكل ارتياح وامتنان وهو اجتماع
 حول مائدة سخية في جو عائلي ضمّ عدداً محتشماً من الأنساء
 والاصدقاء فلم تصدع هدوء الليل ولا اقلقنا راحة الجيران ، كما تركنا
 لسوانا مهمة ملء الفراغ في الصحف السيارة بما لا يهم احداً سوانا



صباح اوشحوورة الوادي - هي اللبنانية الفذة بتعدّد مواهبها ،
 وقد جمعتني بها الأقدار في حفلة خطبة ابنة بنت الحبال ديانا غنطوس
 الغيابية الى الشاب حبيب أندراوس الموظف في عدن . وعنّي لي أن
 نعتم تلك الخطبة المستهجنة فأقوم في لبنان بمغامرة كبرى على غرارها

وهي أن أستنزل الفاتنة والمطربة والمثلة اللبنانية اللعوب الطروب بأبيات من الشعر فأطبع على نغدها النديّ قبلة إعجاب . وهذا إني أبدو في الرسم الى جانبها مجتراً تلك القبلة المسكرة ، وفي الوسط ابن الخال باترو يني مكتفياً اضطراراً باعتناق ابنة شقيقته يميناه وقرينته بيسراه . والى اقصى اليسار الخطيبة وأمامها رسم خطيبها

ثم إنه بفضل التأخر صدر المرسوم الحكومي مجلّ المجلس النيابي ونشطت حركة الترشيع واتسعت دائرته فتهياً لي أن ألاحظ اساليب التذميع . وقد أذكرني ازدهام وتلاصق رسوم المتنافسين على الجدران بيت أبي العلاء ، ولكن بينما للحد في بيته العامر يضحك من تراحم الأضداد تبدو جدران المدينة كالحة مكهررة .

وقد ادركت من بعض هاتيك الاساليب مغزى قولهم في من يرشح نفسه إنه « نزل » او هو « نازل » . ولما كنت قد اكتسبت بعد عودتي الجنسية اللبنانية ، وكان التصويت قد أصبح بموجب القانون الجديد إجبارياً ، فسأكون في عداد المصوّتين وسأنتخب اثنين من النازلين مجازاً او اصطلاحاً لا فعلاً .

حادثٌ فذٌّ في المهاجر - وشاءت الأقدار أن لا أغادر لبنان دون أن أشاهد وأمس أعظم أعجوبة حدثت او يمكن أن تحدث في أيّ مهجر ، وهي إسناد منصب السفارة الى مهاجر متجنس ، وفوق ذلك أن تبلغ ثقة وطنه الثاني به أن يؤتمن على أسرارهِ ومصالحهِ ويمثله لدى وطنه الأول ، برغم كثرة منافسيهِ من الوطنيين الأقحاح . هذا المهاجر الفذُّ هو حافظ اللبان الحمصي الذي انتدبه رئيس جمهورية تشيلي للقيام بأعباء منصب السفارة في سوريا ولبنان وظفر بموافقة لجنة مجلس الشيوخ بالاجماع ، والنواب بأكثرية عشرين صوتاً من ثلاثة وعشرين . وحافظ اللبان هو الذي نعمت بصدافته في تلك الجمهورية النائية منذ خمسة عشر عاماً ومثّلته تجارياً زهاء عام ونالني من فضله وفضل

قرينته الفاضلة وجبهة بحير ما لا أنساه . وقد كان لي الحظ والسرور بأن أرحب بهما في نزل برستول ترحيب الأخ بأخوين ، كما استوتقت من بادرة فذة كنت لمعرفتي بحافظ اللبان أتوقعها وهي تنزله عن مرتبه الشهري البالغ الفي ريال أميركي لقرينة رئيس جمهورية تشيلي لتنفقه على مشاريعها الخيرية العديدة . ولا بدع فالأرجحية سجية عريقة فيه بدليل قولي يوماً بلسان طالب رفده من ابيات :

فيعودُ بسامَ المحيَّ راضياً ويقولُ ذا اللبَّانُ قد لبَّاني
أما وجهتي ، في طريق عودتي الى مقرِّي الدائم في البرازيل ، فالولايات المتحدة وكندا حيث أتعرف الى مهجرين من خيرة مهاجرنا وأتصل بالاخوان المغتربين فيهما فتسنى لي بذلك المقارنة بينهم وبين إخوانهم في جمهوريات اميركا الجنوبية ، وفي الوقت نفسه اقوم ضمن دائرتي الخاصة المحدودة بالتذيع للبنان وسوريا وحمل مهاجري البلدين القدماء واعقابهم على زيارتهما والتمتع والاستجمام في ربوعهما ويعود الفضل في عزمي هذا الى حب ولهفة ابن العم العزيز نجيب عساف ضعون لكي نجتمع بعد فراق دام ستين عاماً ، فقد طفق منذ وصولي الى بيروت يرسلني مزيئاً لي زيارة كندا ويحمل بعض كرام المواطنين فيها على تأييد دعوته . وقد أجبته كما أجبته جميعاً شاكرآ لهم العطف ومعترفاً بالفضل الى أن تمنّ عليّ الأقدار بلفائهم والاعراب لهم شخصياً عما أكنه لهم من الامتنان والأخلاص وصادق الود .

أما كلمتي الوداعية للبنان ومن سأغادرهم فيه من الأنسباء الأحباء والاصدقاء الأعزّاء فتعني الحير له ولهم ، مؤكداً للجميع جسامه خسارتي بالنسبة الى كلٍّ منهم لان خسارتهم موزعة عليهم جميعاً لقد بثّ لبنان في هذا الجذع اليباس الحياة وأجرى فيه ماء الشباب ، وهما خير ذخير يحمله الى الأصقاع النائية لينفقه في سبيله حتى يعود مجدداً الى يسه ويلتهمه لبيب الحنين الى « أول منزل » .

لائحة بأسماء المساهمين

وهم الاخوان الذين شاطروني شرف الخدمة التي قمت بها نحو وطني
فمولوا رحلتي اليه وإقامتي فيه زهاء عام لاصدار هذا الكتاب على قاعدة:
منك الدقيقُ ومنى النارُ أو قدُّها منى المياهُ ومنك السمنُ والعسلُ
عدد الاسهم

- ٩٠ بتسعين سهماً : جورج يوسف ابو سمره - إبل السقي
بعشرين سهماً : عزّام عبدالله عزّام - ميمس . حبيب
عبدالله عزّام - ميمس . نجيب نعمة يافث - الشوير . سليم
١٠٠ سمعان الراسي - إبل السقي . عزيز نادر - القبيات
بعشرة أسهم : مهنا صهيون - حاصبيا . فيليب وفؤاد
وسليم لطف الله اصحاب الشركة العقارية « لطف الله » - بسكنتا
إسكندر عيسى معلوف - زحلة . شفيق عيسى معلوف - زحلة .
ميشال وجبران قلفاط (شركة النسيج قلفاط الغفلة) - بيروت .
كامل عنصره - الكفير . جورج ونسيب محفوظ (شركة
« لابرور » للاقمشة) - حاصبيا . أدما مقدسي يافث - بيروت .
٩٠ توفيق ابو جره - الكفير
٦ بستة اسهم : فدوى عطية نصر - بينو (عكار)
بخمسة اسهم : جوزج عضيبي - جونبة . سليم رزق -
بيروت . نعمة قازان - جديتا . يوسف حبيب نكد الحوري
٢٠ قنصل لبنان الفخري في باراييبا - زحلة
٤ بأربعة اسهم : جورج وأندره جرمانوس - زحلة
٣ بثلاثة اسهم : وديع قطيني معلوف - زحلة

بسهمين : قيصر طعمة - قرنة الجراء . وصفي جبرين -
الكفرون (ولكن نصفه الأفضل لبناني) . جورج غصن -
دوما . إميل داود توما - مجمدون . الياس جبران الحوري -
بيروت . وديع ابراهيم العبد - زحلة . سامي داود جبارة -
جديدة مرجعيون . ميشال خليل سكاف - زحلة . نقولا
ججا - زحلة . ميشال اسعد التبشراني - بسكنتا . فيليب
سمعان الراسي - إبل السقي . فايز جرجس الزرزور -
معلقة زحلة . جورج صيدح الدمشقي الذي لا يستنكف
من اكتساب الرعوية اللبنانية . ٢٦

بسهم واحد : نقولا حنا ليان - راشيا الوادي . سمعان
سمعان الراسي - إبل السقي . يوسف وديع جبارة - زحلة .
وديع سعادة - ريو . الياس قاصوف - زحلة . جان صدي -
زحلة . لويس صدي - زحلة . إميل شريباتي - بيروت .
انطون جبارة - قرنة شهبان . ريشار وإدوار صائغ -
بيروت . سعيد مسعود مراد - راشيا الفخار . ميخائيل
عتل - زحلة . توفيق غبريل - حاصبيا . لييب اسعد
قطيط - حاصبيا . ١٤

المجموع (ثلاثئة وثلاثة وخمسون سهماً) . ٣٥٣
اما صديقي الحميم الكريم ابراهيم الدوماني فقد رأى أن يضمن لي
البقاء ، أجزاءً وجملةً ، فقدم لي حك ضمان من شركة « إنديانا » التي
يعمل فيها ومنه علمت أن جسدي الفاني بجملته يساوي خمسة آلاف
ليوة لبنانية ، وهذا كثير .

ورأى صديقي اسعد سعادة من إبل السقي أن يحافظ على مالي
فقدم لي محفظة نقود لطيفة لا ازال أحتفظ بها لأنها حتى اليوم
لم تفرغ تماماً .

فهرس الفصول والمواضع

- ا ١٣٤ الأبنية الحديثة ٢٥ أثر حي ٩٥ اخرجوني
 اخرجوني ٢٤٢ الادب في لبنان ٤٦ آرائي ومبادئ ١٢٣
 الأزياء ١٣١ الاستهتار بالقواعد الصحية ٣٩ الاصدقاء القدماء
 ٨٤ الامانة وصدق الخدمة والوفاء ٢٢١ الانتاج ٣٠٨ الانتخابات
 النيابية ٢٥٩ الانكليز في السودان ١٠٢ اول ما كسبته من قلبي
 ب ٥٢ بذخي وتبذيري ٢٧٤ بركة المكتب ٩٢ بطواني
 المزعومة ٢٥١ بلبل يرثي أخاه ١٣٢ البهيمية ٣١ بيروت
 ت ٢٠٨ تاريخ في سطور ٢٧٢ التاريخ يعيد نفسه ٣٠١
 تحرر وتجدد ٢٤٠ التربية الوطنية ١٣٣ التساهل ١٣٢ التسوّل
 ١٣١ تغيب أدب السلوك ٨٣ التقوى والرضا والاحتمال ٢١٧
 تلبية النداء ٢٩٢ تهنئة بحجة
 ث ٧٤ الثورة على الطعام
 ج ٢٠٥ الجامعة الاميركية ٣٠٢ جعبة الصياد ١٦٩ الجمال
 في لبنان
 ح ١٩٦ حب لبنان ١٠٣ الحسنات والمرفقات ٢٤٧
 الحرب بالنظارات ٢٣٦ حقوق المرأة ١٢٠ حقيقة الهجرة ١٢٣
 حقيقة المغتربين ٢٢ حقيقة لا خيال ٣٠٦ حكاية فهرس الاعلام
 ١٨ حكاية هذا الكتاب ٢٠٨ الحكم الوطني ٧٨ الحلقة الادبية
 ٨٥ حمل الاثقال لقاء خيرة الحلة ٩ الحياة نبدأ في السبعين ٨٢
 حيوية الضمير والتكفير
 خ ٧٢ خطاب في دفتر ٢٧٣ خطوط الغلاف ورموزه ١٧٣
 خطوط الفصول والمواضع

د ١٣٦ دار الكتب ٥٦ و ٤٣ دراستي الابتدائية ٤٣
دراستي الثانوية ٣١ درة تاج آل عثمان ٢٧٥ دستور الايمان
٣٠٢ ديوان الملاط

ذ ٥٦ ذكريات دراستي الابتدائية ٦٨ ذكريات عامي
الدراسة في الكلية

ر ٣٠٠ رأي في القرية اللبنانية ٣٠٢ رباعيات وتأملات
١٤٢ رحلاقي وتنقلاقي ٧٥ رحلة الى الاسكندرية ٩٨ رحلة ثانية
الى القطر المصري ١٧٤ رُسُل لبنان ٣٠٢ رفيف الاقحوان
٨١ رواق الابطال

ز ١٣٨ الزملاء

س ٥٤ سذاجتي ١٣٤ السفور ١٨٣ سوريا ومصر ولبنان
ش ٢٧٢ شوارد وخواطر
ص ٢٣٩ الصحافة في لبنان ١٦٩ الصحة في لبنان ٨٨
صدمات قاسية لكبريائي ٠٩٩ صفقة راجحة ٢٧٢ صورة الغلاف
ض ٢٨٤ الضالون الذين وجدتهم
ط ٢٧٣ طبع الكتاب ١٥٧ الطريق الساحلية ٥١
طيشي ونزقي

ع ١٢٩ عتي على المعول ٣٦ عروس الجبل ٣٤ عروس
السهل ٢٩٥ عصبة الزجل ٣٠٢ على دروب الحياة ٥٦ على
مقعد الدرس ٧٣ عملية جراحية في العراء ٥٠ عنادي ١٠٨
العهد الجديد ٢٥ العهد القديم ٢١٣ عودة الحكم التركي ٢٨٥
عودة الى الجنوب ٦٥ عودتي الى الكلية ٢٢٤ عون المغتربين
غ ١٢٧ الغائب يعود ٣٠١ الغريب ١٠٢ غزوناها بدلا
من سرقناها

ف ٣٠١ فضل لا أنساه ١١٤ الفكرة تتحقق ٣٨ فن

من شجرة سلالية

ق ١١٩ قابلياتي ومؤهلاتي ٨ قدر ٥٣ قسوتي في المصارحة

٣٠١ قلبٌ يعني

ك ٢٣٤ كلنا مسؤولون ١٠٣ كلمة الحتام للعهد القديم

٦١ الكلية السورية الانجيلية ٢٣٤ الكيان اللبناني ٢٩٦ كيف

عرفت حميد فرنجية ٢٩٨ كيف عرفت مارون عبود ١١١ كيف

نبتت فكرة هذا الكتاب ٤٤ كيف نشأت

ل ٣٠٤ اللغة والمجامع اللغوية ٣٠٢ لمن ؟

م ٢٩٨ ما فاز بالذة الا الجسور ١٣٦ المتحف الوطني ٢٤٣

مجنونان يلتقيان ويتفقان ٢٩٩ محاضر فذ ٩٩ محاولاتي الأدبية

١٢٩ المخرجات المؤذيات ٤٢ مراحل حياتي ١٣٧ المسرح ١٩٦

مشاريع المغتربين في لبنان وسوريا ١٤٠ مصايف لبنان ١١٢

مقدمات فكرة إصدار هذا الكتاب ٢٠١ مكتبة نعمة يافت ١٧٠

مناسبات ومصادفات ١٣٠ « من ثارهم تعرفونهم » ١٣٦ مطار

خلدة ٣٠٣ مواضع النقد والتخطئة في هذا الكتاب ١٣٠ موسوعة

بلا فهرس ٣٠١ موعد مع التاريخ ٤٢ مولدي ٥ ميت

ن ١٣٦ نادي بيروت ٢٨٦ نادي المغتربين ١٣٨ الندوة

البنانية ١٣٦ الندوة النيابية ١٨٢ نسور الكنيسة

ه ٤٢ هجري الاولى ٤٣ هجري الثانية ٤٣ هجري الثالثة

٤٤ هجري الرابعة ٤٤ هجري الخامسة ١٢١ الهجرة نقمة لا نعمة

٢٩٣ هدية تولد شعراً

و ١٣٥ وزارة البريد والبرق ٢٨٦ وزارة الخارجية والمغتربين

١٣٠ وسائل الانتقال ٢٨٢ الوساطة والشفاعة ١٠٨ ولادتي الثانية

٢٥٤ وليمة احذية

لا ٣١١ - ٣١٢ لائحة بأسماء المساهمين

آراء بعض الأدباء والصحف في كتابي « ذكرى الهجرة »

الاستاذ المحامي صبحي محضاني - بيروت : « وقد تصفحت هذا السفرَ الجميلَ المفيدَ فوجدته ممتعاً حقاً بما يدلُّ على جهود مؤلفه العظيمة، فضلاً عما يثيره في القارئ العربيَّ من شعور الفخر والاعتزاز بأبناء قومه المغتربين وبتضامنهم الموفَّق بأعمالهم الطيبة في ديار المهجر » .

مجلة « الحديث » الحلبية : « وربما كان هذا السفر أوفى كتاب عن المهاجرين في مختلف احوالهم فلم يترك شاردة ولا واردة إلا دَوَّنها بأسلوب حيٍّ . وقد غمد مؤلفه الى الصراحة المتناهية فكتب نشأة الكثيرين وما خفي من احوالهم . وإن دلَّ هذا على شيء فعلى أن ضيق الكاتب بدولة الرأى جعله أن يطرح كلَّ عوامل المحابة والصدقة ليرسم حقيقة الاشخاص مجردة من كل برقع . ولا شك أنه أغضب الكثيرين ولكنه أَرْضَى ضميره بهذه الصراحة التي اعتمدها حتى في كتابته عن نفسه »

مجلة الساعة ١٢ المصرية : « والحقُّ إنه السفر العربيُّ الاول والكتاب الاوحد الذي يجمع شتات هذا الموضوع... فنرجو له سعة الانتشار حتى يُلمَّ الجميع بما فيه من المعلومات الدقيقة التي لا شكَّ في أنها ستفيد العالم العربيَّ أجمع وتلقي شعاعاً على ما يكتنف عالم الهجرة من غموض »

الاستاذ جبران نجعاري ، عن إدارة مكتبة الجامعة الاميركية في بيروت : « وإنني قد تصفحته بلذة وشوق قبل وضعه بين ايدي اساتذة وطلاب الجامعة فوجدته حاوياً ما لذَّ وطاب من الادب الرفيع العالي ومن أخبار إخوان أعزَّاء لنا في الهجرة . فأرجو أن تتقبلوا شكرنا لهذه الهدية التي ستفيد الكثيرين عندنا ، وعلى الاخص الذين يهتمون في دراسة الادب العربي »

الكاتبة الادبية السيدة نبيهة ناقوز في حلب : « وأعجبني فيه خصوصاً صراحتكم وتصويركم اصدقاءكم بحقائقهم العارية مما لم يألفه ادبنا العربي . وقد حببني بالكتاب أنني ممن يؤمن بهذه النظرية — نظرية الصراحة — والبعد عن جو الملوك والرياء الذي يسود مجتمعاتنا »

الاستاذ وديع فلسطين في جريدة المقطم المصرية : « وكتاب « ذكرى الهجرة » وان كان تاريخي النزعة واقعي الاتجاه ، غير ان فيه صفتين بارزتين يلحظهما القارئ على الفور : وأولاهما ان الكاتب يستوحي مبادئ الخلق القويم في كتابته فلا يغلب الرياء والمخادعة على الاخلاص والامانة . وثانيتهما ان الاتجاه الادبي غلاب على موضوعات الكتاب . وآية ذلك احتفال الاستاذ ضعون بسير الأدباء والشعراء ورجال الفكر من أصدقائه »

الآنسة جميلة العلايلي رئيسة مجمع الادب العربي في القاهرة : « ولأول مرة في تاريخي الأدبي أطالع كتاباً دون أن أقطع او أستريح ، ذلك أنه نقلني من دنياي الى دنياكم الساحرة العامرة بالنشاط والتوثب والكفاح والاخلاص وخير ما يتمناه الانسان من مثل عليا »

الاستاذ عزة حافظ ، في المفوضية السورية في عاصمة البرازيل : « فبدأت بالمقدمة وإذا بجمال الاسلوب وروعة العرض وطرافة المواضع تحملني جميعاً على متابعة قراءته والانكباب على مطالعة فصوله فصلاً فصلاً فقضيت مع مؤلفك وقتاً هو أمتع ما قضيت من اوقات وأفدت منه نفعا عميماً » .

الاستاذ نزيه الحكيم قنصل سوريا السابق في عاصمة البرازيل ، من مقال مستفيض نشرته له مجلة « عصا الجنة » الدمشقية : « وأعترف أن توفيق ضعون كان لدي ، منذ قدمت البرازيل في العام الماضي ، أحد الغاز جاليتنا في هذا المغترب ، بمدى تناقض الآراء التي أثارها عنه كتابه البرتوغالي عن الهجرة ، فجاءت صراحته المثالية في مجلده الجديد

الضخم تحلُّ هذا اللغز وتوضح أسبابه . ولعلَّكَ واجدٌ معي في هذه الصراحة السببَ الاول الذي من اجله اتوقَّع أن يكون هذا الكتاب بين مراجع كل تواريننا المقبلة »

الاستاذ نقولا الحداد العالم والكاتب الاجتماعيُّ الشهير في مصر :
« فما زلت اقرأها صفحةً بعد صفحة كلما سنحت الظروف حتى أتيت على آخرها فأعجبت بثلاثة أمور فيها : اولاً جزالةُ إنشائها وصفاء التفكير فيها . وثانياً حريةُ الضمير في رواياتها والصراحة في وصف الاشخاص والتقرير عن احوالهم والصدق في نشر اخبارهم . وثالثاً الجسّد المتناهي في جمع هذه الاخبار وسردها وضما وترتيبها . ولا اظنك تركتَ شاردةً او أغفلتَ واردةً » .

« فلا بدعَ ان يكون كتابك « سفر اخبار الايام الاول » الذي يكون المرجع الاصح لتاريخ الهجرة السورية واللبنانية الى اميركا الجنوبية . فعمى ان تتحف قراء العربية بسفر « اخبار الايام الثاني » وأعتقد ان الذين سيدوّنون تاريخ الهجرة السورية واللبنانية الى اميركا سيجعلون « ذكرى الهجرة » أمامهم على مكتبهم لكي يعودوا اليه لتحقيق التاريخ والتوسع فيه والاستناد اليه ، كما يرجع المؤرخون للتاريخ القديم الى التوراة التي لا تاريخ قديم قبلها » .

الاستاذ م . س . ع ، في مجلة « المنهل » التي تصدر في مكة المكرمة ، من مقال استغرق اربع صفحات : « هذا كتاب لا نبعد كثيراً اذا قلنا إنه اول كتاب من نوعه في ادبنا العربي الحديث ، فهو كتاب ادب اذا شئت . وهو كتاب تاريخ . . . وهو كتاب يصح ان تضيفه ايضاً الى كتب التراجم او الرحلات او الاعترافات »
« أما بعد فإنك تقرأ هذا الكتاب فكأنما تقرأ قصةً من نسج الخيال ، ولولا علمك بأن هذا الذي تقرأه « حقائق » ليس لها في

ميدان الخيال الفسيح ايُّ ناقةٍ او جمل او « موتوسكيل » . . .
فأكبر الظن انك لا تكاد تنتهي من قراءته حتى تجد نفسك تقول :
ما أروعها من قصة ! وما احذقه من مؤلف واسع الخيال ! » .

الاستاذ عيسى ابراهيم الناعوري ، في عمان شرقي الاردن الذي
اشتهر بدراسة الأدب المهبجي : « تلقيت نسخةً من كتابكم
« ذكرى الهجرة » مهداةً اليّ من الشاعر الكريم الاخ نعمة قازان .
ولقد طالعت الكتاب في حينه واستفدت منه وأشرت اليه في دراساتي
العديدة للادب المهبجي ، لانه في الواقع المرجع' الأوفى والأوحد
الذي يمكننا ان نعرف منه شيئاً من التفاصيل عن المهبجر الجنوبي » .
« ولقد أطلعتُ عليه صديقي قنصل العراق في عمان الذي يتم
مثلي بدراسة الادب المهبجيّ ويُعدُّ عنه أطروحةً لنيل رتبة « معلم
علوم » من إحدى جامعات لندن ، وهو يسألكم بواسطتي أن تتحفوه
بنسخة من هذا المؤلف القيم ليستعين بها في دراسته »

مجلة الكتاب المصرية الشهيرة - « هذه موسوعة عظيمة تنطق
بأحوال المهاجرين السوريين واللبنانيين في حياتهم الاقتصادية والاجتماعية
والفكرية ، وتسجل كثيراً من المعلومات والطرائف عنهم ، وعن
جهادهم في سبيل الغنى ، وعن مآثرهم في سبيل الوطن الثاني ، كإنشائهم
المعابد والمصانع والمسافي والملاجئ والجمعيات الخيرية والاندية الادبية .
فهي رسالة عامة وسجل شامل يقده المؤلف باسم المجموع المهاجر الى
المجموع المقيم ، ممثلاً الفريق الاول ، معبراً عن رأيه ، راسماً منه
صورةً لحقيقته قبل الهجرة وفي مختلف مراحلها وأدوارها وحوادثها
حتى اليوم . . . إنها اثر ناطق ينبئ الاجيال المتعاقبة بما كان من جهاد
الاسلاف الذين نزحوا الى مختلف البلدان تحلّصاً من قيود الفقر والجهل
والظلم التي كانت تنكبهم في مساقط رؤوسهم » .

« وهو الى ذلك موسوعة جمعت بين الادب والتاريخ والسير

والرحلات ، ففيها ادب رفيع يمثل ادب المهجر اصدق تمثيل ، وفيها تاريخ الهجرة وأسبابها وإشادة بالعناصر القوية من المهاجرين ، ولا سيما المهاجرون الاوائل الذين رادوا سبيلها وعبّدوا طريقها ، وفيها وصف للأهوال التي عانها أولئك المهاجرون الابطال ، ووصف لكفاحهم النبيل الذي توجّ بنجاحهم المنقطع النظير في ميادين شتى ، وفيها تراجم كثير من اعيان المهاجرين ، تجاراً كانوا ام اصحاب قلم او رجال صناعة ، مزينة برسومهم . ولقد كان المؤلف في تسجيله هذه التواريخ والاحداث صريحاً كل الصراحة ، فلم تحل عوامل الصداقة والود دون ان يرسم حقيقة المهاجرين مجردة عن كل زيف خالية من كل تزيين ، فأغضب بعضهم ، وإن ارضى ضميره بهذه الصراحة التي اصطنعها حتى في كتابته عن نفسه ، فله الشكر جزاء ما قدم لأهله ووطنه ، وكتب الله لأولئك الاخوان المغتربين كل توفيق ونجاح .

شهادة ومزية - وجاء سان باولو زائراً الصحافي المعروف الاستاذ جبران مسوح فأهديت اليه نسخة وراح يأتيني يومياً في مكنتي فيبدي لي رأيه في ما يكون قد طالعه ليلاً من الفصول ويدفع إليّ بعنوان احد اصدقائه في الارجنتين لأبعث اليه بنسخة هدية منه يأبى إلا أن يؤدي ثمنها . حتى اذا ما اتى على الكتاب جاءني سائلاً ما اذا كان لا يزال لديّ عدد وافٍ من النسخ . فلما علم أن الباقي يحصى بالمئات اكتفى بأن نعى على جالية البرازيل الغنية فقرّها الروحي . . .

وبإشارة من صديقي الدارس المحقق وصاحب اكبر مكتبة عربية خاصة في البرازيل الاستاذ يوسف الحوري بعثت بنسخة الى الدن ر . جيل بن أمية في سفارة إسبانيا في تشيلي فأنفذها هذا بدوره الى دائرة الاذاعة الاسبانية في مدريد فاطّلع عليها رئيس قسم الاستشراق وأذاع تقریظاً لها استغرق زهاء عشر دقائق .

فهرس الاعلام ، والترتيب الهجائي فيه متبع في الكتب

أسماء بلدان وأمكنة

ب

باريس ٨٤ ٢١١ البترون ١٥٧

بجمدون ٦٧ ١٤٩ ١٨١

البوتوغال ٣٠٤

البرازيل ١٦ - ٢٠ ٤٤ ٦٩ ٧٠

١٠٨ ١٠٩ ١١١ ١١٥ ١١٧

١١٨ ١٢٣ ١٢٨ ١٣٦ - ١٣٨

١٤٣ ١٤٤ ١٥٣ ١٦١ ١٦٦

١٦٧ ١٦٩ - ١٧١ ١٧٣ ١٧٨

١٧٩ ١٨٢ ٢٨٤ ١٨٧ ١٩١ -

١٩٥ ٢٠٢ - ٢٠٤ ٢٠٩ ٢١٠

٢١٣ ٢١٨ ٢٢١ ٢٣٧ ٢٤١

٢٧٣ ٢٨١ ٢٨٢ ٢٨٥ ٢٨٦

٢٩٠ ٢٩٤ ٢٩٥ ٢٩٨ ٢٩٩

٣٠٤ بر الأناضول ٣٧

برمانا ١٥٤ بروكسل ٤٤ ٨٤

بريطانيا (انظر انكلترا)

بسكتنا ١٥٥ ١٧٨ ١٧٩ ٢٨٢

بشرّي ٧٣ ١٦٤

بعلبك ٨٨ ٩ ١٤٥ ١٧٠ ١٧١

٢٥٣ البقاع ٣٧ ١٤٢ - ١٤٤ ١٥٠ ٢٠٧

بكفيا ١٥٦ ١٥٧ بلجكا ٤٤

بلميرا (انظر تدمر)

١

إبل السقي ١٩ ١٧١ ٨٦

الارجنتين ٤٤ ١٣٨ ١٨٢ ١٨٧

١٩٤ ٢٢١ ٢٣٧ ٢٨٦ ٢٩٤ ٢٩٠

الأرز ٦٥ ٣٠٢

إسبانيا ٣٠٤ الأستانة ١٠٢

الاسكندرية ٤٠ ٤٣ ٧٥ - ٧٧

٩٨ ١٤٣

أفريقيا ٢٩١

إكوادور ١٨٠

ألمانيا ١٢٤ ٢٠٨ ٢٠٩

أم درمان ١٠٢ ٢٧١

أمستردام ٤٤

أميركا ٩٥ ١٠٧ ١٣٠ ١٤٤ ١٤٥

١٥٥ ١٦٨ ١٧٩ - ١٨١ ١٨٧

١٩٧ ٢٠٢ ٢٠٦ ٢١٩ ٢٢١ ٢٢٣

٢٢٨ ٢٣٩ ٢٨٧ ٢٨٩ ٢٩١ ٣٠٤

الأندلس ١٢٤

إنكلترا ٩٥ ١٠٦ ١٢٤ ٢١٦ ٢٣٩

٢٦٢ ٢٧١ إهدن ١٥٩ ١٦٤

أوروبا ١٠٧ ٢٢٥ ٢٦٦ ٢٩١

أوروغواي ١٣٨

أوستاليا ٧٣ إيطاليا ٥٤ ١٧٠

الحجاز ٢٩ ١٢٣	بناما (الترعة) ٢٠٥ بنغازي ٢٩٢
حلب ١٩٩ ٢٨٥ ٢٨٢	بورت سودان ٤٣ ١٣٧ ١٦٩
حمانا ٦٧ ٨٤	٢٦٠ ٢٨٠
حمص ٨٢ ١٨٣ ١٨٦ ١٨٧ ١٨٩	بولونيا (غابة) ١٥٤ ١٥٥ ٢٨٠
١٩٩	بوينوسايرس ٤٤
خ	بيت الدين ١٥١ ١٧٠
الخرطوم ٤٣ ٤٤ ٤٩ ٥٤ ٩٩	بيت مري ١٥٣
١٠٠ ١٠٢ ١٠٥ ١٠٨ ١٠٩ ١٦١	بيروت ٣١ - ٤٥ ٤٢ ٣٨ ٣٣
١٨٣ ٢٥٩ ٢٦٠ ٢٦١ ٢٦٣	٠٧ ٤٩ ٥٠ ٦٠ ٦٢ - ٦٧
٢٦٧ - ٢٧١ ٢٨٤ ٢٩٢ ٢٩٣	٧٦ ٧٨ - ٨٤ ٨٥ ٩٠
٣٠٠	١٠٢ ١٢٧ ١٣٠ ١٣٦ ١٣٨ ١٣٩
د	١٤١ ١٤٤ ١٤٧ ١٥٠ ١٦٣ ١٦٨
دير ميباس (بدلاً من ميمس) ٢٨٢	١٦٩ ١٨٠ ١٨٦ ١٨٩ ١٩٠ ٢٠١
ر	٢٠٢ ٢٩٠ ٢٢٦ ٢٤٤ ٢٤٩ ٢٧١
رأشيا ١٦٥ - ١٧	٢٧٨ - ٢٨٢ ٢٨٤ ٢٨٥ ٢٨٧
روسيا ٢٣٩	٢٨٩ ٢٩٠ ٢٩١ ٢٩٠ ٢٩٩
رفاعة ٤٣ ١٦٤ ٢٦٩	٣١٠ بينو ١٠٢ ٢٨٤
روما ٦	ت
ريفون ١٠٣	تدمر (بلميرا) ٨٩ ٩
الريو (دي جانيرو) عاصمة البرازيل	تركيا ١٠٢ ١٢٥
١١٨ ٢٥٤ ٢٥٥ ٢٦١ ٢٩٩	تشيلي ٤٤
ز	ج
زحلة ٨ ٣٤ ٣٦ ٣٧ ٤٧ ٥٩ ٦٥	جيبيل ١٥٧ ١٨٠
٨٢ ١٤٢ ١٤٣ ١٤٥ ١٥٠ ١٦٨	جديدة مرجعيون ١٥٩ ١٦٥ ١٨٢
١٧٧ ١٨٦ ١٩٠ ١٩٦ ١٩٧ ٢٨٤	٢٨٥ ٣٠٠
٢٩٨ ٢٩٩	الجزيرة العربية ٢٦٩
زغرتا ١٥٩ ١٦١	جونيه ١٥٧ ١٦٠
س	ح
ساحة البرج ٣٢ ١٢٨ ١٢٩	حاصبيا ٢١ ٢٨٥

شيكافو ٧٦	ساحة النجمة ١٣٤
ص	سان باولو ١٩ ٤٤ ٥٩ ٦٩ ٧٢
صفد ٩٦	٧٤ ٨٤ ١٠٧ ١١٢ ١١٨ ١٣٠
صين ١٥٥	١٣٥ ١٤٦ ١٥٣ ١٥٥ ١٦١ ١٦٢
صوفر ١٥٠	١٧٠ ١٧٣ ١٧٩ ١٨٢ ١٨٣ ١٩٧
صيدا ١٥٧ ٢٠٠	٢٠٩ ٢١١ ٢٢٥ ٢٢٧ ٢٤٣
الصين ٦٨ ٦٩ ٢٨١	سجمر ويحمر ٢٣٣
ض	سنتياغو ٤٤ سنطس ١٣٨ ٢١١
ضور الشوير ١٥٤ ١٥٥ ١٨١	سواكن ٧٢
ط	السودان ٢٠ ٤٣ ٤٤ ٤٩ ٥٤ ٩٩
طرابلس ٤٠ ١٠٧ ١٥٧ ١٥٩	١٠٠ ١٠٢ ١٠٥ ١٠٨ ١٠٩ ١٦١
١٦٠ ١٨٢ ١٨٦ ٢٥٩ ٢٧٩	١٨٣ ٢٥٩ ٢٦٠ ٢٦١ ٢٦٣
طليا ١٤٥	٢٦٧ - ٢٧١ ٢٨٤ ٢٩٢ ٢٩٣
ع	٣٠٠
عاليه ٦٧ ٧٨ ١٤٧ ١٤٨ ١٧٠ ١٧١	سوريا ٢٠ ٢٧ ١٠٧ ١١٤ ١١٨
عبدان ٢٠١	١١٩ ١٢١ ١٢١ - ١٢١ ١٢٦ ١٤١
العراق ٣٧ ١٩٠ ٢٣٢ ٢٨٦	١٨٣ - ١٨٦ ١٩٣ ٢٥٥ ٢٦٨
عكار ١٠٢	٢٦٩ ٢٧١ ٢٧٢ ٢٧٦ - ٢٨٢
ف	٢٨٥ ٢٨٧ ٢٨٩ ٢٩٣ ٢٩٤ ٢٩٨
الفريكة ١٧٧ ٢٤٤	٢٩٩ ٣١٠
فرن الشباك ١٣٦	سوق الغرب ٧٨ ١٤٧ ١٤٨ ١٩٢
فرنسا ١٢٤ ٢٠٨ ٢٠٩ - ٢١٣	٢٨٧
٢٢٦ ٢٨٥	
فلسطين ١٢١ ١٢٥ ١٩٥ ٢٠٧ ٢١٠	ش
فوش (شارع) ١٣٥	الشام ٢٦ ٢٧
ق	شعبا ١٦٨
قاديشا ١٥٩ ١٦٤	شتورا ١٧٠
القاهرة ٤٣ ٤٩ ٧١ ١٨٥ ٢٨٤	شرق الاردن ١٢٥ ١٨٧ ١٨٩
٢٩٣	٢٣٢
	الشويات ١٤٦ ٢٨٢

مرمريتا الحصن ٢٨١	القيبات ١٥٩ ١٦١ ١٦٧
المريجات ١٥٠ مشجرة ١٤٤	قبرص ٣٨ ٣٩ ٩٨ ٢١٠
مصر او القطر المصري ٦ ٢٠ ٣٦	القدس ١٥٨ ١٥٩
٤٠ ٤٣ ٦٦ ٧٥ ٧٦ ٩٨ ١٠٧	ك
١٤١ ١٨٣ ١٨٥ ١٨٦ ٢٠٢ ٢٠٣	الكرك ١٤٤ كفر ١٨٠
٢٣٢ ٣٣٨ ٢٥٩ ٢٦١ ٢٦٦ ٢٦٧	كفر فوق ١٩٧
٢٦٨ ٢٧٠ ٣٠٢	كفو مشكي ١٦٨
مضيق مغاليانس ٤٤	الكفير ٦٩ ١٥٩ ١٦٨ ٢٨٥
معلقة الدامور ٢٥٧ ٢٨٠	كندا ١٥٥ كورك ٧٤
معلقة زحلة ١٦ ٣٢ ٣٤ ٣٦ ٣٧	الكويت ٢٣٢ ٢٣٣
٤٥ ٤٧ ٥٠ ٥٩ ٦٤ ٦٩ ٧٠ ٨٢	اللاذقية ٢٨٤
٨٩ — ٩١ ٩٣ ١٠٤ ١٤٢ ١٤٤	لبنان : ٥٣ ٤٤ ٤٣ ٢٠ ١٦ ٦٥
١٤٦ ١٥٠ ١٩٧ ٢٨٧	٧٤ ٧٨ ٨٠ ٨٥ ١٠٠ ١٠٧ ١١٤
المكسيك ٨٢ ١٣٩	— ١٢٢ ١٢٤ — ١٢٨ ١٣٢ ١٣٣
المنشية ٣٢ المنيا ٧٧	١٣٥ ١٣٦ ١٣٨ ١٤٠ — ١٤٣
ميمس ١٥٩ ن	١٥١ ١٦٠ ١٦١ ١٦٧ ١٦٩ ١٧٠
النبطية ١٥٧ النيل ٢٥٢	١٧٢ — ١٨١ ١٨٣ ١٨٥ ١٩٦
نيويورك ١٥٥ ١٧٩ ٢٠٢ ٢٤٩	١٩٩ ٢٠٠ ٢٠٧ ٢٠٨ ٢١٠ —
٢٨١ ٢٨٧	٢٢٢ ٢٢٦ — ٢٣٣ ٢٣٦ — ٢٤٠
ه	٢٤٢ ٢٥١ ٢٥٣ ٢٧١ ٢٧٤ ٢٧٦
هولندا ٤٤	٢٨١ — ٢٨٣ ٢٨٦ ٢٨٧ ٢٨٩
و	٢٩١ ٢٩٦ ٢٩٩ ٣٠٠ ٣٠١
واد مدني ٢٦٩	لندن ٢٦٢ ٣١٠ ٣٠٣
وادي التيم ٣٨ واو ٤٣ ٢٠٧	م
الولايات المتحدة الأميركية ٣١٠	مار سر كيس ١٦٢ المحيثة ١٥٧
ي	مديرية بحر الغزال ٤٣ ١٠٥ ٢٧٠
يافا ٧٦ اليمن ٣٩ اليونان ٣٨	مديرية كردوفان ٢٩٣
	النيل الأزرق ٤٣ ٢٦٩ ٢٦٤

اسماء الأشخاص والمؤسسات

١

ايليا ابو ماضي ١٧٩
جان ابو منصور ٢٩٨
شفيق ابو نعيم ٢٩٨
زهير بن ابي سلمى ٢٦
رئيف ابي اللمع ٢٥١
أتلي (قنصل انيكترا) ٢٧١
ميشال وشكر الله والياس اسعد
١٩٦
حبيب اسطفان ١٧٩ ٢٩٩
سليم الاسطمبولي ٥٠ ٥١
ميشال الاسمر ١٣٨
عبود الأشقر ٢٨٧
جورج عبود الأشقر ٢٨٧
فؤاد جورج الأشقر ٢٨٧
إفرونج ١٧ ٢٥٨
الياس وجان ونقولا وابراهيم
الوف ٢٩٨
اميركي ، الاميركان ، الاميركيون
١٣٧ ٩٧ ٩٦ ٩١ ٧٣ ٧١ ٦٨ ٦٢
٢٣١ ٢٠٧
حسن الأمين ٢٩٤
نعيم الأميوني ٢٨٦
البرتو أندراوس ١٩٦
حبيب أندراوس ١٣٠
خليل أندراوس ١٩٦
البرتو أندراوس ١٩٦
عبد الوهاب الانكليزي (شارع)
٣٠٨

إملي فارس إبراهيم ٣٠٧
عمر ابن الخطاب ١٢٤
البيرو اديب ٢٩٨ ٣٠٢
المدرسة الأرثوذكسية ٤٣
ابن الرومي ٢٧٥
ابن سينا ٢٣
المدرسة الانجيلية ٤٣
عنتر ابن شداد ٢٧ ٢٦٤
محيي الدين ابن عربي ٢٧٨
دياب ابن غانم ٢٧
خالد ابن الوليد ١٨٨
جورج موسى ابو عسلي ١٦٧
خطار ابو إبراهيم ٢٩٥
سعيد ابو جمره ٥٩ ٦٩
سعيد ابو جوده ١٣٤
فضل الله ابو حلقة ٩٩ ١٠١ ١٠٢
المطران ثيودوسيوس ابو رجيلي
١٨٢
ابو زيد الهلالي ٢٧
الفرد ابو سمرة ٢٨٥
جورج يوسف ومنيرة غطاس ابو
سمرة ١٧١ ١٩٩
كامل يوسف ابو سمرة ١٧١ ١٨٢
شفيق ابو عسلي ١٦٦
ابو العلاء ٢٨

عيسى انطون بندقي ١٨٢ ١٨٧

الدكتور بنروز ٢٠٧

يشوع ابن سيراخ ١١

الأخف بن قيس ١٢٥

بني إسرائيل ٣٦ ٦٢ ١٥١

أمراء بني حرفوش ٩٠

بورتر (الاستاذ) ٧٣

جورج بوست ٧٣

ثريا مسرة بيضا ٢٨٩

ت

لور ثابت ٢٣٦

مخايل اسعد تامر ١٤٣

تركي اتراك ١٠٤ ٣ ١٣٥ ٢٠١

— ٢١٠ ٢١٣ ٢١٥ ٢٧١

سعيد تقي الدين ٧٢٦

امين تقي الدين ٧١ ٧٢ ٢٨٨

خليل وشكيب تقي الدين ٧٢

بسيم امين تقي الدين ٢٨٨

أندراوس ونخلة وجرجي تويتي ٨٣

جبران وغسان وكميل تويني ١٣٨

ج

الجامعة الأميركية او الكلية

السورية الانجيلية سابقاً ٣٢ ٤٣

٦٠ — ٦٢ ٦٤ — ٦٦ ٦٨ ٧١ ٧٣

٧٤ ٧٦ ٨٨ ٩١ ١٢٧ ١٣٨ ٢٠١

٢٠٥ — ٢٠٧ ٢٨٢ ٢٨٤ ٢٨٧

٢٩٠ — ٢٩٢

سامي جبارة ١٦٥

إنكليز ، إنكليزية ٥٥ ٩٦ ١٠٥

١٠٩ ١٥٤ ٢١٠ ٢١٥ ٢٢٧ ٢٣١

٢٥٩ — ٢٦٧ ٣٠٤

كلية إيتون ١٠٦

ايوب ١١٦ رشيد ايوب ١٧٩

ب

بهيج مراد البارودي ٢١ ١٤٨

جميل مراد البارودي ١٤٨

مراد بهيج البارودي ٣٠٦ ٣٠٧

يني بابا دوبولس ٣٨

جرجي نقولا باز ١٣٩ ٢٠٧

باترو باولي ٣٩

بايكون ٢٢٨

شكري بخاش ١٢٨ ٢٩٨

جبران بجزازي ٢٠٤

فوزي ندره البردويل ١٦١

ليزا جحا البركس ٢٨٤

رشيد شاكر البركس ٢٨٤

بركليس ٨٩ ٩٠

ألفرد بريدي ١٣٧

فؤاد بريدي ٢٨٦

عبدالله البستاني ٧

نقولا بسترس ١٧١

إدوار بشور ١٥٢ ١٦٨

ابن زريق البغدادي ٢٧٥

دانيال بليس ٧١

هورد بليس ٧١ ٧٢ ٧٤

انطون عيسى بندقي ١٨٧

عبد المسيح حداد ١٧٩	وديع جبارة ٣٠٠
ندرة حداد ١٧٩	جبران خليل جبران ١٦٣ ١٧٧
جمال كرم حرفوش ٢٣٨	سعيد اسعد جحا ٢١
حرمون (جبل الشيخ) ١٦٥	جوزيف سعيد جحا ١٧٧
طه حسين ٦	المطران الكسندروس جحا ١٨٢
الملك حسين ٣٩ ١٢٤	عقل وشكر الله الجرّ ١٧٩
ابراهيم الخلو ١٠٧ ١٨٢	منصور جرداق ١٨١ ٢٠٣
نقولا يوسف حلي ٣٠١	ليب جريديني ٦٧
كامل فضول الحمصي ١٩٤	باسم الجسر ٢٩٣
الياس الحنيكاتي ١٠١ ٣٠١	انطون جميل ٧١
احمد مهدي حيدر ٢٩٨	نسيب جنبلاط ٧١
خ	جوزف جهجاه ٣٠٧
يوسف الخازن ٢١١	سلام جهجاه ٣٠٧
هكتور خلاط ٢٨٥	عزيز جهشان ٥٣
يوسف خليل ١٩٨	جوليات الجبار ١١
ادال قسطنطين الخوري ١٩٠	ح
الياس جرجس الخوري ٨٠	جميل الحاج ٣٠١
اسما فارس الخوري ١٩٥	محمود حافظ ١٣٩
بشارة عبدالله الخوري ١٠٢ ١٢٩	جميل حاوي ٢٨٥
المطران بولس الخوري ١٨٢	فؤاد حبش ٧ ٢٧٢
توفيق الخوري ١٧٠	نجيب حبيقة ٧٨
توما وغطاس وحبيب الخوري ١٩٧	امين حتي ٢٨٦
خليل الخوري ٢٨٠	ابراهيم الحداد ١٤٤
رشيد سليم الخوري ١٧٩ ٢٩٠	اديب الحداد ١٣٧
سلوى الخوري ٢٣٧	اسكندر الحداد ٥٦
سليم الخوري ٦٩	امين الحداد ٢٦٢
صموئيل الخوري ٢٧٠	رشيد الحداد (طبيب) ١٧٩
فارس الخوري ٦٠ ٢٨٥	رزق الله وشكر الله الحداد ١٥٣

نخلة رايه ٢٩٩
 انيس يواكيم الراسي ١٩٧
 ملحم وكرم سيمان الراسي ١٩٧
 سلام ومنح يواكيم الراسي ٢٨٦
 جميل فهد راشد ٣٠٠
 الياس رباني ١٩٨
 حليم رحباني ٢٨٧
 خرستين خوري رزق ٢٩١
 سليم رزق ٢٥٠
 محمد وجيه رستم ٢٦٨
 ابو الهدى الرفاعي ٢١٩
 إميل ومثيل روحانا ١٤٤
 ألن ريجان ٢٣٦
 أنيسة روضة ٢٩٢
 البير ريجاني ١٣٩ ١٧٧ ٢٤٢ ٢٤٤
 ٢٨٦ ٢٨٤ ٢٧٤ ٢٧٣ ٢٧١ ٢٤٦
 ٢٩٢ ٢٩٣ ٢٩٦ ٢٩٩ ٣٠٦
 امين ريجاني ٣٩ ١٢١ ١٧٧ ١٧٨
 ٢١٣ ٢٥٠ ٢٩٣
 لورين شقير ريجاني ١٧٧ ٢٤٦
 ٢٩٢ ٢٠٣
 برثا كايس ريجاني ٢٩٣
 توفيق الرئيس ١٧٣
 ناصيف الرئيس ١٧٢
 ز

الزبير باشا ٥٢
 جميل صدي الزهاوي ٢٨٩
 اولاد جرجس الزرور ١٩٧

فيليب الخوري ٢٩١
 قيصر سليم الخوري ١٧٩
 ميشال جبور الخوري ٢٥٦
 نسيم الخوري ٢٥٨
 ايوب وداود وفايز و خليل
 يعقوب الخوري ٢٨٥
 الكلية السورية الانجيلية (انظر
 الجامعة الاميركية)
 د

رشاد دارغوث ٣٠٢
 الملك داود ١٠
 راضي دخيل ٢٨٥
 رفيق دبس ١٤٤
 سليم دبغي ٢٨٥
 فارس دبغي ١٩٥ ٢٧١ ٢٨٥
 فايز ومنى دبغي ٢٨٥
 حليم دموس ١٠٢ ٣٠٢
 خليل وحبيب دوبا ١٤٤
 دون كيخوتي ٩٢
 وديع ديب ٢٠١
 وديع نجيب ديب ١٤٦
 إبراهيم ديمتري ٢٦٢
 ذ
 عبد الرزاق الذهبي ١٩٢
 ر

رئيس الجمهورية السابق ٢١٤ ٢١٧
 — ٢١٩ ٢٢٣ ٢٣٤
 رئيس الجمهورية الحالي ١٣١ ٢٩٦

نصر سماعيل ١٧٩
 السؤال ١٩٤
 سوداني ١٠٥ ٢٦١ - ١٦٩ ٢٧١
 سوري ، سوربون ١١٢ ١٠٥
 ١٧٩ ١٩٩ ٢٠٩ ٢١٠ ٢١٣ ٢٧١
 إبراهيم ناصر سويدان ٢٩٥
 رشيد رزق سيدة ٤٣
 ش
 ناصر شاتيل ٢٥٤
 جودت شيوخ ٢٩٥
 إبراهيم ومنيره ضومط شحادة ١٤٨
 عائدة إبراهيم شحادة ٢٩٨
 سليم شحادة ١٠١
 سرحان وروز عطا الله ووليم
 وإميل والبير وسعاد شحفة ٢٩٢
 السكينة الشرقية ١٤٤
 محمد شريف ٢٦٤ ٢٦٥
 لطيفة الصغير وسليم ووديع وفؤاد
 ونصرة شكير ٢٩٢
 انطون شكور ٢٥٨
 داود شكور ١٧٩
 كميل يوسف شمعون ١٣٨
 الأمير خالد شهاب ١٧٣
 الأمير عبد العزيز وهنيكتا
 شهاب ١٧٢
 الأمراء الشهابيون ١٦٧
 عبد الرحمن شهنادر ٧٢
 اديب الشيشكلي ١٨٥

قسطنطين زريق ٢٠٦
 سميح ويوسف زعتو ١٦٢
 سعد زغلول ٢٦٧
 انيس زيدان ٢٨٣
 خليل زيدان ٢٩١
 الزير ابو ليلى المهلهل ٢٧
 س
 العم سام (أنظر اميركا)
 الياس ساروفيم ٥٠
 مصطفى السباعي ٢٩٩
 رامن سر كيس ١٣٩
 سرفانتس ٩٢
 اديب سعادة ٢٥٧
 سعيد سعادة ٥٣
 انطون سليم سعد ٢٥٦
 ابراهيم وسليمان سعد ٢٥٧
 الأمير سعود ٢٣٣
 المملكة السعودية ٢٣٢ ٢٣٣
 امينة السعيد ٢٣٨
 الفرد سكاف ٢٩٣
 نينا معلوف سكاف ٢٩٣
 جان خليل سكاف ١٧٠ ١٩٨
 سليمان ويوسف سكاف ١٤٣
 محرز وأولغا سلامة ٢٩٠
 السلطنة العثمانية ٣٣
 موسى رزق سلوم ١٨٧
 سامي سليم ٢٩٩
 سليمان الحكيم ٥٦ ٥٧

ص

صباح (شجرة الوادي) ٣٠٨

سلمى صائغ ٢٣٧

يوسف صادر ٢٧٤

جعفر الصادق ٢٤٥

وديع الصافي ٢٩٥

إيفا وفكتور صباغة ٢٩١

فؤاد صرّوف ٣٠١ ٢٠٦

وليم صعب ٢٩٥ ١٣٧

توفيق صفدي ٢٨١

المطران ايليا صليبي ١٠٢

جاكلين صيدح ٢٩٨ ٢٩٦

جورج صيدح ٢٩٤ ١٨٠ ١٣٧

٢٩٨ - ٢٩٦

ض

حنينة ظاهر ٢٩٥

ميشال رشيد الزاهر ١٦١

اديب والياس مخائيل ضعون ٢١

اسكندر ضعون ٧٥ ٦٣ ٣٨

أندراوس ضعون ٧٧ ٣٨

توفيق ضعون ٢٩٩ ٢٥٦ ٢٤٣ ٤٢

فضل الله ضعون ٣٨

مهنّا ضعون ٣٨

ماريغو يني ضعون ٢٩

نجيب عساف ضعون ٣١٠

ط

نجيب طرابلسي ١٤٩

يوسف داود طرابلسي ١٤٤

باترو طراد ٧٨

ناصر طراد ٩٦

نجيب نسيم طراد ٧٨ ٦٣ ٥ -

١٠١ ١٠٠ ٨٠

نسيم طراد ٦٣

وديع وماريانا طربية ٢٧٩

الفيكونت فيليب دي طرازي

٢٩٥

حنينة الطرشا ٢٨٦ ٢٣٨

ع

احمد عزة العابد ٢١٩

اسكندر العازار ١٠٢

عبد الحميد الثاني ٢١٤ ١٠٤ ٣٣

ميشال العيد ١٣٥

عزيز العبدّة ٢٨٦

وديع وشفيق العبدّة ١٨٧

ليندا عبد الله عطا الله ٢٨٧

نسيب عبد الملك ١٠٧

ماري عبد النور ١٠٨

اسكندر عبود ٢٩

إيصاينا عبود ٢٧٧

مارون عبود ٢٩٨

عرب ، عربي ١٢٤ ١٢٣ ٣٩ ١٧

٢٩٣ ٢٦٩ ٢٥٨ ٢٠٧

الجامعة العربية ٣٠٤ ٢٦٨

نسيب عريضة ١٧٩

عبد الرحمن عزّام ٢٦٨ - ٢٧٠

مخائيل عبد الله عزّام ٢٨٥

- نعمة عبد الله عزّام ٢٧٧
 إميل عضيبي ٢٨٦
 ماري يني عطا الله ١٦٦ ٢٩٢
 الياس شاهين عطية ١٤٨
 اسحق عطية ٢٤٨
 رشيد عطية ١٩١
 سليم عطية ١٠٢
 فريد عطية ٢٧١
 يوسف جورج عطية ٢٨٧
 سعيد عقل ٢٨٩
 محمد علي ٧٥
 فهد العنداري ٢٧٣
 نوفيق يوسف عواد ١٣٩
 غ
 غاندي ٧٤ ٢٥٧
 يوسف اسعد غانم ١٧٩
 حسني غراب ١٧٩
 وليم غرزوزي ٧٨
 حنينة غريب ٢٨٠
 هند الحوري ابوجودة غريب ٢٨٠
 أمراء غسان ٨٨ ٩٠
 حنا غصن ٢٩٦ ٢٩٨
 يوسف غصوب ٣٠٥
 عبده وأمين الغصين ٨٢
 فارس والكسندرايني وديانا وميشال
 والكسي غنطوس ١٦٦ ٣٠٨
 ف
 محمد فتح الله ٢٨٦
 الياس فرحات ١٧٩
 فدوى الفران ٢٩١
 حميد فرنجية ٢٩٦
 فرنسي، فرنسيون ١٣٠ ١١٨ ٢١٤
 حسن فروخ ٢٩٣
 حبيب حنا فريجه ٤٩ ١٠٤
 سيمون حبيب فريجه ١٤٤
 ملحم إبراهيم فريجي ١٤٦
 سعيد فريجة ٣٢ ١٠٦
 اسكندر فربوه ٢٨٤
 وديع فلسطين ٦
 اديب يوسف وسلوى فواز ٢٨٢
 جبران فوته ١٠١
 نقولا فياض ٦١ ٧٨ ١٣٩ ٢٥١
 ٣٠٢
 محمد روهي فيصل ١٨٨
 فيكتور نسيب فيليبيدس ١٦١
 نسيب فيليبيدس ٥٣ ٥٤ ١٠٥
 ٦٠١ ٢٧١
 نيلي ابكاربوس وجورج نسيب
 فيليبيدس ١٤٧
 فينيقي ٢٧٩
 ق
 خليل قادري ٢٩٩
 سلوى قازان ١٤٦
 ملحم قازان ١٦
 نعمة قازان ١٧ ١٤٦ ٢٥٤-٢٥٨
 قايين ١١٢

- ١٨٢ المطران إيليا كرم
 ٢٤٢ كرم ملحم كرم
 ٢٧١ كـري
 جورج كـفوري (سان باولو)
 ١٧٩
 جورج كـفوري (بيروت) ٢٨٠ -
 ٢٩٠ ٢٨١
 نجلاء صفدي كـفوري ٢٩٠ ٢٨١
 سامي الكيالي ٨٥
 كيمبردج ٢٦١
 ل
 حافظ لبّان ٣٠٩ ٢١٠
 وجية بحر لبّان ٣١٠
 لبناني لبنانيون ٢٠ ١٠٥ ١١٢
 ١١٦ - ١١٨ ١٢٠ ١٢٢ ١٦٧
 ١٧٠ - ١٧٢ ١٩٩ ٢٠٧ - ٢١٠
 ٢١٦ ٢١٧ ٢٣١ ٢٠ ٢٧١
 فيليب لطف الله ١٣٩ ٢٦٨
 فؤاد وسليم لطف الله ١٣٩ ١٥٥
 يوسف لكـح ٢١١
 جورج لـيان ١٧٩
 م
 مار مارون ١٠٣
 اسعد ماروني ٢٨٤
 ميشال اسعد ماروني ٢٨٤
 اسكندر ماضي ٢٩٥
 مار متري ١٠٣
 ماكـ سويني ٧٤
 ٣٠٣ ٢٣٨ ٢٢٦ ٨٥
 زاهية قدّورة ٢٣٨ ٨٥
 اديب ونادر قدّورة ٨٥
 جورج الياس قدّوم ١٨٠ ١٦٨
 توفيق داود قربان ١٧٩ ١٥٦ ١٦
 ١٩١
 سليم ونصري داود قربان ١٥٦
 ٢٨٧
 شارل قـرم ١٤٨
 الشاعر القروي ٢٩
 عقل القطامي ١٩٤
 اديب اسعد وكاملة ابو سمرة
 وأسعد ونبيهة وليلى وفيصل
 قطيط ٢٨٥
 ليلى اسعد قطيط ١٧٣ ٢٨٥
 رزق الله قطيط ٢٩٥
 الياس وجبران قلفاط ٢٨٨
 عزيز قندلفت ٦٥
 كـ
 وليم كاتسـفليس ١٧٩
 مصطفى كامل ٢٦٧
 سيمون كباش ٢٠٠
 مبدّي كـيس ٧٠
 فيليب كـجيل ١٩٠
 اسكندر كـرباج ١٧٩
 جورج الحوري كـرم ١٧٩
 جورج بشارة وسوسن طريـبة
 كـرم ٢٧٨

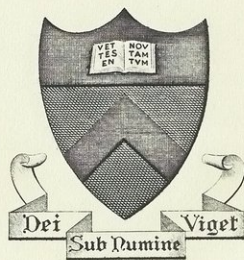
رفیق ۲۸۸	یوسف مبارک ۱۰۳
ریاض عیسی ۲۷۲	المتنبی ۱۵ ۲۰ ۱۱۶ ۱۸۵
سلیم طوفی ۱۲۲	متوشال ۱۱
شاهین نعمان ۱۴۹	جوزف رشید متینی ۲۹۵
شفیق عیسی ۲۷۲	داود مجاعص ۱۰۲ ۵
عفیفة نعمان ۱۷۷ ۱۴۴	مجنون سلمی ۲۵۰
عیسی اسکندر ۱۸۱ ۱۴۹	مجنون لیلی ۲۵۰
فوزی عیسی ۱۷۷ ۱۴۹	الیاس وسالوی محفوظ ۲۸۵
نجیب قطینی ۱۹۷ ۱۴۶	نسب وسالوی محفوظ ۲۳۷
قیصر نعمان ۱۷۷ ۱۴۴	صبحی وحفیظ محمصانی ۲۸۹
میشال نعمان ۱۷۷ ۱۴۴	جمیل مردم ۲۱۱
یوسف ۱۴۴	اسکندر سرقص ۲۸۴
معن بن زائد ۱۷۱	کامل مروّۃ ۲۹۴
کلیۃ المقاصد ۲۰۷ ۱۳۸	توفیق وجورج والیاس وملكة
نسب و عبدالله مکارم ۳۰۵ ۲۷۳	مسرّة ۱۸۲
جبران وحاتم مکاری ۱۹۷	جبران مسعود ۲۸۴
شبلی ملاط ۳۰۲ ۱۳۹	حبیب مسعود ۲۳۹
إبرهیم وصلاح وبدیع المنذر ۲۸۶	مصدق ۲۰۳
منصور (قاعة) ۲۹۴	مصري ، مصریون ۱۰۵ ۲۶۵ -
المهدي ۲۶۴	۲۶۸ ۲۷۰ ۲۷۱
عبد الرحمن المهدي ۲۷	فؤاد مطر ۲۹۵
موسی ۱۵۸	خلیل مطران ۲۵۱
مونکریف ۲۶۴ ۲۶۵	میشال وفوزی وجورج واونجی
ن	نقولا مطران ۲۸۰
اسماعیل نابلسی ۱۵۱	معلوف :
إفلین طریبه نادر ۲۷۸	ادبیه عون ۱۴۴
عزیز نادر ۱۹۷ ۲۱۸ ۲۷۸ - ۲۸۰	جورج نعمان ۱۳۵ ۱۹۷
مریم ناصیف ۸۴ ۸۵	جوزفین قیصر ۱۵۰

اليازجي :	حبيب النجار ٤٠
اسكندر والياس مخائيل ٢٨١	فؤاد ويوسف النجار ٢٩٢
سليم عبدالله ١٦٣	احمد الصافي النجفي ٢٤٤ - ٢٤٦
كمال ٢٨٢	٢٥٤ ٢٥٠
ناصيف ٢٦٧	محمد نجيب ١٨٥ ١٨٦
يوسف نقولا ٢٨١	اديب نحاس ٢٨٦
يافت :	فارس نصار ٢٨٤
إميل بنيامين ١٣٩	شفيق ونسيم وطنوس نصر ٢٨٢
باسيل وبنيامين وحنا ١٢٢	عبود نصر الله ٢٩١
رفائيل مخائيل ١٣٩	وليم نعمة ٢٤٢ ٣٠٢
نعمة ، وعفيفة ناصيف ، وشديد	مخائيل نعيمة ١٥٥ ١٧٨ ٢٨٢
ونجيب وريكاردو وفردريكو	نجيب نكد ٢٩٩
وكارلوس وغلادستون وروبرتو	نوح ٢٤٩
نعمة شديد يافت ١٢٢ ٢٠٤	هـ
كلية اليسوعيين ٧٨ ١٨٠	احمد البشير الطيب هاشم ٢٧١
يني	٢٧٦ ٢٩٣ ٣٠٠ هنتر ٢٦٤
عبده و تقولا وإفجنيا وقسطنطين	الاستاذ هول ٦٦ ٦٨
عبده ٣٩	هوميروس ٣٩
باترو عبده ٢١ ٢٩١ ٣٠٩	و
بولس عبده ٢٩٣	اسما شقير وهي ١٤٦
سامي غنطوس ١٦٦	توفيق وهي ٣٠٦ ٣٠٧
نينا عربيد ٢٩٣	وبستو (استاذ طب) ٧١
صوفيا عطا الله ٢٩٢	ي
عبد اللطيف ومحمود اليونس ٢٩٤	اليابانيون ٢٨١

اذا عنَّ لك أن تبدي رأياً في هذا الكتاب فتكرِّم به
مخطوطاً او منشوراً الى العنوان التالي :

T. DUOUN
CAIXA . 467
BRASIL São PAULO

Library of



Princeton University.

